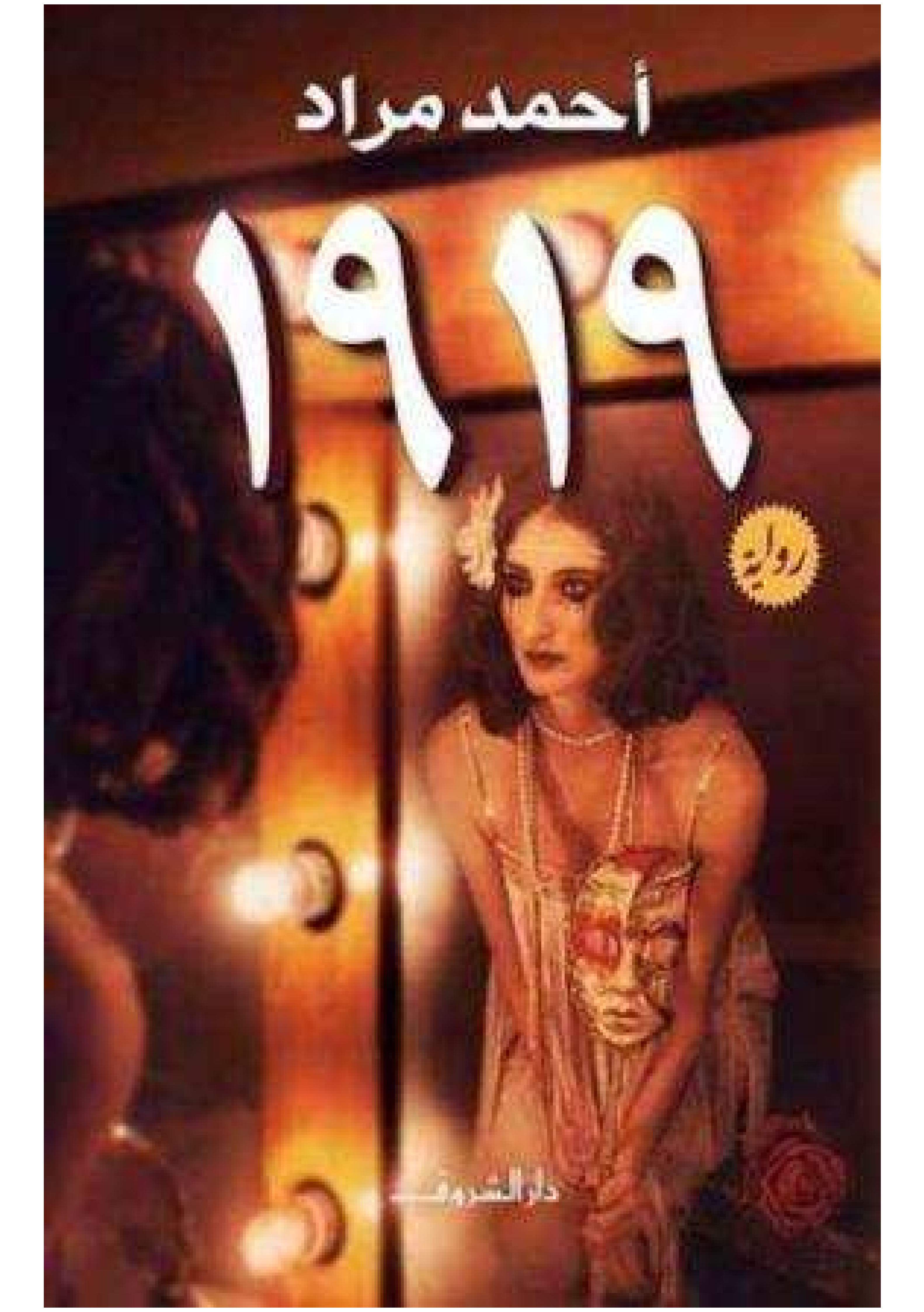

أحمد مراد
١٩١٩
رواية
دار الشروق

١٩١٩

أحمد مراد

١٩١٩

دار الشروق

١٩١٩

فـي الحَـادي عَشر مـن يُوليـة مـن عَـام ١٨٨٢م قَصَف الأسـطول الإنجليزي مَدينة الإسكندريَّة تحت مَزاعِم سَحق تمرُّد الجَيش المِصري بقيادة ناظر الجهادية «أحمد عُرابي»، بسبب سُوء الحَال الذي وَصَل إليه الجيش من ضَعف وقِلَّة[1] واضطِهـاد للمِصريين وتأخُّر ترقياتِهم عَمدًا مُقارنـة بالضبَّاط الشَراكِسـة والأتـراك المتوغلين فـي المنَاصب الأكثر تأثيرًا، وبسـبب تهاون الخديـوي «توفيق» في التدخُّل الأجنبي السَّـافر بشئون البلاد من قِبَل إنجلترا وفرنسا.

صَمدَت المُقاومة المِصرية شَهرًا في وجه الاحتلال قبل أن تسـقُط القَاهِرة في مُنتصف سِـبتمبر، اجتاح جيش الإنجليز البِلاد تثبيتًا لكُرسي الخديوي «المُسـتغيث» وتأمينًا لرَعاياها المُعرَّضيـن للخَطر «على حدِّ زعمهم»، وحِماية للشـريان المِحوري (قناة السـويس)، ذلك المشروع (المصـري الفرنسـي المشـترك) الذي اشـترت إنجلترا جزءًا كبيرًا من أسهمه فبات لها «حق الانتفاع» فيه حتى عام ١٩٥٨.

---

(١) كان مـن مطالب ثورة عرابي زيادة عدد أفراد الجيش المصري من اثني عشـر ألفًا إلى ثمانية عشر ألفًا حتى يستطيع تأمين البلاد.

كان الخديوي الأسبق «إسماعيل» - الذي اكتمل حفر القناة في عهده - قد اضطر إلى طرح أسهمها للبيع بعد الأزمة المالية التي تعرضت لها البلاد نتيجة للديون الهائلة التي استدانها لبناء المشاريع الكبيرة - دفعة واحدة - مواكبة لأسلوب المَعيشة الأوربي.. أنشأ بالقروض قصورًا فخمة ودارًا للأوبرا، أدخل التلغراف وطوَّر السِّكك الحديدية وأضاء الشوارع بالغاز ومدَّ أنابيب المياه، مَشروع عَصري طَموح سيطَر عليه البَذخ والتهاون في تقدير عواقبه، وإغراءات المُرابين الأجانب بضخ الأموال «السهلة» ليتحول الحلم بالريادة إلى مِسمَار أخير في نَعش ميزانية الدولة واستقلاليتها.. تدخلت إنجلترا كمشترٍ للأسهم بحجَّة تأمين مُواصلات إمبراطوريتها مُترامية الأطراف ولضَمان تواصلها مع بقيَّة مُستعمراتها في آسيا وأستراليا، ولتخفيف ديون مصر التي فرغت خزينتها سَدادًا للفوائد المُجحِفة فقط، قبل أن يضطر الإنجليز والفرنسيون إلى فرض مُشرفي خزانة لمُراقبة المَالية المِصرية وتحصيل مَواردها أولًا بأول والسيطرة على مُقدَّراتها.

حَاول إسماعيل - متأخرًا - التصدي لنفوذ الأجانب فأجبروه على التخلي عن منصبه ليَرِثَه أكبر أبنائه «توفيق»؛ شابٌّ علاقته سيئة بأبيه وأضعف خِبرة منه، مُحاط بزمرة من الأصدقاء الذي حرِص أن يستبدل بهم رجال أبيه المُخضرمين، خصص «توفيق» نصف إيرادات مِصر لسداد الدَّين العام فتمكن الأجانب من السيطرة على الماليات والتحكم فيها، مما عَجَّل بتذمر الجيش وقيام ثورة عرابي التي أسماها البعض «هوجة» لسرعة قيامها وضعف تنظيمها.

بَعد هزيمة الجيش المصري نُفي أحمد عُرابي ورِفاقه إلى جَزيرة «سيلان»، أُعدِم بعض الضُبَّاط ككبش فِداء حتى ترتدع النفوس، وتم

دَمج الجيش المِصري في جيش المُحتل! استقر العَرش بالخديوي «توفيق» وسَيطر الاحتلال عَلى مَناحي الحياة الاجتماعية في البلاد قبل أن تعلو الأصوات الجَريئة تدريجيًا مُطالبة بخُروج الإنجليز كما دَخلوا، وهو ما واجهته الإمبراطورية العُظمى بالمراوغة وإرجاء البَت في المَسألة، مُقدِّمةً الأسباب والحجج الواهية التي تفيد بأنها باقية من أجل مَصلحة مِصر وأمنها، دافِعة بسياسة الأمر الواقِع لاثنين وثلاثين عَامًا مات خلالها الخديوي «توفيق» وتولى من بعده الخديوي «عباس الثاني» والذي عزلته بريطانيا حين اشتعلت الحَرب العُظمى سَنة ١٩١٤ بسبب عدم تعاونه معها ومشاكستها ليتولى من بعده السلطان «حسين كامل» ثم أخوه السلطان «فؤاد» من بعد وفاته.. وإذا بمِصر تجِد نفسها في وَضع لا تُحسَد عَليه؛ سُلطانها يَفرض اسمه ملك الإنجليز، مُحتلة بملايين الجنود، ومُطالبة بمُساعدة المُحتل في حَربه!!

استُنزفت البلاد لأربع سَنوات بُدِعَ فيها من الأمور العَجَب العُجاب، اشتركت الدبابات في القِتال في سَابقة هي الأولى من نَوعها، وحَملت الطائرات القذائف بَعدما كانت تُستخدم للاستطلاع فقط، رَوَّعت الناس وأشعلت الحَرائِق قبل أن يَقفز طيَّاروها إذا أُصيبت طَائراتهم بمظلات عَجيبة توصلهم سَالمين إلى الأرض، أطلقت الجيوش عَلى بَعضها الغازات السامة، ولَعبت الغواصات دُورًا مِحوريًا بطوربيدات مُدهِشة أغرقت مئات القِطَع البَحرية.

بين الغبار والبارود عَاشت مِصر تائهة، مَجرورة مثل الجَاموسة العُشر خَلف إمبراطوريات مُتغطرسة سَعرتها الانتقامات والمَطَامع، وَضَعت المِسكينة كل مواردها تحت إمرة الإنجليز عَسى أن يُقدِّروا مُساعدتها

ويَرحلوا عنها بعد انتهاء الحرب فناءت بالأعباء وطفح بها الكيل، خاصة مَع إعلان الحماية عليها تضييقًا وإحكامًا منذ بدأت الحَرب، فَرض الاحتلال أحكَامَه العُرفية وباتت الرَّقابة قَاسِية على الحرِّيات، صَدرت الصُّحُف مَليئة بمساحات فارغة كَانت أخبارًا عن الحَرب قبل أن يشطُبها رقيب المطبوعات الإنجليزي، التَجمُّع في الشوارع صَار أقصى مَداه خَمسة أفراد، والسَّهر في المَقاهي ينتهي في الثامنة مساءً، الاقتصاد يسيطر عليه الإنجليز ويتولى المصريون الوظائِف والأعمال الروتينية الشاقة، عَلاوة على التنكيل بكل مَن تسول له نفسه إبداء تذمُّر أو مُلاحظة.

كل تلك القيود لم تكن مُرتبطة بظروف الحرب قدر ما كانت مُرتبطة بلمعة شاهدها الإنجليز في أعين المصريين منذ شُيِّدت جامعتهم الأولى وتكاثف إرسال بعثاتها إلى أوربا، نهضة علمية ووعي سياسي تكلل ببناء برلمان وزيادة في الأصوات المطالبة برحيل المحتل.

كان ذلك في القاهرة، أمَّا الأقاليم - الأقل حظًّا - فكان التضييق عليها أعنف وأشد وَطأة، نهش المُرابون الأجانب أصحَاب الأراضي من الفلاحين واستولوا بالفوائد المُجحفة على ممتلكاتهم، ثم سِيق الشباب الفتيُّ مِنهم قسرًا إلى أعمَال السُّخرة خِدمة لجنود المُحتل وتنفيذًا للأعمال الدنيئة المُرهِقة التي تتطلب بأسًا وقوة جسدية، صُودرت البَهائم لصَالِح المَجهود الحَربي، وقُيِّدت الزراعَات بما يَتَّفق مع حَاجة الجيش ومُنِع تصديرها، حتى وَصل الأمر لإعدَام مَن يُصدِّر غلَّته خارج القُطر دون إذن، في بَلد زراعي لم تعرف غَير تصدير مَحاصيلها، أمَّا القُطن، السِّلعة الرئيسية في مِصر فقد احتكر المُحتل شراءه وبَخس

بثمنه الأرض ليَبيعه في بُورصة لندن بأضعاف ثمنه! تشرَّد العمَّال فسَادت البطالة وتفشَّت الأمراض والأوبئة، انتشر أغنياء الحَرب من أهل البَلد والأجانب، يَصْلون الناس ألوان الغَلاء والاستغلال، وجُنود الإمبراطورية، إنجليزًا وهنودًا وأستراليين ونيوزيلنديين، يَسيحون في الشوارع والأزقَّة ببُطون جَائعة وشَهوات لا تَمتلئ، يَستنزفون الناس خيراتهم بعُشر أثمانها إذا دفعوا، ويتحرَّشون بالشعب نِساءً ورِجالًا، يَسكَرون ويَبصقون ويَضحَكون ويَركلون ثم يَخطفون ما امتدَّت إليه أيديهم، بِلا رَادع يَردعهم أو كبير يَشكُم غُرورهم، فالقانون المِصري لا يُخضعهم، ومَحَاكِم القُنصليَّات لا تُدينهم، والبوليس مُلجم عَاجز أمام عَيْثهم ومِن ورائه سُلطان يكنُّ الوَلاء للتَّاج البريطَاني الذي أجلسه على عَرشه.. وثبَّته.

فبراير ١٩١٩

درب طِياب.. الأزبكية

بَدت الليلة قيامة حَقيقية، بِلا مَلائكة ولا حِساب ولا مِيزان مُقام، فَقط العَذاب حَاضر تنصب عَاصِفته على نَافذة الشقَّة المُتهالكة، وتتخلَّل أمطارُه أخشاب السَّطح المُتداعية فتتسرَّب القطرات بإلحاح إلى طَبَق على أرض غُرفة أضَاءها قِنديل يائِس.

رَغم صَخب الرياح كان الشَّهيق مَسموعًا، حَادًّا مُحشرجًا كصفَّارة نَخرها الصَّدأ، شَهيق يَأتي من فوق سَرير حَديدي تصطك مفصَّلاته كلَّما سَعَلت «سيران»؛ امرأة في العقد الرابع سُجيت فوق مَرتبة نحيلة كالخرقة المُهترئة، تُغطِّيها بَطانية من الصُّوف تشبَّعت عَرقًا وقيئًا دمويًّا ورُطوبة لزجة، سِتَّة أيام خَلَت على الوَهن الذي دَبَّ في الأوصال مُرخيًا حَبائله على جَسد كان يَموج فتنة وحياة، الدَّاء أغرق الرِّئة بالدَّم فكَسَت الشفاه مسحة زَرقاء مِن جُوع الأكسجين، الجِلد الذَّهبي يَبس وامتقع، الشَّعر الكستنائي تلبَّد في يَأس، الأصَابع المَرسومة ارتخت على بَعضها والأورِدة الزَّرقاء بَرزت عَلى الذِّراعين تَشكو بُخل دَفقات القَلب.

سيران! اسم كان يومًا يَعني «الحُلوة»، جَاءت على مَتن سَفينة مِن ميناء «صَيدا» مَع نهاية سنة ١٩١٥ فِرارًا من مَذابح الأتراك لعَشيرتها من

الأرمَن الشُّوريين[1]، لتستقِر في القَاهرة مع زَوجها «سَركيس» وابنتها «فارتوهي» ذات الأربعة عشر عامًا، أجّر الأب دُكَّانًا باع فيه الزيتون والأجبان والنبيذ، واستقر حَاله وأسرته الصَّغيرة في شقَّة مُتواضعة ببناية لا تطل على شَيء، أُسرة بَاهتة مَطموسة وَسط آلاف الأُسر التي نَزحت إلى مِصر في سَيل لا ينقطِع هَربًا مِن نيران الحَرب.

برغم مَرارة الهِجرة وظُلمة الحياة ووحشتها، ورغم العُزلة التي فرضها «سركيس» على أسرته الصَّغيرة خَوفًا من عَودة الأتراك لمِصر، لَم يَمنع ذلك «فارتوهي» مِن أن تُصبح قِبلة أعين الحيِّ الفقير، نِجمة لامعة وَسط ليل لا قَمر فيه، ناداها بـ «ورد»، ترجمة لاسمها الأرمني، لتندمِج في المُجتمع الجَديد وتنصَهر فكبرت وفَارت مَالكة جَمال الأرمنيات وفتنة الشَّاميات، تتهَادى بشَعر كستنائي مُذهب وعَينين فيروزيتين قُرب دُكَّان أبيها فتستعر النفوس وتُحلِّق من حَولها القُلوب ببديهية السِّحر على المَسحورين، ورد عَرفت ذلك منذ تفجَّرت الأنوثة فيها، وبالمَهارة الفِطرية التي مكَّنتها من استشعار الأعين التي تمشي على جلدها كانت تسطر الأقدار في رأسها وتَرسِمها، فمستقبل الإنسان ليس إلا سَقف أحلامه، هكذا قال وَالدها، ستُكمل تعليمها، وسَترتبِط بمُوظف طَموح وربما ضَابط وَسيم، أو أحد نُجوم المَسارح الذين يُغازلونها حين تمُر بمَقاهي عِماد الدِّين، ستبتعد عن الحَيِّ

(1) قام الأتراك بإبادة مئات القرى الأرمنية في محاولة لتغيير ديموغرافية تلك المناطق، تحت مُسمّى تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة مُحتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا، وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي الذي قتل عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرّض المرحّلون لعمليات تعذيب وقتل فيما عُرف تاريخيًا بمذابح الأرمن.

الفقير وسطَارِدها الأضواء أينما حلّت، سيَصِير لاسمها وَزن وبَصمة تُرى بالعين المُجرّدة، رُبّما تُصبح مُمثلة أو مُطربة شهيرة، أو رَاقِصة في حَجم «بَديعة مَصابني» مَلكة المَلاهي الليلية وسيِّدة الاستعراض، ستُسافر لأوربا سنويًا، وستعيش في بيت كبير بجَاردن سيتي يتّسع لأسرة سَعيدة، وستنجب أبناء تسمّيهم على اسمَي والديها وستموت في فِراشها بَعد عُمر مَديد بابتسامة راضية بين شفتيها، كابتسامة العَذراء في الكنيسة وهي تحمِل رضيعها.

لَكن القدر كان له رأي آخر!

مَا كادت الحَرب تنتهي حتَّى جَاءت مِصر سَفينةٌ تَحمل على مَتنها سيدة غَامضة، «سَيِّدة إسبانية»! وباء إنفلونزا سُمي بذلك الاسم لأن صُحُف إسبانيا كانت أوّل من كَتب عَنه، مَوت حَصد الأرواح بمنجل فَاق حدَّة منجل الطاعون، قَتل ضِعفَي ضَحايا الحَرب، قَاصِدًا الشباب دون غيرهم، تاركًا العَجائز مَحميين بهَالات كَهَالات القدّيسين لا يَكاد يقربهم[1]! الأسبوع المَاضي أتت على «سَركيس» والد ورد، اعتصرت جَسده النَّحيل وأفرغت روحه فحَضر رجَال الحَجْر الصِّحِّي بمشاعر باردة وكمامات وسُترات بيضاء، كفّنوه في سُرعة كفَسيخة مَسمومة بعد أن انتزعوا «سيران» من حضنه ورَشُّوا جَسده والغُرفة بمُطهِّر نفَّاذ وأحرقوا مَلابسه ومَرتبته وكل مَا لَمسته يَداه يَومًا، ثم حَملوه في صُندوق مُغلق بالمَسامير لمَقابر الصَّدقة لعَدم وجود مَقابر لأسرته

(١) تقول النظريات إن سبب مناعة كبار السن ضد إنفلونزا السيدة الإسبانية يعود لتعرضهم للإنفلونزا الروسية عام ١٨٨٩، مما أكسبهم مناعة جزئية ضد الفيروس الذي قتل بين عامَي ١٩١٨ و١٩١٩ ما يقرب من ٥٠ مليون إنسان.

لـم تَبـك ورد أباها، ظلَّت وَاجمـة متمكّنا الخَرَس مِنهـا، ترمق أهل الحَي بعينين خاليتين، فرَغم ما رأته من مَذابح على يَد الأتراك في سوريا؛ خَطفة المَوت كانت أشـدَّ وَطأة وأعمَق تَأثيرًا.. كَان ذلك قبل أن تلتفت «السيِّدة الإسـبانية» لوالدتها، سَكنت جَسـدها بَعد وفاة الأب فبَصَقت المِسـكينة نَضارتها وفقدت شَـحمها، وَهنَت عِظامهـا وكَبرت مَائة عَام فـي بضعة أيـام، حتَّى صَليبها الخَشـبي الصَّغير المُعلَّق فـي صَدرها بَدا ثقيلًا يَكاد يَمنعها من التنفس! بشفاه مُتشققة تتمتم باسم المَسيح الفَادي راجيـة رَحمتـه وعَيناها لا تفارقان «ورد» القابعـة بجانبها مُلثَّمة بقماش مُشبَّع بالليمـون، تُتابع أمَّهـا بعينين مُحتقنتيـن فَرَغ منهمـا الدَّمع، تبلِّل الكمَّادات في الطبق الذي مَلأه المَطر وتكبسـها على الوجنة الشَّاحبة تَخفيفًـا، تترقَّب تنفُّسـها المتقطِّع وصَفيره اليَائـس والنَّبض البَطيء يئن في شُريان رَقبة، تَقرأ المَصير الحَتمي ولا تَملك تغييره، هِي فقط تترقبه كصَفعة مُؤجلة من كَفِّ عِملاق ستَهوي عَلى رُوحها.. آجلًا أو عَاجلًا.

سَـاعَات ثقيلة مـرَّت قَبل أن تَخفُت العَاصفـة، وتخفُت مَعها الجَلبة بصَدر غَرق في سَـوائله بَعد حَشرجة جَافة وسُـعال خَرجت معه نثرات دَم دَاكن، تأمَّلت ورد أمَّها بريبة، تنفُّسها لَم يَعُد مَحسوسًا، صَدرها يَئس واعتزلـت شَـفتيها التمتمـة.. أمِّي! بأنامل مُرتعشـة التقطـت كوب مَاء وقربته من الفَم المُتشقِّق، صَبَّت القطرات فانسـابت من طَرفه المُنفرج بِلا مُقاومة لتشـربها الوسادة، هزَّت الكتِف النحيلة برِفق فلم تستجب.. أمِّي!! وَضعت أُذنًا على صَدرها فالتقطت العَدَم وبُرودة تنتشِـر، برُعب جَذبت كسرة مِرآة ووضعتها تَحت الأنف فلم تلمح للبُخار أثرًا، التفتت حَولها مُستغيثة بالخواء: أمِّي! أجهشت بالبكاء لحظة ثم ركضت إلى

الدُّور الأول بسَاقين تتخبَّطان وعَقل شُلَّ تفكيره، أمام شقَّة كُتب على يَافطة خشبية بجانبها «بنسيون» وقفت مُتردِّدة قبل أن تَدفع البَاب المُوارب، «بنبة» العايقة[1] كانت تدخِّن سيجارة فوق كُرسي لم تَظهر أطرافه تحت مُؤخرتها السمينة، تَرتدي ثوبًا أسود من الشيفون كشف ثديين ترهَّلا حتَّى الخصر وكيلوتًا أحمر مُزركشًا حَاصَر كِرشًا عَظيمة، مَا إن رأت مَلامِح وَرد حتَّى خَبطت صَدرها فترجرج كقربة مَملُوءة:

- مَالك يا حبيبتي كفى الله الشر؟!

- أمِّي! أمِّي ما بتجاوبني.

- يُوه!! فوتي قدَّامي.

أطفأت المَرأة سِيجارتها في كُوب الشَّاي والتقطت شِبشِبًا ترجرجت فوقه خَلف وَرد على السلَّم المُتآكل بعد أن سَحَبت مِنديلًا رشَّت فيه الكولونيا، اقتربت من الجَسد الهَزيل بحَذر تَستشعر عَلامات الحَياة فيه قبل أن تلمَح البول وقد انفكَّ أسرُه أسفل السَّرير، اقشعرَّت مَلامحها وتَراجعت نَاظرة لورد مُحاولة السَّيطرة على انفعَالاتها:

- يا لهوي.. بقالها عَ الحال ده قد إيه؟

- لسَّة من شوية.

- دي سَابت خَالص يا حَبّة عيني!! يا حول الله يا رب.

قالتها بنبة ثم هرولت للسلَّم وانكبَّت على الدرابزين مُنادية:

- سلامة.. يا سلامة.

---

(١) العايقة أو «البدرونة» لفظ يُطلق على القوّادة من النساء التي تخطَّت سنّ الخمسين وتدير بيتًا للدعارة.

أتاها صَوت من شَقّتها: فيه إيه؟

- اجري عَ الاسبتالية القِبطي هَات حَكيم أوام.. شَهّل.

ثم عَادت للغُرفة المَوبوءة وقد وَضَعت المِنديل عَلى فَمها.

- ليكي حَدّ نبعت له يا ورد؟

- مالي حد.

- يا حبّة عيني.. البَركة فِيكي.

جزعت ورد من وقع الكلمة فانكفأت على يد أمّها ترجوها إبداء علامة حياة، اكتفت بنبة بالصّمت عَجزًا وفتّحت النّوافذ تهوية، أتى الطبيب وأكّد الوَفاة في كَلِمة خافتة لبنبة قرأتها ورد فمَادت الأرض من حولها، كَأن المَوت لم يَكن وَاردًا، كأن الرب لم يكن ليأخذ أمًّا من بعد أب، كَأن الشقّة البائسة لم تكن لتخلو عليها وَحدها في تلك السّن!

أبلغت بنبة ثُمن[1] الأزبكية فأتى رجال الحَجر الصّحّي كالنّمل الأبيض ليَرفعوا السيّدة سيران، أو ما تبقّى منها، أحْرقوا مَلابسها ومُتعلقاتها، وقلب وَرد حتّى لا يلتقط العَدوى، قبل أن يقرّر الطبيب أن بقاء روح في تلك الشقّة الموبوءة ليس بالأمر الصّحّي، تَركت وَرد الشقّة ونامت ليلتها في دُكّان أبيها رَغم إلحَاح بَنبة باستضافتها.

في الأيام التّالية تَحرَّش بِها الليل بنُجومه ومَخلوقاته قبل أن تُصَفّي بقايا بِضاعة أبيها سَدادًا للديون، استقرت وَحيدة في شقّتها المَنكوبة،

(١) الثُّمن: مُصطلح كان يُطلق على أقسام البوليس في القاهرة المقسّمة إلى ثمانية أقسام.. ثُمن الأزبكية.. ثُمن الجمالية... وهكذا.

مَقطوعة الدَّمع تعميها الصَّدمة ذَابلة شَاردة تنظُر للسَّماء الخَالية في انتظار إجابة، في انتظار مُعجزة.

كان ذلك حين قَرعَ البَاب وَجه كَسته الأصبَاغ وأظافر طويلة قانية، بنبة! راصَّة في رُسغيها أسَاور ذَهبية تنوء الأذرع السَّمينة بحَملها، وخُلخالين لن ينجَحا في إقناع متأمِّل بحُسن سَاقيها البَائد.

لم تكن بنبة سوى قوَّادة عَتيقة، وُلدت قبل بدء الرذيلة بعَامين، عَاشت عاهرة مَقبولة لها اسم يُطلب وجَسد يُرتجى، قبل أن يَفرمها الزَّمن وتشِح زبائنها وينفضُّوا من حَولها تعففًا، أخرجت ما كنزت من عَرَق وركيها لسنوات مَضَت وافتتحت شقّة للفواحش مُرخَّصة من قبل الحُكومة، وكما قال المثل: «إن تابت القَحبَة عَرِّصت»، يُعمِّر مشروعَها الروَّاد من أبناء البلد والإنجليز رَاغبو تذوق الصُّنوف المِصرية، قبل أن توسَّع بفضل تنوع بضاعتها «التي تصطفيها بعناية» لتشتري البيت كلَّه، تؤجر للسُّكَّان شُقق الدورين الثاني والثالث وتَحتفظ لنفسها بالدور الأول، تُشرف فيه على سِت غُرفات تبث أنات الشبق طوال اليوم، مَشروع قانوني يُديره مَعها «سَلامة» الشهير بـ «النِّجس»، زَوج شَديد البأس مُتمرِّس أثقلته الحياة وشحذته كسكِّين يشُق فيقتل، مُحترف في بث الرعب في نفوس مُسيئي التصرُّف من الزبائن الذين يَستقطبهم من ناصية الشارع بصُور عَارية لمومساته يَحملها في محفظته، يَعرضها مُبتسمًا بأسنان ذهَبيَّة يخرج من بينها الكلام المَعسول ثم يَحكِي عَن مُعجزات بَناته في الفراش وأعاجيبهم، قبل أن يَصحبهم للبيت مُوفرًا الحِماية والرَّاحة حتّى يُفرغوا شَهواتهم في سلام، وسُرعة، ليُحصِّل القُروش والريالات فيَدفع لزوجته نَصيبها، وللعاهرات فُتاتًا يُبقيهن

نضرات، وأحياء، يَأتي لهُنَّ بالطَّعام والمَلبس وأدوات التَّجميل، ويَصحبهن في الزِّيَارة الأسبوعية لاسبتالية «الحَوض المَرصُود» لتوقيع الكَشف الطبِّي عليهن ضَمانًا لسَريان رُخص العَمل، ويُؤدِّب مِنهن مَن تأتي بفعل مُنافٍ للآداب أو أخْلاق المِهنة!

ذلك كان سَلامة النِّجِس، وتلك كانت بنبة التي جلست ترشُف الشاي وتنهش بعَينيها جَسد ورد:

- إزِّيك يا ورد؟

- مرحَبا يا خالة.

- بقى يحقِّ لك ولا تزوريني مرَّة من سَاعة المرحومة أمُّك؟

- والله يا خالة الدُّكَّان كان آخد كل الوقت لغاية ما صفِّيت الديون.. بضاعة كتير ما عَادت تنفع بالمرَّة.

- مَعلوم.. الجِبَن بالذات روحها خفيفة.. يا حول الله يا رب.. وناوية على إيه يا حبَّة عيني؟

- راح أحاول أدبَّر بضاعة وارجع أقف بالمَحل.

- تقفي!! ده كلام.. الشُّغلة دي عاوزة راجل.. وبَعدين البضاعة هاتيجي منين من غير نقدية؟ مَفيش حد من قرايبك بييجي مصر؟ خال؟ عم؟

- ما في!

- ولسَّة أجرة الدكَّان إحنا أول الشَّهر.. وأجرة الشقة والـ...

قاطعتها ورد: الله يخلِّيكي طوِّلي بالك عليَّا شويَّة بالإيجار لأنك شايفة الظروف.

- مِش القَصد يا بِت.. أنا بَبرُمها مَعاكي بصُوت عَالي.

ارتشفت بنبة رَشفة شَاي تَركت أحمر شفتيها على الكوب وقامت تدق بكَعبيها الأرض الخَشَبيَّة مُقتربة، تَخلَّلت شَعر وَرد بأصَابعها تفك ضَفائره وتُمشِّطه.

- كام سَنة عندك يا ورد؟

- سبعتاش.

- وردة بتفتَّح.

قالتها ولامَسَت صَدر ورد مُتظاهرة بتفريق نِهايات خصلاتها، تَسمَّرت الأخيرة بعينين فقدتا طَرف الرمش، ابتلعت رِيقها بصُعوبة حين أكملت بنبة:

- بالك يا بِت.. عُودك العِرسي ده يتَّاقل دَهَب بَس لو تفتَّحي مُخِّك.. ده شُغلي اسأليني أنا.. ما بفهمش غير في النسوان من يوم ما وعيت عَ الدِّنيا.. الجَمال ده ما يحِق له غير الكتاين والحِلقان الدَّهَب.. حَرام يستنَّى الوبا لمَّا يطولوه.

- أنا مو فاهمة يا خالة!!

- الدنيا غدَّارة.. وإحنا يا ولداه تحت رحمة الوعد والمكتوب.. النهاردة هايعدِّي.. طَب وبُكرة؟؟ ولو الحرب اتنيِّلت رجعت.. ولَّا البُعاد الأتراك غلبوا الإنجليز! يختييي عَ اللي هايعملوه.

- راح أمُر بُكرة عَ البَطرخانة واحكي مع أبونا يمكن يلقى لي مَكان فِي الكنيسة أو...

قاطعتها بنبة: تترهَّبي! يا لَهوي.. هو حد في البلد لاقي يَاكل عَشان الغلابة اللي في الكنيسة دول يَاكلوا.. هاتشحَتي وتقدّدي زَي العيش النَّاشف.. بَطانية ورغيفين وتموتي كُهنة ما تشوفيش ريحة راجل يقدَّرك.. "الله!

سَلتت ورد شَعرها وصَدرها من بين أصَابع بنبة وألقت بنفسها بَعيدًا مُحاولة مَنع يَديها مِن الارتجاف.

- بدّك إيه منّي يا خالة؟

- عَاوزة مَصلحتك يا بِت.. دي أمّك كانت حَبيبتي الله يرحَمها.

- أمّي ما بعُمرها نزلت لَعِندك.. وما باذكر إني شوفتك طَالعة لعِندها.

- إخص عليكي! ده الحُب في القلب يا بت.. هِيَّ لمَّا وقعت منّك لاقيتي حَد تِندهيه غيري! وأبوكي الله يرحمه.. بِقالة البيت كلها كانت من عنده.. حتَّى النبيت المَضروب كُنّا بنشتريه.. افهمي...

ورد مُقاطعة: يا خاله أنا ما بقدر أشتغل مَعكي.

- تشتغلي إيه؟ ده هَيبقى بيتك ومَطرحك! وبَعدين هو أنا بيت سِر؟ ده أنا مَعايا رُخصة والحُكومة مسَامحة.. أنت مش مسَامحة؟! وبَعدين هو الباشا اللي عمل الأنون ده كافر؟ ده موحّد بالله وفاهم النفوس الضعيفة، بَدل ما الناس تتواعِد في السِّر أهو بنعملها تحت عينين الحكومة، ثم أنا غير، زبايني يُوزباشي وانتي طَالعة، والأفرنجي أدخَّله بمزاجي، واد نِضيف ابن ناس مَاشي، أسترالي ولَّا هِندي ما يعتّبش البيت، كلهم قمل، أنا باستنضف اسألي عليًّا أم حمدي اللي قُصادنا ولَّا عِلوية اللي في عمَارة الفرن.

- يا خالة أنا...

بنبة مقاطعة: وما تشيليش هم، هاعملِّك الرُّخصة وأرسّيكي عَ اللي ما تفهموش النسوان المتجوِّزة، أجيب لك هِدمة وأصيِّغك، تِكسبي لِك قِرش حِلو وتنامي نومة السُّلطانة، بالك، البِت سنيَّة السودة اللي شغَّالة مَعايا، والنَّبي كانت عَبدة مِن السُّودان وتذكرة العِتق عندي شايلاها، كَعبها كَان مشقَّق يخُش فيه فَار وشَعرها مكتكت زي الليفة، ومن أول نظرة وحياتك قُلت البِت دِي فَرَسَة ولو تتليِّف وتتغندر تدوَّخ أجدعها دَكَر، تَعالي شوفي دلوقت، بتعمل لها خَمَس سِت شلنات في اليوم، شُوفي أنت ببياضك القشطة ورطانك الشامي هاتعملي إيه!! سَنة سَنتين وأجوِّزك وأزفِّك بالشَّمعدان.. هاتدعي لي.

- أنا ما بدِّي يا خالة.. كتَّر خيرك.

قالتها وفتحت باب الشقَّة في إشارة لبنبة أن ترحل من حيث أتت.. تحنجَلت الأخيرة حتى الباب وهَمَّت أن تَخرج قبل أن تَستدرك:

- على كيفك يا ورد.. دوَّري مُخَّك يا حبيبتي ومش هتلاقي أعقل م اللي قلته.. فوتِّك بعافية.

رَحلت بنبة فَسَقطت وَرد على كُرسيها، سَاعات لم تَدر كيف مَرَّت، شَاردة في صَليب خشبي مُعلَّق على الحَائط، بلا مَسيح، لعُمرها لَم تكن تَحسب أن في أسبوعين فقط ستتداعى الأحلام والأماني وتنعدم الرؤى شبرًا للأمام في ضباب القدر «مَاذا سَأفعل في مِصر؟ بِلا مَال ولا سَند والناس من حَولي يَأكل بَعضهم بعضًا جُوعًا وحِرمانًا! أأسَافر؟ إلى أين والبلاد من بعد الحَرب لم تتألف بَعد ولم تُرخِ السلاح! بجَانب أن بَلدني

قد سَاواها الأتراك بالأرض إبادة ومحوًا، لن أحترق في الزيت المغلي مثل المسيحيين الأوائل ولن أدخُل عَرين الأسود لأصبح قديسة.. أأترهَّب؟ لكن ويلات الحَرب أنهكت كنيستنا، وعَشيرتي يتلقَّون الإعانات مِنها فُتاتًا لا يسد جوعًا! كما أنِّي لم أصبِر يومًا على الخروج للشارع فكَيف لي أن أعيش وردة مُجففة في قلاية[1]! عليَّ أن أسير في الشَّوارع بَحثًا عن فرصة، مَاذا عن العمل في صالة أو تياترو؟ ماذا عن التقدم لبديعة مَصابني لتختبر قدراتي؟ أجيد الرَّقص وصَوتي أحسَبه جليًّا صادحًا، ومَاذا لو رُفضت؟ سَيتخطَّفني الجُند لُقمة سَائغة إن لم يُعثر عليَّ ميتة من الجوع في عَطفة مُظلمة، أو يقض عليَّ الوَباء كَما قَضَى على أبويَّ من قبلي!».

ورغم أن المَسيح نفسه قد هجر صَليبه على الحائِط ورحل.. بَدَت الكنيسة أرفق الحلول!

بالطبع مِن بَعد زيارة سَريعة لشارع عِماد الدين ومُحاولة مُستميتة للوصول إلى بَديعة مَصابني!

قامت وَرد فَجأة كَأن الكَهرباء مَسَّتها، فتحت حقيبة سَفر جَاءت مَعها مُنذ سَنوات إلى مِصر، لَملَمت مَلابسها وأوراق هويَّتها وصُورة لها بين أبيها وأمِّها عَلى مَتن البَاخرة التي ألقت بِهم على شاطئ الإسكندرية، انتعلت صَندلًا وضفَّرت شَعرًا مَفكوكًا ونظرت للشقَّة المنكوبة نظرة أخيرة قبل أن تفتح الباب لتَجد سَلامة النِّجس قَابعًا في انتظَارها.



(١) قلاية: كلمة تعني حجرة أو حجيرة في دير، لذا سمي الرهبان سكان القلالي.

التلّ الكبير.. الإسماعيلية

ترجرجت السّيّارة الكرونسلي نِصف النَّقل على الطَّريق المُغبَّرة المفروشة بالحِجارة الصَّغيرة، عَجلاتها الرَّفيعة تحفر وراءها خطّين مُتعرّجين بسُرعة ٥٠ كيلومترًا/ ساعة، مُحركها يُزمجِر من وَطأة الحُمولة المُغطّاة بالضّمُور فوق ظهرها، ومَاسورة عادمها تُطلق دُخانًا أسود كثيفًا وفرقعات كطلقات الرَّصاص كل بِضع ثوانٍ.. وراء عَجلة القيادة جَلس عبد القادر «الجِن»؛ شاب في العقد الرابع وَرِث لَقبه وجَسده الخَمري المَفتول من والده شِحاتة المُلقَّب بـ«الجِن»، فتوّة حَي «السيِّدة زينب» لخَمسة عَشر عامًا خلت.. ولا يزال.

حين اقتربت السيَّارة مِن مُعسكر الإنجليز أطلق عبد القادر نفيره مُنبِّهًا، رَمقته قوّة التأمين من فوق المُدرَّعة الرابضة أمام الباب الحديدي الكبير، بحَركة روتينية وجّهوا ناحيته فوّهة رشّاش «فيكرز» وبرز من كُشك الحِراسة رَقيب أحمر الشّعر مُلثّم بكمامة قُماشية غطّت نِصف وَجهه، توقّف عبد القادر قُربه بفرملة عَنيفة أثارت الأتربة وزحَفت السيّارة على الحَصى مسافة كادت تَرطمها بالمُدرَّعة، نَزع شَاله من أمام فَمه العَريض وأنفه الحَاد قبل أن يُحيّي الرَّقيب بابتسامة عَريضة ويناوله تصريحًا كان في جيبه.

- جود مورنينج.. التموين وَصل.

نظر الإنجليزي في التصريح ثم أردف:

غير مُصرّح بالدخول اليوم.

قرأ عبد القادر الرُّتب فوق كَتفيه تقييمًا لحَجمه قبل أن يُجيبه.

- ليه يا جوني[1]؟

- الإنفلونزا.

- إنفلونزا إيه يا عمّنا أنا زي الفُل!! عبد القادر إز كلين.. أنا كنت هنا من ويك أجوو.. افتح يا جدع.

- لا دخول اليوم.

- يا عم بقول لك نضيف.. كِلين.. أنت باينَّك عاوز تتكدَّر النهاردة.. ويرإز كولونيل تريفور؟ كلِّمه عَ التحويلة هو فَاهم.

- في عُطلته الشهرية.

- إجازة! دي داهية إيه دي؟! مَحسوبك الجِن.. عبد القادر الجِن.. بتاع الكانتين.. إيه ما بِسمعتش عنِّي؟ تِبقى جديد! الكانتين.. سيجارتس آند الكوهول.. أنت عاوز الظبَّاط بتوعك تقعد من غير سَجاير أسبوع؟

أرخى الرقيب بندقيته إلى جَنبه.

- هل لديك سجائر؟

هز عبد القادر رأسه بابتسامة عريضة وهَمَس: أبو أُمَّك.

---

(1) اسم «جوني» كان نداء يُطلق على كُل إنجليزي غير مَعروف اسمه.

ثم فتح صُندوق «الإكراميات الإجبارية» القابع في أرضية المقعد المجاور، كان مُتخمًا بكل أنواع السَّجائر المَحليَّة والمستوردة.

- أهه ده الكلام.. بلا إنفلونزا بلا دباولو.. عبد القادر الجِن يَعني كل حاجة تتوجد.. كاميل وبابا تيولوجو شَمسون وإكسترا ومعدن وملوكي.. كيرمازي وديلايتس وچناكليس وصُوصة.. كل اللي على كيفك.. أجيب لك إيه؟

أشار الرقيب إلى عُلبة ديلايتس، التقطها عبد القادر بنَهَم وريق يَسيل وسَحَب زجاجة نَبيذ متوسِّطة الجَودة مِن تحت المِقعد وناوله:

- الإزازة دي جَدعنة من عندي.. عَشان «تفتكرني» أمَّا آجي المرَّة الجاية.. استبينا يا ابن الخاطية؟

سَحَب الرقيب غنيمته دون أن يحاول تفسير غمغمة عبد القادر.. هَز رأسه ثم أشار لحُمولة الصُّندوق الخَلفِي فنَزل عبد القادر وفكَّ الحَبل الغليظ مُرخيًا القُماش عَن حمولته من صَناديق السَّجائر والنَّبيذ اليُوناني، تفحَّصَها الرقيب بإهمال قبل أن يرفع ذراعه لرجَال البوَّابة مُطمئنًا ثم يَخبط عَلى السيَّارة بكفِّه.

رَكَب عبد القادر سَيارته وتَخطَّى البَوابة الحَديدية مُتأملًا الجُند الذين حَرصوا على كِماماتهم القماشية وقاية من الوَباء.

المُعسكر من الداخل يَحوي عنابر سَكن الجُنود، مَكاتب إدارية ومَخازن أسلِحة، هَناجر للصِّيانة وسَاحات للتَّدريب وعيادة، اخترقت الكروشلي شَوارعه المُعبَّدة واستقرت في ظِل خَزَّان مياه كبير، رَفَع

عبد القادر الغِطاء الخلفي وأسنَده بعَصا ثم وضع لافتة مكتوبًا فيها «كانتين» بالإنجليزية، التفَّ الجُنود حَوله كالنمل حَول صرصَار مَيِّت، ابتاعوا سَجائره، نَبيذه، حَلاوته ومخللاته، وما عَجز عنه مُورِّدو المُعسكر السَّابقون، مسحوق الكوكايين، يبيعه بالجرام في لفافات ورقية صَغيرة لحَاملي كلمة السِّر من أصدقائه الثقات، يُنادونه بالجِنّ، كُنيته التي تَناسب قُدراته في الجَلب والتحضير، يَحمي لُقمة عَيشه بذكاء فطري خلف ابتسامة سَاحِرة وخفَّة ظِل ومُجاملات للرُّتب الصغيرة قبل الكبيرة، يَحمل هَداياهم حتَّى مَكاتبهم، يَقُص نِكاته الجنسية التي يحبونها بإنجليزية رَديئة مُحافظًا على الود والتواصُل، حَامدًا نِعمة استئثارهم له بتوريدات المُعسكر، شَاكرًا لله عَمله الذي جَعل منه بين شباب الحي «برنس» يشار له بالبنان.. ثم يُنهي عبد القادر زيارته الأسبوعية بعد أن يَجمع رَغبات الجُند والقادة في ورقة ليأتيهم بها في الزِّيارة التالية، ليَنهَب الأرض بَعدها نَهبًا.. إلى القاهرة.

قطَع عبد القادر المَسَافة في ثَلاث سَاعَات ونصف قبل أن يَصِل إلى حي السيدة زينب، غَسَل سَيارته بالمَاء والصابون في طقس عقائدي شمَّر من أجله بنطلونه وكُمَّيه، لم يتركها حتَّى عكس جسمها الشارع من حولها والمارة، قبل أن يُغطِّيها بَعيدًا عَن مَرمى مَجلِس أبيه في ميدان الرمَّاح بالناصرية، دَخَل بعد ذلك ميضة المَسجد، أنزل تُراب السَّفر ولمَّع حِذاءه ودَهن شَعره بالبرلنتين ثم دَلف الحَي يَختال في بذلَة من الصُّوف الإنجليزي منديلها حَرير، وعشرة جُنيهات في جيبه هي إيراد يَوم وَاحد، يَمشي مُباعِدًا ذِراعيه عن جَانبيه من أثر عضلاته المتنفخة، قَاطبًا جَبينه في جدية سِياسي مَهمُوم، ويَلف سِلسِلة السَّاعة على سبَّابته

بحركة مُستمرَّة مُسترقًا النَّظرات من تَحت طَربوشه المائل لشَبابيك الحَي ومَشربياته رَاصِدًا أعين الحَريم المُتلصِّصة المُتابِعة، فمِن أجلهِنَّ تجرَّع اللَّبن بالبَيض كل صباح، رَفع كوزَي الأسمنت المثبَّتين بعَصا خَشبية أمام المِرآة، ودَاعَب أطفال الحَي وهم يَلعبون الكُرة استِعراضًا، ليتلقَّف نَظرة إعجَاب تُسكره أو بَسمة وَعد تُلهب خَياله.. ورَغم ذلك تكاثرت عَلامَات الاستفهام حَول سِن عبد القادر التي تَخطَّت الحَد ولم يَتزوَّج!

وقليلون من يَعرفون الحقيقة!

فعَلاقات عبد القادر المُتعدِّدة جَعَلت إرضَاءه ضَربًا مِن المُستَحيلات، فمُنذ بَلَغ الحُلم أغدَق على نَفسه مِن رَحيق عَذارى الحَي، لم يترك نهدًا إلا وترك عليه بصماته، أما تضاريسهن والمُنحنيات فمر عليها بسيارته ولم يرحم، حَنونًا مَع المُطلَّقات عَطوفًا على الأرامل، يَسمع هراء حكاياتهن باهتمام، يتعاطف ويتوحَّد ويتنهَّد، ثم يَفرمهنَّ فرمًا قبل أن يَملَّهُنَّ سَريعًا فيهرَع لفَتيات «الوسعة» بالأزبكية[1] ليُغيِّر طَعم فَمه، لَحمًا طريًا لا يُكلفه سوى تحية مَساء وبَعض القروش، هذا بخلاف السيارة الكروسْلي التي كانت حَصيلة اقتنائها علاقة مع ثلاث من زوجات أصدقائه وعَدد لا بأس به ممَّن ترغبن في المُغامرة، لذا كَان عليه إذا أراد الزواج أن يَجد مَن لَم تولد بَعد، عذراء لم تقع عليها عين بشر، حُورية هَاربة من الجنَّة، هَكذا يَصفها حين تسأله أمه

---

(١) منطقة الوسعة بالأزبكية: منطقة الدعارة الأكثر شهرة في القاهرة، بجانب مناطِق باب الشعرية وباب اللوق.

عن مُواصفات العَروس المِثالية لتجلبها له، أمه التي جنَّدت الخاطبات ليأتوه بأخبار بَنات الحَي اللاتي يَرغبن في نَسَب ابن الفتوَّة وعزَّته، وكلهن في عَينيه كُنَّ ذوات عُيوب، قَصيرة، طَويلة، سَمينة، رَفيعة، قَبيحة، داعرة، قِفل صدئ، قدماها كبيرتان، مقوَّستان كلاعبي الكُرة، بِنت نَاس، بِنت كَلب، غبية، ثقيلة الدم، بلهاء!

لا أحَد يَعرف ماذا يُريد عبد القادر الجِن!

انتابت أمه الحَسْرة، ورَمَاه أبوه بالنَّجاسة قَبل أن يَزداد الطين بلَّة حين أتاه خبر تَردد عبد القادر على مُعسكر الإنجليز للعَمَل! غَضِب أبوه يَومها كما لم يَغضب من قبل، خاصة حين ذكَّره عبد القادر في زلَّة لِسان بتَاريخ تعاونه مَع الإنجليز فكَسر الرجل زجاجة قازوزة على رأسه وطرده من البيت أسبوعًا.

رَغم أنَّ شِحَاتة الجِن كان ليتَعاون مع الشيطان نَفسه يَومًا لتحقيق سطوته!

فنظام الفتوة في الأصل نَشأ في فَترات ضَعف الدولة حين اشتدَّت وَطأة المَماليك وتَوحَّشوا، فتصدَّر شجعان الأحياء للذَّود عن الأهالي ضِد بَطشهم نَظير وهبة مالية أو عَينية يدفعها الناس لهم اختياريًا، ثم أصبحت مَع الوقت إتاوة إجبارية نَظير تَصديهم لعَسف جُند الاحتلال وغَارات اللصوص، ولحَل النزاعات فيما بينهم والاحتكام إليهم، قبل أن يَحتضن الإنجليز بعضهم حين أدركوا أنَّهم مَفاتيح الأحياء وعيونها، فباتت الصداقة بينهم مَشروعة ومَصلحة مُتبادلة، وأحيانًا بماهيَّة شهرية نَظير الولاء للاحتلال.

هكذا كان أبوه «شحاتة الجن» حين حمل من القوَّة يومًا ما هيأه ليقف أمام الفتوة الأسبق «خليل بطيخة»، انتزع اللقب منه في معركة ضارية صرعه فيها بضربة بسكين نفذت بين ضلعيه لتُصفِّي كبده على الأرض، من يومها أُطلق عليه لقب «الجن» تتويجًا وترويعًا! وما لبث أن صنع مجده دبابيس مغروسة في نبوته بعدد المعارك التي خاضها وانتصر فيها على أنداده من فتوات الأحياء المجاورة، دشَّن سمعته جروح وعاهات وقبور قبل أن تستقر به أرجل عرش الفتوة وينال الرضا سكوتًا عنه وتغاضيًا من بعد زيارة للضابط «آرثر» وكيل حكمدار الداخلية، زيارة نال فيها البركة ووعد بالتعاون فاستتبَّت الدنيا له واستقرت.. يجلس يوميًا في بقعة شمس قرب مدخل مسجد الرمَّاح متابعًا بنظره فرشة خضار ضخمة يديرها عنه أحد صبيانه، لم يفكِّر يومًا في اعتزالها رغم سعة دخله، مستقبلًا عندها من له مطلب، زاجرًا كل من تعدَّى أو غفل، يفض النزاعات ويتقدَّم مواكب الأفراح والجنازات، ويتلقى إتاوته المفروضة على الناس فرض الدين على الرقبات.. بلا تهاون.

مع تقدم السن وتوالي الحوادث الجسام تسلَّلت إلى روح «شحاتة الجن» حكمة عجيبة، مثل الوباء، بلا رائحة ولا لون، عنوة، جلوسه من الفجر حتَّى غروب الشمس صامتًا على أريكته يتأمل السماء وأحوال العباد وفقد الأحبة جعل منه شخصًا آخر، حجرًا جلاه فيض ماء فصار سطحه أملس مصقولًا، رجلًا أقل ميلًا للبطش، للجرح، وأكثر تأثيرًا بحضوره في مريديه، فالنظرة باتت تعفيه الكلمات، وإشارة من يده تفض أعتى النزاعات، صار يتلقى الإتاوات من أغنياء الحيّ فقط؛

برضاهم، لا يَبيع خُضراواته بالفَرض، لا يَضُم زوجة بالفرض، يَسْمع أكثر مِمَّا يتكلَّم، يَهز رَأسه ويشرد لدَقائق كأنَّه مَسحور يستشير أسياده، ثم يفيق فيُلقي قرارًا هو الصَّواب بعَينه.. وقتها قال المَلأ إنَّ الفتوَّة ارتخى، وإن الرَّحمَة استولت عليه واللين، عَلامات كِبر السِّن وزَوال المُلك، رَحمَة أغرَت فَتى مَفتولًا مُتنمِّرًا من فتيان الحي أن يَختبرها مرَّة فوَهَبه شِحَاتة الجِن عَاهَة مُستديمة على مرأى من العامة قبل أن يرجِعَ إلى كَنبته بهدوء، سَاكنًا كَجَبل عمره الدَّهر، لَم يَعُد يهيج صَدره سوى أبناء البَشرة الحَمراء وتابعيهم، نيوزيلانديين وأستراليين وهنود، لم يَعُد يتحمَّل رؤيتهم، أدرك ذلك متأخرًا جدًّا، بَعد أن ضيقوا عليه وعلى أهل حيِّه مَنافذ الحَياة من بعد فرض الحِماية، لَم يَعودوا قَدر الرب وقدره كما كان يقول، بَاتوا يَبطشون بأهل المنطقة التي يَحمِيها، تفرض حكومتهم الضَّرائب الباهظة فوق الرءوس، ويتسكع جُندهم لَيل نَهار لينهبوا ما بَقي من أقوات الناس، الناس الذين ينظرون للجِن باستغاثة ولا يَملك لهم نفعًا، مَكتوف اليدين يَتلقى الطُّعون في رُجولته فيجز أسنانه في غَضَب مَكتوم ويشعر بالعجز! تَحوَّل الجِن تَدريجيًّا من الحِرص على استقرار سَطوته الشَّخصية في كَنف الإنجليز، إلى غَضَب ناحيتهم لَم يشعر بنصفه يَوم احتلوا البلاد، وكأنه للمرة الأولى يَستوعِب مَعنى كلمة «احتلال»؛ أن تكون مَربوطًا مِن رقبتك في سَاقية مَعصُوب العَينين ويُلقَى إليك الفُتات، أن تُجلد لتدور في دائرة مُفرغة لتسقي أرضًا لَم تَعد تملكها، تنبت زرعًا لن تأكله.

مع الوقت تكونت لَدى الجِن رَغبة مَحمومة في مُشاكَستهم، بَات يَسهَر خصيصًا ليتحرَّش بِهم مُضيِّقًا الخِناق عليهم مُنفرًا ومُخوِّفًا، بحَذر

لا يَضعـه تَحـت طائلة وكيل حكمـدار الداخلية «آرثـر» الذي امتنع عن زيارته والتواصل معه، شَاردًا يتأمّل عُمره المُنقضي في خِدمتهم فيضيق صَدره ولا ينطِق لسـانه قبل أن يُداعبه حِلم توريث اسـمه لذَكر يُكمِل مَسيرة طرد الغرباء من الحيّ، وقتها كان عبد القادر قد شبَّ وخطَّ شاربه وأراد له والده أن يَرث سِيادة المنطقة ومن عليها، فهُو العَصَب بعد أخ مَات بالكوليرا وثَلاث بَنات سيطمسـهن النِّسيان حتمًا مِثل كُل أنثى، لَم يَحرم عبد القادر من التعليم، حَصَل على شَهادة الابتدائية، حَفِظ نِصف القـرآن، وحَضَر صَولات أبيه وجَولاته مَحمولًا فوق عربات الكارُّو في غارات بَسْط النفوذ على الأحياء المجاورة.

افتُتن عبد القادر بسـطوة أبيه لسَـنوات، يَختال بها بين أقرانه ويَفخَر: «أنـا ابن الفتوة يا ولاد الكلب!! ابن الجن العفريت».. عُومِل مُعاملة خَاصة مـن أهـل الحي وأقرانـه، حتى فـي اللعِب كان لـه الحظـوة والأولوية! قَبـل أن تمُـر الأيَّام وتَفتر حَماسـته ناحية إرث أبيه، لم تعُـد الفتوة تُغريه كَمَـا كَانـت، لـم تعُـد السُّـلطة التي يتبعها مَـال، بَاتـت مَع حِكمـة أبيه «المُستحدثة» سُـلطة مـع ضيـق حَـال، فَرهَدة لا تؤتـي الثِّمـار، أقرب لزُهـد الرُّهبـان في صَوامِعهم، عِبء ثقيل ومَسـئولية تبـرَّأ مِنها تدريجيًّا وانسَـحَب، مُؤثـرًا التَعامل مَـع وُجود الإنجليـز ومُجاراتهـم: «وما لهم الإنجليز؟ أقوى جيش في الأرض، خبرة، ونظام، وإحنا شـعب ما يمشّيناش غير الكرباج!» تَعلم عبد القادر لُغتهـم هَربًا من عَباءة الحَارة الضيِّقة إلى رَحْب البدلة الأوربية المُلهِمة! فأبوه لم يَخرج من حَارته مُنذ سَـنوات، مَعذورًا بضيق أفقه مَعزولًا كسَمكة عَمياء في حَوض صَغير، مِسكين لَن

يَعرف أن الزّمن قد تغيّر، لن يُدرك أن الإنجليز باتوا مُنتصري الحَرب وسَاداتها، «لن يرحلوا عن مِصر» باتت مقولتَه الشهيرة، و«كيف لنا أن ندير البلد إذا رحلوا؟» باتَت ثَاني مَقولاته الشهيرة، سَامر جُندهم وصَاحب ضُبَّاطهم في بارات الأزبكية ومسارحها، يُداعبهم كأقرَان تَربَّى بينهم، حتى فَاحت رائحته وطالت أنف أبيه فانقبض، قبل أن يواجهه بما عرف فيرتبك، اتّهمه بالرُّعونة فاضطرب، صَرخ فيه ومَاج واستعر، قبل أن يوقف عمل أُذنه بصَفعة ويجرح أعلى وجنته بفصّ خاتمه فانقطعت الأسبَاب بَينهما، لم يَملك عبد القادر سوى الصَّمت، صَمت تَحوَّل لعِناد متّقِد، يُريد أن يُبرئ سَاحته، وأن يرى الشمس من مَكان عَال، فوق بيوت الحارات الضيّقة المكتومة، وأن يثبت لأب جبَّار أنّه قد يُخطئ.. فلست إلهًا تُعبَد! ولا «جِنًّا» حقيقيًّا تملك الخَفاء، بل والحياة التي تَحياها في حيّك الضيّق سيدًا بلا مال...

ليسَت في الأصل حَياة!

وابتسم الحظ يَومًا لعبد القادر، كان ذلك حين صَحِبه صَديق إنجليزي إلى كَامب التَّل الكَبير وعرَّفه عَلى الكولونيل تريڤور، ليُصبح في أشهر مَعدودات أحَد مورّدي الكامب المَعدودين، استعر سَخط أبيه عليه حين عَلِم، هو الخائن الخارج عن الطوع، هو الابن العَاق، بل هو العار نفسه يَكاد يُخفيه، تَتقابل أعيُنهما فيتساءل عبد القادر: «ألم تَر الأموال التي جرت بين يديّ؟ البَدلة الإسموكنج التي طالما حلمت بها، السَّاعة الأوميجا ذات الكاتينة والأوتومبيل المَرموق الذي يصرع النساء تحت عجلاته؟

ألم يكن ذلك هَدفك منذ أصبحت فتوة الحي يا أبي؟!».

فيرد الأب بسبة غضب من عينيه وصمت مرير.

حين اقترب عبد القادر مِن بَاب مَسجد الرمَّاح لَمح أباه مُتكئًا على كَنبته، كان يُشبهه كثيرًا لَولا شارب أشيب تخللته صُفرة المعسل وبَدانة تزداد مع السِّن، رَافعًا سَاقه ذات الكالُّو الدائم على حَجَر ومُرخيًا لي الشيشَة التي لا تفارقه على صَدره، أسرَع عبد القادر بخُطاه بَعيدًا اتقاءً للمُواجهة لكن الأعين التقت، نَظرة لوم وهيبة باقية اضطرته أن يَثبت مَكانه، ثم بخُطوات ثقيلة أن يقترب، لَثَم اليَد وجَلس، انقضت دَقائق ثقيلة قبل أن يُخرج أبوه من جَيب جِلبابه علبة نُشوق، شد لفتحتَي أنفه المَسحوق المنعش ثم دسَّها في جيبه ورَجع لسكون التأمل، شاردًا في مدخل الميدان كمن ينتظر شيئًا، لَحظات لم يَدر عبد القادر فيها ما يفعله فأخرج ساعته من جيبه، ألقى عليها نظرة ثم قَام يَحُك مُؤخرة رَأسه ضابطًا طربوشه دَافعًا للوقت أن ينقضي:

- طب بالإذن يابا عَشان وَرايا مَصلحة.

لم يتلق عبد القادر إجابة فكَاد أن ينسَحِب حين تكلَّم أبوه دون أن يلتفت.

- مبروك السَّاعة.. حاجة أوربا خالص.

أخرجها عبد القادر من جيبه ومد يده بها.

- والله ما هي راجعة يابا.. النبي قِبل الهدية.

شد شِحَاتة بَلغمًا من صَدره وبَصقه على الأرض فأرجع عبد القادر سَاعته إلي جَيبه مستوعبًا الرسالة حين أردَف أبوه:

- رايح فين؟

- رايح أزور واحد صَاحبي عيَّان وعندي كام مشوار ناحية...

قاطعه: ابقى عدِّي على نظلة مِرات عمَّك توفيق اللي في التالت.. شُفها عَشان بتخلَّص خلاص ومالهاش حد.

- يا حول الله.

- أنت توعى على عَمَّك توفيق؟

- كُت صغير أمَّا مات.. بس عارف إنه كان زي أخوك.

- جَت له طلقة في عينه وهو واقف في الشباك.. طلقة من بندقية «لي إنفيلد».. إنجليزي.. عسكري كان بينضف الماسورة تحت البيت! طلعت الطلقة.. تفتِكِر...؟

هَربَ عبد القادر بعينيه إلى الحي جازًّا أسنانه: الله يرحَمه.

- لو كُت شُفت الوَاد اللي نَشه كُت هَاتعمِل فيه إيه؟

- كُنت فرمته.

- ولو كان صَاحبك؟!

باغته أبوه ولم ينتظِر الإجابة، لاذ عبد القادر بالصَّمت وإن حدَّق في عينَي أبيه تحديًا حتى استفزَّه.

- خسارة فيك الواحد وعشرين أهيف بدلية[1] اللي دفعتها عشان ما تخشِّش الجهادية.. كان زمانك طلعت راجِل.

---

(١) البدليّة: نِظام تـم العمل به في بدايات القرن العشرين كسياسة إنجليزية لإضعاف الجيش المصري عن طريق قبول رسوم محدّدة للإعفاء من الخدمة العسكرية.

ساد الصمت ثواني قبل أن يقوم عبد القادر:

- بالإذن يابا.

- ابتعد بِضع خطوات قبل أن يَصيح أبوه:

- جرام البلا الأبيض اللي بتبيعه وصل كَام يا عبد القادر أفندي؟

كَبَس عبد القادر طربوشه على رأسه ومَد خُطواته كأن لم يَسمعه متمتمًا في سِرِّه:

- ديك أمّك يابا.

الساعة ١٢:٣٠ صَباحًا

بَار «كافيه إچيبسيان».. شارع وش البِركة[١].. الأزبكيَّة

لـم يَكُن «كَافيه إچيبسيان» بَـارًا عاديًا، حتَّى «ديراكاتوس» مُنافسـه العتيـد لم يَبلغ مَكانتـه يَومًا، كَان دائمًا الأفخَـم والأعجَب والأرقى في مُستوى مُريديه، فقَد شهِد جلسات الأمير فؤاد أيام بَطالته قبل أن يَعتلي العَرش ويُصبح السلطان فؤاد، وشَـهِد أيضًا عَربدة سليم السِّلحدار الأرستقراطي المَعروف الذي دَخل البار يَومًا بحصانه مُحاطًا بحاشية من السـود والمَغاربـة والطِّليان يَجرون بَيـن يَديه، قلَـب المَوائد وبَعثر الجُمـوع قبل أن يَدفع ثَمن مَا أفسـده عن طيب خاطِر! كما اشتهر البار بأنه ملتقى رجال الجَيش ومستشـاري المحاكم وكِبار الأجَانب، وحتى الخديـوي المَعزول «عبَّاس حِلمي» كان يَأبى على حَاشيته السَّهر في البارات عامةً.. إلا بار «كَافيه إچيبسيان».. كان دائمًا الاستثناء.

يَتَخطَّى القـادم للبار عَربـات الـدوكار[٢] الفاخرة التـي تَركها روَّاد المَكان قُرب رَصيف المَدخل ليستقبله حـارس المكان بصَدر عَريض وشَـارب مُنتصِـب، يتقدَّمه بحَفـاوة حتى يفتح لـه الباب الكبير ليتلقَّى بقشيشـه قبـل أن يُسـلِّمه إلـى حَسـناء يونانيـة أو إيطاليـة تَرتـدي بلوزة

---

(١) شارع «وِش البِركة» هو شارع نجيب الريحاني حاليًا.

(٢) الدوكار: عربة مجرورة بحصان واحد يركبها أولاد الذوات.

«ديكولتيه» سَاتانية وشَراب شَبك يُشعِل سَاقيها فوق كَعبين لَهما طَقطقات تُدغدِغ الأعصَاب، تتمايل أمامه بغنج في طُرقة طَويلة تُضيئها قَناديل على شَكل أذرُع نُحاسية خَارجة من الجُدران المَرسوم عليها نسوة فَاتنات يَرقصن رقصة «الكَان كَان»، ثم تنزل به دَرَكًا من بِضع دَرجات يُوصِّله للصَّالة الرَّئيسية، تُسلِّمه لزميلة لا تَقِل عنها فِتنة لتأخذ عنه مِعطفه وتسلِّمه ثالثة لتجِد له مَكانًا شَاغرًا وسط زحَام المُريدين.

الصَّالة كانت واسِعة، على هيئة نِصف دَائرة، في المُنتصف مَسرح اصطفَّت عَلى أطرَافه مصابيح مَسنودة على مرآة مُقعَّرة تَعكس نورها على فِرقة من خمسة أفراد تَعزف مَقطوعة لشُّوبان، المَوائد رُصَّت بجانب الجُدران وباتساع الصَّالة حتى وصَل أقربها وأغلاها سِعرًا لبداية المَسرح، عَليها مَفارش مُزخرفة من الدانتيل فوقها شُموع في آنية مُستديرة ونساء تشِع من نحورهن أنوار الحُلي البراقة والماسات بجانب رجال ازدانت أصَابعهم بالخواتِم والسيجار الفاخر، أما الطرقات الخالية بين المَوائد فتملؤها فتيات فاتنات من كُل الجنسيات كالنَّحلات الشغَّالات، يَبعن سَجائر وولاعات وحَلوى فوق عُلبة خَشبية مُعلَّقة بحِزام إلى أكتافهن الناعمة، هذا بِخلاف فتيات «الفَتح» اللاتي يوفِّرن الصُّحبة الغَضَّة والأُنس، يتفرَّقن على المَوائد ليحثثن الروَّاد على فَتح المزيد من زُجاجات الخَمر على شَرف الجلوس مَعهن، وكُلَّما فتحت الفتاة عَددًا أكبر من الزجاجات كَثرت حِصَّتها من النقود، أمَّا البَار فكَان في أقصى اليسار، عَامرًا بمختلف أنواع الخمر، تَحفُّه كَراسي عَالية من الأبنوس كُسيت بالقَطيفة الأرجوانية، جَلس فَوق إحداها شَاب في منتصف الثلاثينيات يَحسبه المُحيطون من الوَسامة أميرًا

من أسـرة مَالكة، فاتِح البَشـرة أميل إلى النّحافة، خصلاته طويلة مُهذّبة تَصِل جبهته بمؤخرة رأسه، عَيناه جادتان وأنفه دقيق وشفتاه مُكتنزتان لا يُعكّـر صَفوهما سوى جـرح قديم على بُعـد سنتيمترات في طرف الصّدغ، يَرتدي بَدلة سموكنج سَوداء خُلِقت لأجله وبابيونًا مُنمّقًا فوق قَميص مُنتشٍ بياقة مستديرة وأكمام تضمهما أزرار برّاقة، يَرشف كأس نبيـذ مُداعبًا أطـراف شَـاربه الطموحة، بابتسامة صفراء يَصُـد الفتيات اللاتـي يحُمـن حَوله يبغين صَيدًا وعَيناه لا تفارقـان الّواردين من البَاب يَفرزهـم فـرزًا، لَحظات وفُتح السّتار ليخرج إلى بقعـة النور رَجل أنيق بمِعطف طويل وشَـعر موَّجته الزيوت، صَفَّق مرّتين منبّهًا ليَسود الهدوء قبل أن يضع أمام فمه مَخروطًا مَعدنيًا ليعلو صَوته ثم تكلَّم:

- أيهـا الجمهـور الكريم، أسعد الله مَسـاءكم، «كافيه إجيبسـيان» يُرحِّـب بكـم ويتمنّى لكُـم سَـهرة سَـعيدة مع فقراتنـا الحَافلة بالمفاجآت المُبتكرة، سَنلتقي بعد قليل بالرَّقص الشـرقي البَديع مـع فاتنـة الشـام ملكـة الرشـاقة «بَديعـة مَصابنـي» بصُحبـة فرقة الشـمعدانات في ثلاثة مَناظر مُبهـرة، أمّا الآن فموعدنا مع البَهجة والسُّرور والمُونولوجست خَفيف الظّل الذي أمتعكم من قبل في رواية كشكش بيه.. حَسَن فَاااايق.

صَفَّـق الحاضـرون فانسَـحَب مُقدّم البرنامـج ليَدخل شَـاب طَويل القَامة أصلع الرأس يَرتدي بدلة زيَّن بنطلونها شَـريط لامِع ورابطة عُنُق مُضحِكة بالكاد تخطَّت صَدره، توسَّـط المَسـرح بعَينين مندهشـتين ثم أخـذ يُشـير لِمَن فـي القاعة واحـدًا واحدًا بسبَّابته كأنه يَعرفهـم قبل أن يُطلق ضَحكة طويلة عَجيبة أضحَكَت الجُمهور بلا مَجهود يُذكر، انتظر القاعة أن تَهدأ قبل أن يُلقي بأولى نِكاته:

- في مرّة سألوا شمّام عن سبب تسمية قناة السّويس بالاسم ده فقال: لأن السُّفن بتعدّي بسويس بسويس.

ضجّت الصّالة بالضّحك في اللحظة التي نَزل فيها الدَّرَك ضابط إنجليزي ببَدلة عَسكرية كَاكي وربطة عُنق زيتية وكاب مُختال، انتبه إليه الجالس على البار وقيّمه قبل أن يَرصُده بطَرف عَينه.. أردف المونولوجست:

- شمّام نزل من الحنطور فلقى الدنيا بتمطر قام لف ونزل من الناحية التانية.

ضجَّت الصَّالة بالضحك ثانية حين تَخلَّل الضابِط المَوائد مُقتربًا من الكَراسي الوَحيدة الشَّاغرة في الصَّالة.. كراسي البار.

- شمّام ضيَّع أمه في السُّوق راح للشاويش قاله: ماشفتش واحدة ماشية وأنا مش مَعَاها.

الْتهى الشاب بكأسه في لامُبالاة مُصطنعة، يُراقب الإنجليزي في مِرآة البَار المُواجهة، جَلس الأخير على بُعد كُرسيين بعد أن خلع الكَاب ووَضعه على سَطح البَار فلَمَعت خصلات ذهبية وعينان زرقاوان، طلب كَأسًا ثم التفت للصالة مُتأملًا الروَّاد بَاحثًا عن صُحبة تُرافقه، فالمِزاج المُتفائل من بعد الحَرب حرر الدم المَحبوس كَمَدًا في الصدور لينصب في نِصف الجسم السفلي.

لَحَظات واقتربت فَتاة من فَتيات الفَتح، يُونانية، الـ H عندها خاء، ترتدي فُستان سَهرة أسود كَشَف عن ثَديين أنوفين وعَجيزة مَغرورة، بالبروتوكول المَعهود أسندت ظَهرها للبَار ورفعت جانب شَعرها

لتكشف عن نَحر برَّاق قبل أن تسدِّد له الغنج بين عينيه وتدعوه أن يشعل سيجارة دسَّتها بين شفتيها، رَمَاها الإنجليزي بنظرة ملل ثم أعرَض عَنها في تكبُّر فاعتدل مَيلها وانسحبت من أمامه تُبرطم بالإغريقية! دقيقة واقتربت شَقراء رائعة بسيجارة غير مُشتعلة، حامَت حوله فأشار بأصابعه أن ابتعدي وداعب الساقي: «هل هناك أزمة كبريت في مصر تلك الأيام؟!»، انسحبت قبل أن تشاغل عَينيه مِنضدة عليها أنثى خمرية فَاحمة الشَّعر قوامها مدملج بجانب رَجُل ثَري الهيئة، لم يَرفع عَينيه عَنها منذ عَثَر عليها، مَسح ثناياها بشَبق طَاغ شَرب من أجله كأسين إضافيين وحَملَق كَمَا الطفل يُريِّل من أجل لعبة يرغبها، فالإنجليز لا يأبهون لأشباه إناث بلادهم، يَعبدون خَلاخيل الخَمريات ذوات المِلاءات اللف، وكَان ذلك ما يعرفه الشَّاب المُراقب، دَسَّ يَده في جَيب سُترته بهدوء وأخرج صُورًا في حَجم وعَدد أوراق الكوتشينة، صُورًا لفتيات عَاريات من كُل الأجناس؛ أوربيات، شركسيات، مِصريات، قوقازيات وسُودانيات، فرَّها سَريعًا تَحت سَطح البار قبل أن يَعزل ثلاث صُور لفتيات تُشبهن في الجسم المدملجة التي أعجبته، مُؤخرات عظيمة وأثداء ترتج وبشرة صلتها الشمس، وَضَع الصُّور الثلاث في المُقدِّمة ثم دَس المَجموعة في جَيبه حين صَاح المونولوجست:

- شُفتم! كل النكت النهاردة كانت عن الشمَّامين اللي بقُم في كُل مكان، مِنغَّصين عَلينا عيشتنا ومبعزقين فلوسهم هنا وهناك، عشان كده أنا باهديهم الأغنية دي وعاوزكم تغنُّوا معايا!
شم الكوكاييين.. خلاني مسكيين.. مَناخيري بتوِن وقلبي حزيين.. وعينيا في راسي رايحين جاييين.

تناغم الحَاضرون مَع المونولوج حين سَحب الشاب كأسَه واقترب من الإنجليزي الهَائم في مَلكوت اللَّحم الخمري، جلس على الكُرسي المُجاور له قبل أن يَهمس بإنجليزية لا بأس بها:

- يبدو أنها المرَّة الأولى لك هُنا!

بفتور هزَّ الضابط رأسه أن «نعم» قبل أن يشيح بوجهه قاطعًا الحديث فاستدركه الشاب:

- أعتقد أنَّك قد أتيت للمكان الخاطئ يا صديقي!

التفت الإنجليزي بفضول: ماذا تقصد؟

- هنا لا يقدِّمون الحُب الذي يَروقك.

نظر إليه الضابط باستغراب فابتسم الشاب ثم أشار برأسه للفتاة السَّمينة: الحُب الحَقيقي.

قالها وأخرج من جَيبه الصور، وضعها بجانب كأس الإنجليزي الذي نظر إليها ببرود وبدون أن يلمسهم سأل:

- ما هذا؟

- صنف قد يغيِّر فِكرتك عن المرأة.

لَمعت عينا الإنجليزي وإن حَافظ على لامُبالاته المُصطَنعة وهو يقلِّب الصور بطرف سبابته ترفعًا:

- هل هُنَّ في البار مَعنا؟

- المرأة الشرقية لا يفوح أريجها إلا في الظل.

سَكت الإنجليزي يَزِن العَرض المُغري قبل أن يَهمس:

- أين؟

- شارع قريب.. مَكانٌ هَادئ تستطيع أن تأخذ فيه راحتك وتشرب مشروبًا يروقك.

- أهو مَكان مُرخَّص؟

- أوراق الكشف الصحّي حاضرة ولا أنتقي إلا أرقى الزبائن.. لا مِصريين ولا هنود.

- وكم قد تُكلِّفني تلك الزيارة؟

- يكفيني أن تُصبح زبونًا دائمًا لشقَّتنا المتواضِعة.. لكن لو ألححت لقلت إن جُنيهًا سَيكون كافيًا لإكرام ليلتك.

- جُنيه!! مَبلغ ضخم من أجل صُحبة!

- لن نختلف.. وصدِّقني ستجد أن فتياتي يستحققن.. والدفع سيكون بعد تقديم الخدمة.

- هيئتك لا توحي بما تقدمه يا...

- اسمي كتكوت.. وإيصال المُتعة لمُستحقيها مَوهبة تسبق سيرتي.. ستُدهشك قُدراتي.. اسأل عني مُريدي الأزبكية.

رفع الإنجليزي كأسه على فمه، تجرَّعه دفعة واحدة ثم ابتسم:

- حسنًا يا كتكوت.. كيف سنفعلها؟

- انهي جلستك وقابلني خارج البار.

قالها كتكوت ثم قام من مَكانه فأمسك الضَّابِط رُسغه وهَمَس:

- لكني أريد تلك الفتاة بعَينها.. لن أدفع إلا لها.

وأشار بتحدٍّ طفولي للمدملجة المصريَّة التي خلبت لُبَّه.

- آه.. أنت تتحدث عن هذه الفتاة؟! لكنها الآن مع صديق آخر! علاوة على أنها ليست أفضل الفتيات، هناك من هي أكثر خبرة. ولا أعتقد أن من المناسب سحبها من بين يدي رفيقها الآن. لم لا...

قاطعه: إما هي أو لا اتفاق.. لقد وَعدتني أن قدراتك ستدهشني!

تأمَّل كتكوت الفتاة السَّمينة والجَالس برفقتها قبل أن يَلتفت للضابط بابتسامة:

- لم أعرِف اسمَك؟

- ميجور أليكس.

- ميجور أليكس.. لن أخيِّب رجاءك.

قالها وغمزه بعينه ثم ذهب مُتأنيًا تجاه مائدة الفتاة السمينة، قبل أن يَصِل إليها أشار لبائعة سَجائر، اقتربت بابتسامة تَعرض منابِت صَدرها وبضاعة فوق الصُّندوق المُعلَّق في رقبتها، التقط علبة سجائر وناولها عشرة صَاغ وحين همَّت برد الباقي استبقاه بين أصابِعها ومال عليها:

- خلِّي الباقي علشانك.

- افخاريستو.

- جريجية! أجدع ناس.. ليا عندك خدمة.. فيه بنت جميلة قاعدة في الترابيزة اللي وراكي.

همّت بالالتفات فاستوقفها بابتسامة.

- من غير ما تاخُد بالها.. دي بتفتح في البار ولّا من برّه؟

كانت مُعتادة بطبيعة عَملها على التوصيل الجيد للحَرارة، ابتسمت ثم التفتت بخفّة لتُلقي نَظرة قبل أن تُجيبه.

- شوشو.. هي تشتغل مَآنا هِنا في البار.

- لطيف جدًّا.

قالها وأخرج من جَيبه قلمًا وورقة، خَطَّ فيها عبارة مقتضبة.. «تمانين قرش.. عَند البَار؟» ثم طبّقها جيدًا ودسّها في كفّها.

- مُمكن تديها الورقة دي؟ بينك وبينها.

- نيه نيه.. فيسيكا.

- شكرًا يا جميلة.

ذهبت فتاة السَّجائر تجاه السَّمينَة فرَجع كتكوت إلى البار بجانب الإنجليزي المُترقّب، جَلس بجانبه دون أن يتكلّم مُراقبًا السَّمينة التي تناولت الورقة بحِرفة وفضّتها تَحت المائدة، قرأت فَحواها ثم طبقتها ومَسحت البار بعينيها حتّى التقت بصَاحب العَرض السَّخي، ابتسم ورفع رأسه مُتممًا عَلى صفقته فغمزت بعينها وَعدًا حين التفت لكتكوت.

- يبدو أن حَديثك عن نفسك لم يكُن مُبالغًا فيه يا كتكوت.. ههههه.. ألا تعني كتكوت فرخًا صغيرًا؟

- صغير.. لكنني جبار.

ضحك الإنجليزي: أستأتي صديقتك الآن؟

- من الأفضل أن نَسبقها حتى تُنهي جَلستها.. فَرفيقها الذي لن يسعده رؤيتها بصُحبة من هو أكثر وسامة.

دَفع الإنجليزي ثمن شرابهما والتملُّق الفاضح ثم خرجا من البار متَّخذين طريقهما إلى بيت المُتعة، ثَرثَر كتكوت في الطريق بقصص مُبالغ فيها عن أصدقاء من مُمثلي المَسارح ومُطربات شهيرات وراقصات يَذُبن فيه عِشقًا حتى قاطَع الإنجليزي استعراضه:

- ألا تجِد غَضاضَة في التعَامل مع إنجليزي؟

- لم تقول ذلك يا صديقي!

- لست أنا الذي أقول.. إنما هو ذلك الرجل.. سَعد...

- آه أنت تتحدث عن سَعد زَغلول.. يا له من مُخرِّف نَسي نَفسه.. كان ناظرًا في الوزارة ثم ابتعد عن الأضواء حين قامت الحرب العُظمى فأراد أن يَعود إليها ولَم يَجد غير المُطالبة بالاستقلال حُجَّة! الاستقلال! يا للعجب!! الإنسان قد يَفعل أي شيء ليَطفو عَلى السَّطح ثَانيًا!

- لكن دَعواه تَجِد صَدى عِند الناس.

- أي ناس يا صديقي؟! المَجنون يُريد مُقابلة الملك إدوارد ليَعرض عليه أن تتركوا مِصر!! وفي بلاده!! يا لها من بجاحة.

- الملك إدوارد مَات منذ سنين.. نحن الآن في عُهدة الملك جورج الخامس.

- فليرحمه الله ويُحسن إليه.. أبعد عِشرة ثمانين أو تسعين عامًا وأنتم ضيوفنا بحلو الحياة ومُرها.. نشرب من نيل واحد.. يأتي ليطلب الرحيل هكذا! أي جنون هذا؟! مثل هؤلاء لا يَعيشون على الأرض يا صَديقي.. حَالمون.. فقط هم يخترعون الكلمات الرنانة ونحن الشَّعب ندفع الثمن.. قد جُنَّ أحمَد عُرابي من قبله وتخطَّى أسياده فتلقَّى جزاءه.. وأين قَضى بقيَّة عُمره؟ في جزيرة الماوماو مع الهنود الحُمر.

- جزيرة سيلان.. المُفارقة أن تمرد عرابي كان السَّبب في قدومنا لِمصر.

- تلك كانت حَسنته الوحيدة إذن.. ليست كُل الأمم بقادرة على رِعَاية مَصالحها.. نحن شَعب هَمَجي.. وغير ناضج.. طِفل إذا أُعطى من الغِذاء أزيد مما يلزم أُتخم.. اسألني أنا!

كانا قد اقتربا مِن ناصية زقاق ضيِّق، توقَّف كتكوت وأشار إلى بيت صَغير في نهايته.

- تفضَّل من هنا.. النافذة ذات الستائر الخضراء.. أتحب مع النبيذ بَعض الجبنة القديمة أو الترمس؟

- لقد شربت الليلة بما فيه الكفاية.

تقدَّم الضَابط كتكوت وهو يتمِّم على المُسدَّس في جَنبه، مَرَّا ببائع خضراوات عَجُوز افترش نَاصية الزقاق، تَخطَّاه الضابط قبل أن يَميل عليه كتكوت سَاحبًا من تحت خيش قفَّته مُسدَّس «ويبلي» مَاسورته مَلفوفة يَدويًا بالمَطاط، دَسَّها في سُترته حين طَلّ العجوز على الشارع الصَّاخب وأشار بيده اليابسة إلى عربجي رَابض على الرَّصيف المُقابل،

قفز من فوق حنطوره قبل أن ينغز مُؤخرة فرسه بشوكة نفضته واقفًا على قدميه الخلفيتين صاهلًا بألم، مُثيرًا بين المارة مَوجة من الرُّعب أوقفت السيارات وعَربات السوارس[1] وقطعت الطريق فرفع صَاحبه سوطًا غليظًا انهال به رَقعًا على بلاط الأرض المُحدَّب وهو مُستمسك باللِّجام، في مُنتصف الزُّقاق سَمع الضابط الضجَّة فالتفت ليَجِد فوَّهة مُسدَّس مُوجهة إليه.

- ماذا تفعل يا كتكوت؟!

- اسمي ليس كتكوت.

ودَوت طلقة تاه صَوتها بَين رَقع الكُرباج وصَخب الشَّارع، استقرَّت في صَدر الإنجليزي الذي ارتد ثم سَقط على ظهره، اقترب كتكوت منه واستخلص المُسدَّس من يَده، تأمل الدِّماء وهي تَفور مِن الفَم عَلى صَدر البدلة العَسكرية، رجفة خروج الروح وعَينين تخبوان ثم تنطفئان، انحنى مَن كَان مُنذ دقائق بائع مُتعة وانتزع من سُترة الإنجليزي زرًّا عليه حَفر بارز لبندقيتين متقاطعتين فوقهما تَاج مَلكي بعد أن أغلق جفنيه بأصابعه، دَسَّه في جَيبه وهُو يتأمَّل وَجه غَريمه، كَان يؤمن أنَّه عندما يقتل ضحية ينتقل إليه منها شيء لا يُدركه، شيء يتوغَّل في قلبه كالحبر في كوب مَاء، يُسيطر عليه، يَصبغه، قبائل الآزتك المكسيكية كانت تأكل قلوب أعدائها لتكتسب قوتهم، أما هو فيأكل أرواحهم، ثم يشعر بهم يمشون مَعه، ينامون بجانبه، يتجولون في سقف غرفته ويكلمونه

---

(١) عربة مظلّلة من الخشب تجرها الخيول أو البغال تستعمل لنقل الأفراد.. أول من طرحها في الأسواق كان الخواجة روفائيل سوارس.

بأعينهم، وأحيانًا يَصرخون، ليس لنا دخل بقضيتك، أو ببلدك الملعون، نحن جُند مأمورون.

أفاق من غفوته بعد لحظات فنفض وَجهه طَردًا للأصوات وانسحب مُسرعًا إلى الشّارع الصّاخِب بَعد أن ألقى بالمُسدّسين في قفّة العجوز الذي لملم فرشته وخرج وراءه بلا كلمة، كُل إلى اتجاه، أحكم الطربوش فوق رأسه ثم مَد خُطواته مُبتعدًا.



البناية كانت تطل عَلى سوق باب اللوق، عمارة ضَخمة مُزيّنة بقبّة ونقوش بَديعة وتَماثيل، ارتقى السّلالم قفزًا للدور الرّابع قبل أن يَدس مفتاحه في الباب، بحَذر نزع حِذاءه بَعد أن كَتم وَسوَسة المَفاتيح في قَبضته، تَسلل إلى غُرفته وشَرَع في خَلع مَلابسه حين سَمع النّداء.

- أنت جيت يا أحمد؟

زَفر ضيقًا: أيوة يا أمي.

تَحرّك ظل المصباح على البَلاط تحت السيّدة التي تَحمله، النّار أضاءت أطراف شَعرها الأبيض المُتناثر فبَدَت شَمسًا تسير ليلًا، دَلفت من الباب بوَجه يُعاني سَكرات النّوم:

- يَعني من صَباحية ربنا كده ولا حِس ولا خبَر!!

- مَعلش.. النهاردة كان فيه تفتيش عَ المَعامل.

- تفتيش لنُص الليل يا أحمد؟ وببدلة سموكِن!!

خَلَع قميصه بَعدما أخفى صور الفتيات العارية تحت السُّترة.

- تفتيش م القصر.. الأمير إبراهيم حِلمي زارنا النهاردة.. عاوزاني ألبس إيه؟ وبعدين قابلت صحابي.

- في الأزبكية طبعًا، مع المشخَّصاتية والصيِّتة والعوالم، وأنا قاعدة هنا أضرب أخماس في أسداس.

- أنا ما روحتش الأزبكية يا أمي.. كنَّا قاعدين على القهوة بنلعب طاولة.

- متاتيا تاني يا أحمد!! القهوة اللي ضيعت أبوك!

- يا أمِّي والقهوة مالها بس؟!

- هو برضه كان يقول لي كده.. والقهوة مالها يا سعدية؟! لغاية ما الصُّحبة الشؤم اتلمّت عليه.. كلهم ربنا كَرمهم وعِليت مَراكبهم وهو راح.. وأنت عاوز تحصَّله عشان تحرق قلبي.

- يا أمي...

قاطعته: محمَّد عبده وعبد الله النديم وسعد زغلول، حَد فيهم افتكر أبوك بعد ما مات؟ حد فيهم قال لي أنتِ منين يا كلبة ولّا سأل عليك حتى؟

- يا أمي!! النديم اتنفى ومات في بلاد بره.. ومحمَّد عبده نفوه بيروت.. وسَعد زغلول...

بعَصَبيَّة قاطعته: هايودِّي نفسه في ستين دَاهية إن شاء الله.

- وما بيقعدش على قهوة مَتاتيا يا أمي... ما بيقعدش عَ القهوة.

قالها واقترب منها مُتأملًا عَينين لائمتين غزتهما الدموع قبل أن يُحيط رأسها بكفَّيه تهدئة ويَلثم مفرق شعرها.

- أنا كويِّس يا أمي ما تخافيش.. الشقاوة خِلصت.. م البيت للمعمل، وم المعمل للبيت.. صدقيني.

- والله ما هاستحمل أشوفك تاني في السجن يا أحمد.

ثم ابتعدت فجأة حين لاحظت نثرات دِماء على قَميصه فعَاجلها مُداعبًا:

- مَا تخافيش.. دَه دم.

- دم!!

- أنا شغال في مَعامل مَدرسة الطب يا أمي.. عاوزاني أتعاص إيه.. عِرقسوس؟!

ضحكت وهي تواري دموعها قبل أن تستطرد:

- نفسي أفرح بيك.. أشوف لك عيل قبل ما...

- ربنا يديكي الصحَّة يا أمي.

- اتعشِّيت؟

- اتعشِّيت.. خشِّي نامي بقة.

خرجت تاركة المصباح منيرًا له، زَفَر ارتياحًا ثم التقط من مَكتبته المُزدحمة علبة من الصَّاج اندسَّت بين الكُتب، عَالج قفلها الصَّغير ففتحها ثم وضع يَده في جَيبه ليُخرج زِرًّا، زِرًّا عَليه حَفر بارز لبندقيتين مُتقاطعتين فَوقهما تَاج مَلكي خضَّبته دِماء جافَّة، تأمَّله قَبل أن يَضمَّه إلى سَبعة عشر زرًّا أخرى جَمَعَها على مَر سِنين ثم أشعل سيجارة وجَلس على طَرف فِراشه يَتمعَّن في الصُّورة العَتيقة المُثبتة في باطِن

العلبة، صُورة لرَجل في لَون بَشرته وقسماته، يَجلس مُبتسمًا وانقًا في بَدلة مُهندمة وبجانبه صَديق على مِنضدة في قَهوة اسمها نُقِش على باب زُجاجي خلفهما؛ «متاتيا»، وتحت الصورة كُتب بخط مَائل جميل:

«عبد الحي كيرة وسَعد زغلول.. يناير ١٨٨١».

وكانت لتلك الصورة قِصّة.

عَبد الحيّ كيرة، أب لَم يُقابله أحمد، عَاش طفولته يَستجدي المَعلومات عنه ولم يتعدَّ مَا جَمع القُصاصات، جَمَعها ونقّحها فصَنعت صُورة شَبح، شَبح كَان يَعمل ضَابطًا بالمدفعيَّة حين أُلقي القَبض عليه وحُوكِم ليُعدم ضِمن عدد محدود جدًّا من العسكريين الذين شاركوا عُرابي في الثورة ضِد الخديوي قبل سبع وثلاثين سنة.. تَرك الأب وراءه صُورة باهتة بزي عَسكري على جِدار، وزوجة اشتعل رأسها شيبًا لَحظة أُعدِم رميًا بالرصاص، وطِفلًا، نَشأ في فقر فرضته ضَربات القَدر، حَياة مطموسة التفاصيل في بيت لا تُذكر فيه سِيرة الأب المُتمرِّد أو الإنجليز حتى لا يتخذهم الابن عَدوًّا وتستعِر فيه رَغبة الانتقام فيسير على دَرب أبيه..

انكفأ أحمد مُنذ وعى على الدراسة، وفي وقت فراغه لم يَترك مَحلًّا في الحيّ إلا وعَمِل فيه، مُساعِد ترزي، صبي بقال، صبي عَجلاتي، صبي صَانِع طرابيش وحتّى مساعِدًا لساحِر فرنسي في سيرك عاكف، أتقن على يَديه الفرنسية وبعض ألعاب السحر والتنكر، ثم التحق بمَدرسة الطِّب؛ أنهى دِراسته فيها فعُيِّن بمَعامل الكيمياء بمرتَّب بالكاد يكفيه شَظف الحياة، مُوظَّف شَاب ليس له شأن بالسياسة، يَنكب يوميًّا على قوارير مَعمله حتّى لو خَرَجت المُظاهرات لتُنادي بسُقوط

السُّلطان الـذي قبل العرش في ظِل الاحتلال، بَل ويَملك صَداقة مع أسـاتذة ومديـري مَدرسـة الطب مِـن الإنجليـز، فهو ناعم القـول مُتقن للغتهم مَرح ومثقف، ويظنونه متفهِّمًا للفروق الجينية التي تُؤكِّد تفوقهم على أبناء جنسه.

والأهم.. يُجيد إخفاء ماضيه بابتسامة لبقة.

تلك كانت الشخصية الظاهرة، أما في الباطن فكانت جذوة الحَريق مُشتعلة بين الضلوع، حَريقًا يشم أحمد دُخانه ولا يرى له لهبًا، صُورة الأب في صالة البيت لم تكن الصورة الباهتة المَائلة المُتهرئ خيطها، كانت ملونة متينة تتكلم معه ليلًا! تُناديه وتُناجيه بنظرات عَين لم تَمُت، تبثه رسالة يجاهد في فك شفرتها، رسالة استغاثة! وحين يَسأل أمّه عمّا حدث تُمطر سعد زغلول ورفاقه بأقذع الشتائم وأشد اللعنات، قبل أن تصمت كبئر نَضبت.

ظل أحمد يبحث عن الإجابة سنوات حتى جَاءه الرسول في المَعمل يومًا، رَجل ريفي اللكنة يرتدي بَدلة مُهندمة وقفازًا، بكَلمات مُقتضبة أخبره برَغبة سَعد بَاشا في مُقابلته، سَعد باشا زغلول! أذهله الطلب وإن كتمه عن أمه لحَساسيَّتها تِجاه كل من أحاطوا أباه يَومًا ولم يَموتوا مَعه، فهُم الخَونة ولا جِدال، هُم من باعوا القضية وصَافحوا الإنجليز وعَاشوا بفضل تضحية زوجها، وتَضحيتها، وبالذات سعد زغلول الذي صَاهر السُّلطة وترقى في المناصِب وكان يشغل وقت أرسل في طلب أحمد مَنصب ناظر الحقّانية.

ذَهب أحمد إليه بَعد تردد، مُحمَّلًا بفضول يقتله وزكَائب تَخوين وعَلامات استفهام لا يَعرف كيف يَطرحها، قَابله في بَيته الكَبير بمنطقة

الإنشاء بالسيدة زينب، بعيون مُقتحمة وشارب منفوش، الثراء كان باديًا على هيئته رغم تواضع نفسه وخشونة مَلامحه الريفية، صافح أحمد بحفاوة ثم سَحبه من يَده إلى غُرفة الطَّعام، أجلسَه على المائدة بجانبه ثم صَرَف الخَدم وأبقى زوجته صَفيَّة هانم، سيِّدة رزينة مُمتلئة القوام مُستديرة الوَجه أنفها طويل حَاد وفي شَعرها خصلة بَيضاء وَهبتها وقار أمومة حُرمت منها، ابتسمت تحيَّة لَه قبل أن يستفسر سَعد عن دراسته وعَمله وحَال أمه الذي أجاب عنه أحمد باقتضاب ثم سأل:

- مُمكن سعادتك تِحكي لِي عَن أبويَا؟

نظر له سعد ثواني ثم تكلَّم: والدتك أكيد حكت لك.

- أمي ما بتتكلمش عن المَاضي.. نِهائي.

وَزَن سَعد الرد قبل أن يَسحب نفسًا ويقُص عليه قِصة.

قصة الأب الذي لا يَعرفه!

- والدك كان أجرأنا الله يرحمه، كان يهاجِم الخديوي بصوت عالي في قهوة مَتاتيا، يزعَّق ويشتِم ولا يهِمه، كان أجرأنا رَغم أنه بكباشي في الجيش وعيون الخديوي في كل مطرح! وقتها كانت كُل حاجة ماشية تمام، الخديوي وافق على مَطالب عُرابي[1] لما وقف ضده في القصر، كان أول خديوي يخاف من المصريين! عُرابي صِيته بقى في السما، وكلنا واقفين حواليه، وفي يوم، حصلت حادثة مَكاري[2] مَالطة اللي اتخانق مع مَصري وقتله في

---

(١) مطالب الجيش: إسقاط الوزارة المستبدّة، تشكيل مجلس نوّاب، زيادة عدد الجيش المصري.

(٢) المكاري: مرافق لحمار النقل.

الإنشاء بالسيدة زينب، بعيون مُقتحمة وشارب منفوش، الثراء كان باديًا على هيئته رغم تواضع نفسه وخشونة مَلامحه الريفية، صافح أحمد بحفاوة ثم سَحبه من يَده إلى غُرفة الطَّعام، أجلسَه على المائدة بجانبه ثم صَرَف الخَدم وأبقى زوجته صَفيَّة هانم، سيِّدة رزينة مُمتلئة القوام مُستديرة الوَجه أنفها طويل حَاد وفي شَعرها خصلة بَيضاء وَهبتها وقار أمومة حُرمت منها، ابتسمت تحيَّة لَه قبل أن يستفسر سَعد عن دراسته وعَمله وحَال أمه الذي أجاب عنه أحمد باقتضاب ثم سأل:

- مُمكن سعادتك تِحكي لِي عَن أبويَا؟

نظر له سعد ثواني ثم تكلَّم: والدتك أكيد حكت لك.

- أمي ما بتتكلمش عن المَاضي.. نِهائي.

وَزَن سَعد الرد قبل أن يَسحب نفسًا ويقُص عليه قِصة.

قصة الأب الذي لا يَعرفه!

- والدك كان أجرأنا الله يرحمه، كان يهاجِم الخديوي بصوت عالي في قهوة مَتاتيا، يزعَّق ويشتِم ولا يهِمه، كان أجرأنا رَغم أنه بكباشي في الجيش وعيون الخديوي في كل مطرح! وقتها كانت كُل حاجة ماشية تمام، الخديوي وافق على مَطالب عُرابي[1] لما وقف ضده في القصر، كان أول خديوي يخاف من المصريين! عُرابي صِيته بقى في السما، وكلنا واقفين حواليه، وفي يوم، حصلت حادثة مَكاري[2] مَالطة اللي اتخانق مع مَصري وقتله في

---

(١) مطالب الجيش: إسقاط الوزارة المستبدّة، تشكيل مجلس نوّاب، زيادة عدد الجيش المصري.

(٢) المكاري: مرافق لحمار النقل.

قالهـا وسَـكَت، هَـرب إلى النافـذة بعينيه مُـدركًا أنه للتـو انتهى من خِطاب سِياسـي طويل علّ الجُمهور ييأس أو ينام، لكن عينَي أحمد لم ترمشا لحظة.

- ويوم ما مَات؟

ابتلـع سَـعد ريقه ومَسـح فمه بمِنديـل المَائـدة قبـل أن يَرجع لظهر الكُرسي مُتبادلًا النظرات مع زَوجته التي أغمضت عينيها في ألم.

- يوم التنفيذ وقف وسـط زمايله رَاجل، رَفَض القُماشة السُودة على عينيـه، ولما عمروا البنادِق فِضل يشـتم فيهم لآخر نفس: خونة.. خونة.. لغاية ما... السِّر الإلهي طِلِع.

سَـاد الصَّمت إلا من صوت جزَّات أسـنان أحمـد.. اختلجت عيناه وإن لم تخوناه فاستجمع نفسه.

- ومَعاليك بعد كِده توافق تبقى وزير في حكومة إنجليزي!! نسيت نضالك والناس اللي ماتت؟ نسيت إن الإنجليز أعداء؟

تبـادل سَـعد زغلـول النظـرات مـع زوجتـه فقامـت مسـتأذنة قبل أن يستطرد:

- في الوزارة أنا قادر على النفع أكتر من خارجها، أحسـن ما نسيب مناصبنـا لناس أضعف، أو إنجليز يحطونا تحت رجليهم يا ابني.. هو ده الفرق ما بيني وبين أبوك.. أنا مش حالم.

سَـاد الصَّمت لحظات مَسح فيها سَعد فمه وأطراف شاربه بالمنشفة ثم أردف:

- عَشان تفهم تصرُّف حد «البس جزمته» زي ما بيقول الإنجليز، إحنا كنا متوكِّلين على فرنسا تقف جنبنا في مفاوضتنا لخروج الإنجليز من البلد، لكن سنة ١٩٠٤ حَصل بينها وبين إنجلترا الاتفاق الودي، بموجبه فرنسا سكتت عن احتلال إنجلترا لينا، وإنجلترا سكتت عن احتلال فرنسا للمغرب والجزائر، في اليوم ده مصر انقسمت مُعسكرين، مُعسكر صَمم على عدم التعامل مع الإنجليز نهائيًّا، ومُعسكر قرر يدخل جواهم، يكون مُؤثر عشان يوفر فرصة أحسن للتفاوض ولخدمة أهل البلد، فترة كمون، لغاية ما نقوى، وده كان اختياري، ما دامت فرص الحرب مَعدومة.

- ومَعاليك ما افتكرتش تسأل عَن أسرة كيرة؟!

- يا ابني.. أنا قصَّرت في حقك وحق والدتك.

نطقها سَعد بندم فدسَّ أحمد وَجهه في الطبق محاولًا استيعاب النور الذي أضاء ماضي أبيه من بعد عتمة، أكملا طَعَامَهما بشرود قبل أن يقوم سَعد إلى مكتبته ويُخرج منها كرَّاسًا مَسطورًا بأبيات شِعر في حُب الوطن.

- أبوك كان بيحب الشِّعر.. كان متأثِّر بالبارودي[1].

ثُم أخرج صُورة مَحشُورة بين الصفَحات لهما معًا في قهوة متاتيا، الصُّورة الملصوقة حاليًا في علبة الأزرار.

- أنا ما عنديش لأبويا غير صورة واحدة على الحيطة!

---

(١) اللواء محمود سامي البارودي: شاعر مصري ورائد مدرسة الإحياء والبعث في الشعر العربي الحديث.

- آسف يا ابني إني تأخرت في طلبك.. لو احتجت أي حاجة أنا بيتي مفتوح.

انتهت المقابلة، صَاحبه سَعد حتى الباب وتسلَّمه خَادم ليرافقه عَبر الحديقة إلى بَاب الخروج، تمشَّى وَاجمًا قابضًا على كرَّاس أشعار أبيه والصُّورة، مَشى بضع خطوات قبل أن يجذب عينيه طيف في الحديقة، اختلس نظرة فرأى شفافة رقيقة تَرتدي فستانًا أبيض، تقف في أدب أمام صَفيَّة هانم زوجة سَعد باشا، رشيقة القد وَجهها مُشرب بحُمرة، شَعرها أسوَد مُتموِّج يَصِل إلى مُنتصف ظهرها، وشفتاها صَغيرتان مَضمومتان تحت عينين واسعتين التقت به للحظة كانت كافية لحفر بئر عميقة في صَدره قبل أن تختلج عيناها فتُلقيها بَعيدًا عنه.

- دي بنت سَعد باشا؟

سَأل الخادم فحَدجَه بضيق: سَعد باشا ما عندوش ولاد!

رَحل أحمد، لم يَرها من بَعد ذلك اليوم، استقرت في نفسه طيفًا باردًا كريمًا عكَّره الدُّخان المتصاعِد من صَدره، رائحة شواء وَطن، بُركان مُتحفز أشعله مشهد مَوت أبيه، وكلمات سَعد، لَم يَدر بنفسه إلا وهو يَصنع قُنبلة بدائية بمعمل مَدرسة الطب! استقى وصفتها من كتب الكيمياء وجرَّبها مَع صديق مُتحمِّس في أرض مَهجورة فانفجرت بالخطأ لتُصيبه بشظية في صدغه وتمزق إبهام صَديقه، ازداد إصراره فَصَنع واحدة أخرى، ونَوى أن تكون من نَصيب السُّلطان، ألقاها صَديقه مبتور الإبهام، تحت عَجلات العَربة السُّلطانية لكنها لم تنفجر، سِيق الصَّديق للسجن بعدما رآه أحد الشهود وتم القبض على أحمد كيرة

ضِمـن المُشـتبه فيهم قبل أن يخـرج لعَدم كِفاية الأدلّـة، ولعَدم اعتراف صَديقه المُخلِص الذي حُكِم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ولوَسَاطة خَفية من سَعد زغلول.

حيـن خـرج أحمد مـن التحقيقات أقسَـم على القرآن أمام أمه التي ازدادت شيبًا على شيب أن لا يرتكب العَمل الوَطني ثانية فكفاها واحد من آل كيرة يُعدم.. لكن الحنث خُلِق ليُفعل!

ما هي إلا سنوات وعاد الحريق ليستعر في صدر أحمد، لكنه اكتفى تلك المرة بشراء الأسلحة من مُرتزقة الحرب أو سَرقتها لتنفيذ عمليات قتل فردي مَحدودة تترك أثرًا مُرعبًا على قوات الاحتلال، بمُساعدة من بعـض الزملاء المَوثوق فيهم مـن متاتيا.. دَومًا متاتيا! كانت يَومًا مَحطةً أبيه.. وبَاتت بالنسبة لأحمد...

المُنطلق.

السَّبت ٨ مارس ١٩١٩.. حي الإنشاء.. المُنيرة

لم يكن سَعد مُؤمنًا بمَاكينة الحِلاقة الجَديدة ذات الشَّفرة الصَّغيرة، يُطلِق عليها «مَاكينة الأطفال»، كَان يَحترم الشَّفرة التقليدية التي تجلَّخ بالاحتكاك على القايش الجلدي قَبل أن يُمرِّرها عَلى ذقنه، ذقنه الذي لم يُطِله يَومًا، كانت تُعطيه دائمًا مَظهَر المَهموم وتُضيف إليه مِن العُمر سِنين فوق السنين التي تخطَّت اليوم ستِّينًا، صَوت حَش الشُّعيرات كان يبعث راحة غريبة في نفسه، ينظر لنفسه في المرآة فيشعر أنه رَجع شَابًا في العشرينيات، يتذكَّر وقتها الهَاجِس الغريب الذي كان يُراوده بشأن اسمه، سَعد زغلول، سَعد زغلول! يتردَّد في رأسه هَمسًا فتحاصره فِكرة مُلِحَّة، إن الأسماء بعضها خُلِق ليُطمَس ويغيب في طَي النِّسيان، وبَعضها خُلِق ليُخلَّد ويُذكر، وأخرى خُلِق ليلحقها العَار! وَقْع اسمه وسيرته يقولان إنه لن يَخرج عن النوعين الأخيرين! فمُنذ فَشلت حَركة عُرابي والهَواجِس تكوي صَدره، لا شيء أسوأ من ثورة مَبتورة، ثورلم تُحسَن ذبحته وسيطيح بكل من أمامه، لا شيء أسوأ من انتفاضة حرَّية تُصبح بداية عبودية لا تنتهي، يَوميًا تُهاجمه التساؤلات: «ماذا لو لم نثُر وراء عُرابي؟ مَاذا لو سَكتنا مُؤقتًا على التدخل الإنجليزي في البلاد وفَساد الخديوي؟ أما كان أفضل لنا أن يحكمنا رجل رخو فاسد مِن أن نُصبح مُحتلِّين من بلد آخر؟ كنت أظنني يومًا أعرف الإجابة الصحيحة.. لكني لم أعد مُتأكِّدًا!».

مرّت الأيـام تدفِن في طريقها الذكرى الأليمة، مَاحية أسماء رجال ودِمـاء خلفوها علـى الأرض وراءهـم، تاركة عَار الهزيمـة والاحتلال يَسيران بين الناس في الشوارع، هَجَر سَعد قهوة متاتيا الثائرة وانغَمس في دِراسـة القَانون، ثـم عَمل مُحاميًا قَبل أن يتقلَّب في الأوسـاط العُليا ليتعـرَّف بصَفيَّة ابنـة رئيس الـوزارة الأكثر شُـهرة في عهـد الاحتلال؛ مُصطفى باشـا فهمي! تزوَّجا، وظن يَومها أن حياة جديدة تنتظره، وأن النسـيان قـد غلَّفه وأخمده، تولَّى بعد ذلـك وزارة المعارف ثم الحقانية وانخـرط فـي السياسـة، وراج وقتها أن ذلـك بفَضل نفـوذ حَميه رئيس الوزراء، ولم يكن ذلك بَعيدًا عن الحقيقة بكثير رغم أن سَعدًا دبلوماسِي مُحنَّك وسياسي بالفِطرة! حتَّى أنه فوجئ بنفسه يومًا صَديقًا للمندوب السَّامي البريطاني!

مرَّت السنوات على سعد في إيقاع تقليدي حتَّى لاحَت بَوادر الثَّورة بدَاخلـه ثانيًا، طنين خافت لم يَعُد يتوقف، بقايا كرامة تتنفَّس، تشـقَّقت العلاقـة بينه وبين الخديـوي لأنه لم يَرضَ بالنفـوذ الأجنبي في الوزارة ليخـرُج من مَنصبه مَدحورًا بَعد أن كان يسـتحق رئاسـة الـوزراء بحُكم أقدميتـه، ومـا لبث الخديـوي أن نَحـاه عن الحَيـاة العَامـة وضَيَّق عليه سُبُل الحياة.

انزوى سَعد في بَيته مُكتئبًا يَتحاشى جَاهدًا الانغراس في رِمال اليَأس المُتراكِمة، حتَّى سَـحبته رِجلاه تدريجيًّا إلـى «كلوب محمد علي»؛ نادٍ اجتماعـي لا يرتـاده إلا الأمراء وأصحـاب المَقام الرَّفيـع، لَعب القمار قَتلًا للوقت فغرق فيه، أدمنه، يَسهر حتَّى مُنتصف الليل مع البرنس فؤاد وبعض الباشـوات، يَكسب حِينًا، وأحيانًا تتعدَّى خسارته مائة وعشرين

جنيهًا في الليلة الواحدة! ظل على ذلك الحال حتى بدأت انتخابات الجَمعية التشريعية، البَديل «الركيك» لمَجلس الشورى المُؤجلة إقامته بأمر الاحتلال، ونَجح سَعد نجاحًا ساحِقًا لمواقفه الحاسِمة وسُمعته النظيفة، ليتولى منصب وكيل الجَمعيّة سَنة ١٩١٣.. هَجَر الحُزن واليأس ومِنضدة القمار، سَعيدًا بالعودة للحياة مُتحمّسًا لإحياء قضية الاستقلال.

لكِن شُعلة الحَرب العُظمى ما لبثت أن اضطرمت بعد شهور قليلة!

توقفت البلاد عن التنفس وعَطَّل الإنجليز عَمل الجمعية التشريعية وأعلنوا الحِماية على مِصر والأحكام العرفية!

رَجع سَعد إلى بَيته مَغمومًا، يقضي وقته نَهارًا في مُطالعة الجَرائد مَبتورة الأخبار، وفي ليله يَنجذب كالمَسحُور عائدًا لمائدة القمار، حتى كانت ليلة خَسِر فيها ثلاثمائة جُنيه فقام مُغاضبًا نَفسه حَانقًا على حاله، تَمشّى حتَّى بَيته يَضرب بعَصاه الأرض، تراوده فِكرة الهِجرة مِن مِصر، ليجِد زوجته صَفيَّة مُستيقظة في انتظاره، رَدَّت سَلامه ببرود لم يَعهَده ثم سَألته: «أي طَريق تسوق نفسك؟ لقد نفد صبري وتراكمت عليّ الآلام، كفى أنني وحيدة بلا ولد، بلا سَنَد، وأين أنت؟ تضيع مني في سبيل عادة نهمة ذميمة!! لقد كُنت مُؤمنة بِك يومًا، لن أتحمَّل أن أراك حقيرًا في نظري».

وامتثل سَعد لرجاء زوجته بعد أن بات ليلته ينظر لصورته في مرآة الغرفة مُحاولًا مَنع نَفسه من الانتحار.

بَعد أيام قليلة لاحَت بَوادر انتهاء الحَرب، انتعش أمَل الاستقلال في نفس سَعد ثانية، وبمَا أنه كان وكيل الجمعية التشريعية فقد بدأ في

مُخاطبة الجَانب البريطاني، طلب حُضور مؤتمر صُلح ما بعد الحرب في باريس، مُؤتمر «فرساي» لتقسيم التركَات الاستعمارية بين الدول الكبرى، ذَهب سَعد بصحبة رفيقيه «علي شَعراوي» و«عبد العَزيز فهمي» في وَفد لمُلاقاة المَندوب السَّامي البريطاني، يَومها كادت صَفيَّة تموت قلقًا، فالاعتقال عند الإنجليز رُوتين يَومي، ظلَّت في الحَديقة قلقة تنتظره حتَّى عاد فحَكى.

قابلهم الإنجليزي ببرود ثم صرَّح لَهُم أن مِصر لا تستطيع أن تسير وَحدها بدون [illegible]اع صَالح يقودها ويَحمِيها! فرد سعد: «وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المُستقلة؟ فأجابه الرجل بأن «المصريون ليس لهم رأي عَام بَعيد النَّظر، وغير مؤهلين لحُكم أنفسهم، ثم إنكم كنتم عبيدًا للأتراك! أفتكونون أحط لو أصبَحتم عَبيدًا لإنجلترا؟!»، فرد علي شعراوي: «إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صَداقة الحُر للحُر، لا العَبد للحُر».. وكان رد الإنجليزي: «ومَن أنتم لتتحدَّثوا باسم الأمة؟». وانتهت المقابلة!

في اليوم التالي قرر «الوفد» جَمع التوكيلات من الشَّعب لتُصبح لَهُم الشرعية «رسميًّا» في مُخاطبة الإنجليز في شَأن الاستقلال...

هنا جَرح سَعد ذقنه، شقَّت الشفرة جلده فسَالت نُقطة دَم على رقبته قبل أن تنزلق إلى جِدار الحوض، وَضع قُطنة مَغمورة بالكُحول على الجرح ثم هذب أطراف شَاربه الأبيض بمقص صَغير قبل أن يُرطِّب وجهه بالكولونيا ويُسرِّح شَعره، خَرج بَعدها إلى غرفته والتقط من الدولاب بَدلة داكنة، ارتداها فوق قميص أبيض وصديري ثم نفض

طَربوشه القَاني من غبار بَسيط علق به ووضعه على رأسه مائلًا إلى الوراء قليلًا كما تميل اللبدة الفلاحي ثم جلس على المَكتب العَريض المُواجه للشبَّاك، يتابع عقرب سَاعَته ويسمع صوت تكتكاته تتضخم حتى باتت كدقَّات طبول الحرب، دقَّات غطت على صوت الضجَّة في الخارج فاليوم كان يَوم التنظيف، الخَدَم يشمرون سَواعدهم قَالبين أثاث البَيت رَأسًا على عَقب، يلوحون بالمكانس في الأسقُف مُزيلين خيوط العنكبوت من الأركان، يريقون المَاء والصَّابون على السَّلالم الرُّخامية بسَخاء، ويلمِّعون أخشاب الباركيه، أما السجَّاد فتم تَنفيضه قُرب الإسطبل، بَعيدًا عَن الحَديقة الوارفة التي جلست فيها سَيِّدة الدَّار على مِنضدة صغيرة وفي يَدها كُوب شَاي بارد نَسيت أن تَشربه، مَهمومة مَقبوضة النَّفس شَاردة في حَركة الخَدم الرَّتيبة تتأمَّلهم بعَينين امتلأتا قلقًا، أطلقت زَفرة حَارة لمَّا تطلَّعت لجَنبات بَيتها الكَبير، مَلأت عينيها مِن أركانه كأنَّها تراه لأوَّل مرة، تتذكر يوم انتقالها إليه حين انتهى سعد من بنائه وتزويده بالأثاث من فرنسا وفيينا وألمانيا، بَيت يَليق بابنة بَاشا ورئيس الوزراء، كانت تشعر بالبهجة لا بالتشاؤم التي تحسه الآن «لَن أعيش للأبد ابنة البَاشا وزوجة الوزير المَرموق، لن أظل سيِّدة المُجتمع والحفلات المَحبوبة وصَاحبة البيت الكبير، سيَحدث شيء مُثير، مُزلزل، بسبب نشاط سعد الذي بات حديث البلاد، سيصبح مَحبوبًا يَصل لمرتبة الأنبياء، أو أخرق مَجذوبًا لن يأتي للبلاد ولبيته إلا بالدمار، كمَا فَعل عُرابي من قبله! يُواجه جيش إنجليز مُنتصِرًا، الرصاصة فيه.. لا ثمن لها».

أفاقت صَفيَّة من خواطِرها حين التقطت أذناها جَلبة العربة عِند مَدخل البَيت، لَحظات ولاحَت نَازلي في فُستان يتهادى تَحت رُكبتيها

في خِفة، رشيقة كغزال، عَقصت شَعرها ضَفيرة سَميكة تَدلَّت على كتفها قُرب وجه تلوح فيه الرَّوافد الفرنسية من أمها؛ صَديقة صَفيَّة العزيزة التي ماتت مُنذ سنوات بمَرض عضال بَعد أن أوصَت إليها برعَاية صَغيرتها.

اعتنت صَفيَّة بنازلي، حِرمانها من الإنجاب جَعل مِنها ابنه حقيقية لها ولزوجها سَعد، تُناديهم بأبي وأمي، ولا يَكاد يَمُر يوم إلا وتَأتي لزيارة بيتهما، تفطر مَعهما أو تلحق بهما وقت شَاي العَصر قبل أن تُجالس صَفيَّة في الحديقة للعب الكوتشينة، لعبتهما المفضلة، تَحكي أسرارها وأحلامها وتأخُذ برأيها في شأن الخَاطبين، طَالبي الود والوصَال التي تنبذهم لعَدم توافقهم مَع مِزاجها الخَاص، فهي فَتاة جميلة مرغوبة، سَليلة عائلة قوية خليط من اليونانيين والمصريين والفرنسيين، مُدربة على الإتيكيت ولا يأتيها راغب إلا من أبناء الأمراء والباشوات، طالبي الراحة بلا تعب مُبرَّر، أمَّا هي فجوزائية مُتقلِّبة المِزاج تعشق كَسر القواعِد كالبَحر الهَائج، تُزعجها التقاليد الاجتماعية المُتكلفة والحَفلات الصَّاخبة التي تَحضرها على مَضَض مع والدها مُحافظ القاهرة، تَشتكي دَومًا من وَضع الإنجليز في البلاد، وأذناها لا تتَّزِنان إلا بآراء أبيها سَعد في السياسة.

أقبلت نازلي وابتسامة مُشرقة تعتلي وجهها:

- بونسوار مَامَا.

- بونسوار يا حبيبتي، تعالي في الظِل.

جَلَست نَازلي فأشَارت صَفيَّة لخادم اقترب:

- حَضِّر الغدا ونبِّه الباشا.

هزَّ الخادم رأسه وابتعد حين لَمَحت نازلي الشُّرود في مَلامِح صَفيَّة:

- مَالك يا ماما؟

تظاهرت صَفيَّة بابتسامة: سَلامتك يا حَبيبتي.. ماليش.

- فيه حاجة؟ بابا بخير؟

أطرقت برأسها إلى السماء قبل أن تزفر: بخير.. كل يُوم يعتوا اللي يحذر واللي يتوعَّد.. حتَّى أقرب الناس بِعدوا.

- جبانات.

- معذورين.. اللي شافوه مش قليل.. ومين يقف قدَّام سلطان وإنجليز؟!

- أنا خايفة على بابا سعد.

- هيه.. تَعالي نتكلِّم في حاجة تانية.. احكي لي.. عملتي إيه مع العريس؟

- لو كنتِ موجودة ما كنتيش هاتصدَّقي، اسمه شوكت، ابن عبد الحليم باشا زُهدي بتاع الغربيَّة، بيشتغل مِعماري.

- تمام.

- وطوله قد كِده...

وأشارت بيدها لارتفاع مِتر ونصف فوق الأرض قبل أن تُردف: مِش مُشكِلة، أبطَّل ألبس كعب، تخين، مش مشكلة، يخِس، لكن

تخيَّلي يطلب إيه؟ عاوزني أعيش مَعاه في الهِند!! باباه بيفتح له شِركة هِناك.. مَعتوه!!

لم تكد صَفيَّة تبتسم مِن سُخرية نازلي اللاذِعة حين مَرق من باب الحَديقة صبي بدين، رَكَض بسُرعة حتى المِنضَدة التي تجلسان عليها قبل أن يَقِف لاهثًا مُحاولًا التقاط أنفاسه ليتكلم:

- فيه إيه يا حسن؟ سألته صَفيَّة بتوتر.

- الإنجليز قبضوا على محمَّد بَاشا مَحمود.. وعَربياتهم جايَّة على هنا.

- سَعد!

قامت منتفضة حين التقطت أذناها صَوت سَيارات الجيب، هَرعت مَادَّة خُطواتها لمَدخل السَّلاملِك حين اخترقت أوَّل سيارة باب المنزل، فَرملت فأثارت الأتربة ونَزل مِنها الجنود في سُرعة شاهرين بنادقهم في وَجه البَواب والجَناينى اللذَين رَفعا ذراعيهما هلعًا، التفتت صَفيَّة خلفها فتيبست رُعبًا، لَحظات وظَهرت سَيارتان إضافيتان، واحدة منهما كانت تقِل محمَّد محمود باشا، زميل سَعد ورفيقه في حَركة الوفد، تلاقت عيناهما عبر زجاج السيارة فهز الرجل رأسه مؤكدًا لها صدمتها «نَعم يا عزيزتي، سيعتقلون زوجك!».

هرعت إلى البَاب فأوقفها صَاغ إنجليزي:

- سيدتي.. لا داعي للجلبة.. أين سَعد باشا؟

- ماذا تريدون منه؟

قبل أن يُجيبها تسلل الصبي من باب السلاملك وقفز الدرج المفضي إلى غُرفة المَكتب حيث يَجلس سَعد، بدون أن يَطرق الباب فتحه وكان ذلك أمرًا جللًا، سَعد كان لا يزال جالسًا على مكتبه، التفت للفتى الذي قاوم انفعاله ولهاثه ليتحدث:

- الإنجليز هِنا.. جايين يقبضوا على معاليك.

أجابه سعد بهدوء: طيب يا حسن.. رُوح أنت إلعب.

لم يَكد يُكمِل جُملته حين ظَهر الصَّاغ الإنجليزي من خلف الصبي، أمسك رأسه الصغير وأزاحه برفق قبل أن يتقدم وهو يتفقد الغرفة بعينيه، لم يَقُم سَعد من مَكانه، تأمّل الصَّاغ الذي وقف أمام المكتب وأدى التحية العسكرية بكسل ثم تكلّم:

- لديَّ أمر من القائد العام بالقبض عليك وتفتيش منزلك.

أجابه سَعد بإنجليزية سليمة: لقد جِئت متأخّرًا.. لقد انتظرتك منذ وقت طويل.

بدا على الصَّاغ عدم الفهم.

- لكن الأوامر التي عندي أن أقبض على مَعاليك الآن.. في الخامسة مساءً.. والآن هي الخامسة!!

وقف سعد ووزن طربوشه: إذن هيًا بنا.

خرج من الباب هادئًا، بل وبَدا راضيًا في أعيُن مُعاونيه المُشاركين في حَملة الاستقلال والخَدم الذين تأمّلوا سيِّدهم بجزع وهو ينزل

درجات السلم متوكئًا على عَصاه، ناظرًا في أعينهم يبث الثقة فيهم ويَنطق بكلمة واحدة كلما مر بأحدهم: تشجعوا.

في البهو كانت صَفيَّة واقفة تجز أسنانها قلقًا، تتأمل الجنود الذين يفتشون البيت بَحثًا عن كل ورقة أو كتاب يُصادرونه، تَحُث خادمًا على الإسرَاع في غَلق حَقيبة متوسطة فيها مَلابس وأدوات مَعيشة تكفي زوجها أيامًا، اقترب مِنها سعد ونَظر في عينيها اللتين لمعتا بالدمع قبل أن يَضغط على أصابعها في كفِّه مثبتًا فؤادها: «مَا تخافيش».. ثم التفت إلى نازلي التي أعمتها المُفاجأة وابتسم في حنان ملطِّفًا ورَبَت على ذقنها، ثم هَمَس في أذن سِكرتيره الخاص عبد الرحمن فَهمي بكَلمات مُقتضبة قبل أن يَخرج إلى السيَّارة التي ابتعدت به مُبعثرة الانقباض في النفوس، تَابعه أهل البَيت حتّى اختفى، ظلَّت صَفيَّة وَاقفة تنظر في الفراغ حتَّى خانتها قدماها فانهارت على مَدخل السلاملك بجانب نازلي التي احتوتها في حُضنها.

قبل فجر اليوم التالي.. ٩ مارس ١٩١٩

دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلا هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ، طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا، فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذلِكَ، طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثَعَابِينَ، وَلكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ، فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا...

اعتادت يوميًّا أن تُردد تلك الآية مِن سِفر «الخُروج» حين يَبدأ سَقف الغُرفة في الحركة، يشخص بَصرها فتُحرِّك شَفتيها هَمسًا وهي تُراقب الثعبان الأسود الكبير يتلوى مُتمرِّغًا في بَحر من الحيَّات الصَّغيرة، فَارجًا فَمًا عِملاقًا يَخرج مِنه لِسان مَشقُوق يَلتقم به مَا طَال مِنها، ثم يَهرس جَسده اللَّزج اللامع مَا لم يطُلْه!

الوَزن كان فوق الاحتمال تلك الليلة، بصُعوبة وبين لَحظات الصُّعود والهبوط فوقها كَانت تَسحب لرئتيها نفسًا يُبقيها في منطقة الوَعي، يَخور في وَجهها كالثور نافثًا بُخارًا عَطِنًا اختلط فيه الأفيون بالكُحول مع عَبَق طبقات جير في أسنان لم تَعرف الجَلي، يَلعق رقبتها ويُمَصمِص أذنيها ويترُ عَرقًا سَاخنًا يجري على جِلدها سَيلًا يَحرِق في طَريقه كُل ما يُقابله، قَبل أن يَحكّها بصُوف صَدره المُتشابك فيترك خربشة حَمراء وعَلامَات! بِذرة الأفيون التي دَفنها تحت لِسانه وسَقاها بالشَّاي كان

لها مَفعول السِّحر في تأخير ذُروته وتَمديد عَذابها تحته، ثلث سَاعة مِن البَعثرة والعَصر والتَنقيب، دمَّر خلالها الحَرث والنَّسل قبل أن يَفيض نَهره وتخور أعصَابه، ارتمى عَليها كالقتيل فانغرز الصَّليب الخَشبي في منابت صَدرها بألم، ثم شَخر! غَطَّ فوق الثدي النَّاهِد ولَم تَملك إلا أن تُغمِض عينيها وتنتظِر، دَقيقتان بَدتا عَامين كَادَ قلبها فيهما أن يتوقَّف قبل أن يَقوم من فوقها، شَهقت جُوعًا للهواء فنظر إليها كأنه يَراها لأوّل مرَّة، تَدارك نفسه فمَسَح خطيئته في الملاءة ثم دَسَّ قميصَه في البنطلون وتمم على المحفظة في جيبه ثم التفت إليها:

- عَسَل.

نظرت إليه ولم تُعقِّب، ضَمَّت رُكبتيها إلى صَدرها ثم استلقت كالجنين فانسحب من الغرفة، أغمَضَت عَينيها مُقاوِمة التقيؤ من بقايا رائحته فيها وداهمتها أعراض الانسحاب، بُرودة تنتشِر ونبضات قلب عَنيفة مُتباعدة تهز جَسدها، مَرَّت دقائق قبل أن يَنفتح البَاب عن سَلامة النجس، يَرتدي سُترة بنية فوق جلباب سَمني وبُلْغة في قدميه، فَتح الشباك تَغييرًا للهواء وهو يردد أغنية خافتة، ثُم أخرَج علبة ثقاب من جَيب السيَّالة وأشعل فتيلة القنديل المُنطفئ واقترب مِن السَّرير، تَمشى بعَينيه على الجَسد البض المَسجى بضَعف فجَرى رِيقه، انقضت لَحظات قَبل أن يزدرد لُعابه ويَتمالك نَفسَه ويُناديها:

- ورد.. ورد.. قومي يا بِت.

تمتمت بكلمات لا معنى لها فألقى نظرة على الباب مُطمئنًا لعَدم وجود أحد قبل أن يَمد يَده ويُلامس صَدرًا عَاجيًا متورِّدًا نائِمًا فوق

أخيه، لَم يَبد عَنها ما يُشير أنها شَعَرت بلمساته، كانت غائبة فتمادى بِشبق حتَّى ارتعش، لم تكن مرَّته الأولى في تحصيل ضرائبه الخاصة من عاهراته، تشعر به وَرد أحيانًا ولا تجسر على الشكوى، وأحيانًا لا تُدرِك إلا أثره المُبقي.

التقطت أذنا سلامة وقع قبقاب خشبي فنَفَض يَده عن اللَّحم الطري وسوَّى جلبابه حين لاحَ ظِل عَظيم عِند البَاب تبعته بَنبة، بَدَت للتو مُستيقظة تجُر شَحمَها في ثَوب انحَسَر عن فخذين من الضَّأن، رَمَقت سَلامة بريبة فتوقفت:

- بتعمِل إيه عَندك؟

- هاكون بعمل إيه يعني! بنضَّف الأوضة.. البِت نايمة مِش عَاوزة تقوم.

اقتربت بنبة من السرير وألقت نظرة على جَسَد ورد والعَلامات الحَمراء على جِلدها.

- البت دي مين اللي كان معاها؟

أجابها بتردد: سَعيد بتاع كُوبانية المَيَّة.

- يا ابن القارحة!! أنا مش قُلت مِيت مرَّة الشَّحط ده ما يخشش عندي غير على بَهيَّة القعر.. ده بيبلبع ودي طرية ما تستحملوش

- مِش عاوز هَو بَهيَّة القعر.. زِهِق.. أعمل إيه؟ شَافها شِبط.. ودَفَع. نقول لأ في الأيام المأنِدلة اللي إحنا فيها دي؟ أنتِ مش شايفة البلد عاملة إزَّاي؟!

جزّت على أسنانها ورمقته باشمئزاز: دَفَع كَام؟

- ريالين.. وطفح بيرة بتلاتين فَضّة.

- ماشي.

قالتها ثم وضعت يَدها على جَبهة ورد البَاردة:

- البت دي بلبعت آخر مرَّة إمتى؟

- إمبارح.. مخستكة.. هاتموت.

- ما تفوّلش إلهي تتسخِط.. اظبطها بعد ما أحميها عَشان تفوق.. لسّه الليل طويل وعندي اتنين عطلانين.

دَس سَلامة ذراعه خَلف ظهر وَرد وأجلسها مُترنّحة قبل أن ينحَني ويَحملها، خَرج بِها إلى الطُّرقة تتبعهما بنبة حتى دَخلوا الحَمّام، أجلسا ورد فوق كُرسي خَشبي صَغير وأسندا رأسَها على الحَائِط فحَدجته بوَهن بين غيبتها ويقظتها.. تمتمت: وبَا يِقشَّك.

ابتسم لها بأسنانه الذهبية ثم قال لبنبة:

- هاجيب لَها حَاجة حَادقة عشان تفوق.

تركهما سَلامة فالتقطت بنبة كوزًا مَلأته من بستلّة فوق بابور جاز مُشتعل ثم صبّت على رأس ورد الماء الدافئ فشهقت.

- اسم الله.. اسم الله.. فوقي يا ورد؟

- بدّي أروح...

بالكاد خَرجَت الحروف من بين شفتيها فعاجلتها بنبة:

- فورّيرة سَلامَة هَايعشيكي وينعنشك.. إحنا عندنا كام ورد.

التقطت أذناها اسم سَلامة فاقشعر جِلدهـا، قاومت زيغ عينيها بصُعوبة فأكملت بنبة غَسلها وإزالة ما عَلق بها من الثور الهائِج الذي هَتك وجَرى، انتهت فألبستها قَميصًا من السَّاتان فتحة صَدره لم تخفِ ثدييها، خَضَّبت الشفتين ثم مشَّطت شَعرها بعِناية وعطَّرتها قبل أن تسندها إلى غُرفة المَعيشة.

كَنبتان إسطنبوليَّتان رَقدت عليهما عَاهِرتان مُحترفتان أتخمت وجهيهما الأصباغ، وفي المُنتصف مِنضدة عليها زُجاجات نَبيذ وبيرة وكونياك بجَانب طبَقي تِرمس وجِبنة قديمة وثلاث شيشات مَحشوَّة بالمَعسِّل.. قُرب البَاب المَفتوح ارتمت بنبة على كرسيها الأثير، فارجة سَاقيها كبوابتين عظيمتين لمدينة بائِدة، وفوق رأسها يَافطة صغيرة كُتِب فيها بخط ديواني «تنازلت عن كِبريائي إرضاءً للطلبة».. على الكَنبة رقدت ورد في إعياء، اقترب منها سَلامة وبَسط يَده بقطعة أفيون صغيرة، بِلا مُقاومة التقطتها ورد ووضَعتها تحت لسانها، رمقتها صاحبتاها بحِقد حتى ألقت برأسها إلى الوراء تنتظر المفعول أن يسري في عروقها، فأطرقت بَعينيها إلى السَّقف في استرخاء، دَسَّ سلامة في يدها نِصف رَغيف فيه جبن ومخلل ثم نزل إلى الشارع يَرمي شباكه عَلى المَارة يبتغي رِزقًا.. قَضمت ورد قضمة جَاهدت لتبتلعها حين تنهَّدت سَنيَّة؛ سَمراء واسِعة العينين عَظيمة العَجيزة، مسحت بشرة ورد العَاجيَّة:

- هو كِده ياختي.. أوّله دلع وآخره وَجَع.

ألقت كَلمتها كحجَرَي النَّرد وانتظرت الرَّد فالتفتت إليها بنبة: اتلمّي يا سَنية.

- يُوه يا أبلة! وأنا قلت حَاجة؟ البِت صَعبانة عليَّا.. مَا تستحملش العَجين اللي بنعجِنه ده.

- ما كنتي زيها يا روح أمّك يوم ما جيتي.. وكنتي بتأوّئي لي كل يوم.. إيه؟ غَيرانة؟

- أغير من إيه إن شاء الله؟! رُفعي رُفع البوصة ولّا بيضة زي اللفت اللي يشوفها يقول قِرفت؟!

ثم خَبطت بكفِّها مُؤخرتها الهَائِلة فصَنعت مَوجة.. أردفت: الأبريق المليان ما يقَلقلش يا أبلة.

حَدجتها بنبة بحدة قبل أن تَشحذ لِسانها:

- قال بعد سنة وسِت أُشهر جَت المِعدة تشخُر.. أنتِ نسيتي نفسك يا بِت؟ أنت لُولا الظُّروف كان زَمانك عبدة عَندها.

أخرستها سِيرة العبودية فزمَّت شفتيها وبَرطمت بالسِّباب هَمسًا وهي تميز غيظًا، لَم تكُن تَجرؤ على خَوض مَعرَكة مَع بَنبة وديونها ثقيلة لا يَكاد دَخلها الشَّهري يَكفي سَدادها، علاوة على أنها سَلَّمت شَهادة العِتق لبنبة يوم عمِلت عِندها، ضَمانة لسَداد حق المَلابس والذهَب ومَصاريف رُخصَة مُمارسة العمل، بدون تلك الورقة ستعود كما جَاءت.. مَملوكة لا سِعر لها.

سكتت سنيَّة فعقَّبت بَهيَّة القَعر؛ سَمَّاها زبائنها بذلك الاسم لشهرة نِصفها السُّفلي الذي يُشبه ثمرة كُمَّثرى متطرِّفة الأبعاد:

- الرجَّالة زي الجزارين يا أبلة، ما يحبوش إلا السِّمينة، ودِي هفتانة هاتسورق وهتجيب لنا نِصيبة هِنا، والصراحة مِن سَاعة ما عتَّبت السنيورة الأفيون والزباين اتقسَّموا علينا، خَدِت نَصيبنا.

- اللي مِش عاجبها تسدّد اللي عليها وتشتري بفلوسها من الأجزخانة[1] يا إمّا تتكل، الباب يفوّت مِيت جَمل.

عم السُّكوت بعدما نزلت كلمات العدل، كُل وَاحِدة مِنهنّ غَابت في مَلكوتها قَبل أن يَتراءى لسَمع بنبة وَقع أقدام وصَوت سَلامة يُرحّب بزبون، عَدَلت من جلستها وحدجت الفتيات بغَضب فاضطجعن بميوعة كشفت عن بضاعتهن، عَدا ورد، لم تنزل رأسها من السماء، لَحظات ودخل سَلامة ومن وَرائه شَاب خَمري قَوي البِنية:

- اتفضّل يا عبد القادر أفندي.. البيت نوّر.

قَامت بنبة حين رأته واقتربت بغنج أثار في نَفسه الاشمئزاز لكنّه ابتسم، ينظر إليها ولا يكاد يُصدّق أنّه وَطأ هذا الجسد يَومًا قبل أن تعتزِل.

- قال بَعد نومك مع الجِديان بقى لك مَطلَ عَ الجِيران! فينك يا سِي عبد القادر؟ شهر لا حِس ولا خبر!!

- مَشاغِل يا بنبة.. مَشاغِل.

قالها ودَار بعَينيه في الجالسات، غَمز بعَينه بَهيّة وحيًّا سنية بابتسامة قبل أن تمُر عَيناه بوَرد التي نظرت له نظرة خَالية من المَعاني.

- مَال سُوقك شاحِح النهاردة؟! سأل بنبة.

- عندي اتنين عليهم الحُرمانية.. بيرة؟

- لا.. هَاتي لي إزازة كونياك وكوبّاية نضيفة.

---

(١) كان الأفيون يباع في الصيدليات حتى سنة ١٩٢٢.

في الغُرفة الرطبة التي يُفضِّلها استرخى عبد القادر على السَّرير بَعدما خَلع قَميصه والحِذاء، لم يكن ذلك المكان بيت فاحشة بالنسبة له، كان بيته الثاني، فبنبة تولَّته مُنذ كان طالبًا في المدرسة، تَعلم على يَديها وفخذيها مَسالك التعامل مع جَسد الأنثى، وفقد في نفس الوقت احترامه، وها هي الآن تنظر إليه كمُعلِّمة فَخورة بطالب رَبَّته حتى صَار له شأن، صبَّت كأسه وتأملت وجهه المَهموم.

- مَالك مَرخِي كِده؟

- ماليش.. قرفان.

- أبوك؟

زفر بضيق: افتكري حاجة عِدلة!!

- إيه اللي حصل له الراجِل! دَه كَان صَاحِب مَزاج ونسوان الأزبكيَّة يشهدوا.. اتطس باين له عين ولَّا اتسحر له عمل.

- اتطس بقة ماطَّسش!! هو حُر.. أنا هابيِّت عندِك النهاردة.

- يَا خَراشي.. بيتك ومَطرحك يا عبد القادر.. أجيب لك مين؟

- بهيَّة.

ثم استدركها قبل أن تَصِل الباب.

- ولَّا أقولك.. هَاتي لي البت الجديدة.. السفيِّفة الشقرا دي.

- مِش عوايدك الرفنتعين!

- تغيير.

اختفت بنبة فأخرج عبد القادر من جيبه قنينة في حَجم إبهام، مَكتوبًا عليهـا كَلمة «نفروطون» المدهـش، فَتحها وتَجرّع مِنها جرعتين قبل أن يُعيدها لجَيبه حين دخلت بَنبة ومعها وَرد تسير بين يَديها مسلوبة الإرادة، أجلستها على السَّرير وابتسمت لعبد القادر قبل أن تُغلِق عليهما الباب، اعتدل عبد القـادر فتأمل جَسـدها الشَّـمْعي وعَينيها الذاهلتيـن قبل أن يلحظ الصَّليب الخشبي المُتدلي على صَدرها وثلاث حَسَنات استوين على خَط واحد في رقبتها، مَد راحته ولامسهن.

- أنـتِ لو دافعة فلوس عشـان ترسـم لـك الحسـنات بالمنظر ده؛ ما كانوش هايبقوا كده!!

قاومت زَيغ عَينيها ولم تعقِّب فأردف: اسمك إيه؟

أجَابته بوهن: ورد.

- اسم الصليب حارس صاحبته وصاينها.. اقلعي يا ورد.

بعد ساعات

٦:١٥ صَباحًا

بَدَت مَنطقة الإنشاء خَالية مَهجورة، كأن لَم تُغن بالأمس، أشجارها أشباح ومَبانيها أطلال وبَلاط أرضها المُحدَّب كَساه النَّدى فعَكس مَا تبقَّى من شُعلات غَاز الاستصباح الواهِنة في الأعمِدة.. بيت سعد زغلول للقَادم مِن ميدان السيِّدة زينب كَان يَقع على اليَسار، يُشبه مَخلوقًا ضَخمًا شَاخ فَجأة فمَات مَكانه، أظلم السلاملِك وغُلِّقت البوابات وعَمَّ السُّكون الحَديقة والأسوَار، قَبع الخَدم في الطرقات والمَطبخ أرِقين على مُستقبل سيدهم، يَخدمُون زَوجات المُعتقلين والصَّديقات المُتعاطِفات اللاتي افترشن الغُرفات متَّشِحات بالسَّواد في مَأتم بدون ميِّت، أما بَقايا أعضاء الوفد فناموا فوق كَنبات الصالون والأرض بعد أن أنهكتهُم مُناقشات رُدود الأفعال المُقترحة وصِياغة خطابات الاستهجان والشجب ضِد الاعتقال، أما صَفيَّة، فجلَسَت قُرب نَافذة تطل على آخِر مَوضِع شوهِد فيه سَعد، كَان يَرمقها من وراء زُجاج سَيارة الجيش وعلى وَجهه ابتسامة غريبة أصابتها بالحيرة، لِم ابتسم؟ سَألت نفسها: هل فقد عَقله؟ هل سَأراه ثانية أم أن مَصير عُرابي يَنتظره نفيًا وتَشريدًا؟ تعرف أن الجَرائد لَن تتناول خَبر الاعتقال، وتَعرف

أنها إن استغاثت فَلا مُجيب، فغَضبَة السلطان والإنجليز لا راد لها، مع كُل ثانية يتحرك فيها بندول الساعة الكبيرة تتأكد صَفيَة أنَّ مَا ظنته يومًا هَواجِس حَول مَصيرها.. صَار وَاقعًا.

لم يقطع أفكارها سوى الدُّوكار الذي توقَّف أمام الباب، نزل منه عَبد الرَّحمن فَهمي سِكرتير الوفد فقَامت وتَمَمت بعَجَل عَلى الحجاب ثُم غَطَّت نازلي النَّائمة على مقعد حِين أتى خَادم وأخبَرها برغبة الرَّجل في مُقابلتها، لَحظات والتقطت صَوت خُطواته على السلَّم وسعلة تنبيه مُفتعلة قبل أن يدلف إلى الغُرفة، كَان مُمتلئ الوَجه شَركسي المَلامِح يَعلو شَفتيه شَارب مُهذَّب كبير، خَلع طَربوشه تحية للسيدة قبل أن يَجلسا.. من التوتر لم تسأله فعاجلها:

- سعد باشا والمُرافقين باتوا في ثكنات قَصر النِّيل.. هايركبوا قَطر الساعة حداشر لبورسعيد.. فيه بَاخرة بتتحَضَّر.. عَندي معلومة إنها رايحة مَالطا.

تملَّكها دوار فتهدَّج نفسها ورَجَعَت بظَهرها إلى الكُرسي قَبل أن تُردف:

- فيه أي تصريح من المَندوب؟

- المندوب السَّامي كان عَامل حَفلة في قَصر الدُّوبارة.. بيحتفل بالاعتقال!

- الكلاب!!! هايعملوا فيه زي ما عَملوا مع عُرابي.

- مش هايقدروا.. الناس مش هاتسكت.

قالها بثقة فأزاحت ستائر النافذة وأشارت إلى الشارع الساكِن المبتل بندى الصباح:

- الشارع فاضي من إمبارح.. كأن ما حَصَلش حاجة.. والجرايد مش هاتكتب.. والسُّلطان راضي.

- إحنا عاملين حسابنا لكل ده.. والنهاردة بالليل هانعمل اجتماع في بيت علي باشا شعراوي عشان ننسق...

قاطعته بحدة: الاجتماع يتم هِنا.. في بيت سَعد.. بيت الأمّة.. سَعد ما ماتش يا عبد الرحمن بيه.. بلَّغ الوفد من فضلك.

شعرت أن نبرتها خانتها وعلت فاستدركت: سَعد ما كانش بيثق في حد قدَّك يا عبد الرحمن بيه.

- إن شاء الله قد الثقة يا هانم.

قالها وهو يراقب شابًا على الرَّصيف المُقابل للبيت، يُدخن سيجارة ويرمق نوافذ البيت باستطلاع، تابعه للحظات ثم قام مُستأذنًا:

- هارجع لحضرتك تاني.. بعد إذنك.

هزَّت رأسها وقامت احترامًا فانسَحَب الرَّجل، خَرج من البهو إلى البوَّابة ووَقف يتأمل الشَّاب، التقت نَظراتهما وطَالت حتى تأكّد عبد الرحمن أن الزائِر يَحمِل في صَدره شَيئًا، هَز رأسَه لسائس الدُّوكار الذي يَنتَظِره مُطمئنًا على يَقظته قبل أن يَرفع يَده تحيَّة للشاب الذي هَرس سيجارته في الرَّصيف احترامًا ثم عَبَر إليه.

- صَباح الخير.. مين الأفندي؟

-- هو صَحيح.. سَعد بَاشا اعتُقِل؟

- سَألتك يا حضرة أنت مين؟

- أصلُه كان صَديق لوالدي الله يرحمه.

- بَرضه ما عرفتش أنت مين وإيه اللي موقَّفك هِنا الساعة دي!!

قاطعه الشَّاب: أحمد عبد الحي كيرة.

أخذ الاسم من الرجل لَحَظات ليستوعِبه قبل أن ينجلي وجهه: أنت ابن عبد الحي كيرة؟!

- أيوة.

- والدك كان صديقي الله يرحمه.

- الله يرحمه.. مش هاخد من وقت حضرتك كتير.. أنا جَاي أعرِض خدمة.

قالها أحمد وانتظر رد فِعل الرجُل الذي أشعل سيجارة ثم أردف: خدمة؟!

- الإنجليز لازِم يِعرفوا إن خَطفهم لسَعد باشا مش هايعدِّي بالساهل.. لازِم نرُد.. العين بالعين.. والدم بالدم.

- دم؟! دم إيه؟

- الدم اللي هايحصل...

قاطعه عبد الرحمن: حيلك حيلك.. إيه اللي بتقوله ده؟!

- الإنجليز مش بتبص لنا على إننا بني آدمين زيهم.. إحنا شعب مالوش دية.. هايضربوا.. ولازِم نِضرب فيهم.. ضَرب يوجع.. أنا عَندي الإمكانية.. ومَعايا رِجَّالة.

- يا ابني أي عُنف دِلوقت هايُنسب للوفد.. يِضعِف مَوقفنا ويهيِّج الإنجليز.. إحنا وفد ومَعَاه تَوكيلات مِن النَّاس.. مِش بلطجية.. وبَعدين مين قال لك إن الناس هاتسكُت؟ الناس هاتتحرَّك ودول العالم كلها هاتعرف.. اتحرك مَعَاهم.. وسطهم.

- الناس هاتتحرَّك.. والإنجليز هايصدَّروا البنادق.. الناس هاتصمد قد إيه؟ شهر؟ اتنين؟

- وإيه خطة مَعاليك؟

- أهداف يِعمل لهم أزمة وتسمَّع في البلاد كلها.

- الكلام ده ما يلزمش الوفد في الوقت الحالي.

- سعد باشا في يوم من الأيام اعتُقل بسبب انتمائه لجمعية «الانتقام» بَعد فشل ثورة عرابي...

قاطعه عبد الرحمن: ومن ساعتها اتخلى عن الفكرة.. كان طيش شباب.. يا ابني الضغط ع الإنجليز بحركة الشَّعب أقوى بكتير من عَمليات فدائية.. ووضع سَعد باشا لسَّة ما اتحدِّدش.. أنا هاقدَّر إنك ما قلتليش حَاجة النهاردة عشان خاطِر الوالد الله يرحمه.

- الناس ما تقدرش تسيب لقمة عيشها فترة طويلة يا عبد الرحمن بيه.

- وجهة نظرك وصلت.. اتفضَّل بقة مِن غير مَطرود.

همَّ الرجُل أن ينسحِب فأمسك أحمد بيَده وهَمَس: أنا كنت من اللي نفِّذوا اغتيال السلطان حسين كامل.. وعندي استعداد...

- ولمَّا أنت عَندك استعداد جَاي لي ليه؟

- عشان لازِم ننسَّق مع سَعد بَاشا.. سَعد باشا هو الأمَّة دلوقتي.

- يا ابني أرجوك سيبك من كلام الإنشا ده.. اتفضَّل.

أخرج أحمد من جَيبه قُصاصة وَرقية فيها عنوانه ودسَّها في كفِّ الرجل.

- عُمومًا ده عنواني.. لو غيَّرت رأيك.

هزَّ رَأسه بابتسامة ورَحل ففتح عبد الرحمن الورقة وقرأ العنوان.. قبل أن يُكوِّرها ويُلقيها.

بعد ثلاث ساعات

٩:١٥ صباحًا

قُوم يا مَصري، مَصْر دَايمًا بتناديك.. إضراب طَلَبة الحُقوق.. طَلَبة الطِّب.. تجمعات في الطُّرق والميادين.. مَسيرات سِلمية.. هتافات: سعد سعد يَحيا سعد.. تسقط الحماية.. يَسقط الاحتلال.. خُد بنصري نصري دين وَاجب عليك.. كَمائن.. صِدام.. غَضَبْ.. الاستقلال التام أو المَوت الزُّؤام.. إغلاق المَحلات.. يُوم ما سَعدي راح هَدَر قدَّام عينيك.. إضراب طَلَبة المدارس.. طوارئ.. حِصَار.. غَليان.. بنادق.. رصاص.. أول شهيد.. انفجار.. مُظاهرات غير سِلمية.. قتلى.. نيران.. عُد لي مَجدي اللي ضيعته بإيديك.. اعتقالات.. شوف جدودك في قبورهم لَيل نهار.. قلب الترامات.. إيه نصارى ومُسلمين قال إيه ويهود.. يَحيا الهِلال مَع الصَّليب.. بِلادي بِلادي.. لَكِي حُبي وفؤادي.. إضراب الأزهر.. مَصر جنة طول ما فيها أنت يا نيل.. عُمر ابنك لم يعيش أبدًا ذليل.. المَزيد من الشُّهداء.. تَحطيم مَحال الأجانب.. حَرائق.. حَظر تجول.. إطفاء النور.. شلل تام...

يقولون إن كُل شيء بدأ في حَي السَّيدة زينب.

لَم تكُن حَركة ميدان الرمَّاح تُوحي أن الأمر جلل، النسوة في ملاءاتهن السَّوداء ينتقين الخضراوات والفاكهة، الرِّجال قابعون في

مَحلاتِهم وأمام العَربات يَنتظرون رِزقًا، والأطفال الصِّغار يَلهون بالبلي والنحلات الخشبيَّة بَعيدًا عَن مَرمَى عَين الفتوَّة الجَاثم على كنبته يَحرِق المَعسِّل تحت ظِل شَّجرة، شَاردًا في جَسَد صرصار مَحمول على أعناق النَّمـل إلى قريتهم، لَحظـات والتقطت أُذناه جَلبة قادمة من نَاحية ميدان السـيدة ثم لَمَح بَعض الشبَّان يَجرون إلـى نقطة لم يتبيَّنها فقام سَـاحبًا نبُّوتًا عَظيمًا من تَحت كَنبته ليفُض خناقة مُحتَملة أو شجارًا، مَشَى تجاه الزحام قبل أن يُمسِك بعَضد أحد الصبية مُستوقفًا:

- فيه إيه ياض؟

- مُظاهـرات يـا معلِّـم.. تَلامذة مـدارس «الخديويـة» و«الخديوي إسماعين» في المِيدان.. بيقولوا قبضوا على سَعد باشا إمبارح.

قالهـا الصَّبـي وجَـرى فاندفـع شِـحَاتة وَراءه ولاحَقَه الأتبـاع ذَودًا بالقبضَات الحَديدية ورَقبَات الزجاجات.

حِيـن وَصَـل الميدان وَجـده يَعُـج بالطلبة، بَحـر يَمـوج بالطرابيش الحَمراء فوق وُجوه نَضرة غَارقة بعَرَق الحماس، يَرفعون أعلامًا حَمراء عليهـا هِلال يَحتضِـن نجمة، ولافِتـات بالفرنسـية والإنجليزيـة تُنادي برُوح سَـعد والاسـتقلال، عَلـى رَأس كل مَجموعة شَـاب اعتلى كَتفًا، يُلهِـب الحَشـد بهتَاف له وقـع يمزِّق الحَناجر من وَرائـه ثم يتأجَّج حين يقترب مِن سُور مَدرسة «السَّنيَّة» للبنات، عَاش سَعد، صَرَخ بها الشَّباب وهُم يَختلسـون النظرات للطالبات المُتَّشـحَات بالحِجاب في شُرفات الفُصـول فأشـرن بأعلامهـن تحيَّة للمظاهرة وكشـف بعضهـن الوجوه فالتهب الحَماس.

توقف شِحَاتة الجِن أمَام المَشهد المَهيب مَدهوشًا مُتيبسًا، الهتاف زلزل صَدره فشدَّد قبضته غَريزيًّا على النبُّوت وتلاحقت أنفاسه تحفزًا وإن لم يَجرؤ لِسانه على الترديد أو عقله على الاستيعاب، يتأمل الجُموع برَهبة لم تنتَبْه حين داهَم فتوات أشدَّاء في أعقار ديارهم، وَجَد نفسه لاإراديًا ينجَرف إلى قلب المَوجة الثائرة، تَائهًا لاهيًا عن أتباعه كغُصن سَقَط في نَهر هائج، سَحبوه بينهم مِن ميدان السيِّدة إلى شَارع المُبتديان فَحي الإنشاء حيث لاح بيت «سَعد» أمامهم، قبل أن يتوقَّف الهتاف فَجأة لمَّا اندفع الجُند الإنجليز مِن شَارع جَانبي إلى نهر الطريق يقطعونه ومن ورائهم على حصَان أسود الضابط «آرثر» وكيل حكمدار القاهرة، وصديقه القديم! تراص الجنود بينهما في صَفَّين مُحتمين بالخوذات البيضاء شَاهرين البَنَادِق في وَجه المتظاهرين يُنذرونهم سوء الاقتراب، تقدَّم الطلبة يَصرخون في وَجه العَسكَر: «وسَّعوا الطريق»، «المُظاهرة سِلمية!» فعَمَّر الجُند بنادِقهم بأمر مِن الجنرال وصوَّبوا الفوهات، مرَّت لَحظات من الترقُّب قبل أن يتقدَّم شَاب جَريء مُحاولًا السير بَين الإنجليز كَاسرًا الرهبة في قلب زملائه المتظاهرين فرَفَع جُندي كَعْب بندقيته وهَشَّم وَجهه بضربة دفعت الجموع نَحو الجُند مُشتبكين، تِلك كانت اللَّحظة التي رَجع فيها شِحَاتة الجِن من غيبته، لم يَدر بنفسه إلا وهو يزيح الطلبة من أمامه كعرائِس القماش ويَزِن النبُّوت في قبضته ويَرفعه ليَهوي به على رَأس الجُندي، وَقْع الارتطام بَدا مُريعًا، مُريحًا في أذنيه، مِثل صَوت بَطيخة بَاردة تتهشم، انبعجت الخوذة وسَقط الجندي أرضًا فرفعه الجِن من يَاقته وصَاح: بستِّين فضَّة يا لَحم انجليزي.. ثم ألقاه بين قدميه وطوَّح نبُّوته في رءوس وصُدور ورقاب قبل أن تلتقي عَيناه بآرثر فوق حصانه، نظر إليه وهو لا يُصدِّق ما يراه،

لم يكن ذلك هو «شِهاتا الجني» الذي ربّاه كلبًا مُطيعًا يُلقي إليه بفتات الطعام فينبح تبجيلًا، كان قِطارًا خَرَج عن قُضبانه تمردًا وانطلق تجاهه، صَرخ الجنرال في جُنده: «Fire»، أطلقوا النيران الحيَّة، فتناثرت الدماء والأشلاء وتفرقت الجُموع، وَسط هَرَج الفرار ومُحاولات الاحتماء اندفع الجِن تجاه صديقه القديم، مُحاطًا بتابعَيْن من أتباعه أفسحا له الطريق بَعدما مزقا وُجوه جُنديين بأمواسهما في لَحظة تَعمير الذخيرة، مرَّ الجِن من بينهم وبَات على بُعد مِترين من حصان آرثر حين تلاقت أعينهما، بلا تردد سدَّد الجنرال مُسدَّسه وأطلق، تلقَّى الجِن الرصاصة في ذراعه ولم يَعبأ، طوَّح نبُّوته في رأس الحصان فاستقرت بين عينيه، بَرك على قائمتيه الأماميتين فسقط الجنرال أرضًا، اقترب منه الجِن ورفع نبُّوته عَاليًا حين سَدَّد الإنجليزي وأطلق، تلك المرَّة «أصاب مقتل»، اخترقت الرصاصة صَدر الفتوَّة فتوقف، رَمشت عيناه وخفتت الأصوات من حوله بغتة حين تلقى واحدة أخرى أركعته على رُكبتيه، ثم تلقى ضَربة مِن كَعب بُندقية فَسَجد على الأرض، قبل أن ينطرح على ظَهره بعد ركلة في وجهه، تأمَّل السَّماء الصَّافية من بين أغصان شجرة، قبل أن يُميِّز فوَّهة مُسدَّس ومن خلفها وَجه صديقه الإنجليزي.

- عُد لي مَجدي اللي ضيعته بإيديك.

استنزف عبد القادر جُهده مُحَاولًا الاتزان فوق «بنبة»، مُقاومًا أرطَال شحم مَركومَة في عَجيزتها وفَخذين فَقدتا ليونتهما فتشعَّبَت فيهما أورِدة الدوالي الخَضراء، ألم المجهود يتَخلَّل خَصْره وسَاقيه وذراعيه الذي استند عليهما، يَسيل عَرقه فوقها ولَا تُبالي، تَعض قُماش الملاءة مُصطنِعة غنجًا بشِعًا نادت فيه اسمه بِضع مرات مَسبوق بـ «يا لَهوي عَليًا».. على سَبيل التمجيد، كان ذلك قبل أن ينتبه عبد القادر لسَلامة، متى جاء هَذا الخِنزير إلى السَّرير؟! كَيف جَرُؤ؟!! كان مُضطجعًا بجانب «بنبة» عَلى الوسادة واضِعًا ذراعيه خلف رأسه يتأمَّلهما مُبتسمًا، اشتعل غَضَب عبد القادر فصَاح:

- قوم يا ابن المَرة.

فصَرخ سَلامة في وجهه: «سَعد سَعد.. يَحيا سَعد».

استنزف عبد القادر جُهده مُحَاولًا فتح عَينيه، استغرق لَحَظات ليُدرِك أنه عَانى كَابُوسًا قَبل أن يَستَعيذ بالله مِن هَيئة بَنبة فيه، صَوت سَلامة ما زال يَتردَّد في أذنيه: «سَعد سَعد.. يَحيا سَعد»!! بصُعوبة تبيَّن وَرد، كانت جاثية تحته مُستسلمة وخصلات شَعرها في قَبضَته يُمسكها كلجام فَرس، نَظَر شماله فلَمَح زُجاجة الكونياك التي نَفدت وبجانبها

قنينة «النفروطون» فأدرك لِمَ لا يَشعُر بنصفه السُّفلي الذي تخدر وفقد الإحساس، استعاد ليلة انقضت فلم يتذكَّر سوى استسلام ورد وصَمتها، غلقها عَينيها وتركه يَعبث بمُحتوياتها! لَحَظَات وانسلخ مِنها، تَركَها ترتخي بجانبه وتتكوَّم حين عَلا الهتاف في أذنيه: «سَعد سَعد.. يَحيا سَعد»، سَب الدِّين وبنبة وهو يرُج رأسَه ليتَخلص مِن هتاف سَلامة النجس الذي تردد في أذنيه قبل أن يتبين أن الصَّوت آت مِن النافذة، قَام مُترنحًا ونَظر مِن بين خصاص الشبَّاك فرأى الجُموع تسير وتَهتِف «سَعد سَعد.. يَحيا سَعد»، فتح الشيش بهَلع وحَدق غير مُصدِّق الأعداد قبل أن يَلمَح صَديقًا له يَجري مَسعورًا عَكس اتجاه الناس، مُزيحًا الأكتاف بيَديه يلوِّح إلى عبد القادر ثم وَضع كفَّيه حول فَمَه وصَاح بكلمَات تاهت في صَوت الهتافات فناداه عبد القادر:

- فيه إيه ياض.. مش سَامعك؟

أشار له الصَّديق أن يَنزل على عَجَل، ارتدى عبد القادر بنطلونه وسَحب قميصه قبل أن يقفز السَّلالِم وثبًا:

- إيه اللي جابك هِنا؟!

- عم الجِن.. انضرب بالنار.



في حَديقة بيت سَعد تمدَّد شِحَاتة الجِن على النجيل بجانب شَاب آخر هُما حصيلة المُظاهرة قرب بيت سَعد، بخشوع سترهما الطَّلبة بالأعلام التي رَفعوها مُنذ دقائق ووَضَعُوا طربوشيهما كلًّا على صَدره

وتُرِكَ نبُوت الجِن بجانب ذراعه، تكتّلت الجموع حول البيت فانسحب الإنجليز ونَزلت صَفيّة هَانِم من شُرفتها مُستندة على نازلي الشاحبة، حيّتهم بالدَّمْعِ مَكلومة فطلب مِنها عَبد الرَّحمن فهمي الرُّجوع إلى المنزِل لخُطورة الموقِف، أبت وانكفأت عَلى جُثمان الشّاب الذي لَم يَتعدَّ الخَامسة عَشرة، قبّلت يَده الباردة في ألم وانتحبت بحُرقة، كَان ذلك فوق احتمال نَازلي، هَوت أرضًا كورقة خريف، اندفع نحوها عَبد الرَّحمن فهمي وأشار إلى شاب قريب منه ليسعِفه بمُساعدة:

- شِيل مَعايا.

قالها عبد الرَّحمَن قبل أن يرمُق وجه الشاب الذي طلب منه المساعدة فوجده أحمَد عبد الحي، لَم يَملك تَرف الجَدَل:

- دخَّلها مَعايا جوّة.

حَملاها بَين أيديهما ورَكَضَا بِها إلى داخِل المَنزِل، أسجَياها فوق كَنبة قَبل أن يَأتي خَادِم بقطن مُشبع بالكولونيا، وَضَعه عبد الرحمن تَحت أنفها فأفاقت لترمقه والشاب الواقِف بجانبه في تشتت.

- أنت كويِّسة يا بنتي؟ سألها عبد الرحمن.

- دايخة شوية.

لم تطُل اللحظة كثيرًا.. قَطعها صياح آت مِن الحَديقة فخَرج أحمَد مُسرعًا ومن ورائه عبد الرحمن فهمي.. لَمَحَاه يَختَرق بَوابة البَيت.. يُطوِّح قَبضته في رِجال حَاولوا مَنعه مِن الدخول فيسقطهم يمينًا ويسارًا كالزجاجات.. قبل أن يَركُض كالثور مُزيحًا الوَاقفين حتّى اطّلَع على جُثمان أبيه.. انكفأ على رُكبتيه يتأمَّل ثقبًا في صَدر وآخر في جَبهة ودماء

تجلّطت.. بصُعوبة لامَس رأس أبيه.. أحَاطها بكفّيه مُستشعرًا البُرودة وحواف الجرح.. ثم فتَح فَمه بصَرخة مُدوية تأخّر صَوتها مِن الألم.. اقترب مِنه الجَمع يثنونه ويُواسونه فنَهرهم سَبًّا وانكفأ على يَد أبيه.. ثم فجأة وقف ذاهلًا كطفل تائه.. ارتعشت أنامله وسالت ريالته خيطًا على صَدره وزاغت عَيناه للحظات ثم انكفأ على أبيه محَاولًا حمله.. اقترب الناس منه يَصرفونه عمَّا هو فاعل فضرب اثنين بقبضته ثم صَرَخ في الباقين ليتشتتوا قبل أن يَدور بعَينيه في الوجوه.. ميَّز من أهل حَارته جيرانًا وتعرف على صَبي من صبيان أبيه اندفع نحوه ولكمه فأطاح به مُلقيًا بأسباب قتله على رعونته وتهاونه.. تَحفّز أحمد وهَمّ بمواجهته حِين أوقفه عبد الرحمن فهمي بيديه:

- سيبه.

ثم اقترب من عبد القادر بثبات عجيب حتّى وضَع يَده عَلى كَتفه بحزم فالتفت:

- يا ابني.. الولد ده مالوش ذنب.. أبوك بَطل.. ومَات شَهيد.. والشَّهيد لازم يتعِمل لُه جَنازة تِليق بيه.. هو هِنا وسط ولاده.. كُل دول ولاده.. ما تبهدلوش.

رَمَاه عبد القادر بنظرة غَضب قبل أن يَصيح:

- رَاح بسَبب سَعد.

سَرَت الهمهمات الغاضبة بين الجمع فرد الرجُل الصَّيحة بهدوء مَسموع:

- راح عَشان الإنجليز قتلوه.

اخترقت كلمة «الإنجليز» أذني عبد القادر فذُهل بَصره.. خفتت الأصوات وتوقَّف تنفسه.. لم يَعُد يَسمَع سوى وَقع ضَربات قَلب تهزه هزًّا.. تخدَّرت ذِراعه اليُسرى وسَرى فيها ألم ورَعشة أخذت تشتد حتَّى انحنى وسَحَب نبُّوت أبيه المُلقى على الأرض.. تكالب عليه الناس مُحاولين تَهدئته فلوَّح به في وجوههم: «اللي هايقرب هاموِّته».. فرَّقهم وخَرَج مُغاضِبًا نَفسه فتبعه أحمد.. نَاداه فلم يَستجِب.. مَد خطواته حتى صار بجانبه:

- اهدا عَشان تِعرف تاخُد حقك.. الإنجليز ما يِنفعش مَعاهم نبُّوت.. أنا أقدر أساعدك.. أجيب لك حقك.. حوِّل غضبك لـ...

لم يُكمِل أحمد جُملته، التفت إليه عبد القادر وأمسَك بتلابيبه قَبل أن يَضرِب بظهره الحَائِط ويَحبِس عُنقه بالنبُّوت:

- ما تخلِّينيش ألخبط خلقتك.. حِل عن سمايا.

قالها ثم فكَّ أسرَه وابتعد، التقط أحمد أنفاسه ولم يَتبعه، رَاقبه يَخطو نَحو حَتفه حتى تَلاشى.

لمَّا رَجع أحمد إلى حَديقة البَيت المُضطربة وَجد نازلي وقد استعادت رُوحَها، تقف قُرب صَفيَّة وعَبد الرَّحمن فَهمي الذي أشار له أن يقترب وهمس:

- أنا مش قايل لك إبعد عن هِنا؟!

- فكرت في كلامي؟

نظر عبد الرحمن فهمي لإصراره وضَرب كفًّا بكَف حين اقترب رَجل وسأله:

- هانِعمِل إيه في الجُثث؟

أجابه عبد الرحمن بعدما انتزع نفسه من وجه أحمد: يروَّحوا بيت أهاليهم دلوقت.. وجَنَازتهم تطلع من هِنا بُكرة.

هزَّ الرجل رأسه ورَحَل حين هَمَس أحمد في أذن عبد الرحمن:

- الإنجليز هايصعَّدوا أكتر.

- لو سمحت يا ابني سِيبني أشوف شُغلي.. ممنونين لخدماتك.

قالها عبد الرحمن بحزم فرفع أحمد كفَّيه استسلامًا حين لَثَمت نَازلي خَد صَفيَّة واحتضنتها قبل أن تتَّجِه إلى الدوكار الذي ينتظرها عند البوابة، كَان عليها الرجُوع إلى بيت أبيها الذي صَال وجَال خوفًا عليها حين قامت الجموع، حيَّت عَبد الرحمن فهمي ثم التقت عيناها بأحمد للحظات كانت كافية لهزَّة رأس ممتنَّة خجِلة.



يُنحَت النبُّوت مِن خَشب شَجَر اللَّيمُون، ثُم يُصقَل بالصَّنفرة قَبل أن يُوضَع في «زيت مَغلي» ليفقِد رُطوبته ويَشتَد قَوامه، ثُم يُخَضَّب بالحِناء ويُزيَّن بالجِلد والدَّبابيس التي تَرمُز للمَعَارك، أو لعَدد القَتلى بِه.

ثُم يُحطَّم بنبُّوت أقوى منه وأشدّ بأسًا.

نفس اليوم

١:١٠ ظهرًا

تلك المرَّة كانت الكروشلي بِلا حُمولة، تكاد تَطير فَوق الطَّريق المَفروشة بالحِجارة، أمسَك عبد القادر المقود بشِماله، وقَبض بيَمينه النبُّوت المَوضوع عَلى الكُرسي الجَانبي، يقاوم الشَّمس بجُفون مُنطبقة ودُموع حَفَرت وجنتيه ولم تَجف، يَداه مُلطَّختان بدِماء أبيه وعجلات سيارته ومقدمتها مُلطخة بدماء إنجليزية لخمسة جنود هرسهم تحتها في طريقه للمُعسكر.. عبد القادر كَان يُدرِك أن أباه فتوة، والفتوَّة لا يُهلكه إلا فتوَّة مِثله من بَعد الله، لَم يتخيَّل أن أباه سَيُردى برصَاصَة إنجليزية ككلب ضَال لا سِعر له! فِكرة مَوته لم ترِد مرَّة على باله، غَريبة غرابة مَوت إله في مَلكوته! فليس البَشر كُلهم فانين! أيَ لَعنة أصابتني؟ مَاذا فعَلت؟ سَأل نفسه، قبل أن يَستعيد كلمات الرَّجل في بيت الأمَّة: «راح عشان الإنجليز قتلوه».

زفر عبد القادر ثم تَرَك النبُّوت وأخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة، فَضَّها وقربها لأنفه ليسحب منها دُفعة كوكايين حين لاحَ المُعسكر الإنجليزي في الأفق، ضَغَط دَواسة الجَاز ثم التقط مِن الكنبة الخلفيَّة رشَّاش «مادِسن» ألمَانيًّا مَحشوًّا، لَم يُفارقه يومًا مُنذ احترف توزيع الكوكايين، شَدَّ أجزاءه ووَضعه عَلى فَخذيه حين رَصدت الحَامية سَيَّارته المُنطلقة نَحوهم بسُرعة جُنونية، كَانت حَالة الطَّوارئ قد

أُعلِنت منذ الصَّباح وضُربت التعليمات بعَدم التهاون، لوَّح ضابط الحَامية بذِراعيه في إشارة لعبد القادر أن يُبطئ لكنَّه لم يَستجب، ضَرب طَلقة تَحذير في الهَواء فلم يتقهقر، حين بَاتت السيَّارة عَلى بُعد مائة متر استعد عبد القادر لإخراج مدفعه من النافذة حين دَوت طَلقات المَدفع «الفيكرز»، اخترقت ثلاث طَلقات أسفل شبك المُوتور فحَطمت أجزاءه قبل أن تخلَّ بتوازن السَّيَّارة لتنقلب عدة مرات جَارفة الحَصى والحِجَارة مَسافة حتَّى توقفت.

بَعد سَاعة.. العيادة الصِّحِّيَة بالمعسكر

قطع كولونيل تريفور قائد المُعسكر الطرقة الطويلة المؤدِّية إلى العيادة بخطوات صَارمة وقعها منتظِم، دَخل العنبر ثم اقترب من عبد القادر المَسجَّى على السَّرير أمامه فاقِدًا الوَعي مَكسوًّا بالكدمات، رأسه مَلفوف بشَاش تشبَّع دَمًا وفي ذراعه اليمنى جَبيرة وفي اليسرى خرطوم مَغروس يضُخ المَحاليل، أما قدمه فغُلَّت بالأصفاد إلى سُور السرير، نظر للطبيب الواقِف بجانبه ثم سَأله:

- كيف حَاله؟

- ارتجاج في المخ وبعض الكدمات.. سيعيش

- هل كان مَخمورًا؟

- أنفه ومَلابسه تحمل أثر الكوكايين... هل كَان يَنوي مُهاجمة المُعَسكَر؟

- وَجدنا في سَيَّارته «مادسن» ألمانيًا مَحشوًّا وجَاهِزًا للإطلاق.. لكنِّي لا أعتقِد أن مِثله قد يَرتكِب هذه الحَماقة!

- لَعلَّه أُصيب بحُمَّى «سَعد»؟

- لا أظُن، فهذا الولد يتعامل مَعَنا مُنذ سنة تقريبًا، ليست له ميول سياسيَّة، كما أن قُوت يَومه قَائم عَلى خدمة المُعَسكَر.

- قد يَكون خَائفًا من الاضطرابات فجَاء إلينا هَاربًا؟

- مَن يَعرفون تَعاونه مع الكَامب بالطبع يكنُّون لَه العَداء.. مِثله بالنسبة لهم خائِن.

- وبالنسبة لنا؟

- أُسمِّيه شَخصًا عَمليًّا.. فليس لأمثاله فرص حياة في ظروف هذا البلد؟ لكن دَعنا لا نتعَجَّل الأمور.. حالما يفيق سنعرف منه كُل شَيء.



برقية نمرة (١٢٤).. سرّي للغاية

٩ مارس ١٩١٩.. الساعة: ١٠:٢٢ مساءً

من سير «ميلين شيتهام» نائب المندوب السامي بالقاهرة
إلى لورد «كيرزون» وزير الخارجية – لندن.

«الحركة التي حدثت اليوم مُعادية لبريطانيا، ومُعادية للسلطات، ومُعادية للأجانب، وهي ذات ميول «بلشفية – شيوعية» وتستهدِف تدمير المُمتلكات والمُواصلات وهي مُنظَّمة، ولا بد مِن أنه يُنفق عليها، وهناك شكوك قويَّة حول نفوذ أجنبي فيها، ويَميل المَسئولون البريطانيون إلى الظن أنه مهما كان من تحريض وَطني في الشهور القليلة الماضية، فإن الشعور الذي ظهر الآن لا بد أنه كان ينمو خلال سنوات عديدة، وأن وقوع انفجار في وقت ما كان أمرًا لا مناص منه».

ميلين شيتهام

نائب المندوب السامي بالقاهرة

الاثنين ١٠ مارس ١٩١٩

٨:١٥ صَباحًا

أبشاق الغَزال.. مَركز بَني مَزار.. المِنيا

تذبذبت القُضبان الصَّدئة تحت أقدام الناس فتنبَّهوا وابتعدوا، مِن الأفق البَعيد التقطوا هَدير المُحرك قبل أن يلمَحوا الدُّخان الأسوَد، دقيقتان ثم لاحَ الوَحش القاتِم، يَسير وَئيدًا بصَرصَرة حادة وضجيج لَه وَقع مُقبِض، اقترب أهالي البلد من رصيف المَحَطَّة يتطَلّعُون إلى الجَسد الحَديدي العِملاق الذي توقَّف، ينهشونه بأعينهم نهشًا، لَحَظات وفُتِّحت الأبواب ثم بَدأ الوَافدون في النزول تِباعًا، وُجوه كالِحة شاحبة وأجساد بَرزتْ عِظامها وجفَّت جلودها من حرق الشمس.

زاحمت السَّيِّدة العَجوز الجُمُوع الغَفيرة التي تكتَّلت لتَلقي العَائدين، تنتظر تِلك اللحظة مُنذ ثَلاث سَاعات، وسنة قبلها منذ انتهت الحرب! تَأتي إلى المَحطَّة كُل سَبت متكئة على عَضُد إحدى بناتها في ميعاد قُدوم القِطار الأسبوعي، تتأمَّل الوُجوه الوافِدة لتفرزها علَّها تلمَح «ياسين»، بكريها الذي سَحبوه يَومًا مِن أرضه بحُضور العُمدة والخَفَر ومِن وَرائهم رِجَال السُّلطة للعَمَل بالسُّخرة، «محتاجين شوية عِيال كِده عَلشان الجِسر اتقطعت جِهة «دير السنقورية» والبيوت غِرجت، المَأمور بعت إشارة بلمّ الناس وفَرد عَلى بَلدنا تمتاشر عيل».

لَم يَملك يَاسين حَق الرّفض، فالكلمات تبعتها لَسَعَات خرزانات الخَفَر وضَربات كرابيجهم، امتثل لأمرهم فرَبَطوا يَمينه في حَبل طَويل غَليظ مع سَبعة عَشر شابًا من أهل بلدته وأركبوهم قِطار بضائع، ولم يَره أحد زملائه من بعدها، تَحمّلت أمه وَقع الزّمن والإشَاعَات الرّائِجة حَول اختفائه ومقتله حتى تمنّت يومًا أن يَأتوها بجُثمانه، فقط ليَنتهي عَذاب فقده في صدرها.

- ولدي.. ياسين.

التقط صَوتها حين برز وَجهه مِن عَتمة القِطار، فَقد نِصف وَزنه فانثنت قامته الطويلة وازداد سُمرة على سُمرة، لَم تَملك السَّيِّدة نفسَها، امتزجت فرحَتها بفزعها من هَيئته المُفجِعة فدَفنت روحها في صَدره وأجهشت بالبُكاء في فرح، احتواها بصَمت ولثم يَدها ثم أحَاط أخته الصَّغيرة بذراعه وابتعدوا.

قبل الظهيرة كان الخبر قد انتشر رغم توتُّر الأجواء بالمتظاهرين حَاملي اللافتات أمام نقطة بوليس البلد وأعداد عَسكَر الإنجليز الوافدين، عَم الفَرح مَنضرة بَيت «فَهمي» فتجمّع الأهل والجيران يُرحِّبون بالعَائِد الذي ظنّوه لن يَعود أبدًا، فَرشوا خبز «البتاو» تحت لَحم جدْي ذبَحوه وصَبُّوا الشاي الداكِن في الأكواب ووزّعوا أقماع السكّر على الأطفال والسّجائر على آبائهم، استَحَم يَاسين وارتدى جَلابية نظيفة قبل أن يَجلِس على دِكّة حَول أحبّائه مُستمعًا لآيات القرآن من «فِقي» القرية ومُستقبِلًا الزوّار، يَهُزّ رَأسَه ودًّا ويُوزِّع ابتسامات شَاردة لم تَنجَح في إقناع المُحيطين أنه هُو نَفس الشَّخص الذي رَحَل عَنهم مُنذ سنتين، بَدا وَاجِمًا مُشتتًا يَحمِل صَدره قلبًا آخر. قلبًا مَعطُوبًا.

- احكي لنا يا وِلد أختي.. وين كُنت؟ وكِيه جَضِيت السّتين؟

سَكَت الجَمع، نساءً ورِجالًا، وحتّى الأطفال، تعلّقت أعينهم بشفتي ياسين المُتشققتين ينتظرون مِنه مَلحَمة تاريخيّة:

- بَعد ما صلّحنا الجسر أخدونا الإنجليز في جطر.. على الجنطرة شَرق.. ومِن الجنطرة طِلعنا عَلى رفح.. نِزلنا عند عربان أكرمونا وأكلونا وشرّبونا.. وكُل يُوم كات شُغلتنا نُحفر بير ولّا اتنين للسُّلطة ونصَلّح جُضبان السّكّة الحَديد.

- بس إكده؟! طَب والحَرب؟

- ماجاتش نَواحينا.

- لكن أنت شكلك تعبان أوي يا واد عمّي! مَا كنتش بتاكُل ولّا إيه؟

- الأكل هِناك غِير عَندينا.. والميّة غير.. والشقا يَامَا.

- طَب وبَقيت العِيال اللي كَانوا مَعاك! السبعتاشر؟ وينهم؟

- أصلنا.. اتفرّجنا.. وزّعونا.. كُل واحد رَاح لجِهة.. ماتجابلتش مَعاهُم من سَاعة ما رِكبنا الجَطر.

لم تأت القصّة بما اشتهوا أن يَسمَعوا، أرادوا أن يخوضوا الأهوال فتجحظ أعينهم عَجبًا ثم يَطمئنوا على باقي شباب البلد ولم يفعلوا، قضوا وقتهم وانصرفوا مُبكرًا بَعد أن تركوا الدّار عَامرة بالإحباط وبلاليص المِش ولُحوم الطَّير هدايا للعَائد.. ظَلّ يَاسين شَاردًا على دكّته حتى لَملَمَت النّسوة فَوضى الزيارة قبل أن تقترب أمه، جلست

بجانبه تتأمَّل وَجهه المتحجِّر قبل أن تضع يَدها اليابسة على كتفه وتتكلَّم بصَوت خفيض:

- مَالك يا وَلَدي؟

لم يُجبها ياسين، عيناه ذاهلتان في الشباك، شاردًا في غَيط برسيم يتمايل مع الهواء.

- ياسين.. يا ياسين؟

أفاق من شروده: نعم يا أمه؟

- سألتك.. مَالك يا ولدي؟

- تَعبان م السفر يا أمه.

تأمَّلت وجهه دقيقة ثم أردفت:

- تعبك مش تعب سفر يا ولدي!

- آني ما عانِكذبشي يا أمه.

- مش الجصد يا ولدي.. آني بس بدِّي أفهم.. العِيال اللي كت مَعَاك اتفرَّجوا على فين؟ أهل البَلد هايموتوا على ولادهم.. سبعتاشر راجِل راحوا... ولَّا حاجة حُصلت ومانتاش عَاوز تجول؟

قاطعها: مَا خابرش عنِّيهم حَاجة.

- طيِّب يا وَلدي.. ربِّنا يعوِّدهُم بالسَّلامة زي ما عوِّدك.

أشعل سِيجارة بيد مرتعشة، لاحظت توتره فأرادت تغيير المَوضوع رأفة به:

- خابر مين اللي ما انحطعتش يوم في السؤال عنك؟ بهيَّة بنت أبو عامر.. بَجِت فلجة جَمَر.. بتيجي كل جمعة تتحدَّت مَعاي وتسأل عنَّك.. عَايلة همك ومتكدِّرة يا ولداه زي ما تكون بنت عمَّك.

بدون أن ينظر لها قاطعها: وينها دولت؟

- دَولت أختك صَارت مُدرِّسة في مَصر.. اتعفرتت لمَّا عرفت إنك رِجِعت.. أخوك شيَّع لها تلغراف إمبَارح بَس الشوارع حداها مَجلوبة.. خايفة تيجي.

- مَجلوبة؟

- عَ الإنجليز.. مُظاهرات عشان جبضوا على سَعد باشا.

- مين سَعد باشا دِه؟

- باشا من باشوات مصر.. ده العَاركة عليه واصلة لهِنِه.. والإنجليز مغرَّجين البلد.

لم يُبد اهتمامًا، شرد فصَمَت، تأمَّلت وَجهه الباهِت ومَلامِحه التائهة فزفرت قلقًا واستغفرت في سرِّها، إن كَانت تَعرِف شَيئًا عن بِكريها التي ربته يَداها فهي تَعرف أنه للمرَّة الأولى يُخفي عنها سِرًّا!

لَم يكد يَاسين يَنغمس في صمته حتّى تعالت الجلبة في الخارج، صَوت الرصاص ورقع الكرابيج اختلط بصَريخ النِّساء والأطفال، نَادت الأم في شَاب يجري أمام المَنضرة مُستفهمة فألقى عليها الخبر:

- الإنجليز طايحين ضَرب بالكرابيج في أهل البلد.. لا هاممهم كبير ولا صغير.. كُل اللي ينادي بالاستجلال يتلسوع ويسحلوه ع المركز.. وأبو همَّام انطخ عيار في دماغه شجَّها زي البطِّيخة.

التفتت السيدة إلى بكريها الذي للتو عَاد، ستُحاول تهدئة ثورته العارمة ومَنعه من الخُروج للذود عن أهل بلده، ستلتقط فَرد الخَرطوش من يَديه والسكِّين الذي سيستله ثم تستحلفه ألا يتدخَّل فهي لم تكد تفرح بعودته.. لكنَّها التفتت فوجدته كما تركته! شَاردًا في أفق الغيط الأخضر كأن شيئًا لم يَكن، صَنمًا يشس أن يُعبد، نظرت إليه مُحاولة استيعاب الضيف الغَريب الذي حَلَّ في بيتها، ضيف يُشبه ياسين كثيرًا! قبل أن تُغلق خصاص الشبَّاك عليهما وتجلس بجانبه مُنصتة لسَنابك الخيل تهرس الأهالي وصَريخ تعَالى حتَّى أصمَّ الآذان.

الاثنين ١٠ مارس

- بيانات استنكار وتراجُع من بَعض الجِهات والمَدارس لِما حَدث يوم ٩ مارس من حَرق لمَحال الأجَانب وتصريحات تُطمئن الجاليات على أرواحهم.
- المُظاهرات تجتاح المِنيا والإنجليز ينهالون على الأهالي بالكَرابيج.

الثلاثاء ١١ مارس

- إضرابات مُستمرة في أكثر من مُديرية وإنذار بريطاني شَديد اللّهجة طُبع وعُلق في الشوارع والميادين ونُشر في الصُّحُف «المتعاونة»..
- صِدام مع دوريات إنجليزية في القاهرة ووفاة ستَّة أشخاص بنيران البنادق.

الأربعاء ١٢ مارس

- سَمَحت السُّلطات الإنجليزية لبَعض الصُّحُف بنَشر خَبر اعتقال سَعد ورِفاقه لاستعادة ثقة الجماهير في الجرائد، ثم بَث الرعب في قلوبهم بالتحذيرات المُتتابعة بعد ذلك.
- تجدد إطلاق النار في أكثر من مكانٍ وبَدء المُظاهرات في الإسكندرية وطنطا ولما اقتربت الجموع من مَحطَّة القطار أطلق الإنجليز النار ليقتلوا ستة عشر شَخصًا فقطَع الأهَالي خُطوط السِّكك الحَديدية في أكثر من مَوضِع وأحرَقوا المَحطات.

الخميس ١٣ مارس

- مُظاهرات في أحياء الحِلمية والغورية والظاهر والسيِّدة زينب وإنذار إنجليزي لمُوظفي الدَّولة باجتناب المُظاهرات، كما أصدرت أمرًا بالإعدام الفوري رَميًا بالرصاص لكُل من يَقطع خُطوط السِّكك الحديدية أو الهاتف والتلغراف.

- إلقاء الحِجارة على مَراكز البوليس وتوقف عربات «الأمنبوس»[1] العامة وازدياد عَربات الكَارو في الشوارع.

الجُمعة ١٤ مارس

- عِند خُروج المُصلين من مَسجد «الحُسين» بعد صَلاة الجمعة حَسبتهم السُّلطات الإنجليزية مُتظاهرين فأطلقت الرصَاص عليهم فقتلت اثني عشر وأصابت أربعة وعشرين، وعِند مَسجد السَّيدة زينب قتلت ثلاثة عشر شخصًا وجَرَحت سبعة وعشرين.. واستخدم الإنجليز الطَّائرات لضَرب المُتظاهرين في أكثر مِن قرية.

السبت ١٥ مارس

- إضراب عُمَّال عَنابر السَّكك الحَديدية «عددهم أربعة آلاف».. تَدمير أغلب خُطوط السَّكك الحديدية والمَحَطَّات.. أصبح نهر النيل هو وَسيلة المُواصلات الوحيدة بين القرى والمُديريات.

- إضراب المُحامين الشرعيين ومُظاهرة عَارمة في المَحَلة.

- أطلق الإنجليز النَّار عَشوائيًا على عُرس في إمبابة فقُتل ستة أشخاص.

- مَقتل أحد كِبار مُوظفي البريد الإنجليز بالقاهرة ومُطاردة القاضي الإنجليزي ببني سويف.



(١) عربات الأمنبوس: عربات عامة تجرها البغال.

مَدرسة الطب بقَصر العَيني.. مَعمَل الكِيمياء

نصف ساعة قبل حظر التجول

لَـم يَكُن ضَوء القِنديـل كَافيًا لتمييز أحمَد الجَالِس في الرُّكن القَصي خَلف مِنضدة، جَرى العَرَق عَلى رَأسه ثم تَخلَّل رُموشَه ولامَس حَدَقتيه فحرقهُما، مَسَح عَينيه بكُم قميصه وهو يُقاوم ضِيق أنفاسه تحت كمَامَة تقيـه الأدخنـة المُنبعثـة مـن الغلَّاية، يَـداه حاولتـا الثبات وهِـي تَخلط كبريتيـك وكلـورات البوتاسيوم ثم يُضيـف بحِرص حِمـض البكريك شديد التفجير، قلَّب المَحلول لدَقائق ثم صَبَّه بتركيز في وِعَاء أسطواني مـن النِّيـكل قبـل أن يُغلقه بإحـكام ويُودعه في «سَبَت» مـن الخُوص، وَضع فوقه مُسدَّسًـا مَحشـوًا بالطلقات ثم غطَّاه بقُماش وأفرغ كِيسًا مِن الخُضراوات فَوقه تمويهًا، خَلع بعد ذلك كمامته ليلتقط أنفاسـه، غَسَل قَواريـره وأرجعهـا مَكانها، ثم ارتَـدى فَوق قَميصه جَلابيـة دَاكنة ولِبدة فوق رأسه وبُلغة في قدميه قبل أن يُطفئ النور ويَخرج.

اتَّخذ أحمد طَريقه إلى بَاب اللوق، مُخترقًا الحَواري الضيِّقة مُحاولًا الابتعاد عَن الطرق الرئيسـية المَحشـودة بجُند مُتحفِّزين ومُتظاهرين لم يَعترفوا بالحَظر تحديًا وعنادًا، مَدَّ خطواته مُتصنِّعًا البسـاطة قبل أن يَقفز فوق عَربة «كارُّو»، وَصَل قرب بنايته فنزل ودَار حَولها حتى تأكَّد أنه غير

مُراقب ثم دَلف مِن البَـاب، المَدخل كَان مُظلِمًا، مَشى بِضبع خُطوات تجاه المِصعَـد قبل أن تلتقـط أذناه صـوت الخطوات، التفـت متحفزًا فلَمَح وَهَج سيجَارة تحت درجات السلَّم:

- لمّا سمِعت عَن ضَرب مُوظف البَريد الإنجليزي شمّيت ريحتك.

لم يحتج وقتًا ليَستوعِب صَاحِب الصَّوت.

- عبد الرحمَن بيه!

اقترب عبد الرحمن فَهمي يتأمَّل تنكُّره:

- شُوف لنا مَكَان نتكلِّم فيه.

في السَّطح كان اللَّيل قد فَرض سُكونه إلا مِن بقايا الانفلات الأمني المُستمر، دَويّ طلقات نار مُتفرِّقة تأتـي فَرادى من الاتجاهات الأربعة ودخان أسـود وصَيحَات فَزِعة مُضطرِبَـة تتعالى كل بضع دقائق، أخفى أحمد «سَبَت» الخضـراوات تحـت كَراكيـب مُهملة ثم خَلَـع جلبابه، جَلَس الرجل على كُرسي قديم قُرب السُّور يتأمل أحمد:

- قُنبلة؟

- الإنجليز بيضرَبوا بالطيَّارات يا عَبد الرَّحمن بيه!

- مِش خايف؟

- اللي يقدر يموِّتني النهاردة هايموتني بُكرة.

- أحمـد عبـد الحي كيـرة.. سَنة ١٩١٥ فلـتّ من حكم بالسِّجن وزميلك أخد تأبيدة في محاولة اغتيال السلطان حسين.. دَرَست

في مَدرسة الطب وتخصَّصت في الكيميا واتوظفت.. معروف عنَّك في المدرسة إنَّك في حالك.. وفيه ناس بيقولوا عليك خاين ومصاحب الإنجليز.

- وأنا اللي كنت مِستغرب إزَّاي الناس من أسوان لإسكندرية عِرفت إن سَعد باشا اعتُقل تاني يوم!

- سعد باشا نفسه كان عارف إنه هايعتقل.. استنى اللحظة دي من زمان.

- ...!!

- يا ابني أنا راجِل جيش سَابِق.. واللي يعاشر الإنجليز يعرف إمتى ينفد صَبرهم.. إحنا كنا محتاجين الاعتقال ده أكتر منهم.. عشان القضية تكبر وتخرج بره الحدود.

- أنتم مين؟

- مجموعة متحمسة عرَّفت مصر بالاعتقال من غير جَرايد.. بعتت تلغرافات في كل مديرية.. وهي اللي بتطبع المنشورات وبتجيب المَعلومات عن الخونة اللي في الحكومة والبوليس.. قليلين لكن عندنا اتصالات مؤثرة.

- أفهم من زيارة حضرتك إن فيه نية تمويل عَمليات فِدائية؟

انقضت لحظات من الصَّمت قبل أن يُكمل الرجل ما بدأ: العُنف لَو مَا حجِّمتوش ونظَّمته يصبح سِلاح ضدَّك.. هاييجي وقته.. إحنا مبدئيًا مِحتاجين مُساعدتك في موضوع تاني.. أنت بتفهم في الكيميا؟

- تخصُّصي.

- إحنا رصدنا مَكان سَكن سعد باشا في مَالطة عن طريق أصدقاء عَايشين هناك وقدرنا نطَّمن عليه وحققنا اتصال.. لكن لسَّة مِحتاجين طريقة أمان نراسله بيها مِن غير ما حد يفهم.. عَشان كِده جيت لك النهاردة!

شرد أحمَد للحظات ثم أجابه: مَيَّة البَصَل.

- ميَّة البَصَل؟

- مَيَّة البَصَل.

الأحد ١٦ مَارس.. العيادة الصُحِّية.. مُعسكر التل الكبير

٧:٤٥ صباحًا

أزيز الذُبابة بَدا كضَجيج مُوتور طائرة، حَامَت حَول رَأسه مَرَّتين قبل أن تَضرِب أذنه بسَخَافة، نَدت عَنه رَعشَة في جفن صُبغ بزُرقة الوَرم تبعتها واحدة في أنامِله قبل أن يَفتح عَينيه بصُعوبة، مَيَّز سَقفًا عَاليًا مِن الصَّاج المضلَّع ومَروحة تتدلَّى مِنه وتطِن بَاعثة نَسمات رَطبة، نَظَر يَمينه فَشَاهد ثَلاثَة أسِرَّة عَليها جُنود إنجليز مُصابون بجانبهم مُمرضَتان ترتديان الكمَامَات، استغرق الأمر مِنه دَقائق، حَاول استيعاب مَا أتى به إلى العنبر قبل أن يتراءى له وَجه أبيه، نائمًا على عُشب الحَديقة مُغمَض العينين ومُضرجًا بالدماء، «عبد القادر».. سمع صوت أبيه فَجلَس بَغتَة عَلى السَّرير ثم تدفَّقت الأحدَاث في رأسه دفعة واحدة، النبُّوت في الأوتومبيل.. علبة الكُوكايين.. الرشَّاش عَلى فَخذه.. دواسة الجاز.. المُعَسكَر على بُعد.. المَدفع يُصوِّب نَحوَه.. ثم لا شيء!

تَحامل عبد القادر وحَاول النزول من السَّرير فعَطَّلته قَدَم مَغلولة، انتبهت المُمرضَتان لاستفاقته فاقتربتا، انتَابته العصبيَّة لمَّا لَمسته إحداهُما مُحاولة إثناءه عَن النزول فدَفعها دَفعة عانقت فيها الحائِط وأغرقها بالسِّباب، جَرت الأخرى هَلِعَة إلى الخارج تَستَدعي مُساعدة،

لَحظات ودَخَل طَبيب لَـم يَجرؤ على الاقتراب مِن الثـور الهائِج الذي حَاول خَلع دعامـة السَّـرير، ثلاثون ثانيـة ودَخَل جُنديان بسِلاحهما، قاومهمـا بضـراوة أطـاح فيهـا بأحدهما قبـل أن يخبطَه الآخر بدبشـك البندقيـة في ذراعـه المُصابـة، صَرخ ألمًـا فرَكَع على السَّـرير وصوبت الفُوهـة إلى رأسـه، لَحَظـات وأقبل كولونيـل تريڤور، سَـاكِن المَلامِح في زي عَسـكَري مَشـدُود، بهُدوء فَتَح الجِراب وحَرَّر مُسدَّسًـا له فوَّهة طويلة، جرَّ كُرسـيًّا ثم جَلس ووضعه على حِجره.. هز رأسـه في أسـى ثم تحدَّث:

- منذ قليل مات «أوسكار».. كلبي الوفي.. سلالة نقيَّة من الإنجليش ماستيف.. المِسـكين رأيتـه يومًا وراء يوم يَشـيخ ويَمـرض.. لم أملك مُسـاعدته.. ومؤخرًا انفجرت أوعية عينيه فعاش أعمى آخر سنتين في حياته! طوال الوقت يتخبط في أثاث البيت حتى يدمى رأسـه وقدماه.. ذلك كان قاسيًا.. اليوم استيقظت مُبكرًا وسمعت أخبار اضطرابات المتطرفين.. تركت المُعسكر وذهبت للبيت.. أرسـلت زوجتي إلـى صديقتها.. أخرجت «أوسكار» إلى الباحة الخلفية.. سَـحبت مسدَّسـي وأرحتـه.. أثِق أنَّه مُقـدِّر لما فعلته.. بعد يومين سأستقبل «ستافوردشـاير» رماديًّا.. هجينًا قويًّا يصلح للصيد والعراك.. سُرعان ما سيُنسي زوجتي «أوسكار» العزيز.

صمت للحظات أشعل فيها غليونه ثم أردف: هيا يا عبد القادر.. علي أن أهـب «أوسكار» جنازة تليق بالعِشـرة الطيبة.. هيـا.. أعطني قصَّة.. واحرِص أن تكون متماسِكة ومسلِّية فمِزاجي بالفعل سَيِّئ للغاية.

لم يَهدأ نَهِيج عبد القادر وإن أشاح بوجهه فأردف الكولونيل:

- تدفعني إلى تصرُّف لَن يُرضيك يا عبد القادر.

- ...

- إذن.. صحح لي.. أنت لم تذعن لتَعليمات الحِراسَة.. اقتحمت حدود المُعَسكَر.. تَحمل رشاشًا ألمانيًّا مَحشوًّا وفي أنفك كوكايين.. وللتو اعتديت على ممرِّضة وقاومت الجنود! إما أن تشرح لي ماذا كُنت تَنوي في دقيقتين.. وإما أُرديك برَصَاصة.

احتقنت عَينا عبد القادر وكَاد يَكسر ضروسه جزًّا فسحب تريڤور رصاصة من خزانة مسدَّسه إلى الماسورة بصوت رنَّان فابتعدت الممرضتان وتوتر الطبيب والمرضى.

- أعطِني سَبَبًا وَاحِدًا لإقناعي بعَدَم تفجير رأسك.

رائحتا الجُبن والخزي غمرتا أنفه.. ألقاها بألم: كُنت.. أهرب!

- مِمَّن؟

- أهل الحَيِّ الغَاضِبين.

- يعدُّونك خائِنًا هه؟ ممم.. هل تَرى نفسك كذلك؟

أخرسه السؤال فقام كولونيل تريڤور واقترب منه متفحِّصًا وجهه:

- هَل.. ترى.. نفسَك.. خائِنًا؟

لم يَجرؤ عبد القادر على تقديم إجابة، حتَّى لنَفسه، فاستطرد الكولونيل:

- دَعني أوضح لك أمرًا تعلَّمته من الحياة.. بَعض الناس يُشبِهون الأسُود.. وبَعضهُم يُشبهون الكِلاب.. وهناك الضباع.. فِئة غريبة

تُرهبها الأسود.. وتفزعها الكلاب.. فئة لا تكسب احترام أي حيوان في الغابة.. كبيرًا كان أو صغيرًا.. هل فهمت شيئًا؟

- أنا مش جبان.

صَاح الكولونيل في عبد القادر: تكلَّم بالإنجليزية.

لم ينطِق عبد القادر.

- لا تريد أن تتكلَّم.. حَسنًا.

قالها وقام، صوَّب ماسورة مسدَّسه إلى رأس عبد القادر، لَحَظات، ثم سحب المسدَّس وتأمَّله قبل أن يودِعه جِرابه.. قال:

- رغم أنَّك لا تختلف عن الرعاع الذين لا يرضون بالحياة الكريمة من أبناء جلدتك.. ورغم أن قتلك أسهل من إطفاء سيجارة لكني سأكتفي بتركك ترحَل.. من أجل ذكرى «أوسكار».. من يقتل كلبين في يوم واحد؟ لا تدعني أرى وجهك ثانية.

قالها وصفق البَاب وراءه، أغلقه على صدر عبد القادر.

بَعد سَاعة فُتِحت كُوَّة في بَاب المُعسكر الحَديدي، خَرج منها عبد القادر بصُحبة جُنديين مُسَلحين لَفظَاه عَلى بُعد أمتار، قام ولَم يَنظُر وَرَاءَه، تَوكَّأ عَلى نفسه برأس مُرتَج وعَرجَة مُؤلِمَة حَتى مَرَّ بكُتلة من الحَديد كانَت يَومًا سَيارة كروسلي، اقترب منها مُتفحِّصًا ركامها بأسى قبل أن يَستَخلِص بصُعوبة نبُّوت أبيه من بين الحطام، جُزء من الرأس تهشَّم وتخربشت السَّاق، وَضعه على الأرض وتعكَّز عليه سَيرًا.. نحو العَدَم.

نفس اليوم.. منزل سَعد زغلول

١٠:١٥ صَباحًا

توقّفت عَربة «الكوبيل» قُرب مَدخل البَيت، نَزل السائس مِن فوق الحصان وهو يتأمّل المُظاهَرة النِّسائية التي وقفت قُرب المَدخَل، نِساء وفتيات مِن جَميع الأعمَار ارتدين الحَبرات السَّوداء فَوقها بَراقِع بَيضَاء ورَفعن لافتات الاستِقلال والاستِنكار والأعلام السوداء، سَحَب السائس دَرجَات السلَّم الثلاث ثم فَتح البَاب وبَسَط يَده.. اتفضَّلي يا هانِم.. وَضَعَت صَفيَّة زغلول قدمها عَلى دَرجة السلَّم ثم اتّكأت على كَفّه حتَّى لامست الأرض، التفَّت الجموع إليها فتعالت الهتافات في أفواهِهن: سَعد سَعد يَحيا سَعد.

وَقفت السيِّدة تُحيي الجموع اللاتي رمقنها بشَغف قبل أن تتَّجِه إلى باب البَيت، لمَّا أصبحت بجوار البوَّابة طَلَّت مِن بَين الصُّفوف أنثى خَاصَر الكُحل عَينيها الوَاسِعتين فوق البُرقُع.. صَفيَّة هانِم.. صَفيَّة هانِم.. نادت فلفتت النظر ثم مدَّت من وسط الزحام يَدًا خمريَّة تحمل وَرقة مَطويَّة، التقطتها السيِّدة ثُم دَلفت مِن بَاب البَيت قَبل أن تفتَحها وتقرأ:

«ابنتك دَولت فَهمي مُدرِّسة بمدرسة «الهِلال»، مِن طَرف عزيزة هانِم عبد البر.. المنيا».

قـرأت صَفيَّة الاسـم فتوقفـت قبل أن تُشـير لخادِم أن يأتي بالآنسـة صَاحبـة الرِّسـالة، انتزعهـا مـن بيـن الصُّفـوف فمـدَّت الفتـاة يدهـا بفرحة شديدة.

- مُتشكِّرة يا صَفيَّة هانِم.

- أهـلًا يا دولت.. عزيزة هانِـم كلِّمتني عنَّك من تـلات أيام.. مِنين من المِنيا؟

- من أبشاق الغَزال مَركز بَني مَزار.. من إيدك دي لإيدك دي.

- تعالي معايا.

تحرَّكـت دولـت في أثـر صَفيَّة حتَّى دَخلتـا الحَرملـك، صَعدتا إلى الدور الأول المفضي إلى صَالة واسَـعة اصطفَّت فيها كراسي الأُبيسون على شَـكل دائرة جلسـت فيها زَوجـات المنفيِّين وسَـيدات المُجتمع، استقرت دَولـت في نهايـة القاعة تتأمَّـل مَن كانت تَـسمع أخبارهن في الجَرائـد وتَرى صور مآدِبهـن وحفلاتهن قبل أن تتابع دورهن في طلب الاستقلال، لعبة السياسة القذرة التي طالما شغلت بالها، ها هي صَفيَّة هَانِـم زوجـة الزعيم سَـعد زغلول! هُـدى هَانِـم شَـعراوي زَوجة عَلي بَاشـا شَـعراوي عين أعيَـان المِنيـا وثالث ثلاثة فـي الوفد الـذي ذَهَب للقاء المَندوب السَّـامي، زوجة مَحمَّد باشـا مَحمود عين أعيان أسيوط وأوَّل مـن نـوَّه عن فِكرة تشـكيل الوفد، وغَيرهُن! كان ذلـك كَثيرًا على دولـت، اجتاحتهـا الإثـارة ففـارت وجنتها حَـرارة، أنزلـت البُرقع عِند حـدود ذقنهـا فضربَت نَسمات الهَـواء خصلـة فاحِمة فَـرَّت مِن تَحت الحَبرة ولاحَـت قسـمَاتها الخَمريَّة المتناسِقة؛ شـفتان مكتنزتان داكنتان

فوقهما عينان واسعتان عسليتان، تحسبها أميرة فِرعونيّة اكتسبت بعض الوَزن، يَا الله! زَفَرت بِهَا في سِرِّها وهِي تتابع الوُجوه.. يَا لَيتَ أهل بلدي يَعلمون بِما حَدَث لِي في القاهرة، هَل كان يتوقَّع أي مِنهم أن تَصير وَاحدة من آل «فهمي» مُدرِّسة في أم الدُّنيا مصر؟ هَل كان يتوقَّع أي مِنهم أن تَحضر فتاة بَني مَزار اجتماعًا بذلك القَدرِ من الأهمّيَة؟ سَأحكِي لَهم حين أعود وسَيلتفّون من حَولي ليَسمعوني مدهوشين، ستفخر بي أمّي، وياسين أخي كثيرًا، كَم أفتقده! لَولا الأحداث ما تأخرت عن لُقياه لَحظة، لكنّها لحظة فارِقة في التاريخ، سَيَعذُرني.

أفاقت «دولت» من شُرودِها لَحظة بَدأت صَفيَّة هانِم في الكلام كانت تجلس بجانب هُدى شَعراوي:

- أحبَّ في الأول أعرّف حَضراتكم التطوُّرات، البَرقيات اللي بَعتناها باسم سيدات مَصر لحَرم المَندوب البريطاني طبعًا مَفيش رَدّ، كُل اللي حصل إن أعضاء الوفد عَجبتهم الصيغة وحفظوا نُسخة في مَحضر جلسة أوّل إمبَارح!

أردفت هُدى شَعراوي: الاحتجاجات والبَرقيات ما عادتش تنفع يا هَوانِم.. الستات لازِم تشارك.. لازِم ننزِل الشَّارع.

انطلقت هَمهمات مُستنكِرة من السيدات قبل أن تتكلّم سَيدة لَم تتعرَّف عَليها دَولت:

- يَا صَفيَّة هَانِم أنت عَاوزة الستّات تنزِل الشارع؟

صَفيَّة: ومَالوا لما ننزل الشارع؟

أردفت السيِّدة: أنا ما مشيتش في الشارع من ساعة ما كُنت عيِّلة صغيِّرة.. ده إحنا نتبهدل!

قالت صَفيَّة: هو فيه بهدلة أكبر من اللي حَصَلت للبَشوات يَا صِدِّيقة هَانِم؟

رَفَعت زوجة محمَّد باشا مَحمود صَوتها: إحنا في وضع استثنائي.. أنا مع نزول الشَّارع أكيد.

عَلا صَوت سَيِّدة بَدينة على قبَّعتها ريشات طويلات: أنا شايفة نستنَّى لمَّا نشوف هايحصل إيه؟ دي خَطوة مِش هيِّنة.. هايقولوا علينا إيه؟ ده غير البَصبَصة اللي هانشوفها من قُلالات الحَيَا والإنجليز.. الوفد مَا يتهيَّأليش يوافِق ع الكلام ده.. لَو كَان سَعد بَاشا مَوجود ماكانش هايوافِق الستَّات تنزِل.

صَفيَّة: سَعد باشا قال إن ثورة من غير ستات ما تبقاش ثورة.

أردف صَوت آخر: فيه سِتات هاتطلق لو نزلوا.. ده خراب بيوت.

كان ذلك فوق احتمال دولت، فلت زِمام صبرها فقامت ورفعت صَوتًا يَليق بأقاصي الصَّعيد: الراجِل اللي يِطلَّق مراته عشان نزلت تتظاهِر يبقى مش راجِل.. وما تصحّش العيشة مَعَاه.. الستات في بلدنا خلعوا قضبان القطر مَع اجوزاتهم.. لازم نِنزل.. إن شالله الإنجليز يِضربونا بالنار.

صَمت الجَمع والتفت الرءوس إلى دولت التي اقشعر جِلدها كجِلد إوزة من الخجل فرمقت صَفيَّة هانِم في استغاثة فقامت من كرسيها محتدَّة: آه.. يِضربونا بالنار.. ولو سِت واحدة حَصلَّها حَاجة البَلد هاتولَّع.

قامت هُدى شَعراوي حَاسِمة الجَلسة:

- أنا هانزِل الشارِع، دَه قرار اتّفقت عليه مع صَفيَّة هَانِم قبل ما نقعد القعدة دية، هانتجمَّع دلوقت في جنينة جاردِن سيتي ونتحرَّك من هناك على القنصليات، اللي عاوزة تتفضل تيجي أهلًا بيها، واللي مش عاوزة خليها في البيت تستنَّى الفرج.

انفضَّت الجلسة وتفرَّقت النسوة، القلَّة الرافِضة رَكبن عَرباتهن رَاحِلات، والبقيَّة الموافقات نزلن مُلتحِمات بالجُموع الواقِفة خارج البوَّابة، يَنظرن لصَفيَّة زغلول بانبهار وحين أنزلت الحِجاب كاشفة وجهها اشتعلن حَماسة، دَولت كَانت وراءها تتابع المشهد، مُنتشية لا تصدِّق عينيها، كَشفت وَجهها ورفعت علمًا فاحتضنتها صَفيَّة هامسة في أذنها:

- أنت بميت راجِل يا دولت.

حُشِرَت الكلمات في فم دولت من الحَمَاس وارتعشت شفتاها بابتسامة قبل أن ترفع صَفيَّة يدها بالتحية لعبد الرحمن فهمي الذي نزل للتو من عربته واقترب، حيًّا صَفيَّة فهمست في أذنه: دولت بنت مُتميِّزة.. مستخسراها في المظاهرات.. خلي بالك منها.

هز الرجل رأسه في إيجاب وابتسم: بتشتغلي إيه يا دولت؟

- مُدرِّسة إنجليزي في مَدرسة الهِلال.

- حاجة لطيفة خالص.. أنا عَارف المَدرسة.. هاكون على اتصال بيكي.

ابتسمت دولت بفرحة حقيقية وشكرته قبل أن تودِّع صَفيَّة هانم لتلتحِم بالسيِّدات، سِرن في خُشوع مَهيب، مَوكِب عَلَته الأعلام السَّوداء احتجاجًا على نفي سَعد والقتل المُستمر للمتظاهرين، ذُهِل أبناء البلد قبل أن يُذهل الجند الإنجليز وتُخرِسهُم المُفاجأة، السيدات والفتيات يسرن في مظاهرة! يهتفن بسُقوط الإنجليز بوجوه مَكشوفة وأصوات عالية تخطَّت الحِجاب!! التفَّ حَولهن الشَّباب والرجال يَحمونهن ويوفِّرن لهن سَلامة الطَّريق إلى القنصليات، تصدَّعت حنجرة دَولت من الصراخ: «عاش سعد» «يسقط الاحتلال»، وبَعد دقائق باتت المُظاهرة بالمئات بَعدما نزلت رَبّات البيوت مِن بروجهن وانضمت طالبات المَدارس، كُلّما وَصلن أمام قُنصُليَّة هتفن وقدَّمن ورقات الاحتجاج واستنكار الاحتلال.. لمَّا رجعن إلى بيت سَعد زَغلول ضَرَب الإنجليز نِطاقًا حَولهن لإيقاف المَسيرة، سَدَّدوا إليهن البنادِق وحَاصَروا الشباب الذين يَحمُونهن، لثلاث سَاعَات كَامِلة ظلَّت المُظاهرة تضطرِم تحت وَهَج الشمس، لم يتوقَّف الهتاف لَحظة حتى جاء الأمر فضيَّق الإنجليز الحِصار ودفعوهُن دَفعًا بحِراب الجنود ومن ورائهم الخيول حتى وهنت القوى وتفرَّقت الجموع بَعد يوم لم يَكن أحد ليتخيل أن يأتي.

«سيدات مِصر تنتفِضن ويخلعن البراقِع ويسرن في مظاهرة رافعين أعلام الأمَّة!».

ذلك اليوم رجعت «دولت» إلى شقَّتها المؤجرة، خلعت حبرتها وبُرقعها وارتمت على السرير وقد نسيت قلبها وعقلها «عنوة».. في بيت الأمَّة.

خَرَجَ الغَواني يَحتجِجن		ورُحت أرقُب جَمعهنه
فإذا بهن تخذن من		سود الثياب شعارهنَّه
فطلعن مثل كواكب		يَسطعن في وسط الدُّجنَّه
وأخذن يجتزن الطريقَ		ودارُ سعد قصدهنه
يمشين في كنف الوقار		وقد أبَنَّ شعورهنه
وإذا بجيش مقبل		والخيلُ مُطلقة الأعنَّه
وإذا الجنود سيوفُها		قد صُوِّبتْ لنحورهنه

حافظ إبراهيم

نفس اليوم

- هاجم المُتظاهرون السِّجن في مِنيا القمح وأطلقوا المَساجين ثم هاجموا السكك الحديدية فقُتل ثلاثون شخصًا.

- أضرب عُمَّال إنارة الشَّوارع بغاز الاستصباح فباتت القاهرة في ظلام دامس.

اليوم التالي

لم يكُن عليه أن يَقرَع؛ فباب البنسيون ما كان ليَنغلق، رأته بَنبة يُقاوم السُّقوط مُستندًا على نبُّوت أبيه فهرعَت حَافية والتقطت ذِراعه، ارتمَى علَى الكنبة صَامتًا فالتفت حَوله العَاهرات يَخبطن صُدورهُن قلقًا، أطرَق برأسه إلى الأرض بعَينين تحجَّرتا وشُحوب كشحوب المَوتى، أتينه بمَاء شربه ثم تقيَّأه على صَدره قبل أن يَسْنِدنه إلى الحمَّام، أكمل إفراغ مَعِدته ثم جَلس على كُرسي قَصير وتولَّت بنبة صَبَّ المَاء فوق رأسه، نَزل مِنه تُراب وعَرق ودِماء قبل أن تُلبسه جَلابية وتُسجيه على سَرير، أمسَكَت بوركي فرخة فشختهما ثم ناولته فأبعد يَدها.

- يوه!! لازِم تتأوِّت يا عبد القادر أنت مِتصاب.. وَحْد الله في قلبك.. هُو إيه اللي حَصَل؟ سَلامة بيقول انَّك جريت بالنبُّوت بَعد ما بصِّيت عَ المَرحُوم.. يا حول الله يا رب.. أنا قلت الإنجليز نشُّوك ولَّا حبسوك.

لم يَفقه عبد القادر ما قالت، صَوتها كَان هَمهَمات بلُغة هنديَّة، عَقله لا يَكُف عن استدعاء صُورة أبيه، تُداهِمـه بَاردة شَـاحِبة كأطرافه التي لامَسها، لا يَكاد يُصدِّق أسطورته التي تقوَّضت، دُنياه التي تداعَت، العالم الذي كان مُستقرًا فتشقَّق وانفلق، يُضنيه ويُصليه إلحاح عقله في اختلاق قِصَّة مُتماسِكة تحفظ ما تبقى من ماء وَجهه الذي انسكب تحت قدميه وتبخر، قصَّة يَرويها لحَظة عَودته للحَي مُستقبلًا التعَازي في مَقتل أبيه بيد الإنجليز! الإنجليز الذي كَان يتباهى بصَداقتهم وخدمة مُعسكرهم! أغمَض عَينيه بألم مُحاولًا استيعاب مَسرحيَّته الهَزلية الرَّديئة التي لن ترقى لتُعرض على مَسارح شارع عِماد الدين، وقرار عَودته للحي الذي أصبح ضَربًا مِن الجنون.

انتشلته بنبة من وحشة أفكاره:

- يا عبد القادر بزيادة قلقتني! إيه اللي حَصَلَك؟

اتَّخذ الأمر مِنه لَحَظَات ليفتح فَمه: أبويا مَات.

استوقفت الكلمة «ورد» الهائِمة في الطرقة، تسير مستندة بأناملها على الحائِط الطويل محاولة الاتزان، رَجعت، جَلست القرفصاء بجَانب الباب تسترق السَّمع حين أردفت بنبة:

- منا عارفة إن أبوك مات الله يِرحَمه.. وبَعدين؟

ابتلع ريقه بصعوبة ثم تكلَّم بعينين زائغتين وابتسامة مَحمومة:

- سَحَبت النبُّوت ورِكِبت الأوتومبيل.. عبِّيت الرشَّاش وجريت عَ المُعسكر.

- يا لَهوي!! وبَعدين؟

- ضَربت كل اللي واقفين بالنار.. كلُّهم.. غربلتهم.. وكَسَّرت بَاب المُعسكر ببوز الأوتومبيل.

رمقته «وَرد» مِن طَرف الباب وهو يَحكي.. عَيناه الذاهلتان ويداه المُرتعشتان أثارت انتباهها.

- دَخَلت على بَراميل الجاز المَرصوصة.. بطلقة واحدة ولعت الدنيا.. واللي يجري أنشّه.. أنشّه.. لغاية ما خلَّصت عَ المُعسكر كُله.

انتهى عبد القادر ولم تُبد بنبة ارتياحًا لِما قال، رَمَقته بابتسامة عَصبية قَبل أن تجس جبهته فوجدتها دافئة، لوت شفتيها قبل أن تُغطِّيه.

- معلش.. طول عُمرك راجِل يا عبد القادر.. نام لك سَاعتين كِده عَشان تفوق.

أغمض عينيه فخرجت، توارت ورد حتى مرَّت بنبة قبل أن تتسلَّل إلى الغُرفة، اقتربت من عبد القادر مجاهِدة سَلاسل ثقيلة مَربوطة في قدميها من أثر الأفيون في دمائها، تأملت جُروحه والنبُّوت المَكسور بجانبه فمدَّت أصابِعها إليه فضولًا حين فتح عَينيه بَغتة وقبض يَدها بقسوة، تلاقت نظراتهما للحظات لم ترمش فيها جُفونهما قبل أن تترك النبوت كما كان فحرَّر عبد القادر يدها فانسحبت خارجة كورقة تترنح في مهب الريح.

الاثنين ١٧ مارس

- مُظاهـرة كُبـرى في القاهرة أبلـغ مُنظّموها الحكمدارية بخط سيرها فوافق الحكمدار على التصريح لهم، مَشـت المُظاهرة وفيها كل طوائف الأمة من عُمّال ومُوظَّفين وطلبة هَاتفين بالحرية، استمرت المسيرة ثماني ساعات ثـم حـدث إطلاق نـار تجاهها من نافـذة رجل أرمني، صَعـد المتظاهرون بنايته فقتلوه وأحرقوا بعض مَحال الأرمن والأجانب قبل أن يُسيطر منظمو المظاهرة على العنف ويوقفوا مَوجة الغضب.. بصعوبة.
- القاهرة أصبحت معزولة تمامًا بعد قطع خطوط السكك الحديدية.

قلعة بولفاريستا.. مَالطا

القلعـة العَتيقـة كانت على ربـوة مرتفعة، حوائِطها مَكسـوة بالحَجَر ومُحاطة بسور عَالٍ له بَاب حَديدي يَحرسه فريق من الضبَّاط المَالطين ببنادق طويلة لها حراب مدببة، في الحديقة الوارفة جَلس سَـعد زغلول على كُرسي أمام مِنضدة فوقها قهوته، شَاردًا يَرمُق رماد سَيجارته تحت أصابعه يتراكم ويتوشك النار المُقتربة أن تطول جلده.

مُنذ حَضر إلى مالطا باتت الأيام كلها سواء، نهارها كليلها لا أحداث فيها إلا الوجبات بين رفاقه على مائدة الشيف الألماني الذي استأجروه

وأدوار الكوتشينة أو الشطرنج التي تتخللها تبادل الجرائد المهربة إليهم من مصر، يقرءون فيها تطور الأحداث ويطرحون مخاوفهم واقتراحاتهم المتباينة قبل أن تشتعل الكلمات في الهواء فوق رءوسهم، اختلافات فكرية لم يلحظها خلال زمالتهم في مصر، الاستئثار بالرأي، بالزعامة، العِناد، التكتل، الاتهامات المتبادلة، والخصام في أحيان كثيرة! ساعات متوترة قابلها سعد بالصمت أحيانًا وأحيانًا بعصبية مريض سُكَّر، يترك المكان بعدها ويستأذن الحراسة فيرافقه فردان بأسلحتهما بعدما يمضي تعهدًا بعدم الهروب، يتفسح في الجزيرة سيرًا على الأقدام وهما من ورائه، يَشتري بعض الأعشاب التي تخفض السُكر في دمائه ويقابل عددًا من المالطيين والأجانب المتعاطفين مع القضية، يصافحونه في حفاوة وينثرون عليه دعواتهم، قبل أن يَعود ليشرب قهوته ثم يجلس ليسطر بعض ما حدث في مذكرات تعوَّد أن يكتبها منذ سنة ١٩٠٧، مذكرات استهلَّها بعبارة: «ويل لي من الذين يطالعون من بعدي هذه المذكرات».. أوراق صريحة تحمل بين طياتها مُحاولاته المُستميتة للتخلص من عادة القمار.. كواليس نزاعاته مع الإنجليز والخديوي أثناء توليه الوزارة.. أخبار محصول القطن السنوي في أرضه ومَصاريف بيته بالقرش وتقرير دوري عن حالته الصحية.. رأيه الصريح في المُقربين منه حتى وإن كان جارحًا ورغبته الحقيقية في رَكل مُؤخرة كل مُحتل يَسير فوق أرض تلك البلد.

قَطَع شروده صَوت آت من البوَّابة، دَب النشاط في عَينيه فأطفأ سيجارته وهو يتأمل الحَارس المَالطي يُدخِل الضيف، شابًا وَسيمًا مُهندمًا، اقترب حَاملًا بين يديه كرتونة صَغيرة الحَجم:

- صَباح الخَير يا سعد باشا.. مَجلات وجرائد الأسبوع.

- أشكرك جزيلًا.

بفرنسية ضعيفة استأذن الحَارس المَالطي في تفتيش الكرتونة التي أتى بها الضيف فوافق سَعد، غَربلها ولَم يَجد فيها سوى الجرائد والمجلات فاستأذن الضيف من سَعد ورَحَل، أخذ الأخير الكرتونة ودَخَل إلى البيت، اتَّجه إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب بالمفتاح، فَفَض الكَرتونة وأزاح الجرائد قبل أن يلتقِط مجلة اجتماعية، قلَّب الورقات حتى توقف عند الصَّفحة الثامنة عشرة، أشعل «وابور سبرتو» صَغيرًا فوقه مِكواة حديدية، مَا إن طالتها السُّخونة حتى كَبسها على الورقة، ثوانٍ واحمرَّت المَسَافات ما بين السطور، ثم أصبحت أقرب للبنيّ الغامِق قبل أن تتَّضِح الكلمات؛ كَلمات عَربية مكتوبة بخط يَدوي رفيع.

سري.. رقم ٢

أطلب الإذن لتمويل عمليات مَحدودة تترك أثرًا في أصدقائنا لدفع القضيَّة.

عبد الرحمن فهمي

قرأ سَعد الرسَالة مَرَّات قبل أن يَقطع الصَّفحة مَع عِدَّة صَفحات عَشوائية من مجلات أخرى ويَحرقها.. تابَع اللَّهب الأزرق يتصاعد حتى خبا وباتت الورقات رمادًا جمَّعه في قبضته وخَرَج إلى الحديقة..

أطلقه في وجه الريح فابتلعته ثم أشعل سِيجارة وهو يَسترجع سبعة وثلاثين عامًا مضت.. بَقايا ثورة مَبتورة بقيادة عُرابي.. استرجع أيام سجنه.. أيامًا آمن فيها أن العُنف هو الطريق الوحيد للتغيير حِين تُسد كُل الطرق.. نرتكِب أحيانًا أخطاء صَغيرة لنتفادى أخطاء أكبر.. القَرار مَصِيري والتصعيد سِلاح ذو حدَّين.

أحدهما بالفِعل عَلى بُعد سَنتيمترات من قلبه.

قبل أن تنتهي السِّيجارة دفنها ودَخل المَطبخ.. التقط فَص ليمون.. بَصَلة.. عَصَّارة وزُجاجة خَل.. ثم دخل غرفته وأغلقها.. كَما في تعليمات رسالة عبد الرحمن فهمي السابقة فَعل.. عَصر الليمونة وورقة البَصل على بعض الخل وقلَّبهم بسِنٍّ ريشة رفيع قبل أن يلتقِط كِتابًا عتيقًا وينتقي صفحة بعينها ليَكتب ما بين السطور ردًّا.

بيت سَعد زغلول
١١:٠٠ صباحًا

حَضَر أحمد في مَوعده تمامًا، سَأل الخَادِم المتوتِّر عن عَبد الرَّحمَن فَهمِي فناوله رِسَالة اعتذار عن التأخير ورجاه الانتظار في الحَديقة حتى يَجيء، وَقف بِضع دَقائق في ظِل شَجرة يتأمل البَيت الكَبير ثم تمشَّى، انغرس حِذاؤه في عُشب لم يُشذَّب مُنذ أسابيع قبل أن تسحَبه عيناه لعَربة سَعد بَاشا التي تقف أمام الإسطبل، بلا حصان، اقترب يتأمَّلها حين التقطت أذناه حَمحَمة فَرَس، دَلَفَ من البَاب المُنفرج فلَمَح ثلاثة أحصِنة تطل رءوسها من المَرابِط ويَد أنثى تُداعب جَبهة الأبعد، لَم يُصدِّق عينيه حين تبيَّن صَاحبتها، تسمَّر مَكانه يُسجِّل اللَّحظَة، يَرجو الثواني ألا تمُر أو تنقضي، بحَذَر تابع عُودها الأشبه بقارورة انسيابية، حذاءها العَالي الذي أيقظ منحنياتها، وأصابعها التي أخرجت قالب السُّكَّر من كِيس صَغير وقرَّبته من الفَم، لَحَسَها لِسَان عَريض فضَحِكت ببَراءة وربتت على صدغه الهائل بخفَّة، ثوانٍ والتقط أنفه رائِحة قرنفل مَمزوج بخوخ وياسمين.

- ده «ميتسوكو»؟

التفتت نازلي ناحيته بَغتة، تأمَّلته ثواني قبل أن تنفُض يَديها من بقايا السكَّر.. بدون أن تنظر في عينيه سألت:

- بياع عطور؟

ضَحِك أحمد فاقترب: لأ، كُنت في شيكوريل سَاعة ما نزلوا أول إنتاج منها، عَجبني شكل الإزازة وخلطة القرنفل بالياسمين والخوخ فسألت عن الاسم، عِرفت إنه اسم بطلة يابانية في رواية اسمها «المعركة»؛ زوجة قائد حربي وقعت في حُب ظابط إنجليزي، ودارت معركة حربية بينهما، طول الرواية هي في انتظار مين اللي هايرجع.. حبيبها ولّا الزوج.

- وطبعًا الحبيب الإنجليزي هو اللي بيرجع؟

- غالبًا.. أنتِ عارفة الإنجليز ما يحبوش يخسروا أبدًا.

- وعادةً كل ما يِعجبك عِطر بتسأل عن قصته؟

- أي شيء ينجح في شد انتباهي ما بسيبوش غير لما أعرف كل حاجة عنه.

أربكتها نظرة عينيه الثابتة فأردفت: فُرصة سعيدة.

قالتها واتَّجهت إلى باب الإسطبل خارجة.

- أنتِ عَارفة إننا اتقابلنا قبل كِده؟

أبطأت خُطواتها وإن لم تلتفِت فأردف:

- سنة ١١.. شُفتك مَع صَفيَّة هَانِم في الجِنينة.

نَجَحَت الكلمات في جَعلها تلتفِت، أعطَت ظَهرَها للشمسِ فصُبغ شَعرها فِضَّة وتخلَّلته الرِّيح فتموَّج متناثرًا عَلى وَجه تشرَّب حُمرة.

- وأنا اللي شِلتك أول يوم المُظاهرة.. يُوم ما أُغم عليكِ لمَّا...

- افتكرتك.

قالتها وانحَرَفت إلى مربط آخر ومدَّت أصابعها لجَبهة مُهرة تُداعِبها.. أردف:

- أحمد كيرة.

- نازلي.

- عندك أخبار عن سَعد باشا؟

هزَّت رأسها نفيًا ثم استطردت: أنت بتعمل إيه هِنا؟

- عَندي مَعاد مع عَبد الرَّحمن بيه فهمي.

- بتشتغل عَنده؟

- لأ.. أنا باشتغل في مَدرسة الطب. لكن إحنا أصدقاء.

اقترب منها لمسافة لاحَظ فيها ارتعاش أصابعها، جَاهدت لتمنع نفسها من النَّظر في عينيه، مَدَّ يَده ودَاعَب عُنُق المُهرة فنفرت واضطربت قبل أن تربت عليها نازلي مُهدِّئة.

- مش مِتعوِّدة على الأغراب.

- لما تِعرفني هاتتعوِّد.

ارتعشت أصابعها: وهِي ليه تِعرفك؟

- المُهرة تحب اللي يفهمها.. باقدر أحس بيهم.

- وأنت حسيت بإيه لمَّا شُفتها؟

- المهرة دي جَريئة.. بَس مَحبوسة.. نفسها تشوف الدنيا.

تهدجت أنفاس نازلي: هي بتتفسَّح زي ما هي عاوزة.

- مَع سَايس؟

- ممم.. مَع سَايس طبعًا.

- جرَّبت مرة تمشي لوحدها؟ تروح مَسرح تتفرج على رواية مثلًا!

دارت ابتسامة بين شفتيها: خيالك واسع!

- الخيل أصلًا بيئته برية.. بيعشق الحُرية.. والعيشة في روتين إسطبل ولو كان جنَّة أكيد ملل.. المُهرة دي مِستنية فرصة.

قالها أحمد ورفع مِزلاج الباب الخَشبي فابتعدت نازلي والمُهرة خُطوات إلى الوراء تحفزًا:

- أنت كِده بتخوِّفها.

لم يجبها.. مَدَّ يَده للمُهرة فاضطربت حَركتها قبل أن يَجلِس على ركبتيه بثًّا للطمأنينة.. لَحظات من الترقُّب قبل أن تأخذ المُهرة خُطوة نحوه.. فخُطوة.. حتَّى بَات عُنُقها في مُتناول يَده المَمدُودة.. رَمَقته بؤبؤ وَاسِع من بين خُصلات داكنة مُنسدلة على وَجهها ثم أحنت رأسَها وداعَبَت كفَّه المَمدودة.. بُهِتت نازلي وأخفت الإعجاب في راحة يدها.. قام أحمد ورَبت على عُنُق المُهرة فتمسَّحت به قبل أن يلتفِت لنازلي التي لم تنزل عينيها عن عينيه.. لحظات لم يعرفا كم طالت قبل أن يقطعها الخادِم حين دخل الإسطبل.. حَدج نازلي باستغراب ثم رَمَى أحمد الذي يقف في غير منطقته بنظرة ضيق:

- يا أفندي اتفضل في الجنينة.. عَبد الرحمن بيه وَصَل.

لم يَفقه عبد القادر ما قالت، صَوتها كَان هَمهَمات بلُغَة هنديَّة، عقله لا يَكُف عن استدعاء صُورة أبيه، تُداهِمه بَاردة شَاحِبة كأطرافه التي لامَسها، لا يَكاد يُصدِّق أسطورته التي تقوَّضت، دُنياه التي تداعَت، العالم الذي كان مُستقرًّا فتشقَّق وانفلق، يُضنيه ويُصليه إلحاح عقله في اختلاق قِصَّة مُتماسِكة تحفظ ما تبقى من ماء وَجهه الذي انسكب تحت قدميه وتبخر، قصَّة يَرويها لحَظة عَودته للحَي مُستقبلًا النعازي في مَقتل أبيه بيد الإنجليز! الإنجليز الذي كَان يتباهى بصَداقتهم وخدمة مُعسكرهم! أغمَض عَينيه بألم مُحاولًا استيعاب مَسرحيَّة الهَزلية الرَّديئة التي لن ترقى لتُعرض على مَسارح شارع عِماد الدين، وقرار عَودته للحي الذي أصبح ضَربًا مِن الجنون.

انتشلته بنبة من وحشة أفكاره:

- يا عبد القادر بزيادة قلقتني! إيه اللي حَصَلَّك؟

اتَّخذ الأمر مِنه لَحظَات ليفتح فَمه: أبويا مَات.

استوقفت الكلمة «ورد» الهائِمة في الطرقة، تسير مستندة بأناملها على الحائِط الطويل محاولة الاتزان، رَجعت، جَلست القرفصاء بجَانب الباب تسترق السَّمع حين أردفت بنبة:

- منا عارفة إن أبوك مات الله يرحَمه.. وبَعدين؟

ابتلع ريقه بصعوبة ثم تكلَّم بعينين زائغتين وابتسامة مَحمومة:

- سَحَبت النبُّوت وركِبت الأوتومبيل.. عبَّيت الرشَّاش وجريت عَ المُعسكر.

- فيه أسمَاء مَطروحَة؟

- أنا جهَّزت اسم نبدأ بيه.. هَدف صَعب لكن مُؤثر وسُمعته عالية من وقت الحرب.. واصلة للملك نفسه في إنجلترا.. المُشكلة الأساسية إن تنفيذ العملية هايكون مَحصور في يوم واحد بَس في الشهر.. وبالتحديد خمس دقايق في اليوم ده.

- خمس دقايق؟!

- شخصية قاسية جدًّا على نفسها.. مَا بياخدش إجازة غير يوم واحد بس.. ما عَندناش غير دقايق مَحدودة ممكن نصطاده فيها.. لحظة خروجه من البيت.

قالها ثم أخرج ورقة صغيرة فيها اسم قرأه أحمد ثم نظر لعبد الرحمن فهمي.

- هي شَخصية تستاهِل رغم صعوبة التنفيذ.. هابدأ في دراسة المكان فورًا.

- الناس اللي مَعاك واثِق فيهم؟

- جدًّا.

- بالتوفيق يا أحمد.. البنت دولت اللي سلمتها لك.. أخبارها إيه؟

- شاطرة.. بتساعد حاليًا في طبع المنشورات وتوزيعها جوا أماكِن الحريم وفي المدارس والمستشفيات.

- خلي بالك منها عشان دي من طرف صَفيَّة هانم.. هاتحتاج نقدية قد إيه للفترة الجاية؟

- طبنجتين.. حَوالي خمسة جنيه.. وبحوالي اتنين جنيه رُصاص وكيماويات عشان العبوة الناسفة.. وجنيه كمان للورق والمطبعة وشوية نثريات.

أخرج عبد الرحمن فهمي ثمانية جُنيهات من ظرف في جيبه، ناولها لأحمد ثم انتزع رسالة سَعد من بين صَفحات الكتاب وأشعل فيها النار ثم وضعها في المنفضة.. أردف:

- أحمد.. فيه حاجة لازم تتكلم فيها.. في حالة لا قدر الله لو حد فيكم اتمسك.. سَعد بَاشا والوفد مالهمش أي علاقة بالموضوع.

دسَّ أحمد الورقة التي تحمل اسم الهدف في المنفضة المُشتعلة بجانب رسالة سعد حتى تفحَّمتا مَعًا.. أردف:

- مين سعد باشا ده أصلًا؟

بَعد أسبوع

٧:١٥ صباحًا

تولَّت النوبة الأمشيرية صَبغ مَدينة الإسماعيلية بالغُبار.. رَكَعَت الأشجار أمام الرِّيح المُتربة وخَلت الشوارِع مِن المَارة وتعفَّرت الأسواق ومَراكِب الصيَّادين.. فِي الحي الإفرنجي وقفت السيَّارة الأوستن أمام مَدخل الفيلا.. بداخلها سَائِق يجلس خَلف المقود ويقف بجَانبها حَارس مُسلَّح يَمسَح الشارع بعَينين متوتِّرتين وفوَّهة مُتربِّصة.. يترقَّب خروج سيده.. لحَظات من السكون انقضت قبل أن تلوح عَربة بطاطا تُظلِّلها سَحابة دُخان رائِحتها حريق.. تمَّم الحَارس عَلى سِلاحه وهو يُراقب القادِم حتَّى لاح عَجوز مِن وراء العَربة.. ذَقن أبيض وجِسم نَحيف في جلباب واسِع.. استرخى الحَارس لمَّا قرأ الوَهَن في ملامِحه.. كان ذلك حين بَرزت عَربة حنطور من الاتجاه المُقابل.. يَقودها شاب تلفَّح بشَال أخفى نِصف وَجهه دَرأً للأتربة.. قَابضًا لِجَام فرسِه مُخففًا سُرعته: مَعسلة أوي يا بطاطا.. صَاح بها بَائِع البطاطا حين أصبح بجَانب السيارة الأوستن.. مَدَّ يَده بداخِل المَوقد المُشتعِل فتوتَّر الحَارس: you امشي.. قالها بحدَّة.. ارتسمت آيات الجَهل في وَجه العَجوز فرَفع الحَارِس بندقيته ووجَّهها إليه مُتوعِّدًا فأخرج بائع البطاطا يَده بثمرة ساخِنة شقَّها نِصفين قبل أن يَضعها فوق وَرقة صَفراء ويمدَّها للحارس متمتمًا: نفَّعنا يا خواجة.. كان ذلك حين

خرج كولونيل «تريڤور» في زيه العَسكَري مُقتربًا بخُطوات واسعة من سيارته.. مُمسكًا كلبه الستافوردشاير الرمادي الجامِح بحزام غليظ.. لَمَحه السَّائِق فنبَّه الحارس الذي اقترب من البوابة ليُؤمن خروج سيده ويَحمِل عنه حقيبته.. مَا إن وطئت قَدما «تريڤور» بَلاط الشارع حتى دسَّ البائِع يَده في كومة البطاطا النيئة فأخرج عبوة ناسفة يَدويَّة الصُّنع.. في نفس اللحظة التي استل فيها عَربجي الحَنطور مُسدَّسًا مُخبأ في ظهره وقام على عربته.. وإذا بمُلثَّم يخرج من العَدَم ويندفع فجأة تجاه الكولونيل! يركض بسُرعة جنونية شَاهِرًا سَيفًا مُستقيمًا مُسنَّن الحَواف أقرب لمِنشار مربوط في راحته.. وفي يَده الثانية مُسدس ساقية.

ضَربت المُفاجَأة الجَميع! عَربجي الحنطور وبائع البطاطا والحارسَيْن وحتى الكلب!!

ثم حَدَث كُل شيء في عشرين ثانية.

الـ«ستافوردشاير» الرمادي كان أول من تحرك.. أفلت من قبضة سيِّده وانطلق تجاه الملثَّم بمَخالب تخربش الأرض.. فك الحَارس الشخصي للكولونيل أسر مسدسه وصوَّب.. قفز الكلب تجاه الملثم فشق سيف الأخير لحم رأسه قبل أن يشطر عينه اليُسرى.. سَقط الكلب على الأرض متمرِّغًا يَصرخ في ألم حين ضغط الحارس زناده فانطلقت رصاصة أخطأت الملثَّم الذي باغت الحارس بطلقة أركعته على الأرض قبل أن يتلقَّى رَصاصة أخرى مِن عَربجي الحنطور الذي تدارك الموقف.. بائِع البطاطا أفاق من صدمة ظهور الملثَّم المُباغت فارتمى خلف عربته متحاميًا بعد أن ألقى العبوة الناسِفة في حِجر سائِق السيارة الذي رفَع مدفعًا رشَّاشًا فوق النافذة واستعد أن يُطلِقه تجاه الملثم الذي أصبح وجهًا لوجه أمام الكولونيل.. ثم دَوى الانفجار!

انتفضت السيَّارة شِبرًا فوق الأرض ثم سقطت.. تناثرت أشلاء نَائِق والزجاج المُحطَّم المُخضَّب بالدماء وأُلقي بالكولونيل والمُلثَّم رضًا قبل أن يَقوم الأخير والنار مُشتعِلة في ذِراعه وقد تكشَّف وجهه عندما سَقط لِثامه.. نَظَر إليه الكُولونيل في غضب ممزوج برعب.. عبد القادر!!! ثم هَمّ بإخراج مُسدسه فتلقى من عبد القادر طلقة بترت نصف راحته.. صرخ في هلع مصدوم قبل أن يخرسه نصل مشرشر هوى على العُنُق فأحدث قطعًا أقنع عبد القادر أن يلتفت لذِراعه المُشتعِلة.. أطفأها في التراب فسَكَن كل شيء بَعدها دُفعة واحِدة.. تابع عينَي الكولونيل الجاحِظتين ورقبته التي تعرَّت عُروقها.. يداه المتشنِّجتان تحاولان وقف الدماء المنهمرة، وفحيح يائس يحاول استدراك حياة تُراق.. لحظات قصيرة وهدأت الرعشة.. خمد الإنجليزي.. كان ذلك حين التقطت أذنا عبد القادر خربشات الكلب على الأرض تقترب.. التفت فرأى وَجهًا مَشطورًا يُزمجر ودماء مختلطة بلعاب يتناثر.. وَثَب الكلب فدوت الطلقة من عربجي الحنطور.. اخترقت رأس الكلب فجثم فوق صدر عبد القادر أرضًا.. نَظر الأخير في ملامِح الكلب الصامتة ثم للعَربجي فوق الحنطور الذي أشار إليه أن يَصعَد.. لم يستجب حتى صَرخ فيه: نُط يا غبي.. البوليس جاي.. قبل أن تدوي صفَّارات الشُّرطة وتتعالى.. تمالك عبد القادر نفسه فأزاح جثَّة الكلب من فوقه.. رَكض ناحية الحنطور المتحرِّك.. قفز إلى يدٍ ساعدته على الركوب متفاديًا رصاصات تنطلق نحوه فلسع بائع البطاطا ورك الحصان بكُرباجه ليضرب الأرض بسنابكه ويبتعِد.



في مَركب الصَّيد جلس عبد القادر على الأرض الخشبيَّة مُسندًا ظَهره إلى جانب المركب، خَرَج بائع البطاطا من كابينة القيادة وفي يده قماش وزُجاجة صبغة يُود، جَلس بجانب عبد القادر يدهن ذراعه التي احترقت من أثر القنبلة فيما فَرَغ أحمد من مُراقبة الشاطئ الذي ابتعد حتى اطمأن أن أحدًا لم يتبعهم قبل أن يلتفت لعبد القادر.

- اسمك إيه؟

نظر له عبد القادر بضيق قبل أن يلتفت إلى بائع بطاطا.

- اسم الكريم؟

- عمَّك إسحاق.

- سيجَارة يا عم إسحاق؟

ناول عبد القادر كبريتًا وسيجارة، أشعلها ولم يلتفت لأحمد الذي انفجر غيظًا:

- أنت ابن الراجل اللي مَات في أول مُظاهرة؟ الفتوة؟ إيه اللي جابك الإسماعيلية وتبع مين؟ انطق.

التفت له عبد القادر بهدوء: مِش تبع حَد.

- مِش تبع حد!! جاي تخلَّص على رئيس مُعسكر التل الكبير ومِش تبع حد! أنت مأفِين ياله؟

رَمَقه عبد القادر بغضب قبل أن يقوم مُتحفزًا فتدخَّل عَم إسحاق وَاضعًا نفسه بينهما:

- أقعد يا ابني عشان البحر يستحملنا.. اقعد.. مَا تخليش الشيطان يركبك.. وأنت يا أحمد تعالى.. تعالى.

سحَب أحمد إلى الكابينة التي جلس فيها صيَّاد عتيق خلف عَجلة القيادة.. هَمَس في أذنه:

- باللطافة والمفهومية عشان ما نروحش بلاش إحنا على كَفِّ الرب.

- ده كان هايضيَّعنا يا عَم إسحاق.. ما شفتش عمل إيه؟ ده مجنون! وإزاي عِرف مَعاد خروجه؟

- بالهداوة.. الواد ده وراه قصَّة ومَصلحِتنا نعرفها.. ده واد يفوت في الحديد ويمكن ينفعنا.

- إحنا ما عندناش نقص في الرجَّالة.

- قليل اللي بالجراءة دي.. ورجالتنا بينقصوا يوم عن يوم.

زفر أحمد نفسًا قبل أن يهزَّ رأسه مُوافقًا ويَخرجا إلى عبد القادر.. كان يلف ذراعه بخرقة.. ساد الصمت لحظات حتى انتهى ثم سأل أحمد:

- أبويا.. عملتوا مَعاه إيه؟

- كانت خارجة كبيرة.. مُظاهرة.. صَلينا عليه في السيدة زينب وعَدِّينا على بيت سعد باشا و...

قاطَعه عبد القادر: آدي اللي خدناه من سَعد.

جزَّ أحمد أسنانه كاتِمًا دِفاعه: أنت تعرف كولونيل تريڤور منين؟

- كُنت شغَّال مَعاه في الكامب.

ألقاها في هدوء فتبادل أحمد وإسحاق التعجُّب: شغَّال معاه؟!

- آه.. أنتو مين بقة؟

٧ إبريل ١٩١٩

- أمام الإضرابات العامة التي شَلّت الحياة في البلاد اضطرت إنجلترا إلى عزل الحاكم البريطاني السير «وينجت» والإفراج عن سعد باشا زغلول ورفاقه.

- الإنجليز يَسمَحون لسَعد باشا زغلول والوَفد المُرافق بالتوجُّه إلى فرنسا للاشتراك في فعاليات مُؤتمر الصُّلح الدولي المقام في فرساي، مُظاهرات السرور تعُم البلاد من شرقها لغربها.

- الإنجليز يَسمَحون للمصريين بالسفر بين المديريات بَعدما كان ممنوعًا إلا بتصريح.

٨ إبريل ١٩١٩

- مظاهرة عَظيمة اشترك فيها كل أطياف الشعب؛ رجال ونساء، أطباء ومُحامون ومُوظفون وطَلبة البوليس والجيش، وحتى النزلاء الأجانب شاركوا المصريين فَرحتهم، الكُل يَحمل صُور سَعد ونقش الهلال مع الصَّليب وتحته جُملة «يحيا الاتحاد المُقدَّس».. أطلق جنود الإنجليز النار على المتظاهرين فأردوا أربعة منهم بينهم طِفل صغير! جَرَى الدم الحَار في عُروق المتظاهرين وكادوا أن يرتكبوا ما لا تُحمد عُقباه لولا تدخُّل المُنظِّمين.

٩ إبريل ١٩١٩

- جنازة مَهيبة مُنظَّمة لقتلى مُظاهرات ٨ إبريل، سَارت في مُقدِّمة الموكب فِرقة مُوسيقية تصدَح بنغمات الحُزن تليها النعوش الأربعة يحملها الطلبة فوق الأعناق، السُّكون خيَّم على المَشهد ولم يَرتفع إلا نِداء كُل بضع ثوانٍ يقول: «تحيا ضحايا الحُريَّة» فيردد الجمع النداء في خشوع.

- الإنجليز يسمحون بفتح المَلاهي الليلية والمسارح والمقاهي.

بعد أيام

فيلا عبد الرحيم باشا صبري.. الجيزة

السلَّم كان عَاليًا، يُوازي حَائِط البَهو الواسِع المُعلَّق عليه صُور العَائلة بملامِحهم التي تحمِل الروافِد الفرنسية، ينتهي السلَّم عِند مدخل الصَّالة الكبيرة التي تخرج مِنها طُرقة تصِل إلى جَناح النوم.. قَطعَت المُربِّية العَجوز المسافة مُحاولة التقاط أنفاسها حتى وَصَلت إلى غُرفة سيِّدتها الصَّغيرة فقرعت الباب.. ادخلي يا دادة.. نطقتها نازلي بصَوت عَالٍ لتُسمِع العَجوز، كانت على سَريرها جَالسة في رداء أبيض تُطالِع مجلة موضة أوربية.

- جواب.

- من مين؟

قرأت الخادمة على الظرف: الآنسة نازلي.. مش مكتوب مين اللي باعته.

كان ذلك كفيلًا بجذب انتباه نازلي، حدث جديد يَكسر جُمود الأيام الرتيبة يَعني الكثير، تَركت المجلة والتقطت الجواب.

- أحضَر عَشا؟

- بابا ما اتكلمش؟

- التليفون ما ضربش من صباحيّة ربّنا.. أحضّر العشا؟

بدأت نازلي تَفُض الرِّسالة فتمتمت الخَادمة وهي تُغلِق الباب وراءها: هاحضّر العَشا.

الظرف كان نظيفًا أبيض، لا أثر لأختام بريد عليه ولا طابع، فقط اسمها مَكتوب بخَط مَقروء، فَضَّته فوَجَدَت فيه إعلانًا مَطويًا قرأته:

«يُعلِن مَسرح الإجيبسيانة عَن عَرض رُواية «قولوا له» للأستاذ نجيب الريحاني وفرقته المُكوَّنة من مشاهير الفنانين، مُنتخبات من أجمل وأعذب الأغاني من تأليف الأستاذ بديع خيري وألحان الشيخ سيد درويش.. اسكتشات تمثيلية مُبهِجة واستعراضات مُدهِشة كل ليلة.. الساعة الثامنة مَساءً للعُموم، يَوم الأحد ماتينيه، الأربعاء للسيدات فقط.. احجزوا مَحلّاتكم من الآن قبل نفادها».

انتهت نازلي من القراءة ولم تكد تستوعِب مغزى الرسالة حتى عثرت على صُورة مَقطوعة مِن مِجلّة لمُهرة بيضاء تجري في حقل وتذكرة في قَاع الظرف، تذكرة لحضور حفلة اليوم التالي، فَجأة استوعبت الرسالة، جَلَسَت على السَّرير وانتابها الاضطراب، شَرَدت في صورة المُهرة الراكِضة ثم تمشت بأصابِعها على اسمها المكتوب بخطِّه.. أحمد.. يَا لجرأته! ووقاحته!! لن تشفع له وسامته.. كيف تسنّى له أن يَدعوها إلى مَسرح بشارع عِماد الدين؟ هكذا بدون مُقدِّمات؟ أنا حتى لا أعرفه.. يظنني لقمة سائِغة من بعد كلمتين في إسطبل الخيل!! جبانة مثل المُهرة؟ مَن يظُن نفسه؟ لن أذهب.. لا.. سأذهب.. لأرى المفاجأة على وَجهه حين يجدني أمامه لا أهابه.. مغرور!!

اليوم التالي.. مَسرح الإچيبسيانة

الساعة ٧:٤٥م

فرَغ رَصيف المَسرح من طَابور حَاجزي التذاكِر الذي أزحمه فانصرف بَاعة الفستق والترمس والقازوزة ورجع الشارع لصَخبه المُعتاد، بَائع التذاكِر كان يقف بجانب كُشكِه المُلصَق عليه لافتات دعاية مَسرحيَّة «قولوا له»، يُدخِّن سيجَارته بعد سَاعات طويلة قَضاها في تمزيق تذاكِر الدخول وتسليم الحاضرين لزميل يوصِّلهم إلى مقاعدهم الخشبية في قاعة العَرض.

بخِبرة عَمله كَان يعرف تلك الأشكال جَيدًا، من يَقفون مُتأنِّقين في البَدلات المكويَّة حَاملين الورود والهدايا الملفوفة بالشرائط الحمراء، هَؤلاء الرومانسيون الذين يَدعون ولا تُستجاب دعواتهم، كَم يحلو له العبث فيهم، العَزف على أوتارهم المشدودة حتى تنشز أو تنقطِع، اقترب ببطء من الواقِف يُراقِب الشارع في توتُّر، ينتظِر دوكارًا تأخر أو ملاءة لف تلكأت، لَمح تذكرة بين يديه يقبِض عليها في عصبية فاقترب:

- داخل العرض يا حضرة؟ أصل العرض هايبتدي خلاص بعد عشر دقايق.

نظر إليه للحظة ثم أجابه: مِستنِّي ناس.

- طب ما تسيب لها التذكرة عَ الباب وتدخل لا يفوتك الإسكتش الأولاني.

رمقه بضيق: مَمنون.. هاستنَّى هِنا.

دَارى عَامل التذاكِر ابتسامته في دُخان السيجارة وقد استعد لخوض المَرحَلة الثانية في التسلية السادية والتي تبدأ بجُملة: «الجنس اللطيف دايمًا غدَّارين!».

كان ذلك حين تركه أحمد ومَشى خُطوتين ناحية الدوكار الذي حاذى الرصيف ثم توقَّف، لَحَظات ونَزَلت مِن السلَّم الصَّغير في فستان فستقي مطرَّز وبِيَدها مَروحة من نفس اللون، وقفت على بُعد أمتار فاقترب:

- اتأخَّرتي.

- أنا أصلًا ما كنتش جايَّة.

- وجيتي ليه؟

ارتبكت أنوثتها.. أجابته بعصبية: جيت عشان... أنا مش مُهرة مَحبوسة.

- جميل أوي فستانك.. الأخضر لايق مع لونك.. عشان عكس الوردي اللي في خدِّك...

قاطعته: ما تغيَّرش الموضوع من فضلك.. أنت إزَّاي تِبعت لي جواب على البيت؟! مش شايف إن دي جراءة زيادة عن اللزوم؟

- كنت متأكِّد إنك هاتفهمي الرسالة.

- طبعًا بافهم.. أنت فاكرني إيه؟

- أنت أجمل بنت شفتها.

ألجمتها كلماته، كبرياء الأنوثة تشاجر بداخلها مع لذَّة المَديح، عقل يُصارع قلبًا.. عيناه الواثقتان تخترقان السُّور العَالي الذي يُحيط اسم «نازلي» منذ قديم الأزل.. السور الذي صَدَّ هَجمات الصليبيين والمغول من أبناء الباشوات والأعيان.. ها هو يتداعى ولا تقدر على مقاومة لذَّة متابعته ينهار.. ألم لا يخلو من متعة.. انتابتها كل تلك الأحاسيس قبل أن يُباغتها بابتسامة ويلتقط يدها بلا استئذان:

- المسرحيَّة هاتبدأ.

رمقته بغضب فمال برأسه:

- أوعدك نتخانق بعد العرض.

زفرت في ضيق مُصطنع ثم سَارت بجانبه قبل أن تسلِت يَدها من يَده في حَركة رفض استعراضيَّة، مرَّا ببائع التذاكِر الذي قطع تذكرتيهما فغَمَز بعَينيه لأحمد وابتسم.. تخللا المقاعد حتَّى جَلسا على كُرسيين يَبعدان أربعة صفوف عن خشبة المَسرح، لم يَكن العَرض قد بدأ بَعد، ضَربت نازلي الهواء بمَروحتها في حركة سريعة مُبدِّدة الرُّطوبة وقلق يتنابها وإثارة، كانت المرَّة الأولى لها في مَسرح بعِماد الدين، المرَّة الأولى لها بين سَهارى الليل، والمرَّة الأولى التي تُواعِد شَابًا وتُقابله، تجنَّبت نظراته التي تزيدها اضطرابًا وعَينيه اللتين تحاصرانها.. حتَّى تكلَّم:

- أوَّل مرَّة تشوفي الريحاني وفرقته؟

- سمعت عنُّه.

- أنا بقول إنه أحسن أرتيست دلوقتي.. دمه أخف من علي الكسَّار.. حَضرت له كل رواياته.

- غاوي مَسارح؟

- جدًّا.. وروايات وموسيقى وسينما.. الفن ثورة في حد ذاته.. والفنانين دول من أول الناس اللي نزلوا الشارع في مارس.. الإنجليز منعوا العرض ده قبل كِده ومع ذلك مستمرين.

قاطع كلامهما خبطات بدء العرض ثم انفتح الستار، خرج رَجل بَدين أمام اللمبات ذات المرايا فبدا ظِلُّه ضَخمًا على خلفية المسرح:

سَيِّداتي آنساتي سَادتي.. مَسرح إجيبسيانة يُرحِّب بِكم ويَتمنى لَكُم ليلة مُمتِعة مَع رواية «قولوا له».. كَلِمَات بَديع خَيري وألحَان سيِّد دَرويش.. الاسكتش الأول بعُنوان «لحَن الشيالين».

انسحب المُقدِّم من المسرح قبل أن يَدخل طَابور مِن سَبعة رِجال يَرتدون مَلابِس الشيَّالين وعَلى وُجوههم غُبار مَرسوم، يَمشون في إرهاق مُصطنع يُطوِّحون أذرعهم وقد أحاط كل منهم خَصره بحِزام الشيالة، توسَّطوا المَسرح قبل أن تعزف الفرقة ويبدأ الغِناء:

شِد الحِزام على وسطك غيره ما يفيدك

لا بُد عن يُوم برضه ويعدلها سِيدك

وإن كان شيل الحمول على ضَهرك يكيدك

أهون عليك يا حُر مِن مدة إيدك

مَا تيالله بينا أنت وياه

ونستعان ع الشقى بالله

واهو اللـي فيـه القسمة طلنـاه
واللـي مافيهشـي إن شـالله مـا جـاه
مـا دام بتلقـى عيـش وغمـوس
يهمـك إيـه تفضل موحـوس
مـا تحـط راسـك بيـن الـروس
لا تقـول لـي لا خيـار ولا فاقـوس

اندمجت نازلي، تأمّلها أحمَد تتمايل وتصفّق مع كُل مقطع وتنفطِر ضحكًا كطِفل يرى الحياة لأوّل مرّة ثم لَمس تأثرها حين ظهر «الريحاني» وذكّر أن ذلك العَرض شاهده سَعد باشا في نفس المسرح قبل أن يُنفى إلى مَالطة.. انتهى الحفل بأغنية رائِعة تُدعى «سَالمة يا سلامة» قبل أن يَقوما ليَخرجا بين الجُمُوع.. تمشّيَا عَلى الرَّصيف في صَمت حتى بلغا رجلًا يحمل دلوًا:

-تشربي كازوزة؟

هزّت رأسها موافقة فاشترى زُجاجتين ثم استأنفا المَشي.

-عجبتك المَسرحية؟

-جدًا.. ما كنتش أتخيل إن المَسرح مُمكن يقدِّم البولوتيكا بالمنظر ده.

-المَسرَح حَياة حقيقية.. وأغانيه شعارات المُظاهرات.. ما أظنش نزلتي مظاهرات؟

-صَعب بابا يقتنع بالفكرة دي.

- مُهرة جَميلة.

- مش لازِم أنزل المظاهرات عشان أكون قريبة من الناس.. أنا ما سبتش صفية هانم لحظة.

- بالراحة ده مش اتهام.. ده نوع من الغزل.

احمرّت وجنتاها: أنت عارف إن دي أوّل مرّة فعلًا أسهر فيها لوحدي؟

- أنت مش لوحدك.

- حاسة إني بعمل مُغامرة.

- خايفة؟

- لأ.. ودي غريبة!!

- تحبّي تحضري عروض تانية؟

- دي دعوة تانية للخروج؟

- أعتقد.

- أفكّر.

ثم وقفت فجأة وسدّدت له نظرة برأس مائل: أنت مين؟

ابتسم قبل أن يجيبها: أحمد عبد...

قاطعته: الحي كيرة.. وعاوز إيه يا أحمد أفندي؟

- مِن سَاعة مَا شفتك في بيت سَعد باشا حسّيت إننا مُمكن نبقى... أصدقاء!

مدّت خُطواتها: مَفيش حاجة اسمها أصدقاء بين الراجل والست.

لاحقها: حَبايب؟

- مِش يمكن أكون مخطوبة؟

- ما كنتيش جيتي.

- أنت مَغرور.. جدًا.

- وأنت جميلة.. جدًّا.

حاولت السَّيطرة على سُخونة أسعَرت خدّيها: هو يعني إيه كيرة؟

- الاسم جاي من الكير.. يعني منفاخ الحدَّاد اللي بيولع النار.. جدي كان حدَّاد.

- حدَّاد!! وأنت وارث إيه منه؟ تعرف تولع النار؟

- وما باطفيهاش.

- أنت سنَّك قد إيه؟

- أكبر مِنك بحوالي عشر سنين.

- مِتجوز؟

رفع أصابعه الخالية: لأ.. عندك عروسة؟

- مَعقولة مش لاقي حد يرضى بيك؟

- غريبة بالنسبة لأني وسيم مش كِده؟

رمقته في دهشة لا تخلو من ابتسام: أنت مُستفز جدًّا.

- عامة أنا هاعرفها إذا شفتها.

- إزاي؟

- بتبقى ماسكة وردة حمرا.

تسارعت أنفاسها فقاطعته: أنا أتأخَّرت أوي.

قالتها وأشارت لحنطور اقترب.. سَاعدها أحمد على الصعود ثم سألها:

- هاشوفِك تاني؟

- يِمكِن.

- يبقى هاشوفك تاني.

- مش بقول لك مغرور!

قالتها بابتسامة وتحرك الحنطور، ثم توقف بَعد أمتار فمَشى أحمد تجاهه.

- ١٤٢.

همست بها في أذنه.

- نعم!!

- دي نمرة التليفون.. على سنترال البُستان[1].. اطلع يا أُسطى.

ألقتها واللون الأحمر يَغزو وجنتيها والشفاه، قبل أن تبتعد مُحتضِنة بين أصابِعها تذكرة المسرحية.

ووردة حمراء اشتراها مِن أجلها.

---

(١) الاتصالات كانت تتم عن طريق سنترالين فقط في القاهرة، سنترال البستان أو سنترال المدينة.

أبشاق الغزال.. مَركز بَني مَزار.. مُديرية المِنيا

عَادت دَولت إلى قريتها بَعد قرار السَّمَاح بالسَّفر، تركت في القطار قبل أن تنزل لكنتها القاهرية وبدَّلت وشاحها الأزرق بآخر أسود، استأجرت حِمارًا، عَرفت من خِلال حكي المَكاري الذي يَقوده ما حدث في بلدتها أثناء غِيابِها.

بَدأ الأمر بمَسيرات نحو مَخفر البوليس تُنادي بالاستقلال في اليوم التالي لنفي سعد ورفاقه، تلاها رد فِعل عنيف من السُّلطة تمثَّل في مُطاردات بالخيول وجَلد بالكرابيج لأهل البلد تطوَّر إلى قتل وسرقة لدورهم واغتصاب للنساء والفتيات ممَّا اضطر الأهالي للإغارة على مَركز البوليس وإطلاق سَراح المُعتقلين فيه، قبل أن يَقطعوا السِّكك الحَديدية، فأتى الرد غارات بالطائرات على تجمعات عَشوائية قُتِل فيها عدد غفير من الناس قبل أن تستعيد القوات الإنجليزية السَّيطرة وتوقِّع عِقابًا يتلخَّص في أن تأخذ من كُل قرية عَددًا مُحدَّدًا مِن الأنفار لجلدِهِم، دون تُهمة، إتاوة للردع والتخويف وإلا يَحدث اجتياح آخر وسَلب واغتصاب، كما ألقت الطائرات مَنشورات تَحذير نصها:

«كُل حادِث جديد من حَوادِث تدمير مَحطَّات السِّكك الحديدية يُعاقب عليه بإحراق القرية التي هي أقرب مِن غيرها إلى مكان التدمير».

تأمّلت دولت حطام قريتها والناس السائرين في الأرض كَمدًا قبل أن تصِل إلى بيتها، غيط البَرسيم كَان مَحروقًا والبهائِم اختفت، نامت السَّاقية على جانبها فتشقّقت الأرض عَطشًا، استقبلتها وَالدتها بوجه ضَارع ليبتسم قبل أن تسأل عن ياسين.

- ياسين!! ياسين ماجاش يا بِنتي.. اللي بَعتوه لينا واحِد تاني.

- يَعني إيه يا أمه!! إيه الكلام دِه؟!

- والله ما خابرة يا بنتي.. ما بَجاش ياسين اللي أعرفه.. ولدي عَاد أخرس وأعمَى.. أوّلتْ أوّلتْ عمنول السُّلطة جَلدوه عَلى ضَهره يا حبّة عيني.. خمسين جلدة.. مَا نَطَجْش بكِلمة واحدة! ولا صَرَخ!! تنُّه سَاكِت لا بيتقوت ولا بيشرب ولا حتى بينعس.

- جلدوه الكفرة!

- رُوحي له يا بنتي.. جَاعِد ناحية الترعة الجِبْلِيَّة.. يِمكِن تِجدري تحايليه يتكلَّم.

ارتدت دَولت جلبابًا صَبغها بأحزان البلد قبل أن تعبُر الغَيط المَحروق وتقترب مِن الترعة، بَطأت مشيتها لا إراديًّا حين وقع بَصرها على يَاسين، أدهَشتها عِظامه البارزة ورقبته الهزيلة وسكونه الأشبه بسكون المَساخيط[1] التي خافتها في الصِّغر، لم يبلغ يومًا تلك النحافة والهزال! اقتربت حتّى باتت على بُعد خُطوة منه قبل أن تُلاحِظ العَلامات التي نشعت دِماءً في ظهر جلبابه، وَضعت يَدها عَلى كَتفه فالتفت إليها وابتسم ثم قام واحتضنها بلا كلمة، حُضن طويل اعتصرها

(١) المساخيط: اسم يُطلق على التماثيل الفرعونية.

نه، نظرت في عَينيه فأدركت مَا رأته أمها، كَسرة أغور من أن تفك طلاسِمها الكلمات، جَلَسا وبعد سكون تكلَّمت:

-حَمد الله على سَلامتك يا ياسين.. وَاحشني يا خوي.

-صِرتي مدرِّسة في مصر؟

-فضلة خيرك ودعواتك.

انساب الصمت بينهما.. كأن الكهرباء تأتيه فيتكلم ثم تنقطِع فيظلم وجهه وتتحجر عيناه.

أمهلته لحظات قبل أن تتكلم: عينيك شايلة هم تجيل يا خوي!!

-...

-غيبتك السنين اللي فاتت جطّعِتنا.. احكي لي.. طمِّني عليك يا خوي.

-أني.. تِعبت م الحَكي.

-أمي بتجول إنك ما رايد تتحدَّث مع حد من سَاعة رجوعك.

غاب في صَمته ثانية فاستحثَّته.. اعتصرت كفُّه حِفنة تراب.. أردفت:

-مش رايد تتكلَّم مَعَاي؟! أنا دولت يا ياسين! سِرَّك مِن وإحنا صِغار.. احكي يا خوي.. فضفض.. خفِّف على جلبك.. سمعت إنك كنت جاعِد عند العربان في رَفَح!!

استقرَّت عَيناه في انعِكاس الشَّمس عَلى المِياه قبل أن ترتعش شفتاه وينحرَّر لِسانه:

-أخدونا في جطرعَ الجنطرة.. ومِن الجنطرة طِلعنا السويس.. كان شُغلتنا نُحفر بير ولَّا اتنين للسلطة ونبني سواتر ودُشَم..

لغَايَة ما جِه يوم وجوّات الأتراك جات من نواحي سينا تضرب في الإنجليز.. جوّة الإنجليز كانت صِغِيرة.. ضعفت.. طلبوا مِنَّا أنا والعيال نِمِيسك سِلاح.. اتجسمنا في الرأي.. شوية جالوا ما نمسكش سلاح على مُسلم زِيِّنا.. وشوية جَالوا نمسك سِلاح.. الأتراك احتلال والإنجليز احتلال وربنا بيسلَّط أبدان على أبدان.. وانحزت للرأي الأخراني.. أنا واتنين من العيال.

أغمَض عَينيه وسَكت فسألته: مش غَلط يا ياسين.. أنت في حرب.. ورجبتك مع الإنجليز.. والأتراك أوسخ من...

قاطعها: أني ما ضربتش في الأتراك.

- أمَّال؟

- الإنجليز لمَّا لجونا اتجسمنا في الرأي حبُّوا يعرفوا اللي موافِج م اللي مش موافِج.. مين مَعاهم ومين مش معاهم.. خُصوصًا بعد ما الواد عطيّة ابن أبو وهدان اتخانج مع نفر منهم وضَربه.. الإنجليز رَصُّوا العيال اللي رافضة صَف وحَطُّوا البنادِج في رجابيهم من ورا.. وأمروا الموافجين يضربوا.

تهدَّجت أنفاسها وأرادت أن تسأله فألجمها الخوف.. لحظات وأكمل:

- العيّلين اللي مَعاي ما ضربوش.. بكوا ورَموا سِلاحهم ع الأرض.. الإنجليز ضربوهم بالنار.

- وأنت يا ياسين؟!

- ...

نسج عقلها هواجِسه حين طَال الصمت:

- يا لهوي.. عيال البلد يا ياسين!!

- يا كنت هاضرب.. يا كنت اموت زي ما ماتوا.

- أني مش مصدّجة وداني!!!

شردت عيناه في الأفق وتحجّرتا قبل أن يتكلّم بشكل آلي غير عابئ بخيط الريالة الذي تدلى من فمه إلى صدره.

- أوّل واحِد كان شعبان ابن معوّض البجّال.. ما كانش مصدّج.. ولا أنا كنت مصدّج أني بدوس الزّناد.. تاني واحِد كان عطيّة ابن أبو وهدان.. اصّبّر على روحه جبل ما الرصاصة تصيبه.. تالت واحِد كان عويضة...

- بزيادة يا ياسين.. بزيادة.

تأمّلته بعينين امتلأتا رُعبًا قبل أن تقوم، ابتعدت وبعد بضع خطوات نظرت وراءها علّه يكون سَرابًا، أنّه لم يعُد لقريته، أنّه قتل أو مات قبل أن يولد، لكنّه كان هناك، لا يتحرّك، رأسه نكس على صَدره وقبضت يده حِفنة تُراب دسّها في فمه.

رجعت دولت إلى البيت فبدّلت مَلابسها وحملت حقيبتها التي جاءت بها، سألتها أمُّها عن ياسين إن كان باح بما في صدره فأجابت باقتضاب: يا أمّه الحرب صَعبة.. سيبيه ياخُد وَجتُه لحد مَا يفوج.. أني لازمن أرجع مصر.

رَكبت حِمارًا فقِطارًا فدوكارًا أغمضت فيهم عينيها حَبسًا للدموع حتّى رجعت إلى القاهرة.

مَع الوقت

أصبح وجود عبد القادر بين عَاهرات بنبة أمرًا عاديًا، ضَيفًا يأتي ليقضي لَيلته في فِراش يعفيه العودة إلى حيّه، الحَي الذي ينتظره بزفّة كزفّة «مطّاهِر» مَقطوع الغرلة بَعدما قتل أصدقاؤه من الإنجليز أباه! فقط راسل أمّه عن طريق صَديق ليطمئنها أنه حَيٌّ يُرزق، وعَرف من الأخبار أن «حنفي أبو قطْر» أحد صبيان أبيه اعتلى كنبة الفتونة ويَعقِد النيَّة على التنكيل بِه ليقطع كُل أمل باق في نفسه أن يَرث منصب فتوة المنطقة ومن عليها، فهو العاق الخائِن، الفاسِد الذي خرج من ظهر العالِم.. من ظهر شحاتة الجن بجلال قدره.

انزوى عبد القادر في بيت بنبة بذِراع مُحترقة وعَقل مُضطرب، عَازِفًا عن الطَّعام والكُحول، وعَن الفتيات رَغم إدمانه «الغزوة» يوميًّا لسنين خلت.. لِذِكرى أيام رخائه تحمَّلت بنبة مَصاريف مَعيشته بَعد انقطاع رِزقه، وتولَّى سَلامة النجس «على مَضض» توريد أسطر كوكايين مَغشوشة حتى يغور في داهية، ورَغم أن نِصف بهيّة القعر «التحتاني» كان له تأثير خاص على عبد القادر، إلا أنها حين حَامت حَوله عارضة خَدماتها مَجانًا لَم تستطِع نزعه مِن الكآبة التي مَلأته أو دوَّامة الأفكار التي فرمت رأسه وطلَّت من عينيه، صَرفها بهدوء وكاد أن يُغلق الباب على مؤخرتها ثم سَحَب سَطرًا من البودرة البيضاء إلى أنفه وجلس

يرمق نبُوت أبيه المَكسور ويستعرض ما آلت إليه حياته.. نفدت الأموال ولا بد من مُعاودة العمل.. لكن أين ومع من وقد وَصَمَه الإنجليز بوَصمة عَار لن تزول! كما أن تِجارة الكوكايين تُعاني كَسادًا بسَبب سوء حال البلاد وهياج الروح الوطنية.. جِرام البلا الأبيض اللي بتبيعه وَصَل كَام يا عبد القادر أفندي؟ استعاد كلمات أبيه فنفض رأسه وقام من مَكانه، فتح النافذة ونفث دُخان سيجارته في السماء.. مش هابيع كوكايين يابا.. قالها بصوت مَسموع لسحابة عابرة تشبه وجه أبيه.. ثم استرجع عَرض أحمد كيرة في الإسماعيلية بالانضمام إلى المنظمة السرِّية فنظر للسَّماء ثانية.. ومش هاموت علشان سعد يابا.. ظَل يحدِّق في النجوم قبل أن يلحظ نجمًا بَعيدًا يتلألأ.. يتضخَّم.. يقترب.. نَزل الرّوع في نفسه حين أصبح النجم في حَجم شمس باردة.. رَجَع بظهره هلعًا يستغفِر الله بصوت مسموع حتَّى تعثَّر فوقع على ظهره قبل أن يَقوم مُهرولًا إلى الطرقة.. تخبَّط بَين غُرفات العاهرات وزبائِن مترنحين ضحكوا من مظهره حتَّى وَصَل الحمَّام.. أزاح من الحَوض كيلوتات مُزركشة وفوطًا متَّسِخة ثم صَبَّ على رأسِه كوزًا من الماء ونفض رأسه.. نظر في المرآة المُغبَّرة إلى عينين من دم وجُفون سَالت على خدَّيه.. صَفَع وَجهه بالمَاء مرَّات حين دفعت سنيَّة الباب ودخلت.. أبنوسيَّة عَارية تترنَّح.. يتطاير منها عَبق الكُحول ورائِحة الرجال.. لامست ذراعه في غنج فهز كتفيه صَرفًا كما يُصرَف الذباب.. مَطَّت شَفتيها ولمزته: «هاتوضَّى يا سيدنا الشيخ؟».. قالتها وأراقت الماء على جَسدها وهي تنشِد: «إوعى الكوكايين يلحس مُخَّك.. إوعى سبق الخيل لا يطسَّك».. نظر إليها عبد القادر بتجهُّم ولنفسه في المِرآة قبل أن يتوضَّأ بالفعل ثم يخرج.

سَلامة النجس كَان يودّع زبونًا نهل إحدى الفتيات.. سَأله عبد القادر عن طريق القِبلة فسَكت الجمع ورمقوه بعَجب ثم انفجروا ضَاحكين قبل أن يُشير سَلامة بيده تجاه بَاب الشقّة المَفتوح: اللي عَاوز يصلّي، يتجه كِده يا شيخ عبد القادر.. هع هع هع.

فهِم عبد القادر إشارته ولَم يُعِره اهتِمامًا، مَن ذا الذي يُجيب قوّادًا ينضح بالدنس!! تمتم بسبّة ثم دَخل غُرفته فوجد ورد في انتظاره، واقفة قُرب النافذة ضامّة سَاعديها إلى صَدرها، الضمادة حول الرسغ لا زالت مَربوطة من أثر قطعها شرايينها منذ أيام بمِبرد الأظافر، حَول عَينيها كدمة بنفسجيّة وفي شفتيها وَرَم، وبين أصابعها صورة تخفيها، تيبّس مَكانه يتأمّلها تتماوج كسِتارة تُحركها ريح، رَغم اعتياده الكوكايين وخيالاته ومَشاهد العَاهرات المَضروبَات من قوّاديهن، إلا أنّ نظرة ورد أربكته! خَاصة حين أشارت بيديها أن يُغلِق الباب.

- أنتِ حاولتي تموتي روحك من كام يوم؟ أنت مخبولة يا بت؟ إيه اللي شحور خِلقتك كِده؟

- أنا بدّي منّك إشي.. قالتها هَمسًا.

- اطلبي أي حاجة ما عدا الفلوس.

- ما بدّي مَصاري.. بدّي أمشي من هون.

- تِمشي! تِمشي تروحي فين؟

- طلعني أنت وأنا بامشي بحال سَبيلي.

- يا بت أنت أتجننتي؟ فيه عَايقة تانية كلّمتك تشتغلي عندها؟

- لا.. ما في.. لك شِفت حالي.. مِش شايف شو صاير لي؟

- أكيد عملتي حاجة.. سرقتي حاجة؟

بحدَّة مدَّت يدها بالصورة التي بين أصابعها.. صورتها على الباخرة بين أمها وأبيها.

- أنا مو اللي بتسرق.. أنا حُرَّة بنت حُر.. أرمينية من ماردين وده ما كان حالي.

تأمل عبد القادر الصورة.. أردف: ما أنا عارف.. مصر عاملة زي ملجأ الأيتام.. فيها من كل صنف لون.

رمقته بعتاب فاستدرك: هي شغلانتكم وسخة.. وماحدِّش فيها بيمشي بمزاجه.. المَسألة دي تكلِّفك كتير.

- شو بدَّك.. اللي بدك إياه رح تاخده بس طلعني من هون.

قالتها بقهر جزَّت من أجله أسنانها ثم كشفت بيأس صَدرها وكتفها.

- فِهمني غلط.. دَاري روحك.. اقعدي.. أنتِ إيه اللي جابك هِنا أصلًا؟

فجأة عَلا صوت سَلامة ينادي اسمها فانقطعت أنفاسها قبل أن يبتعد، أردفت بصوت خفيض:

- كُنت سَاكنة في الدور اللي فوق.. إمِّي وأبي مَاتوا بالرئة.. سَلامة اتهجَّم عليا وضَربني.. سَحبني لَهون جابني للأوضة وحبسني.. أسبوع من غير أكل لحد ما كنت رَح أموت.. وبعدين خلاني أبلع الأفيون.. صِرت متل العجينة بإيده.. وبنبة عملت لي رُخصة

بالغصب.. أيامي صَارت سـودة.. مَسحوا بي الأرض وخلوني مرمطة لأوسخ ناس.. حتى الموت رافض يضمّني.. أنا حُرّة بنت حُر.. بِدّي أسافر.. أرجع لـ...

بُتـرت الجملـة فـوق لِسانها.. فبلدتهـا ومَن عليها لـم يعُد لهم وجود.. أردَفت:

- أنـا مَا كَان بدّي أعيش هيـك.. أنا بنت ناس.. مِش هادي العيشة اللي بتليق لي.

قاوم عبد القادر زيغ بَصَر رعش صورة ورد في عينيه حين أردَفت:

- رَح تساعِدني؟

- أكلّم سَلامة خرة يخِف إيده عليكِ شوية؟

- الـكلام مـا عَـدا ينفع.. هـادول ناس مَاتـت من قلوبهـن الرحمة. رَح تسَاعِدني؟

- أساعِد نفسي الأول!! بُصّي...

قاطعته: كتّر خيرك.

قالتها واتجهت للباب فاستدركها: يا بت البلد والعة.. ولعِلمك فيه أرمَن ضَربوا رُصاص على مُظاهرة من كام يوم والطلبة طِلعوا حدفوهم م الشبابيك.. هاتتقطّعي في الشوارِع لو عرفوا ملّتك.

شردَت للحظات ابتلعت فيها الخوف قبل أن تهِمّ بالخروج.. أمسَك رُسغَها: مَا يبقاش دَمّك حَامِي أمّال!

أفلتت يَدها ونظرت في عَينيه: أنت ولّعت كامب الإنجليز حقيقة؟

نظر للنبُوت يَسأله ثم التفت إليها: وإيه دخل ده بالموضوع؟

- أنت ما ولّعت إشي، أنت كذّاب.. تركت أبوك واتصاحِبت على الإنجليز.. بِعت نفسك لهم.. مثل ما بدك اياني أبيع حالي لبيت الكلاب هادا.

انقضت لَحَظات من الصَّمت ارتعشت خِلالها عَيناه قبل أن يُدير عُنقها بصَفعة! لم ترفَع كفَّها لتتحسَّس النار التي اشتعلت في وجنتها أو تصرخ، فقط رمقته بعينين ترقرقتا قبل أن ينفتح الباب بغتة، رَمقها سَلامة بغضب قبل أن يشير إليها:

- أنا مش بانده عليكِ يا بت!

انتشر الرُّعب في مَلامِحها وتلاحقت أنفاسها فرَجعَت خُطوتين إلى الوَراء قبل أن يصيح سَلامة بصَوت أعلى:

- مش سامعاني؟

تدخل عبد القادر ببواقي الكوكايين في عروقه:

- خلاص يا سلامة.. سيبها دلوقت.. هي هاتبقى تِجي لك لما تِصفى.

- ورحمة أبوك يا عبد قادر أفندي خليك على جنب.. البت دي أدي لها مُدَّة بتتمرقع ومطيَّرة من عندي ييجي خمس زباين لحد دلوقت.

- العَمى بعيونك.

ألقتها وَرد فاشتعل سَلامة، خَلع شبشبه ورَفَع طرف جِلبابه محررًا ساقيه فهَربت خلف عبد القادر حين صرخ:

- يا بنت الكاااااالب! بتدعي عَليا ؟! طَب وديني لأنولك عَلقة تعرفك مقامك.

صَرخت ورد فتلقف عبد القادر هُجومه مُقاومًا زيغان عَينيه.. حَدجه سلامة بغضب:

- إوعى إيدك دي أمَّال.. إيش أخششك أنت في اللي ما لكش فيه؟

- ما تمدش إيدك عليها وأنا واقف يا سلامة.

- أنت عِشقت ولَّا إيه؟ دي مومس يا أفندي! مومس.. وبتاعتي.. مِلكي.

قالها سلامة ثم دفع صَدر عبد القادر بقبضته فتعثر في طرف السرير قبل أن يفقد توازنه.. سَقط في اللحظة التي هجم فيها سَلامة على ورد.. صَرَخت رعبًا فالتقطت من فوق المِنضدة مصباحًا مشتعلًا.. أمسكته بيد ترتعش ووجهته ناحيته فصَاح:

- وشرف أمِّي لأسيَّح بيه وشِّك.

كيف سأحكُم لبؤاتي وأبث فيهن مَهابتي بعد يوم تذلَّني فيه فتاة مثل ورد؟

قفز سلامة ناحيتها.. بردَّة فعل لا إرادية وبكل ما أوتيت من قوَّة طوَّحت وَرد المصباح المشتعل تجاهه في اللحظة التي قام فيها عبد القادر مُحاولًا إدراكها.. انكسر المصباح في وجه سلامة قبل أن ينسكب الكيروسين على ملابسه مشتعلًا.. أمسكت فيه النار فصَرَخ صَرخة مدوية اقشعرَّت لها عَاهرات البيت وتعالت أصواتهن.. سَقط سَلامة على الأرض يتمرغ بهستيريا يمسح نارًا تشوي جلده وتتغلغل

في اللحم.. نظر إليها عبد القادر غير مُصدِّق ما حدث قبل أن يلتقط ملاءة السرير ويلقيها على سلامة محاولًا إطفاءه.. اقتربت ورد من الباب في فزع وانسلت هاربة قبل أن تقترب أصوات العَاهرات وفي مقدمتهن بنبة يُعدِّدن ويخلعن قباقيبهن الخشبية ليُمطِرن ورد التي انطلقت.. خَطَفَت مَلاءة لف سَوداء وخَرَجَت هلِعة فتبعها عبد القادر بعد أن أخمد حريق سلامة بصُعوبة لَمحها تقفز السلَّم حَافية.. وَقفت للحظة ونظرت لأعلى.. التقت عيناهما في صمت قبل أن ينتزع من جَيبه ساعته الذهبية ذات السلسلة.. قذفها إليها وهز رأسه في إشارة أن انجي بنفسك.. التقطتها ولم تعقِّب.. كان ذلك حين خرجت بنبة ترجرج فأمسك عبد القادر برُسغها المُكدَّس مُعرقِلًا:

- رايحة فين أنت؟ البت مَعاها سكينة أنا شفتها.

- إوعي.. ورحمة أمِّي لموِّتها بنت ميتشين الكلب.

- اهدي يا بنبة.. خُشِّي شوفي سلامة وأنا هاجيبهالك من شَعرها.. وابعتي أي بت تجيب حكيم.. يلَّه.

قفز عبد القادر السلالم وخَرج من البوَّابة فلَمَح ورد تسير مُسرعةً وقد لفَّت جَسَدها بالملاءة متخللة أهل الحي الذين هرعوا لصراخ بيت العَاهرات نجدةً، تابعها بعينيه حَتَّى وَصَلَت لنهاية الحارة، التفتت لفتة أخيرة التقت خلالها أعينهما قبل أن تختفي وَسط الزحام، لَحظات وخَرَج سَلامة النجس يَصرخ بنَصب وعذاب، سُلِخ نِصف وَجهه برقبته ونصف شَعر رأسه، ساندته بنبة وأنفار من الحي والعَاهرات من ورائهم يندبن ويترجرجن، تابع ذكور المارة أجسادهن وواسوهن بهياج

فتوارى عبد القادر في الزحام حتّى مرّت الجنازة قبل أن يَمشي وراء خطوات ورد متتبعًا، حين وَصَل لنهاية الحَارة لم يجد لها أثرًا.. اختفت كدُخان في عاصِفة مُغبرة.

مدّت وَرد خطواتها حَافية حَاجبة وَجهها بطَرف الملاءة مُتحاشية أعين المَارة المُتفحّصة سَالكة طريقًا يبعدها، لم تنظُر وراءها كي لا يأتيها العذاب كامرأة لوط التي لم تُنصِت لتحذير زوجها، قبضت على السلسلة الذهبية التي أخذتها من عبد القادر بيد والصَّليب الخشبي في صَدرها باليد الأخرى، تعتصره استدعاءً للأمان، تُتمتِم بالصلوات مُقاومة ضِيق نَفس وضَعفًا يتسلَّل فيها وزُجاجًا مُحطَّمًا عَلى الأرض طعن قدميها الحَافيتين حين مرَّت بجمع ثائر يَكتبون السباب واللعنات عَلى مَحل مُجوهرات مُغلق فوقه اسم أرمني بعد أن كسروا الواجهة، يبثون غضبهم بلا تمييز، التفت أحدهم إليها مُسدِّدًا لمَلامِحها الأرمنية نظرة إعجاب مَمزوجة بشك فأسرعت الخُطى مُبتعِدة بهلع، جذبت خَيط السلسلة مِن رقبتها فانفلت الصَّليب وتحرَّر، قبضت عليه حتّى مرَّت بمدخل بيت، اعتذرت للمَسيح همسًا ثم علقت الصَّليب في حديد البوابة قبل أن تُخفي سَاعة عبد القادر في صَدرها.

الكَنيسة لم تكن بَعيدة عن الأزبكيَّة، بِناء مَخروطي القباب يتوسط شارع عبَّاس الأوَّل، هَرولت وَرد في بَاحته الطويلة قبل أن تقِف أمام بَاب مُغلق على غَير عادته، قرَعت وانتظرت، لَحظات طويلة مرّت

قبل أن تلتقط أذناها حَفيف أقدام تقترب ثم كُوَّة في الباب تنفتح ووَجه قِس مُرتبِك:

- عاوزة إيه يا بنتي؟

- بدِّي أصلِّي يا أبونا.

- الكنيسة مَقفولة النهاردة يا بنتي.. أنت مش شايفة اللي بيحصل في الشوارع؟

- أنا ما إلي حدا.

لَمح الجزع في مَلامِحها فنظر وَراءها يتفحص الشارع قبل أن يَفتح الباب على مَضض، تسلَّلت كقِطَّة تفر مِن كَلب يُهاجِمها، لَمح وَجهها وقدمَيها الدَّاميتين فطلب منها المكوث حتَّى يَعود، رفعت عينيها لتتأمَّل كنيسة لم تدخلها من قبل، تسمَّرت أمام أيقونة للمَسيح، يَرفع كفًّا مُطَمئنًا لامَس فيه بنصره إبهامه، وبالكفِّ الأخرى يُمسِك كتابًا، وعَلى صَدره قَلب أحمَر حَوله إكليل من الشوك وفيه سَيف مَغروز، اقتربت وَرد من الإطار المُذهب والتقطت شَمعة، لم تَجِد نارًا لتُشعلها فغَرستها في الرِّمال ورَسَمت صَليبًا بأعصاب مُرتعشة بين جَبهتها وصَدرها حين عَاد القِس، أجلَسها وغَسل قَدميها بمَاء ثم رَبطهما بشَاش أبيض وناولها رَغيفًا جافًّا وطبقًا فيه زيت الزيتون، أكلت في صَمت وهي تتأمَّل عَينَي المَسيح في الأيقونة، كَانت تنظُر إليها، بدون أن تفقِد الاتصال به سَألت القِس:

- أبانا هو اللي بيكتب القدر في السما؟

- هو اللي بيكتب.. وإحنا اللي بنخطىء.

- هو بيحبنا؟ طب ليش راضي بعذابنا؟

- إن شئتم وسَمعتم تأكلون خير الأرض.. وإن أبيتم وتمردتم تُؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم.. إرادة الإنسان وما يَحدث في حياتنا هو نتيجة اختياراتنا السيئة.

- أنا ما اخترت إشي في حياتي! الدنيا فرضت عليَّ كل اختيار.. وأنا حتى ما وافقت!

- الرب لا يُجبر أحد.. ولا يَحكم على أحد ظُلم.. إنما هم الخطَّائين سَبب المُعاناة.. صلِّي يا بنتي.

- ولو ما استجاب لصلاتي؟

- الرب يَفعل أي شيء لأجل أحبائه، مهما صعبت أمور العيش، هُناك دَومًا فسحة للرجاء.

- والخطَّائين؟

- من صُور النَّعيم التي سيحظى بها الأبرار في الجنة مَرأى العذاب الذي يتعذبه الخُطاة في الجَحيم.

خُيِّل إليها للحظة أن المَسيح قد ابتسم! أو أنَّ عينيه رَمَشتا! سألت:

- ممكن أشتغل هون؟ أسكن ببيت الرب؟ مُمكن أسوي أي إشي؟

- ما يمكنش.. مفيش مكان للحريم هِنا.

- الرب ما يحب البنت زي الولد؟

- الرب رب الولد والبنت.. لكن الكنيسة ليها قانون.

أخرجت ساعة عبد القادر من صدرها ووضعتها في كف القس فأرجعها بين أصابعها:

- خليها معاكي تنفعك يا بنتي.

سكتت وشردت في صورة المَسيح ثانية فأردَف متأثرًا: الليلة تباتي في أوضة الجَنايني لأنه ماجاش.. بُكرة يحلّها سيدك.

أغلق عَليها بَاب غُرفة رطبة مَليئة بأدوات الحديقة وآنية البذور، افترشت كُرسيًا مُبطّنًا بالخيش بجانب حَائط مُعلّق عليه صُورة للعَذراء في رِدَائها الأزرق الرائق تَحمِل صَغيرها، مَدّت يَدها ببُطء ولامَسَت أصابعها الرشيقة المَمدودة في سَلام حتّى أحسّت بحرارتها قبل أن تُغمِض جفونها.

سينما مِتروبول.. القاهرة

القاعة كانت مُكتظَّة، سِعَتها سَبعون شَخصًا وازدادت عشرة واقفين في الخلف، الكَراسي خَشبيَّة غير مُريحة، دُخان السَّجائر سَحابة تموج قُرب السَّقف، والشاشة قُماش أبيض بارتفاع الحَائِط يتلقَّى الشُّعاع مِن مَاكينة تُدار يَدويًّا، تكتُم زَمجرتها مَقطوعات مُتوائِمة مَع الأحداث يَعزفها رجل خلف بيانو.. «حَياة كلب» كان اسم الفيلم، تمثيل صَاروخ الكوميديا الإنجليزي «شارلي شَابلن»، يَكفي الجماهير الآن أن يَروا يَافطة تحمِل صورته بزي الصعلوك وكلِمة «شارلي شابلن هنا اليوم» لتتكالب على شباك التذاكر.

كَان ذلك ثالث فِيلم يُشاهِدَانه مَعًا بَعدَما لمس وَلَعها بالسِّينما، تقف أمام الصُّورة المُتحرِّكة كطِفل في مَتجر حَلوى، عَيناها تتَّسِعان وفمها يرسم O صَغيرة، ولا تكُف عن الضحك خَاصة في مَشاهِد المقالب التي يؤديها الصُّعلوك ببراعة، يَعشق انفعالها الصاخِب، دبيب كَعبها على الأرض، شدَّة يَدها على يَده حين يتعرَّض البَطل لخَطر، وبُكاءها المؤثر حين تتوحَّد مع الأحداث، بُكاء يجعلها في عَينيه أجمل من «بولات جودارد» بطلة الفيلم.

انتهى حَفل الماتينيه فتمشيا إلى شَارع المغربي[1] ليَجلِسَا في

---

(١) شارع المغربي هو عدلي حاليًا.

«جروبّي»، كافيه رَاقٍ تُعزف فيه مُوسيقى ناعِمة ويَصدح الهَمس الخافِت بين صَليل الشّوك والملاعِق، طَلَبت «ميل فوي» مع الشَّاي وشرب هو قهوة فرنسية سَادة، ثم تحدَّثا بكلِمَات تَوارى فيها الغزل خَلف الحِكَايات قبل أن يَسقطا عَمدًا في صَمت لذيذ، صَمت أحصَى فيه رُموش عَينيها التي تحبِس وَراءها نَهرًا من الأسئلة جعلته يبتسم من جانب فمه سُخرية، تلاحظه فتأكل الميل فوي هَربًا منه، ثم تثرثر بسيرة رَحلاتها إلى بلاد أوربا وأمريكا، ذِكريات باهِتة باقية في رأسها عن والدتها المتوفاة، قبل أن تتحدَّث عن والِدها محافظ القاهرة المَشغول دَائِمًا بهموم مَنصِبه، ثم ينجرفان للبَلد والوَضع العَام فيه وحَال صَفيَّة هَانِم والمُظاهرات.. يتركها تسترسِل وينصت في صَمت، يتأمل شفتيها فِرنسية اللكنة حين تضمهما في «ميل فُوي» أو تقلب الراء غين في «انكروايابل»، يتابع حَركات أصَابعها الرقيقة في الهَواء، ضَحكة عالية تضع من أجلها يَدها على فمها، اهتزازات قرطين رقيقين متدلِّيين من شحمتي أذنيها، أمَّا هي فتلمس شروده فيها فترتبك، تصمت، تبتسم ويتورَّد وَجهها لمَّا تستوعب أنه يتخللها بعينيه، يَجتاحها، يغمرها الخجل حين تشتمُّ العِشق، تتصَارع الثقة والضعف بين حَاجبيها وجَبينها، الرَّفض والرَّغبة، ثم تستسلم فتشتعل الوجنتان، تتَسَارع النبضات وتكاد تبيح أنها ولأوَّل مرَّة، تهيم عِشقًا، تذوب كقِطعة زبد فوق نار هَادئة، حاولت في كل مرة يتقابلان كسر اقتضابه ولم تستطع، يجيبها بكلمات قصيرة لا تغني من معرفة، كل ما أدركته أنَّه طبيب بمدرسة الطب، أباه ضابط جيش متوفًى، يُجيد الفرنسية والإنجليزية، لَبِق، مثقف ومُهتم بالشأن السياسي، وفوق كل ذلك يهتم بها، كتوم وإذا أفضى بمَكنون صدره، ينطِق بما يدور في رأسها قبل أن يتحرك به

لِسانها! تتعرّى مشاعِرها فجأة في كلماته، كأنها أمام مرآة تقرأ تفاصيلها وتتنبأ بمستقبلها، يُخرج أسئلتها من تحت شعرها ويجيبها فتبرق عَيناها كمَن يُشاهِد حَاويًا مدهشًا أو قارئ فِنجان! إحساس مربك، مُمتِع، تلمس به نضجه وتجربته، ويبث في شرايينها دَغدغة تذكي فيها روح المُغامرة معه، يُشعِرها أنها مِلكة مُتوَّجة في غابة طرزان، أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، يَسحَبها خلفه في شوارع ما كانت لتمشي فيها يومًا، يُمطِرها بسيل من المعلومات عن بلد تعيش فيه ولا تعرفه، ثم يتركها فريسة لأحلام يقظة مُجسَّمة لا يَهزمها نوم، بطلها أحمد.

- ليه ما اتجوِّزتيش لغاية دلوقت؟

سَألها بَغتة ناظِرًا في عَينيها بثبات.. كانت قد اعتادت أسئلته المُباغِتة.

- سؤال ما يتسألش.

أردف مُخففًا: أنت جميلة.. من عيلة.. ومش ناقصك غير...

قاطعته: حَد يقنعني.

- ومين اللي مُمكن يقنع نازلي هانم؟

- مِش مُهتمَّة بالألقاب.. المُهم يفهمني.

- مَعقولة في كل العائلات اللي حواليكي مفيش حد فهمك؟

قاطعته: أولاد الذوات تربيتهم باهتة.. ناعمة إذا كنت تفهم قصدي.. أعرف ابن باشا بدون ذِكر أسماء عنده أربعين سنة وعنده خدام بيقُص له ضوافره لغاية دلوقتي.

- هايل!! طب ولو فهمك.. بس لا بيه ولا باشا؟

- لو عجبني ليه لأ؟ إن شالله أفندي.. ماما صَفيَّة اتجوِّزت بابا سَعد وكانت بنت باشا وهو أفوكاتو.

- رأيك من دِماغِك؟

- بابي عقليته مختلفة وليه نظرة في اختيار العَريس.. بس أنا ليا رأي.

- نازلي.

- نعم.

- تفتكري إحنا ممكن نتجوز؟

اجتاحتها سخونة أندت جبينها، نظرت حَولها كمَن تبحَث عن مَهرَب، بصُعُوبة سَدَّدت لعَينيه نظرة:

- أنا تقريبًا مَا أعرفكش!

- إيه اللي ما تعرفيهوش؟

- حاسَّة إن وراك حاجة مش عاوز تقولها.

- حَياة سرِّية؟

- مَامَا صَفيَّة بتقول إن راجل من غير حَياة سرِّية يبقى مِش راجِل أصلًا.

- يبقى أكيد لازِم تِفضَل سرِّية.

ضحكت فأردفت: وبعدين أنت عارف كُل حاجة بسألها تقريبًا! أو حتَّى ما بسألهاش! الموضوع ده غريب!!

- أنا اشتغلت فترة في حَياتي سَاحر.

- أنا مش بهزّر!

- والله ما بهزّر.. اشتغلت مُساعِد سَاحِر شهرين في سيرك «عاكِف».. كنت باخد تعريفة في اليوم.. كانت شغلتي أستخبى في علبة خمسين سنتي في خمسين وبعدين أنزل من باب سِحري في الأرض.. أول ما يصقف أقوم طالع من ورا الستارة.

برقت عيناها بعَجب: مِش بقول لك ما أعرفكش.

- كل القصّة إني اتمرمطت كتير لأني اتربيت يتيم.. والعيشة في باب اللوق جنب مَحطَّة قطر وسُوق بتكوّن خبرات.

ابتسمت: والخبرات في نفسية البنات؟

مَد بثقة يده إلى جَانب أذنها اليمنى قبل أن يُرجعها بسلسلة ملفوفة، فك أسرها فظهر حرف «N» صغير من الفضّة في نهايتها.

- اللي يفهم البنت يفهم الدنيا كلها.

وضعها في راحتها وأطبق عليها ثم لثم أطراف أصابعها.. انتابتها رعشة.

- ده أنت ساحر بجد! إشمعنى أنا من دون البنات كلها؟

- عشان فيه ناس ما ينفعش تعدّي في الحياة وتروح وتتنسي.. ناس لو عدّت لازم تتكعبل.. وتقع على دماغها.. بس نلحقها..

اهتزّت قدماها في توتُّر فصبَّت لنفسها المَاء بيَد مُرتعشة وشردت عيناها في الكأس، رَغم تماسُكها وشُهرتها بَين صَديقاتها بالزهو والأنفة ورفض الرجال يُربكها استسلامها أمامه، رُضوخها لكلماته، حتّى فارق

السّن بينهما تجده مثاليًا، يسعِدها أن تعثُر على من تمشي وراءه بَدلًا من مُمارسة دور الذكر في أي حوار تبدؤه مع أبناء بشوات احترفوا النعومة، يخافون من ثقتها فيكذبون بسذاجة ليفشلوا في الاختبار، دَائمًا كانت تبحث عمَّن يبهرها، وها هو يظهر، بشكل غريب في وقت أغرب.

أفاقت من شرودها في كأس المَاء: تِعرف قصر البارون؟

- أعرفه طبعًا!

- بُكرة أنا معزومة على حَفلة تنكُّرِيَّة كبيرة.. وبابا جَاي.. عاوزة أعرّفك بيه.

- بابا! لكن أنا ما عنديش دعوة!

- سيب الموضوع ده عليا.



حين رَحلت نازلي فَكَّ أحمد أسر قدميه.. سَاقته حتى كوبري قصر النيل وتوقَّفت به.. اتكأ على السُّور الغليظ تحت النور الأزرق[1] فألقى عَينيه في المياه الجَارية وشَرد.. يُقاوم وُجومًا مَلأه وانسكب قطرات على الأرض مِن تحته.. شُعوره بالانجراف والاندفاع نحو نازلي يُصيبه بدوار لا يعرف له سببًا.. ضِيق يَجثم فوق صَدره رغم النشوة التي تجتاحه حين يَراها.. نشوة تشبه زغرودة فرح وَحيدة في سرادِق عزاء! فرحة تتناقض كلِّية مَع رِياضة سَفك الدِّماء التي يُمارسها..

---

[1] مصابيح الكباري ونوافِذ البيوت والمُنشآت كانت تُطلى وقت الحرب باللون الأزرق لإخفاء نورها عن طائرات العدو فلا تُصبح هدفًا.

خَليط غَريب يُشبِه مَزج كَبريتيك البُوتاسيوم مَع حِمض البكريك*.. بيز الضلـوع.. قنبلة شـديدة التفجير.. رَغبة مُتأخرة تطـارده بَعد زمن عَاش فيـه كفِكرة.. ترس في آلة.. رَقم في خليـة.. رَصاصة في طبنجة.. قلب مَسحُوق والبَصق عليه أسـلوب حيـاة.. رُوتين يَومي.. روتين كَسرته نازلـي بكعب حِذائها الرفيع بعدما اخترقته.. بَاتت بين يوم وليلة الخيط الوحيـد بينه وبين عالم الأحياء.. فتحة الهواء الضيِّقة في مَقبرة فرعونية لتنفس المومياء.. حُضور يُشحِّم حَياته كَما تُشحَّم الآلات تليينًا حتَّى لا تتآكل تروسها.. لكنَّه لَم يُخلق ليُحصي القبلات!

لَم يُخلق ليَعمل مُوظفًا يَحمل بطيخة ويُنجب سَعيد وزينب وصلاح.

لم يخلق وعيناه الاثنتان تغلقان رفاهية في وقت واحد.

إن كانـت ابنة الـذوات لم تمش عَلـى أرض الواقِع مِـن قبل فهو قد مَشى عليها ببطنه وحَفر فيها كالثعبان خَطًّا.

لكـن يبقـى اللغـز فـي قـرار الاقتـراب الـذي خـرج منـه بانجراف لا إرادي.. اندفـاع طِفل نحو جـرف لا يُدرك خطورته.. مُحاولة مُتأخرة لإدراك حياة تنزوي.. قبل أن تتبخر روحه أو يَجِف جَسده كَجذع خاوٍ.

سأل نفسه: منذ مَتى تعوَّدت أن أكون طائشًا كعِيار انطلق؟

ماذا لو عَرفت طبيعة عَملي؟

ماذا لو رأت الدِّماء تحت أظافِري والبارود في كفِّي؟

من تقبل بمعاشرة ثائِر يَحمل كفنًا؟

هل يتزوَّج الميت؟

هل أملك ما أكفلها به؟

هَل أستنسِخ سَعد زغلول حين تزوَّج بنت رئيس حكومة الاحتلال؟

أتعمَّد الانخراط في الطبقات العُلى لأرى الدُّنيا بمنظور طائرٍ يُحلِّق؟

مَتى تعوَّدت أن أفقِد السَّيطرة على مَقاديري؟

أن أطمح لأُصبِح.. إنسانًا؟

أن أُحِب؟

لا.

لن يُجدي انجذابي لها نفعًا.

سألهَث وراءها وتُبرَى سَاقاي حتَّى الركبتين.

سأفقِد وقودي وحَميَّتي نحو وطني.

سأصير رَخوًا كمِنديل حَريري في بدلة سهرة.

سأقبِّل الإنجليز وأصافِحهم مُصافحة الأصدقاء وسألصِق صورة السُّلطان الخائِن فوق سريري!

لا.

هكذا تضمحل الأمم وتنهار الحضارات.

لكن... لكن نازلي ليست من النوع الذي يَعبر في الحياة فيُهمل أو يُتجاهل!

إنها نازلي! نازلي التي كسرت حائِط التخوين وقفزت حَواجز الشك قبل أن تُغلق الأبواب وراءها وتقتل كل الحريم.. بداخلي.

مُهرة سباق تستحِق الرهان.

لـم تنطفئ هَواجِسـه إلا حيـن وَصَل البَيـت، صَعد السَّلاليم وأغلق بَاب شـقّته فأخبرته أمُّه أن عَشـاءً مُعدًّا وأن غَريبًا مَرَّ وتَرك رِسَالة، فَضَّها فوَجـد فيها كَلمات مُقتضبة ألبَسـته حِذاءه وأرجعته الشَّارع ثانية، اتَّجه إلـى ميدان «العَتبة الخَضراء» حَيث قَهوة «مَتاتيا» تقع خلف دار الأوبرا، سَـاهِرة تعُج بالمُريدين أسفل بناية ضَخمة حَملت نفس الاسم، استقبله ضجيج رقع أقراص الطَّاولة وأحجَار الدومينو، صِياح النُّدُل بالطلبات، صَخـب الحُضور ورائحة النارجيلة، وَقف عن بُعد يتأمَّل رُكنًا بعَينيه فيه كُرسيان ومِنضدة خلف باب زُجاجي، رُكن ابتسـم فيه أبوه يومًا وعدَّل هِندامـه لتُسـجِّل الكاميرا لَحظة فريدة بجَانب سَـعد زغلـول في صُورة مُهترئـة، استشـعر طَيفـه واشـتم عَبق ثـورة مَنكوبـة تركـت آثارها على الجُـدران قبل أن تَعثر عَيناه على عبد القادر، شَـاردًا مُلقيًا رأسـه للوراء وبيـن أصابعه سِيجارة مُحتضِرة، بغَريزة أمنيـة تفحَّص الروَّاد من حَوله بَحثًـا عن وَجه ينتمي لمكتب الخدمات[1]، لَمَّـا اطمأن لغِيابهم اقترب، جَلـس علـى الكُرسـي المُقابِل فتنبَّـه عبد القـادر، ارتكـز بمِرفقيه على المِنضدة ودَعَك وَجهه بيديه طالِبًا الإفاقة.

- اطلب لي قَهوة تاني عَ الرِّيحة.

زفرهـا عبد القادر فأشـار أحمد لنـادِل يَعرِفـه، حيَّاه باسـمه وطلب كوبَـي قهـوة قبـل أن يَرجِـع عبد القـادر بظَهـره إلـى الكُرسـي، بعينين محتقنتين سأل:

---

(١) جهـاز للأمن السياسـي أنشـأه الإنجليـز ومهمتُه تتبع ورصـد الوطنييـن والقضاء على مقاومتهم للاحتلال.. يُطلق عليه: مكتب الخدمات السرية.

- هُو مين اللي اخترع القهوة؟

- بيقولوا اليَمن أوّل ناس شِربوها.

- ناس مُحترمين.

- محتلين من الإنجليز بَرضه.

- الإنجليز! ديك أم الإنجليز.

- أنت بتشم؟

نظر له عبد القادر دقيقة قبل أن يُجيبه: سَاعات.

- ما ينفعش تشم وأنت معانا.

- البودرة مش كيف.. زيها زي القهوة عندي.. بتظبط الدماغ.. بتصَحصَحني.

- تبطَّلها.

مَسح عبد القادر رأسه بعصَبيَّة وشخر بخفوت قبل أن يزفر: ماشي.. أبطَّلها.

- مُوافق تشتغل مَعانا؟

- مُوافِق بَس على شرط.. أقابل الراجِل الكبير اللي مشغَّلك.

- الراجِل الكبير اللي مشغَّلني؟

- ما هو أصل أنا ما باخُدش أوامِر من حد.. وأنت لا مؤاخذة شكلك تلميذ في المَوضوع.

- تلميذ! لو هتشارك لازم تعرف إن الشغل كلُّه هايبقى عن طَريقي.

- يَعني أنت الرَّاجِل الكِبير؟

- رجـل كبير إيه؟ هي عِصابـة؟ - ثم نظر أحمد حوله لمَّا لمس عُلو صَوتـه فأخفضـه - دي مُقاومة احتـلال وليها قواعِـد تأمين.. كُل حاجة في وقتها.. لازِم تشـارِك واحدة واحدة عَشان تِفهم.. تتعوِّد تِسـمع الأوامِر عَشان ما تنكشفش وتكشـفنا مَعاك.. المسألة مش لوتارية تدفع قرشين وتكسـب.. المَوضوع كُلُّـه مَخاطِر.. تِعرف تِضرب نار؟

- تِعرف أنت تِضرب نار؟

اقترب النـادِل وأنـزل القهـوة فسَـكتا للحظـات قبـل أن يرشفها عبد القادر دفعة واحدة ثم ينظُر لأحمد.

- شرط كمان.

- شروطك كِترت!

- كِلمة شرف لو حَصل لي حَاجة تبلَّغ أمّي والحِتَّة كلها إني ضَرَبت في الإنجليز عشان البلد.. وعشان أبويا الله يرحمه.

نظر أحمد في عينيه ملتمسًـا الجدِّية حتَّى وَجدهـا.. غائِمة مُبهمة.. لكنها مَوجودة فأجابه: وَعد.

اليوم التالي

وَسَط البلد.. كافيه «ريش»

الاسم مَكتوب بخَط دِيواني انسيابي فوق باب الدخول الزُّجاجي المُواجِه للحَديقة التي تمتد حتَّى مَيدان سليمان باشا، تراصت المَناضِد على العُشب الأخضر تكسوها المَفارِش البيضاء والأواني اللامِعة، جلس الروَّاد حَولها يستمعون لأنغام فرقة صَغيرة تعزِف لَحنًا لموتسارت.

منذ بداية الحرب أصبح هذا المَقهى المُطِل على ميدان سليمان باشا مُلتقى الطبقات الوسطى المُعارضة من كَافة التيارات الفِكرية، أدباء وشُعراء وفناني مسرح وصحافيين، تُقام فيه الندوات وتعرض على مَسرحه الصغير المَسرحيات والحفلات الغِنائية، وفي نفس الوقت، نُقطة تجمُّع للجَواسيس والمُخبرين! كاشِفي الوطنيين المُجاهرين بآرائهم، الحقيقيين منهم ومُدَّعي النِّضال الذين دَخلوا السجون وخرجوا ليتحاكوا بالبطولات الوطنيَّة الزائفة.

«مِيشيل بوليتس» صَاحب المَقهى، يُوناني شاربه أبيض ووجهه مشرَّب بحمرة النبيذ، كَان يقِف بجانب البَار متحدثًا مع أحد الزبائن حين دلف عبد القادر وأحمد من الباب ليجلسا إلى أقرب مَائِدة، التقت عيناه بالأخير فأحنى رأسه بهدوء قبل أن يُكمِل حديثه:

- ما كنّا نقابل الراجل الكبير في الكراكون أحسن! ألقاها عبد القادر مُتهكمًا.

- راجل كبير إيه وكراكون إيه؟!

- لو المشوار بتاعك ده بتدوَّروه من هِنا تبقى أكيد مَناخوليا.. المَكان ده مرشّق مُخبرين.. يلّه بينا يا عم.

أمسكه أحمد بيده: اقعد.. ده آخر مَكان يتوقعوا نختاره.

لحَظات وانفصل ميشيل عن زبائنه.. صعد سلالِم المَسرح الصغير الذي تراصت عليه الآلات أمام العازفين وصَفَّق فسَكنت الهَمَسَات قبل أن يتكلّم بعربية لا تخلو من لكنة:

- أصدقائي.. يُسعِد كافيه «ريش» أن تقدّم لكم مسيو «فؤاد الجزايرلي» وفرقته الرائعة التي سيطربكم فيها الشاب لطيف الصوت «مُخمّد آبد الوهاب».

صفَّق الحاضرون بفتور حين تخلل المَناضِد شَاب لم يتعد العشرين، نحيل طويل شَعره مُموّج عَالٍ يرتدي بدلة دَاكنة من الصُّوف، توسَّط المَسرح بتواضُع واثِق وابتسامة هادِئة قبل أن تبدأ الفرقة في العزف، عَينا أحمد لم تُفارِقا ميشيل الذي تنحَّى عن المسرح وهز رأسه لأحمد قبل أن يختفي خلف بارافان خشبي.

- دقيقة وحصَّلني ورا البارافان.

تحرك أحمدَ فتبعه عبد القادر بعَينيه حتَّى اختفى ثم قام من مَكانه مُتخللًا المَناضِد مَتأملًا المُطرب الصَّغير وهو يتنحنح استعدادًا للغناء، غَمزه بعَينيه تشجِيعًا فابتسم امتنانًا قبل أن يَختفي وراء البارافان، مِيشيل

كان واقفًا في انتظاره، وَضع سَبَّابته أمام فمه حَاثًّا عبد القادر على الصمت وأشار في جدية إلى بَاب الحمام.

بالداخل كان أحمد منتظرًا أمام باب الكابينة الثانية، أشار لعبد القادر أن يقترب فرمقه بدهشة ثم تقدَّم، أغلق أحمد الباب عليهما بصعوبة ثم مَد يَده خلف الطارِد وجذب ذِراعًا خفية فانفتحت فُرجة في باب، دفعَها مُتقدمًا عبد القادر إلى دِهليز مُظلِم.. مَشى أحمد خطوتين قبل أن يتوقف ويُخرج من جيبه مُصحفًا ثم يلتفت لعبد القادر:

- حط إيدك على المُصحَف.

لم يردف عبد القادر.. وضع يده اليمنى على المُصحف حين قال أحمد:

- قول ورايا: أقسم بالله العظيم.. أن أحافظ على شرف المنظمة وأن لا أفشي أسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام.. وإنني إذا حنثت بيميني أكون قد خُنت وَطني وأهلي.. آمين.

ردَّدها عبد القادر وراءه في خشوع شارد قبل أن يغلق أحمد المُصحف.

- مبروك عليك الانضمام لليد السوداء.

- كده بس!! مفيش كونتراتو؟

هز عبد القادر رأسه ولم يعقب، لم يكن يتخيل يومًا أن يكون عضوًا في مثل تلك الحركة، كان قد سمع اسم «اليد السوداء» كثيرًا خلال نميمة المقاهي وفي أخبار الجرائد الجريئة، الجماعة التي روَّعت

الـوزراء بالرسـائل واغتالت عددًا من المسئولين الإنجليـز والضباط، اسـمها مقتبـس مـن جماعـة تحمـل نفس الاسـم تكونـت فـي صِربيا لمُحاربة الاحتلال النمساوي - المجري، وكانت عملياتها فتيل إشعال للحرب الكبرى.

انتشله أحمد من شروده حين اقترب من الباب الصغير وفتحه.

الجو كان حَارًا لزِجًا ورائِحة الكحول نفاذة رغم المروحة التي تقلب الهواء، وَسط براميل النبيذ وصناديق البيرة استقرت فوق مِنضدة ماكينة طباعـة «رونيو»، يَنحني فوقها رَجـل يُلقمهـا الأوراق الفارغة فتصرُخ بصَرير مَكتوم قبل أن تلفظها من الجِهة الأخرى مَملوءة بحبر وحروف، وأفكار، منشورات فيها نَص خِطاب الرئيس الأمريكي ويلسن في مؤتمر ڤرسـاي، يُقر الحِماية البريطانية على مِصر ويرفض فكرة استقلالها! ثم كلمات تحث الناس على الصُمود في وجه الاحتلال.

توقَّفت الحَركـة حين دَخلا القبـو، بجانب مَاكينـة الطباعة والرَّجُل الـذي يُلقمهـا كانت هناك فتاة وسيدة مَكشـوفتا الوَجهين سـال العَرق على نحورهـن فبلـل الحِجـاب، واحِـدة تجمَـع الـورق لتضَعـه فـي الكراتين والأخرى مُمسكة بختَّامة تختم بها على النقود، قدَّمهم أحمد لعبد القادر:

- عبد القادر أفندي.. راجل محترم هيبقى معانا من النهاردة.

هـز العجوز رأسـه والسـيدتان فأردف أحمـد: عم إسـحاق.. خبير الطباعة بتاعنا وعَامل في العنابر.. قابلته قبل كِده في المركِب.

هـز عبد القـادر رأسـه تحيَّـة للرجـل فأشـار أحمـد للسـيدة التي تجمع الورق:

- الست بدرية.. مُمرّضة في القصر العيني.

ثم أشار للفتاة الخمرية التي تختم النقود: الآنسة دولت.. مُدرسة في مدرسة الهلال.

ساد الصّمت لَحَظات قبل أن يَقطعه عم إسحاق حين أدار ذراع التشغيل لتُكمل ماكينة الطباعة عملها، انهمكت السَّيدتان في العَمل فاقترب أحمد من دولت والتقط من أمامها ورقة نقدية مَختومة بكلمتين «يحيا سعد»، رفعها أمام عينَي أحمد الذي أردف:

- دي فكرة دولت.. دلوقت الموظفين الإنجليز بيقبضوا فلوس عليها اسم سعد باشا.

هز عبد القادر رأسه متعجبًا قبل أن ينتحي بأحمد جانبًا ويهمس:

- إحنا ما اتفقناش على كِده.. طباعة! دي شُغلانة تِرسو.

التقطت دولت الكلمة فرمقت عبد القادر بحدَّة قبل أن تلتفت للمَنشورات بين يديها حين أردف أحمد:

- أنت مِش هتشتغل في الطباعة.. شغلتك هتكون تأمين المجموعة مع «ميشيل» صَاحب الكافيه.. تراقب الزباين.. ولو اشتبهت في حَاجة تدي المجموعة إشارة وتساعد في الهروب.

- بَس كِده؟

- دي مش شُغلانة سَهلة.. توزيع المَنشورات فيها سِجن.. التزم لغاية ما تتعود على نظام الحركة.. وبعدين نقوم بعملية أكبر.. كله في وقته.. خلّي دِي مَعاك - وأخرج من جيب سترته طبنجة صغيرة - تستخدمها في أضيق حدود.

دس عبد القادر الطبنجة في سترته حين سأله أحمد:

- بالمناسبة.. أنت ساكن فين؟

سلّك عبد القادر حنجرته بكحّة كسبًا للوقت قبل أن يُجيبه:

- دَرب طياب.. سيب لي خبر في قهوة شلطان.

- عال..

شرد عبد القادر في حركة المَطبعة الرتيبة والعاملين عليها، في السيِّدة التي انهمكت بجدية في مناولة الورق، والفتاة العَابسة التي رمقته باحتقار منذ دقيقة قبل أن يسأل أحمد همسًا:

- الناس دي شغّالة لله وللوطن؟

- مَفيش مُقابل لمُساعدة الحَركة.. إحنا بالعَافية بنوفّر مَصاريفنا.. أنت بتشتغل دلوقت؟

زفر بضيق: يَعني.

- هاكلم لك مِيشيل يصرف لك مُرتّب حَارس ووجبة.. كِده كِده وجودك في المكان لازم يكون بشكل قانوني.. هَاسِيبك دلوقت مع المجموعة.. شِد الحبل ده -وأشار لحبل متدلٍّ على الحائِط- ميشيل هيأمّن الجو.. الستات يخرجوا الأول.. عَم إسحاق.. وبَعدين أنت بَعد ما تخبّي المَاكنة في الفتحة دي -وأشار لفتحة خشبية في الأرض- وبعدين تخرج.. استبينا؟

- استبينا.. قول لي.. هي البت دي مالها؟ بتبص لي بقرف تقولش جوز أمها!

- مالكش دعوة بدولت.. ويُستحسن بلاش كلام من أصله.. كُل ما عِرفنا عن بعض مَعلومات أقل يكون أأمن لينا كلنا.. هاسيبك دلوقت.. راجع مع ميشيل وعم إسحاق مَواعيد حضورك.

ألقاها ثم انحنى على عم إسحاق وهَمَس بكلمات قبل أن يَفتح باب القبو ويخرج.

- أنت رايح فين؟ سأله عبد القادر.

- عندي حفلة.

- حفلة؟!

لم يترك أحمد لعبد القادر فرصة السؤال، قالها ورحل، انزوى عبد القادر في رُكن يتأمَّل حَركة الطباعة الميكانيكية، أشعل سيجارة فرمَاه عم إسحاق بنظرة لوم فأطفأها تحت حذائه ثم اقترب، التقط ورقة المنشور فضولًا وقرأ رأي الرئيس الأمريكي في أن مِصر أمة لا تستطيع إدارة شئون نفسها! دائمًا ما كان مُقتنعًا ومتوافِقًا مع هذا الرأي، إلا أن ضيقًا تملكه حين مَرَّت عيناه بالكلمات، صِيغة الإهانة المُحمَّلة خلفها أحرقت صَدره.. لو كَان الرئيس الأمريكي فتوَّة حَي مجاور لوسعته ضربًا وقطَّعت وجهه برقبة زجاجة مكسورة وعلَّقته على حَنطور يلف به حارات السيدة زينب تنكيلًا، لكنه للأسف يقطن قارة بعيدة لا تصلها عربات الكارو!

أرجع عبد القادر المنشور مَكانه والتقط ورقة نقدية فضولًا وهو يختلس ملامِح دَولت عن قُرب، الحَبرة لم تنجح في إخفاء جَمال وَحشي عَابس مكسو بلون الخمر، أنف حاد، شفاه مكتنزة، وغضب مشرَّب بألم يَلوح في العينين العسليتين، مَد يَديه مُساعدة في تنسيق النقدية فأطبقت كفَّها على النقديَّة ورَمقته بضيق:

- سَاعِد السّت بدرية ولّا عم إسحاق.

رَمقه عم إسحاق بابتسامة شَماتة فبادله عبد القادر نظرة إحباط ثم اقترب مِن السَّيدة بدرية ومَد يديه يساعِدها، قضى دقائق يرص الأوراق في الكرتونة ويختلس النظرات لدولت التي لم تعره اهتمامًا حتى انتهت الطباعة، قام عَم إسحاق وجذب عبد القادر من ذِراعه هامسًا:

- تعالى نخرج عشان الحريم تبدِّل هدومها.

تبعه عبد القادر دون أن يَسأل، جَذب الحَبل ثم خرجا إلى الدِّهليز ثم الحَمّام، مِيشيل كان في انتظارهما، اتفق مع عبد القادر على الحضور يوميًا في السَّاعة السادسة حتى ولو لم يكن أعضاء المقاومة موجودين درأً للشبهات، وأنه سَيعطيه في اليوم عشرين قرشًا نظير عمله، استهان عبد القادر بالمبلغ وإن لم يملك حق الجِدال أو الرفض، كما استغرب لفظة المقاومة حين سمعها، بدت جديدة على قاموسه.

دقائق وخرَجت السَّيدتان، بدرية وبصُحبتها دولت أخرى غير التي كانت تجمع الأوراق، بَدَّلت حَبرتها وبُرقعها بفستان بني ووشاح أزرق رائِق لم يخف خصلة فاحمة، بَدت كفتيات الأرستقراط، أو كبنات الإنجليز اللاتي يَلمعن في الحَفلات السُّلطانية وفنادِق الصفوة، رَمقها عبد القادر في ذهول قطعه إسحاق:

- اخرج أنت يا عبد القادر الأول.. أمِّن الشارع وإحنا هَانخرج بَعد دقيقة.

انتزع عينيه مِن وجهها العابس رغم سِحره وخرج إلى الشارع، مَسَحه بعينيه لدقيقة قبل أن يُشير لمِيشيل الذي أعطَى الضَّوء الأخضر للسيدات وإسحاق، خَرجتا تحمل كل واحدة حقيبة متخمة بالمنشورات

والفدية المختومة باسم سعد، ثم تفرقتا كلٌّ إلى اتجاه، تابع عبد القادر دون تبير ناحية الميدان قبل أن يلتفت لعم إسحاق:

- إيه قصتها دي يا عم إسحاق؟ هي بحبرة وبُرقع ولّا بنت ذوات؟

نظر له الرجل من بين دخان سيجارته ولم يعقِّب..

أردف عبد القادر:

- أصلها مبوّزة أوي! بَس الهيئة بريمو في الفستان.

- احسن لك تبعد عنها لأن القضية عندها أهم من أي حد.

- لا إله إلا الله! هو أنا قلت حاجة يا عم الحاج؟! أنا باستفهم بس.

رَفع الرجل حَقيبة المنشورات واستعد للرحيل:

- بُكرة معادنا الساعة ستَّة.. تيجي بدري.. سَلامو عَليكو.

- طب وأنا مش هاوزَّع منشورات زيكم؟

توقف الرجل ونظر إليه:

- لمَّا عضمك ينشف.. وتركِّز.

- أنا ناشف على فكرة هه.. ناشف أوي.... يا عم إسحاق! عم إسحاق...! طب رد عليا طيب.

ابتعد الرجل ولم يلتفت.. زفر عبد القادر: ديك أمّك.

ثم دفن سِيجارته وتمّم على الطبنجة في جيبه قبل أن يبتعِد وصورة الفستان تراوِد خياله.

ضَاحِية هليوبوليس.. قصر البارون إمبان

القمر كَان بَدرًا، نوره البَارد انساب على الحَديقة الواسِعة الغنية بالنباتات النَّادرة، حَديقة يتوسطها طَريق صَاعِد إلى باب القَصر، دَرجات سلَّمِه عَريضة اصطفَّت عَلى جوانبها أشجار مُعلَّقة في أغصَانها فوانيس نُحاسية تحوي شُموعًا تنير سَبيل المَدعوين، تحرسهم ثلاثة تماثيل بَيضاء بالحَجم الطبيعي لمُقاتلين أشداء يَحملون نسورًا وسيوفًا ويطئون رءوس أعدائهم تحت أقدامهم الرخامية، الخدم انتشروا في كل مَكان يرشدون المَدعوين للمَدخل ويُعاونون السيِّدات في النزول من العَربات، وآخرون يُساعدون السائقين والسائسين في اصطفاف وتنظيم سياراتهم والعربات.

قُرب الثامنة مساءً كان الزحام قد بلغ أشده، عَربات الدوكار الفَخمة والسيَّارات الفارهة صَنعت طابورًا أمَام سُور القَصر المَهيب تنتظِر دَورها في الدخول للحَفل الأسطوري، نزل أحمد من الترام فتمشَّى حتَّى حدود القصر مُتخلِّلًا الزحام في بدلة سموكينج سَوداء وبابيون لامِع فوق قميص أبيض، في قلبه ثِقل يُبطئ ضرباته وبين يَديه قِناع فضِّي سيُخفي ملامِحه بعد قليل.

عِند البوابة سَألوه عَن اسمه فأبرز دعوة باسم «شريف صبري»، اسم

شقيق نازلي الذي كَان مُسافرًا للندن في ذلك الوقت، توغّل في الحَديقة مُتأملًا البِناء الأسطوري المشيّد على الطراز الهندوسي الذي طالما بَهره كُلّما مَر خَلف الأسوار، البُرج العَالي المنحوت بالأفيال والأسود، والبوابة العَظيمة المَنقوشة بفتيات هِنديات يَرقصن حَول مُجسّم لبُوذا.

قطع المَسافة مُنبهرًا بفخامة البنيان ورونق التماثيل الضخمة الحَاملة للشرفات، مُراقبًا عِلية القوم من الباشوات وكبار رجال الدولة وأصدقائه الإنجليز، ينزلون من سياراتهم في أزياء تنكرية خفّفت من ثِقلهم السّياسي وهيئتهم الجَامِدة التي يظهرون بها فِي الجرائد والمجلات، أثواب مُلوك الفراعنة والمَلكات، شيوخ العَرب وجَواريهم، فسَاتين على الموضة مزيّنة بالكرانيش، وأردية السهرة الباهِظة، أحذية لامِعة لم تَطأ الأرض مرّتين ومُجوهرات تسدّد ديون العالم!

دلف إلى البَهو مُتأملًا أرضيات الرُّخام والمَرمر مُخترقًا صَخب الألوان والضحكات، رَوائح مَمزوجة بعَبق الكُحول ودُخان التبغ، مُوسيقى صَاخِبة تُسعِر الدم في العروق، تماثيل من الذهب والبلاتين والعاج ولوحَات لمشاهير رسامين قرأ أسماءهم في الكتب، وسَاعة ضَخمة استرق ثرثرة المدعوين عنها، قالوا أن لا مثيل لها إلا في قصر الملك بلندن، توضّح الوقت بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين مع تغيرات أوجه القمر، بل وتقيس دَرجات الحَرارة!! استغرق أحمد في الانبهار دقائق حتّى استعاد ما جَاء من أجله، وَضع القِناع على عَينيه دَرأً للأسئلة حَول هويته ثم التقط كَأس شامبانيا اندماجًا في الاسم المكتوب في الدعوة، بحث بعَينيه عَن نازلي التي

وَعدته بلقاء أبيها.. ماذا أفعل؟! سَأل نفسه.. ثم أجاب في لحظة: أجَازِف كما أجَازِف بإطلاق رَصاصة في قلب إنجليزي.. ألقي بنفسي من النافذة ثم أفكر فيمن يتلقفني.. أمزج كيمياء قنبلة فأنثر أشلاء ودماء ثم أطلب القهوة وأدخِّن سيجارة.. نعم.. أنا أصنع قدرًا مُوازيًا لقدري.. حَياة جديدة غير التي أهرسها تحت قدمي كحذاء بالٍ يشرب مياه المطر.. حياة قد أموت فيها على الفراش بأزمة قلبية أو مضاعفات كِبر.. بدلًا من رصاصة في الظهر.. لا أحد يَعيش عُمره كلَّه في الصُّفوف الأمامية.. سأذبل يَومًا كورقة خريف وستهرسني الأقدام.. يجب أن أتفرغ يومًا لإدارة الأمور بعد عمر لهثت فيه وراء كرامة تبتعد كالسراب.

هَكذا قال سَعد حين تزوَّج صَفيَّة بنت رئيس الوزارة.

ولنفس الأسباب كرهته!

كرهته... !

ردَّدها أحمد في نفسه للحظات حتَّى اقتنع بحَيدته عن الطريق، ترك كأسه في صِينية عَابرة وأطفأ سِيجَارته ثم اتجه إلى بَاب الخروج ناويًا الانسحاب.. الاختفاء.. الرجوع للحياة الحقيقية التي يعرف تضاريسها.. كان ذلك حين أوقفه فستان «فلابر» برونزي وقِناع قِطَّة ذهبي وسلسلة تحمل حرف «N» صغير تتدلى فوق صَدر:

– رايح فين؟

عرف صَوتها: كنت بدوَّر عليكي.

– حد ضَايقك في الدخول؟

- محدّش هِنا يِعرف أخوكي.. حلو فستانك.

أمسكت بسلسلتها تداعبها بين أصابعها: شفت السلسلة الجديدة بتاعتي؟

- وحشة.. مين اللي جابها لك؟

- إوعى تهزأ بيه.. تعالى.

سَحبت يَده إلى دَرَج دائري عَجيب مِن خَشَب الوَرد الفَاخر، بَدا لأحمد لانِهائيًا وهو يَتبعها صُعودًا كعَقرب ثوانٍ يُطارد عقرب ساعات، تأمل سَاقيها الرشيقتين تقفزان الدَّرج حَماسًا وخط الجورب الدَّاكن الذي يتوسَّط السمَّانة لينتهي على شكل ورقة لوتس عند الكَعبين، طِلاء أظافرها البرونزي في أصَابعها الرقيقة التي عَانقت يَديه ورائحة اليَاسمين النفَّاذة التي تُخلفها وراءها، تنظر إليه وتضحك فيطوِّ بهما الزمن، ابتسم في نشوة وصَوت المُوسيقى يَغمُره مع كل دَرجة يَصعَدها حتى بَلغا سَماء القصر.

الهواء كان أكثر برودة والصَّخب هادِرًا في السَّطح الذي كشف مدينة «هليوبوليس» كأنها خريطة صغيرة، البُرج العَجيب بَدا أكثر إبهارًا عن قُرب، والأعمدة صَليبية الشكل المُزدانة برءوس الأفيال أضفَت على الأجواء هَيبة كهيبة المَعابد، المناضِد على الحواف رُصَّت، تحمل فوقها كل ما لذ وطاب من فواكِه ومقبِّلات، والمَدعوون مُندمجون في الرَّقص فوق سَجاجيد هِندية على أنغام مُوسيقى «الشارلستون» الهَادرة المنبعثة من فرقة چاز أمريكية استضافها البارون خصيصًا لإحياء الحفل.

استند بجانبها إلى سور يطل على الحديقة الواسعة بَعدما التقطا كأسين، تابعا الرقصة المَجنونة لدقائق تبادلا فيها الابتسام بدون كلمات حتَّى اقتربت منه ورفعت صَوتها ليَسمعها.

- مَصر كلَّها تقريبًا مَعزومة النهاردة.. أنا شُفت مُوصيري وقطَّاوي باشا، وهَارون وفيكتور كوهين بتوع محلات بونتريمولي، وسوارس ومنَشَّى، ويوسف شيكوريل، ده غير أمراء وأميرات الأسرة، بالمناسبة ابن السلطان حسين كامل اللي رفض العرش هو السمين اللي قاعد هناك ده.

- يرفض العرش بدون إبداء سبب!

صاحت في أذنه ليسمعها: سمعت إن فيه قصة حُب مع واحدة فرنساوية.

- دايمًا قصة حُب! والفرنساويات حلوين.

ابتسمت لما التقطت التلميح حول أصلها قبل أن يسألها: أمّال فين البارون؟

- شايف الراجل أبو سكسوكة.. اللي حَاطِط مَاسك بمناخير طويلة.. هو ده.

- ممم.. هو صَحيح عَامل الحفلة دي بمناسبة إيه؟

- إعادة علاقات وصَداقات جديدة.. أنت عَارف البارون هو صاحب شركة «واحة هليوبوليس» اللي عاملة المدينة دي كلها، هو اللي عَامل مضمار الخيل ومَلاهي لونابارك وقصر هليوبوليس والقصر العجيب اللي إحنا فيه ده.. كل حاجة كانت

ماشية تمام لغاية ما حَصَلت مشادة بينه وبين السلطان حسين كامل الله يرحمه.. لأنه كان عاوز القصر ده هديَّة.. البارون ما وافقش.. فالسلطان ضيَّق عليه مَشاريعه.. خاف عَلى نفسه فسَافر مع أخته وبنته الوحيدة لبلجيكا.. لغاية ما سمع خبر موت السلطان.. وأول ما انتهت الحَرب قرَّر يرجع.

-قصر هديَّة؟

-طبعًا.. البارون من أغنى أغنياء العالم.. بس القصر ده عزيز عليه أوي.

ثم أشارت نازلي لسيدتين مُبهرجتين في الخمسين لم تُخف الأقنعة وَجهيهما.

-اللي لابسة أبيض دي تبقى ليدي «جرهام» مِرات مُستشار وزير الداخلية.. واللي جنبها إيفيت بُغدادلي.

-سِمعت الاسم ده قبل كِده.

غمزت بعينها وهَمَسَت: عشيقة البارون.. والسبب الرئيسي لوجوده في مصر.. بيحبها حُب غير عادي.. بيقولوا إن القصر ده كله بناه عشانها.

-وليه ما يتجوزهاش؟

-لأنها متجوزة!

-تمام!! واضِح إنك بتحبِّي أخبار الصَّفوة.

-ريحتهم هي اللي فايحة.. بتيجي لغاية أوضة نومي.

ضحكا قبل أن يَصمتا.. نظر إليها للحظات وجاهدت لتُبقي عينيها في عينيه:

- وحشتيني.

ابتسمت بخجل: أنت كمان.

- جميلة النهاردة.. ومش عشان على راسك ريشة.

ضحكت ومَسحت بأناملها الرباط الشفاف المُحيط بجَبهتها وعَدلت من وضع الريشة الذهبية المثبتة فيه قبل أن يقاطِعهما رَجل يَرتدي زي الفوستانيلا اليوناني التقليدي.. طربوشًا قصيرًا وتنورة بَيضاء وجَوارب طويلة فوق حِذاء أحمر.. أمسَك مِرفق نازلي برفق:

- أنتِ فين يا نانا؟

التفتت نازلي بارتباك: أنا هِنا.. ثم تمالكت نفسها: أقدِّم لحضرتك أحمد.. صَديق اتعرفت عليه في بيت بابا سعد.

ثم نظرت لأحمد الذي يقاوم الضحك وهو يتأمل الزي.. جذبت أصابعه تنبيهًا:

- أقدم لك بابا.. عبد الرحيم باشا صَبري.

اعتدل أحمد فجأة: تشرفنا يا باشا.

ابتسم الرجل: فرصة سَعيدة يا أحمد أفندي.. وأنت تِعرف سَعد باشا منين؟

- والدي الله يِرحمه كان صَديقه.

- واسمه إيه الوالِد الله يرحمه؟

- عبد الحي.

- عبد الحي إيه؟

تردد أحمد للحظات: كِيرة.

ضيّق الرجل عينيه وداعب الطربوش الأحمر القَصير فوق رأسه: كيرة! الاسم ده مش غريب عليا! كان بيشتغل فين؟

- بكباشي في الجيش.

- وهو توفي في...

أدركه أحمد: كان مريض.

- الله يرحمه ويحسن إليه.. وأنت بتشتغل فين يا أحمد أفندي؟

- القصر العيني.. مَدرسة الطب.

- عفارم.. وبيدُّوك ماهية كويِّسة؟

- كويِّسة.

لفَّهم الصمت للحظات قبل أن يلمح الرَّجل جرح صدغ أحمد.. اقترب منه مدققًا بعد أن رفع مونوكل أمام عينه اليمنى.

- واضِح إنه كان جرح حاد.

- شقاوة طفولة.. ابن خالتي كان بيهزر بعصاية فعوّرني.

- لكن ما قلتليش.. أنت مين اللي دعاك على الحفل النهاردة؟

- آآآ.

أشفقت نازلي على أحمد فقاطعت أباها:

- پاپي! إحنا في حفلة مش في المحافظة! سيل ڤوپليه؟

ابتسم أبوها فاحتضنها ولثم جبهتها ثم نظر لأحمد: غلباوية.. زي سعد زغلول.. مَاشي يا ستّي.. النهاردة حفلة وبس.

- يا عبد الرحيم باشا.

كان المُنادي أحد المَدعوين.. ربت الرجل على كتف نازلي وابتسم لأحمد: كيرة.. اسم مميَّز جدًّا.. أستأذنكم.

قالها وانسحب مُندمجًا مع مَعارفه حين استطردت نازلي:

- آسفة.. پاپي بيهتم جدًّا بالتفاصيل.

- أنتِ لو بنتي هاعمل أكتر من كِده.. بالمناسبة هدومه تجنن.

- أنت كُنت هاتموتني من الضحك لما بصيت للهدوم.. تخيلت أنك هتألِّس عليها.. بابا بيعتز جدًّا بالفرع اليوناني في العِيلة.

- غريب الخليط اللي أنتِ جاية منه.. جريجي على فرنساوي على عثمانلي.

- على مصري.

- أحلى حاجة فيكي.

بدأت الموسيقى تعزف لحنًا راق إلى أذنيها.. نظرت إلى الفرقة وبدأت تتمايل في خفَّة قبل أن تميل عليه:

- على فكرة.. أعتقد أنك عجبت بابا.

ابتسم أحمد بترقب وهو يراقب أباها.. أردفت نازلي:

- أنا بعشق الأغنية دي.. A Good Man is Hard to Find.. مَاريون هَاريس.. صُوتها يخبل.. أحسن مُطربة في أمريكا.

مدّ يَده إليها: ترقصي؟

أغمدت كفَّها في أصَابعه فسَحبها إلى المَرقص، تمايلا لدقيقة قبل أن تتكلم:

- بترقص هايل! ودكتور.. واشتغلت مع سَاحر فرنساوي في سيرك! إيه تاني المفروض أعرفه؟

- بطبخ ملوخية تجنن.

- وإيه كمان؟

- وقتال قتلة بعد الضهر.

ضحكت حتى دَمعت عَيناها: أنا موافقة.

نظر إليها في استفهام فأردفت:

- موافقة أعيش معاك عمري.

ضَغَط على أصَابعها في كفِّه وابتسم ابتسامة حَاول أن تبدو طبيعية. الانجراف مع النهر الثائر لم يعُد اختيارًا.. أما المقاومة فتزيده غرقًا:

- نازلي.. أنا...

فجأة انقطعت المُوسيقى بَعدما هَمس رَجل في أذن العَازف الأوَّل للفرقة.. تكهربت الأجواء وانسحب البارون إمبان من السَّطح في

عُجالة رغم عَرجه الواضِح وخلع قناعه.. تبعته عشيقته المزعومة إيفيت بغدادلي.. نظر أحمد لنازلي في استفهام فبادلته الاستغراب ثم راقبت المِصعد الذي تحرَّكت أسلاكه صُعودًا قبل أن يَعتلي أحد الأشخاص منصَّة الفرقة ويُعلِن:

-أرجو الالتزام.. نحن في حَضرة صَاحِب العظمة.

قالها بالعربية والإنجليزية والفرنسية فعلَت الهَمهَمات واضطربت الجُموع، أخلى الخَدَم الطَّريق الخَارج من المِصعد ووَضعوا كُرسيًا وثيرًا أمام منضدة في رُكن مُميَّز، عَدَّل الرِّجال والنِّساء من هندامهم وخلعوا الأقنعة ووقفوا عَلى أهبة الاستعداد حين انفتح باب المِصعد، خَرج البَارون إمبان بوجه بشوش ومن وَرائه بَرز السُّلطان فؤاد في بَدلة سوداء أنيقة، كرش عظيمة ولُغد مُحتبس، حِذاء لامِع لا يطأ الأرض، وشارب ضَخم مَبروم كقرنَي ثور تحت عينين جَامِدتين لا تَشِفان ما وراءهما، رَمقه أحمد بنظرة لم توارِ كُرهه، نظرة لَمَحَت فيها نازلي بُغضًا واحتقارًا لم تجرِّبه رَغم مَعرفتها بخبايا أخبار السُّلطان ومُهادنته الاحتلال، إلا أنها لم تَملك يَومًا مثل تلك النظرة ناحيته!

شقَّ السُّلطان طريقه يُحني هامات الرِّجال ويَنكُس رُكبات النساء إجلالًا، يَمُن التحيات عليهم بابتسامة وهزَّة رأس ويمد يَده فتُلثم من الواقفين شرفًا وتقديرًا، ثنت نازلي ركبتيها احترامًا وانحنى أحمد بروتوكولًا، غاظته ثقة السُّلطان وذكاء لمحه حين التقت الأعين للحظة، كان يتمنى أن يستشعر الغباء في نَظراته.. الغل أو الغطرسة.. لكنه استشعر ثباتًا وثقة حفَّزت لديه رغبة المنافسة.

استوى السلطان على كُرسيه فالتف حوله البارون إمبان والسيدة جرهام وبعض الساسة الإنجليز ورجال المال المصريون والنبلاء، تبادلوا حديثًا مَرِحًا قبل أن تندمج الفرقة في العزف، لحنًا هادئًا لبرامز بعنوان «Poco Allegretto».

تكلمت نازلي لتخرج أحمد عن شرود تملَّكه:

- أوّل مرة تشوف السلطان ع الحقيقة؟

أفاق أحمد من سرحته: أيوة.. أول مرة.. ما كنتش متخيل إنه قصير كده.. بيبان طويل في الصور.

- بابي بيقول عليه ذكي جدًّا.. وبيفهم تمام في المالية.

- الوصول للعرش مِش محتاج ذكاء.. مِحتاج دم أزرق.

- بتكرهه؟

- حد يقدر يِكره السُّلطان؟ قالها بسخرية.

همست: أنا مش بحبه.. بس شايفة اللوم على الإنجليز أولى.. همَّا اللي حَطُّوه على العرش.

- هيلاقوا مين أحسن من أمير مفلّس وقُمرتي يتحكموا فيه!

- لو مَطرحه كنت تِعمل إيه لو اتعرض عليك العرش؟

- أطالب بالاستقلال لبلدي بَدل ما أقف أتفرج عليها بتتحلب قدامي.. أعرض القضية على العالم بنفسي بدل ما أسيب سعد باشا زغلول يتنفي.

- بابي دايمًا بيقول إن المناصب كتير بتغلب الرجال.. وإن ما يغفر نحكم ع الناس وإحنا في أماكننا.. لازم نقعد في كراسيهم ونحس ضغوطهم.

- والدك بيقول كده عَشان مُحافظ عَنده.

سَاد الصمت للحظات.. لم تشأ نازلي أن تعقّب فتدارك أحمد كلماته: أنا آسِف.. ما كانش قصدي.

- أنا كَمان مش عاجبني إن بابي بيشتغل في وزارته.. كُل واحد في منصب وموافق على اللي بيحصل يبقى مقصّر في حق مصر.

- ده صحيح.

- بس تعرف.. أنا لو ما أعرفكش وشفت نظرتك ليه وهو بيعدي جنبنا كنت قلت إنك مُمكن تطلّع مُسدس وتقتله!

- للأسف المسدس النهاردة في البيت.

ضحكت فضحك.. سَحَبته للمَرقص وعَيناه لا تُفارقان مِنضدة السلطان.. كان ذلك حين مالت السيدة جرهام إلى السُّلطان بابتسامة وهَمَست بإنجليزية:

- كيف حَال ابنتنا العَزيزة الأميرة فوقيَّة؟

سلك حنجرته بصوت غليظ يشبه الشخير من أثر رَصاصة قديمة استقرَّت فيها ولا تزال ثم تحدث: بخَير.

- لِمَ لَمْ تأت لمرافقة عظمتك؟

- فوقيَّة عنيدة ولا تروقها الحفلات.

- الحياة ليست لطيفة بدون رفقة يا صاحب العظمة.

بابتسامة أجابها: العرش لا يترك وقتًا للعَبث يا عزيزتي.

- ومَن تكلَّم عن العبث؟ أنا أتكلم عن الزواج.

فلتت منه ضحكة.

- لقد جَرَّبت حَظِّي مرة ولم أوفَّق.. أميرات الأسرة العلوية صَعبات المراس.. عنيدات.. ومُدللات أكثر من اللازم.

- أتفق مع عظمتك.. لذلك يجب كسر القواعِد من حين لآخر.

أشعل غليونًا مَحشوًّا بتبغ «دانهل» المفضل لديه ثم ضيَّق عينيه: ماذا تعنين بكسر القواعِد؟

- رضا عظمتك غاية تتسابق عليها رَبيبات الأسرة العلوية.. بجانب عائلات مصرية كريمة الأصل أيضًا.

- تقصدين الزواج بواحدة من عامة الشعب!

- ولم لا؟

- هذه سابقة ليس لها مثيل في الأسرة!

- لكل شيء بداية.. الزمن يتغير والمفاهيم تتبدَّل.

- هل للأمر علاقة بقصر باكينجهام؟

بدبلوماسية ازدادت منه قربًا: بالطبع نشاط سَعد زغلول والاضطرابات المترتبة أزعجت العرش كثيرًا في الآونة الأخيرة.

- توقيت غريب للبحث عن زوجة! البلاد في قمة الاضطراب.

- العكس صحيح، سُلطان يتزوّج امرأة من العَامة سيكون أكثر قربًا من قلب ذلك الشعب الطيب في تلك الفترة العصيبة، عرش أكثر استقرارًا، ولي عَهد «ذكر»، دماءه مِصرية خالصة، لن يملك المصريون سوى الولاء والطاعة، والمَحبَّة بالطبع.

بَرم شاربه في شرود أفاق منه بَعد لحظات: ولكن.. من قد تكون؟

قاطعته مُتصنِّعة دلالًا لا تجيده الإنجليزيات: يَجب أن تكون أكمل وأجمل فتاة لتناسب عظمتك.. بالصُّدفة.. هُنا في هذا الحفل اثنتان تناسبان المَقام السَّامي.. هل تلمح عظمتك صَاحبة الفستان الأحمر الواقفة بجانب البار؟

رمق السلطان الفتاة ثم أردف: لقد سَئمت البدينات يا عزيزتي.. زوجتي السابقة كانت مائتين وعشرين رطلًا.

- إذن أجد هوى عظمتك مع تلك الرقيقة ذات الفستان البرونزي في مُنتصف المَرقص.

مَسَح الجسد بعينيه للحظات قبل أن يبتسم: من هي؟

- نازلي.. كريمة عبد الرحيم باشا صبري.. محافظ القاهرة وخادمك المطيع.. يا له من شرف قد يناله!

- جميلة.. لكن من الشَّاب الذي يُراقصها؟

ابتسمت لمَّا لمست الاهتمام ثم نظرت لأحمد وهو يراقص نازلي:

- سَأتأكَّد تمامًا أنّه أخ لا تجوز له.

في بِدايات مَايو ١٩١٩ كَانت الثورة المصريَّة قد نجحت في النيل من ثقة الإنجليز في أنفسهم، أقلقت الجيوش الواثِقة وهزَّت في «باكينجهام» عَرش ملك ثابت.

لكنها أُنهكت! ثِقل الاحتلال أرخى عَضَلات الثوار وثبط الكثير من عزيمتهم فبدون جيش يقف بجانبهم وشرطة تذود عنهم وسُلطان يَغضب من أجلهم، ظل الاستمرار في التظاهر نزيفًا لا يتجلَّط.

كان ذلك قبل تصريح الرئيس الأمريكي بشأن القضية في مؤتمر الصلح، التصريح الذي بقدر ما أثار من سَخَط وأشعل في الصدور غضبًا، بقدر ما كَان ضَربة قاصمة بثَّت اليأس بين ضلوع المصريين.. وبعض أعضاء الوفد في باريس!

وكانت تلك المرحلة الثانية من الثورة.

مرحلة خَرج فيها الفلاحون وأهل الصَّعيد من العَمل الثوري ضَحية للعَسف الوحشي ولفراغ بيوتهم من الأقوات، انحصرت الثورة تقريبًا في القاهرة والمُدن المُجاورة، بقيادة الطلبة والمُحامين والعُمَّال، مُقامرين بحياتهم مُقاومين إنذارات شديدة اللهجة بالطَّرد التعسفي، كُل بضعة أيام تحدث في صفوفهم اختلاجة كاختلاجة مَريض مَحموم فتشتعل المَسيرات والمُظاهرات، يَجوبون الشوارع هاتفين ضِد

الاحتلال رافعين رايات الحرية قبل أن يُقابَلوا بقمع وعنف شديدين فيتفرقوا وتبقى بطولاتهم التي تتحوَّل بسحر الأفواه إلى أساطير يتحاكى بها أبناء البلد فخرًا وتثبيتًا لبعضهم البعض.

أمَّا الوفد برئاسة سعد فقد جَاهد ليُبقي قضية الاستقلال حيَّة على المنابر في أوربا وخارجها رغم الخلافات الداخلية والانشقاقات، جَمَع الشعب التبرعات تطوعًا من أجل استمرار عَرض الفكرة، وتأكيدًا لمَطلب الاستقلال أمام المُجتمع الدولي ضِد إقرار الحِماية الإنجليزية «الإجباري» على مصر، قاوم الوفد العراقيل التي وضعها الإنجليز في طريقهم، وخاطبوا مندوبي الدُّول المختلفة ليقابلوا بصَمم كلما أتت سيرة الاستقلال.

منذا الذي يُعارض كَلمة الفصل الأمريكية؟ فمصر يجب أن تظل حظيرة إنجليزية.. وغنيمة حرب ليس لها أن تُسأل في مصيرها! مع الوقت وتحت رعاية لورد «ألنبي» المندوب السَّامي البريطاني الجديد والأكثر شراسة في تاريخ الاحتلال والمَعروف بـ«الثور الدموي»، مع الوقت ضَاقت قبضة الإنجليز على البلاد، ازدادوا إمعانًا في إذلال المِصريين واضطهادًا لحركتهم الوطنيَّة، بَات الكرباج حَدثًا عَاديًا لكُل من يُشتبه في أمره، مِثله مثل الرَّصاص، بدون إبداء سبب! امتد النهب والاعتداء كالنار في الهشيم عِقابًا وتنكيلًا، قبل أن تنوِّه بريطانيا عن إرسال لجنة برئاسة وزير المُستعمرات البريطانية اللورد «مِلنر» للتحقيق في أسباب اشتعال الثورة المصرية، مُهمِّشة لدور الوفد المِحوري في تحريك القضية، ومُتجاوزة لشخص سعد!

كان مقهى «ريش» قد أصبح مَلاذًا حميميًّا لعبد القادر، غَادر بنسيون بنبة مُتحججًا بالعمل، تاركًا سَلامة النجس بوَجه مَعجون وعين معطوبة بيَّضتها النار، يُبعثر اللَّعنات باسم وَرد مُتوعدًا إياها بمَوت بَطيء من بعد تشويه، يبحث عنها يوميًّا في الشوارع والأزقَّة ويَسأل عنها أصحاب بيوت الفواحِش «الرسمية والسرية» ثم يترك عنوانه في حالة إذا ما صادفها أحدهم، أمَّا بنبة فتأثرت بما أصابها من تلميذتها الشقراء المارقة، تصرخ في لبؤاتها ليفَرجن سِيقانهن ويزيِّن استجلابًا للرزق، ودَّعت عبد القادر بحرارة حين قرر الرحيل قبل أن تدس في جَيبه خَمسة جُنيهات ولفافة كوكايين تكفيه أيامًا.

زار عبد القادر حيَّه مُتخفيًا فاطمأن على أمِّه وإخوته ومَلأ حَقيبة مَلابسه ثم غَادر، سَكَن قبو الخمور واستجلب من ميشيل صَاحب المقهى مَرتبة تقيه جفاف أخشاب الأرضية، ينام فوق آلة الطباعة المدفونة مُحتضنًا زجاجة كونياك، مُريدو المكان والعاملون عرفوه بعبد القادر القبضايا، حَامي المَكان من الشَّغب، يقوم صَباحًا ليجلس أمام المقهى قبل أن يؤمِّن وصول أعضاء الحركة إلى القبو بسلام بدلًا من ميشيل الذي لا تفارقه عيون الزبائن، بَات اصطكاك الكئوس حميميًّا، هَمهَمات الزبائن وصوت محمد عبد الوهاب بأغانيه الجديدة نُصيبه بنشوة حلقات الذِّكر، سُكون غريب يَجتاح كيانه ويخدِّر خلاياه،

قل استهلاكه للكوكايين لضَعف موارده فاكتفى بالخمور، وانفتحت شهيته على الطعام مرة أخرى، حتّى صَوت المَطبعة المزعج رغم رتابته بَات مُريحًا لأعصابه، والسبب.. دولت.

ما الذي فعلته مُختلفًا عَن بقيّة النساء اللاتي عَرفهن فسَحَرَهنّ فذاقهن ثم ألقاهن؟ كيف جَذبته تلك الصَّعيدية الخَمرية؟ الغَاضبة العَابسة النافرة منه المتحاشية حتّى النظر في وجهه، أي راهبة هي؟ أي مُتكبرة؟ يَسأل نفسه طوال اليوم فيُثار غضبًا ويقطب وجهه ويوشِك أن يشتبك مع أحد الزبائن حتّى تحضر فتبدّد الغضب كدخان في الهواء، ويبقى وجهها، عيناها العسليتان الواسِعتان، وشفتاها، وإسحاق القبطي! يَرمقه بشك وإحباط حتّى ينتهوا من طباعة المَنشورات وترتيب حَرَكات التوزيع والتأمين، قبل أن تبدّل مَلابسها لتخرج واحدة من ربيبات البيوت، كيف تفعلها؟ كيف تتحول فجأة من الوحشية إلى سحر الأنوثة؟ كيف تُطفئ لكنتها الصعيدية وتشغّلها كأنها تنزل مفتاحًا في لوحة كهرباء وترفعه؟ الجيم المُعطّشة تصير جيمًا والياء المَمدودة تقصُر مثل حبرتها التي تتحول إلى فستان!!

أضنته الأسئلة وأرهقته فتسلل وَراءها مُراقبًا، سَحبه كَعبها إلى الشوارع المزدِحمة، انتظر الحبيب أن يظهر أو دخولها لملهى ليلي تعمل فيه راقصة، لكنها ما لبثت أن فاجأته واختفت من عينيه وسط الجموع، هَاج ومَاج وبحث بين الواقفين ساعة فلم يَجدها، كالمِلح في المَاء ذابت، تقهقر مَهزومًا لتأتي في اليوم التالي إلى مقهى ريش وأول ما فعلته حين خرجت من المقهى أن اقتربت ورمقته بتحدٍّ:

- ليه مشيت ورايا إمبارح؟

حَكّ عبد القادر مُؤخرة رأسه ثم أجاب: صُدفة.. كُنت... رايح أجيب سجاير.

- من فضلك ما تراقبنيش تاني.

- أنا ما راقبتكيش.

تركته فلاحقها: وأنتِ كنتِ رايحة فين؟

- خلِّيك في حَالك.

- تسمحي لي أوصَّلك؟

- شكرًا.

- النهاردة حَصَل ضرب نار قريب.. خليني أوصلك لأقرب سكَّة.. ما تحضرنا يا عم إسحاق؟ عم إسحاق؟ النبي ما تعمل نفسك ميت.

نظرت دولت لإسحاق فهزَّ رأسه مُوافقًا.

- خلِّيه يوصَّلِك يا بنتي عشان الشوارع هايجة.

مَشيا في صَمت لدقيقتين قبل أن يُخرج عبد القادر من جيب سُترته صورة فوتوغرافية صَغيرة يقف فيها ممسكًا برشاش ضخم أمام سيارة.

- شفتي الصورة دي؟

نظرت فيها دولت ثم أشاحت بوجهها.

- أوتومبيلي ده.. كروسلي موديل سنة أربعتاشر.. آخر إنتاج الشركة قبل الحرب.. جبته من ظابط ما قعدش مَعاه سنة.. بريمو.. والله كنت بجيب بيه ستين كيلو في الساعة.. وده رشاش كان معايا برضه.. «مادسن» ألماني.

نظرت إليه نظرة جعلته يدفن الصورة بين أصابعه.. ساد الصمت قبل أن يُردِف: أنا كنت ماشي وراكي إمبارح.

- عارفة.

- ليه بتصدّي؟

- ...

- عليكِ تار في بلدكم؟

- ...

- مش إحنا في مركب واحِد؟ المفروض...

قاطعته: المفروض تسمع الكلام وتعمل زي ما أحمد أفندي قال.. نشوف شغلنا وبس.

- لا حول ولا قوَّة إلا بالله.. هو أنا بترازِل لا سمح الله.. ده أنا بَوصِل الود بس.. وبعدين ده أنا أصولي من الصَّعيد برضه.. ليا مِرات عَم من أسيوط.. من.. من نجع حمَّادي.

- نجع حمَّادي في قِنا!

- أيوة قِنا صح.. شُفتي بقة؟ بلديات.

توقفت فَجأة فتوقف: أنت عاوز إيه؟

-عاوز أعرف إزّاي مزمزيل زي البدر في تمامـه كِده ما اتجوّزتش لحد دلوقت؟

-أنا مَخطوبة لابن عمّي.

وقف عبد القادر ولم تقف: ابن عمّك؟

أكملت مشيها فأفاق من المفاجأة وأدركها: وأنتِ.. بتحبيه؟

-...

-طب هو عارف أنتِ بتعملي إيه في مصر؟

-ده شيء ما يخصّكش.. ولا يخصُّه.

-تبقي مش بتحبيه.

-...!!!

حدجته باستنكار قبل أن تتركه وتعبر الشـارع، عبـر وراءها متفاديًا خطورًا أوقفته وصَعدت سُلّمه فقفز بجانبها.

-اطلع يا أسطى ع الضاهر.

استدركه عبد القادر: اطلع يا أسطى ع الكورنيش.

ألقاها للعربجي فرمقته بغضب.. أردف:

-ابـن عمّـك ده تلاقيكي مَخطوبة لـه من وأنتي في اللفـة.. فهربتي من البلد على مَصر عشـان ما تتجوزيش.. أصل الست اللي تعمل اللي بتعمليه ده حَاجة من اتنين.. يا عانس.. يا بتهرب من حاجة.

-لو سمحت يا أسطى على جنب!

- لف بينا يا أسطى شوية.. صَبرك بالله.. أنا لازم أقول لك كل اللي في بالي.. أنا مش عارف أنتِ عملتي لي إيه! أنتِ غير أي مزمزيل شفتها في حياتي.. أنت مملكة...

- شايف الشاويش اللي هناك ده؟ والمعبود لو ما نزلتش حالًا هاندهه.

لَمس عبد القادر في عينيها جدِّية وتهورًا فوقف على الحنطور:

- ماشي يا سِت الناس.. بشوقك.

ثم قفز.. استقر على الأرض فرفع صوته حتَّى تسمعه:

- بس على فكرة بقى أنا عاجبك.. باعرف نفسي لمَّا بشاغِل البال.

لم تعقِّب ولم تنظُر وراءها.. هزَّت رأسها في استنكار ومَضى بها الحنطور قبل أن تلحظ الصورة التي وقعت منه.. أو ربما تركها عمدًا ليبهرها.. صورته مع سيارته والرشاش.. التقطتها من كنبة الحنطور وتأملتها قبل أن تدسها في حقيبتها الصغيرة.

فيلا عبد الرحيم باشا صبري.. الجيزة

على غير العادة وفي غير وقته عَاد الباشا من المُحافظة، نزل من سيّارته يَحمل في وجهه بُشرى وتوترًا عجّلا خطواته، حيّا العاملين والخدم دون أن ينظر في وجوههم وصَعد السلّم العالي بسرعة لا تتفق مع سنّه، دلف إلى غرفة نازلي فأشار للخادمة العجوز أن تتركهما قبل أن يَحتضنها حُضنًا طويلًا كأنه لم يرها منذ سنة.

- فيه إيه يا پاپي؟

- كل الخير يا حبيبتي.. اقعدي.

أغلق الباب بإحكام ثم جرّ كُرسيًا وجلس قبالتها.

- أنتِ تمام؟

- تمام يا پاپي!

- مبسوطة؟

- مبسوطة! فيه إيه؟

- كان نفسي تكون توفيقة عايشة عشان تحضر اللحظة دي.

- الله يرحمها مامي.. پاپي فيه إيه أنا قلقت؟

- عاوزك تتمالكي نفسك كويس وتسمعيني بهدوء ومش عاوز أي رد فعل على الكلام اللي هاقوله ده.. ده غير إن ما ينفعش حد يعرف من الخدم.. ولا حتَّى الدادا.

حفرت عَلامات القلق وجهها: حاضر.. فيه إيه؟

- السُّلطان.

- ماله؟!

- طلب إيدك.

مَادت الغرفة بها للحظات فارتعشت أطرافها واجتاح جَسدها عرق بارد فقامت لا إراديًا.. مشت إلى النافذة حين أردف أبوها:

- مدام جرهام حَرم مستشار الداخلية زارتني في المحافظة.. وفاتحتني في الموضوع.. عارفة ده مَعناه إيه؟

التفتت إليه ولم تسأل فبَدأ يخُط بسبابته بروازًا في الهواء:

- نازلي عبد الرحيم صبري.. حرم عظمة السلطان.. سلطانة مصر.

لم تسمع الكلمة الأخيرة.. قرأتها بين شفتي والدها قبل أن تخفت التفاصيل وتنتشر البرودة في أطرافها ثم تميد الغرفة فتختفي بغتة...

بعد ربع ساعة أفاقت.. رأت وجوه والدها والطبيب ومُربيتها العَجوز.. التقطت أذناها «الحمد لله.. مُتشكر يا حَضرة الحَكيم.. حَضَّري لها الغدا يا دادا».. ثم خرج الجميع ولم يتبق إلا والدها.. أغلق الباب وعاد إليها مُكملًا ما بدأ قبل أن تغيب عن الوعي.. استندت بصعوبة إلى مخدَّتها ورمقته في بَهَتان.

- عارف إن الخبر مش سهل.

- المفروض إن ليا اختيار؟

تأمّل وجهها الباهت للحظات ثم مسح جبهتها بحنان قبل أن يُجيبها: تتناقش يا نانا.

- إشمعنى أنا من دون البنات؟

- مَفيش حاجة اسمها إشمعنى.. كل شيء مَكتوب.. وبعدين السُّلطان هيلاقي مين أحسن من نازلي؟

- يشوف قريبة من قريباته يبهدلها.

- إيه الكلام ده!!

- بابي أنت ناسي عمل إيه في الأميرة شويكار؟ ضَربها وبَهدلها لغاية ما أخوها ضربه بالرصاص في كلوب محمد علي.. الرصاصة لغاية دلوقت في رقبته وصوته بشع.

- شويكار دي مَجنونة.. سيرتها مَعروفة في الخبل.. تسيب بيتها من غير إذنه وتبعت له رسايل تطلب منه الصفح.. وأخوها مجنون رسمي وبيتعالج في مصحّة في لندن.

- وقُمَرتي ومديون.

- الراجل ما يعيبوش يلعب قمار.. سَعد زغلول بيلعب قمار.

- دي بنته فوقيّة تقريبًا قدّي!

- نانا يا حبيبتي.. إحنا بنتكلم عن رجل غير عادي.. السّن هنا مالوش مَعنى.. أنت مُدركة يعني إيه تكوني مرات سُلطان؟ يَعني

الدنيـا كلها تصبـح ملكك.. مَصر فيها تلاتاشر مليـون بني آدم..
مليـون ونص عَامل.. ميت ألف إخصائي.. عشر تلاف حكيم..
خمسين عَالم.. تمن وزراء.. سُلطان واحِد.

شُل تفكيرها وذُهلت عيناها.. ضَربات قلبها باتت مَسموعة تطرق أذنيها بدَويٍّ مُؤلم.. نهيجها يتزايد والندى البارد ينشع من مؤخرة رأسها وجَبينها.. تنظر لوالدها فتراه هُلامًا معلقًا عليه شارب أبيض فوقه طربوش.. لا تميِّزه أو تفهمه.. رَوح انفصلت عن جَسدها.. عقل فقد رُشده.. تُباغتها عَينا أحمد ونظرته إليها وهما يَرقصان.. ابتسامة شَفتيه وهو يَنطق كَلمة «بحبك».. النشوة التي اجتاحتها.. القُبلة الساحرة التي اختلساها في الحديقة الخلفية للقَصر.. الوعد... قبل أن تُداهمها اللَّحظة التي عَبر فيها السُّلطان.. بينهما.

- نانا.. أنت عارفة أنت غالية عندي قد إيه؟ أنت اللي فاضلة لي من الدنيا أنت وشريف أخوكِ.

صَارَعَت رغبة مَحمومة في الصراخ منادية اسم أحمد.. دَفَنِت نفسها في حُضنه والبكاء.. التفتت لأبيها:

- أنا مش محتاجة الجوازة دي!

- ليه تحرمي نفسك من شرف لا تتخيليه؟

- مش محتاجاه.

- مش محتاجة تكوني عَلامة في التاريخ؟

- مدام جرهام وعدت حضرتك بالوزارة؟

باغته سؤالها رغم توقُّعه.. ابتسم بعصبية مَكتومة وجز أسنانه ثم قام.. نمّم على طَربوشه واتَّجه إلى الباب قبل أن يلتفت إليها:

- بُكرة مدام جرهام منتظراكِ ع الفِطار في فيلّتها.. العربية هاتكون جاهزة الساعة تمانية تمام.. ما تتأخريش.

نالها ورحل، تمالكت نفسها فقامت إلى التليفون، رَفعت السمَّاعة وأدارت القرص، طلبت من السنترال تحويلها بمقهى متاتيا، تلقَّت ضجيج رَقع أقراص الطَّاولة وصِياح النُّدُل بالطلبات ثم صوتًا غليظًا: نهوة متاتيا.. أفندم... أفندم...

- من فضلك ممكن توصَّلني بأحمد أفندي كيرة.

- لحظة يا مزمزيل.

سمعت صَوت الرجل يُنادي أحمد قبل أن تسمع صوته: آلو.. آلو.

أغمضت عينيها وتهدَّج نفَسها فأغلقت الخط وارتمت على سريرها، مدَّت يدها وسَحبت من تحت الوسادة كتابًا بين إحدى صفحاته تذكرة دخول لمسرحية «قولوا له».. نظرت في ظهرها فقرأت كلمات كتبتها بخطِّها:

«أحلى يوم في حياتي».

اقترب النادل العجوز في زيِّه القرمزي من المقعد المجاور للكوبري الخشبي الذي يعلـو البُحيرة المغطاة بـأوراق الزنبـق الدائرية.. جلس أحمد وعبد الرحمن فهمي يَستقبلان أشعة الشمس في صمت.. وضع النادل كُوبَي شَّاي ورحل قبل أن يتكلم الأخير:

- أوربـا كلهـا تقريبًا أيّـدت الحِماية على مَصر.. آخرهـم ألمانيا.. وقُنصليـات الـدول رَافضة بضغط من الإنجليز تجدد التأشيرات للوفد عشان يسافر لعرض القضيَّة.

- الوفد كده اتنفى بالفعل!

- المُشكلة أكبر من كده بكتير.

التقـط عبد الرحمـن فهمي حقيبته الجلدية الموضوعة بين ساقيه.. فتح قفلها وأخرج رسالة ناولها لأحمد:

- عُضو من أعضاء الوفد في بَاريس بعت الرسَالة دي.

قرأها أحمد بعينيه.

«مُنـذ وصُولنـا وَجدنـا جَميـع الأبواب مُوصـدة فـي وجوهنا، كل الجُهود والمَساعي لم تؤد إلى نتيجة».

زفر عبد الرحمن: فيه تشقق.. جبهة مُعارضة ضد سعد باشا شايفة أنه لا يصلح.. مش عَاجبهم تمسُّكه بالاستقلال الكامل.. شايفين إن مُمكن نوافق على استقلال مَنقوص أو نقدم تنازلات.

- والأفراد دول مؤثرين؟

- بشكل كبير.

- ويعرفوا عن المراسلات الخاصة مع سعد باشا؟

- طبعًا لأ.. لكن شاكّين فيه.. بيراقبوا رسايله العادية ويفتحوها.. وأكتر من مرة نوهوا بالكلام.

- لازم نغير نمط الإرسال كل فترة.

- طبعًا.. وعلى الصعيد المصري أَدِيك شايف.. السلطان والإنجليز هدفهم الأساسي تهميش الوفد وسحب المفاوضات من إيده لصالح الأمراء عشان ينالوا رضا الشعب.. كَمان الوزارة الجديدة اللي بتتشكل هاتعطل القضية كتير.. الكلاب شالوا الرجل المحترم اللي كان بيساند الوفد وحطوا بداله أسماء عندها استعداد تبيع البلد عشان بس يكونوا وزراء.. هانحتاج ضربات تحت الحزام.. ضربات مش عاديَّة.. مش بمستوى ظابط أو مسئول بريد زي ما حصل قبل كده.

- وزرا؟

هز الرجل رأسه إيجابًا ثم سأل: إيه إمكانية تنفيذ ده؟

- المُعدات مَوجودة.. اتصالات.. مُراقبات أكتر.. وشخص جريء ينفذ.. شخص عارف كويس إن احتمال هروبه ما يتعداش خمسة في الميَّة.. قلب ميت.

- فكّر ورُد عليّا.

- وهو كذلك.

همَّ أحمد بالقيام حين استدركه عبد الرحمن فهمي.

- نازلي إزّيها؟

التفت أحمد قبل أن تتسلل لشفتيه ابتسامة لاإراديّة أجلسته ثانية:

أنا متراقب؟

- إطلاقًا.. نازلي هي اللي متراقبة.

- متراقبة؟

- أنت عارف إنها متربية في بيت سَعد باشا.. وصَفيّة هانم تكاد تكون والدتها.. هو كمان وصاني عليها قبل النفي.

- منطقي.

- بتحبها؟

سكت أحمد لحظات.. يستوعب الخرق الذي حدث في رأسه وتعرّت فيه الأفكار.. قبل أن يكشف ورقه دفعة واحدة:

- بحبّها.

- وبَعدين؟

- هَانتجوِّز!

- إزّاي؟

- زي الناس.. أول ما البلد تستقر هاكلم والدها بشكل رسمي.

- نازلي ما تنفعكش يا أحمد.

قالها الرجل بدون أن يلتفت، كأنَّه يلقي بعقب سيجارة إلى الأرض بإهمال.. أردف أحمد:

- حضرتك ليه بتقول كِده؟

- بلدنا طبقات.. صِناعة احتلالات.. مِش سهل المزج بين طبقتك وطبقة... مش بتاعتك.

- حضرتك تقصد طبقة أعلى.

- ما تخدش الموضوع بشكل شخصي.

- مع احترامي لكلام حضرتك أنا بحب نازلي.. ونازلي بتحبني.. ثم إني بشتغل في مدرسة الطب و...

- وبتصنع متفجرات وبتشتغل في المقاومة.

- ....

- البنت الغنية والولد الفقير.. المَسرحيات الخيالية.

- سَعد باشا اتجوز صَفيَّة هانم وهو أفوكاتو.

- نازلي وضع مختلف.

هز أحمد رأسه وهمَّ بالقيام: عُمومًا أشكر حضرتك على النصيحة.. بعد إذنك.

- السُّلطان طلب إيد نازلي يا أحمد.

الكلمات أصابت مؤخرة رأسه فتوقف والتفت: السلطان مين؟!

- السلطان اللي ساكن قصر عابدين.

نجح الخبر في إفقاده التوازن: الكلام ده مش صحيح.

- إمتى آخر مرة شفتها؟

أجاب بشرود: في حفلة البارون.. من تلات أيام.

- كلِّمتها بعدها؟

- اتكلمت في التليفون.. لكن.. ما بتردش!

ساد الصمت لحظات ثقيلة قبل أن يقطعها عبد الرحمن: أحمد.. أنا مش عاوزك تتأذي.

- بعد إذنك.

تركه ورحل.. أغمض عبد الرحمن عينيه ألمًا ثم زفر وهو يشعل عود ثقاب أحرق به رسالة الوفد متابعًا نارها التي تشبه كثيرًا نارًا أضرمها منذ قليل.

في قلب أحمد.

بار «كافيه إچيبسيان».. شارع وش البِركة.. الأزبكيَّة

وقفت السيدة بَديعة في مُنتصف المَسرح بفستان أسود متلألئ، بدون كورسيه يقوِّم خصرًا أو سوتيان يرسم صَدرًا عِصامي الاستدارة، تضرب أصابعها الصَّاجات النحاسية ببراعة عَجيبة متزامنة مع إيقاع التخت الموسيقي ومن حَولها ثماني راقصَات في بدلات ملوَّنة مُبهرة يتقصعن في استعراض طالما خلب العقول وتحاكت به أخبار الفن «الشارلستون».. انتهت المُقدمة المُوسيقية حين توسَّطت المَسرح قبل أن يَصدح صَوتها:

«يا حبيبي ونور عيني.. ده بعادك يضنيني.. يا خفافتك
يا لطافتك.. أنا أبوسك من خدك».

تمايلت الصَّالة مع غنائها ودلال راقِصاتها ففُرشت المزَّات على المناضد وفُتِحت الزجاجات فاصطكت الكئوس ودارت الفتيات بين أيدي المُريدين، في منتصف الرقصة نزلت الدرك ورد، بَدت مُختلفة كثيرًا، شعرٌ أسود فاحم وفستان جديد وحِذاء! كانت قد غادرت الكنيسة بعد أن وَعدت القس بالذهاب للجَمعية الخيرية الأرمنيَّة لتلقِّي الإعانة والتطوع للخدمة الربانية نظير الطعام، حين وَصلت الجمعية شاهدت طوابير طَالبي القوت والمحتاجين من عشيرتها يتكالبون

على الأغطية والأدوية، وقفت لساعة تتابعهم قبل أن تعدل عن قرارها، رَهنت سَاعة عبد القادر التي تلقفتها منه فوق سلَّم بنبة واشترت بثمنها وَجبة تقيم أودها وفستانًا، وصبغة سوداء أطفأت وَهج شَعرها قبل أن تتجه إلى الأزبكية مُتخفية في الخُصلات الداكنة، طلبت من الحَارس مقابلة السيدة بديعة مدعية أنها قريبة من لبنان، نزلت السلم وراءه مُلتصقة بالجدار، عيناها تأكلان بديعة وفرقتها أكلًا، تركها الحارس في الكواليس فوق كُرسي تنتظِر النجمة أن تُنهي فقرتها حتّى خبت الموسيقى، لحظات ومرَّت بجانبها، المُعجبون يَحفونها مُقبّلين يَديها والراقصات يَسرن في ذيلها، تبعت الموكِب بإعجاب حتى دخلت غرفتها قبل أن يشير لها الحارس أن تتقدَّم لتجد ورد نفسها في حَضرة ملكة الرقص الشرقي.

الغرفة كانت متوسطة، مُتخمة بالزهور، الحوائط مَكسوَّة بصور أحجامها مُختلفة للنجمة وفي المنتصف مِرآة مُحاطة باللمبات الكَهربائية تعكس وَجه بديعة التي أمسكت بشاش مغموس في زيت الزيتون لتزيل به آثار العرق والزينة رافعة ساقيها لخادمة تخلع عنها جورب شبك طويلًا يصل للفخذين.

- يا هلا حبيبتي.. شو اسمك؟

أسدلت ورد خُصلة داكنة فوق العين الباقي فيها أثر ورم وأحاطت مرفقها بيدها وهي ترمق انعكاس بديعة في المرآة:

- ورد.

- من وين من لبنان يا ورد؟

- بصراحة أنا مش من لبنان.. أنا من سوريا.

- ... أبضاي الصالة قال إنك من لبنان!!

- عشان أشوفك اضطريت أقول هيك.

التفتت بديعة وتأملتها للحظات قبل أن تسألها: من وين من سوريا؟

- ماردين.

اقتحم الألم وجه بديعة: أكيد حَضرتي مذبحة الترك.

- كان عُمري تلاتاش سنة.. عيليتنا كلهم ماتوا.. وأبي وأمي ماتوا هنا بالمرض الإسبنيولي.

- يا قلبي! اقعدي يا شاطرة.. هيدا مقدر ومكتوب.

جلست ورد فأشارت بديعة إلى إبريق ليمون فصبَّت الخادمة كوبًا ناولته لورد.

- أقدر أساعدك إزاي يا ورد؟

- بدي شغل.

- بتعرفي رقص تُركي؟ إسبنيولي؟ عَجمي؟ لبناني؟

- برقص عال.. وبتعلم بسرعة.. وبغني كمان.

- بتغني لمين؟

- لحضرتك وللشيخ سلامة حجازي وللشيخ سيد درويش.

- تعرفي تغني إيه لسيد درويش؟ سمعيني صوتك.

تذبذب صوتها فمسحت على شعرها بحركة لا إرادية قبل أن تستعيد نفسها محاولة منع الدموع من الانفلات، ثباتها اليوم سيحدد ملامح مستقبلها، هكذا قالت لنفسها وهكذا خرجت كلماتها:

الحبيب للهجر مايل.. والفؤاد ميال إليه.. من جفاه الدمع سايل.. ياناس قولولي أعمل ايه.

قاطعتها بديعة بابتسامة: صوتك حلو ووشك سمبتيك كتير.. بيجي منك.. ساكنة فين؟

- ... ماليش مكان.

تأملت الكدمات في وجهها: أنت هربانة من حاجة يا ورد؟

- قصّة طويلة.

- سمعيني؟

تملكها الصمت وطأطأت رأسها فصرفت بديعة خادمتها بإشارة من يدها والتفتت: لو ما عرفت قصتك مش هاعرف أشغلك معايا.

بعد لحظات من الصمت والهرب من عيني بديعة حكت ورد.. فاضت كنهر هشم سَدّه.. أبكتها التفاصيل وهزّت بديعة التي تأملتها بثبات.. تُحقّق في الكلمات وتستفسر حتى انتهت وخمدت.. راح لونها ونهج صَدرها وتبلل جبينها عرقًا.. اقتربت منها بديعة فقامت.. رفعت خصلة ورد وتأملت الورم في عينيها ورعشة أصابعها اللا إرادية.. تقاوم الخجل والحاجة إلى الأفيون:

- كتير قاسيتي على سنك.. وكتير محتاجة وقت عشان تقومي على حيلك.

تأملتها ورد في ترقُّب.. تنتظِر منها كلمة تحييها.

-هاتباني في كافيه إچيبسيان مع البنات لحد ما تأجري مكان.. ولما تتعافي وتصيري بصحتك نتكلم.

-الله يخليكي يا ست بديعة ويعلّي شأنك كمان وكمان.

-على شرط.

-لو عرفت إنك اتعاطيتي أفيون تاني رح تمشي.. وما راح توريني وشك هدا بمصر كلها.

-حاضر.

-وشرط كمان.. اسمك لازم تغيريه لجل لا يتابعك ها الزِّفت سلامة.. اسمك من اليوم... «لينا».

هزَّت ورد رأسها ولم تعقِّب فابتسمت بديعة وفتحت الباب ونادت.. لحظات وأتاها الحارس.

-لينا بنت أختي.. رح تبات هنا من اليوم ورايح.. لا تخرج إلا بإذني.. لا حدا يقابلها إلا بإذني.. مفهوم؟

-مفهوم يا ست الكُل.

ابتسمت ورد ففاضت عيناها.. ربتت بديعة على كتفها وسلَّمتها للحارس الذي صاحبها لتخرج قبل أن يغلق الباب من ورائه.

قضت ورد ليلتها في غرفة مع ثلاث فتيات ترعَاهن السيدة بديعة بسِعة صَدر عُرفت بها مع المحتاجين وخاصة من أبناء جلدتها الشاميات، حيَّتهن بصمت ثم تكورت على سَرير متواضِع كجنين

نُبذ، قاومت بصعوبة نوبة احتياج للأفيون نهشت خلاياها ببطء، مائة ألف نملة تحتكُّ ببعضها تحت جلدها وومضات مُختلطة من ذكريات زبائن بيت بنبة، أنفاس وأجساد وطأتها ولا تزال تفعل، طاردتها بين الحلم والواقع في هذيان كريه استنزفها واعتصرها حتَّى عضَّت بفكيها الملاءة، داوتها الفتيات بكمادات باردة حتى خمدت بعد أن استولى عليها الضعف والإنهاك، غابت في ثبات لا يخلو من ارتعاش وارتعاد وكلمات مبهمة وصريخ مَحموم.

نفس اليوم.. وسط البلد.. كافيه «ريش»

هي.. كعَادتها عَابسة.. مَحمومة الروح والجَسد لم يفلح الشتاء في تبديد الحَرارة عنها.. في قمَّة تركيزها لا ترفع عَينيها عمَّا تفعله يَداها.. تجمَع الحُروف البَارزة لتصنع بين أصابعها مَنشورًا سياسيًّا يُحرِّك القلوب.

هو.. كعَادته لا يرفع عينيه عنها.. بغضب يتملكه كلما تذكر النسوة اللاتي سبَاهن وسلسلهن بين ضلوعه.. ومَخالبه التي تكسَّرت واحدًا واحدًا على صَخرة رفضها.. يتحرَّق شوقًا كي تصير في حَوزته.. تدخل حريمه ليفقد الاهتمام بها.. يشعل النار في فستانها ولا يَعود في حاجة لكسب ودِّها.. مُمارسًا نذالة تُريحه من شغف زاد عن حدِّه وطفح.. تصرخ نفسه: **«ما الذي يُسعرني فيها فكلُّهن تمنعن قبل السقوط بين حَبائلي..لِم لم تسقط؟!».**

هي.. تشعر به.. يُحيطها من كل جانب ويُحاصر حتَّى كُحل عَينيها.. يخترق البرقع وينفذ إلى شفتيها.. يتنفس فيهما ويَبث جنونه وشغفه.. تحدجه بحدة ليبتعِد.. تزجره مثلما تزجر طفلًا سخيفًا ليكف عن العبث.. صَدمتها في ياسين لم تزل تشطر رأسها نِصفين وحال البلد الذي تعشقه وتخاف لحظة الرجوع إليه يؤرقها.. بجانب همّ إثبات نفسها أمام صَفيَّة زغلول ومن ورائها أحمد وعم إسحاق.

أحجار ثقيلة معلقة في رقبتها

ليس من عَادته أن تُغيِّر نتاية (أنثى بلُغته) مِن عاداته.. ابتعاده عن الكوكايين لم يكن لضيق حَال قدر مَا كَان مُوازيًا لفتوتها التي أراد أن يُجاريها.. يُقاوم الاحتياج المُلح للبودرة البيضاء ليَصير كَاملًا أمامها مِثلما هِي كَاملة أمامه.. يكاد يشعل النار في عم إسحاق ليَعرف سبب نفورها منه.. لم تُجدِ مُراقبته لها شيئًا.. كتومة لا تحمل عَيناها أي بَوادر انشغال.. مَغرورة؟!

ليس من عَادتها أن تستشعر العِشق بتلك الطريقة الجريئة الفجَّة.. فعِشق الصَّعيد صمت وتقاليد تُتَّبع وقداسة حتَّى الزواج.. من بَعد ابن عَم رُبطت إليه شفويًّا منذ سِن الثالثة عشرة كان عليها أن تعيش كراهبة.. بلا دير.. زهرة تتفتح على استحياء فتلملم أوراقها وتحبس أريجها.. تسطع عليها الشمس في القاهرة وتُروى جذورها في قريتها بالصَّعيد وَسط غيطَان البَرسيم.. نشاطها السِّياسي في القاهرة مُقاومة.. وفي الصَّعيد عَار وسفور.. كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لا تناسب ابن عمِّها.. كما كانت تعرف أن ارتباطها به مَوت مُؤجل لا فِكاك منه.. لكنها لم تكن تعرف أن العشق يتسلل مثل الوباء.. وأنه لا تجدي مُقاومته لأنه

لا يُرى.. هو عُبودية تُرتجى.. وقِطار لا يتوقف في محطات إلا ليستزيد من الفحم فيستعر.

كانت العَادة بالنسبة إليه أن لا يَستغرق الأمر أيامًا مَعدودات.. لكن الخيوط تلك المرة تتعقد وتتشابك.. تلتف حول رقبته.. تلجمه.. تشنقه ببطء.. هو لا يُحب.. فالحب وهم لا وجود له.. المجد للجَسد الذي يغلي ويَفور ثم تنطفئ جذوته «مؤقتًا» لتخبو معه أعتى حالات العشق.. الجنس هو المحرك دائمًا.. زيارة لبنبة ستفي بالغرض.. ستجعلني أكثر مقاومة.. ظننت ذلك ولم أكن أعرف أن تلك الزيارة ستؤكد حقيقة مرضي بدولت.. كم أود أن تستسلم.. أن تقترب.. وكم أود أن أطلق النار على عم إسحاق فقط لأتخلص من همِّ نظراته ناحيتي.

صَارت السَّاعات التي تقضيها دولت في القبو السِّري لقهوة «ريش» هَي الحياة بالنسبة لعبد القادر، لم يزده الصد والمنع والإعراض منها إلا عنادًا ورغبة مَحمومة تستعر فيه يومًا بعد يوم، نار لم تعد تطفئها أجساد عَاهراته، نار أحرقت ما فات وما سيأتي، لم يردعه فضح أمره ولا اللمزات أو الزجر الخفي، حتَّى كلمات عم إسحاق ضرب بها عُرض الحائط.

ثم أتى يَوم سار فيه وراءها، شعرت به ولم تعره انتباهًا، اقترب ونادى اسمها فلم تجبه، مدَّ يده ليلامس مرفقها فالتفتت إليه وصفعت وجهه.. بتضربيني يا دولت!! ظلت يده فوق موضع الصفعة للحظات قبل أن ينفجر في الجَمع المتفرج بصَرخة أرجعتهم إلى خطوط سيرهم، منذ تلك اللحظة انقطع عن الجلوس في مِحراب دولت، صَار كل عمله

أن يراها قادمة، يتجاهلها، ويلمحها تخرج فيشيح برأسه في اتجاه آخر حتى تمُر، بقلب مُحترق، وكرامة لم ترجِع إلى مَكانها، حتَّى فتيات بنية لم يستطعن سَد الجرح أو تلطيفه، بل طال الأمد به بين الزيارة والزيارة وزهد كما العاجِز، قبل أن ينقطِع.

وللغرابة فقد اضطربت دولت هي الأخرى، لم تعُد الواثِقة الجامدة، باتت تنظر للكرسي الصغير الذي طالما اتكأ عبد القادر على ظهره ليتمعَّن فيها، تجده فارغًا فتزداد اختناقًا على اختناق، منه، ومن نفسها حين صفعته، ثم تدس وجهها فيما تفعله عائدة إلى رداء الراهِبة التي طالما لعبته ببراعة.. ولم تحبه يومًا.



فيلا عَبد الرحيم باشا صَبري.. الجيزة

في الشُّرفة فكّت صَفيَّة الحِجاب لتستجدي نسمة تُخفف مَوجة حَارة ممتدَّة منذ أيام، ارتشفت فنجان شاي مَنقوشًا بالورود وهي تتأمل نازلي الواقفة بجانبها، شبحًا شفافًا لا لون فيه، ذهبت نضارتها وابتسامتها ولم يبق فيها إلا الجحوظ والشرود، شهيق متوتر وزفير، ولا صَوت يَعلو فوق نبضات قلب متوتر تطن في الآذان.

- إيه اللي حَصل عند الزَّفتة جرهام؟

- رُحت لها السراية.. كانت عَاملة فطار في الجنينة وبَعدين قُمنا اتمشينا.. دَردِشت مَعايا عن زيارات أوربا وأمريكا وعَن الموضة الجديدة.. بعد شوية نادتها الكمَاريرة فاستأذِنت.. تخيلي حصل إيه؟ شفته.

- السُّلطان؟

- كان واقف جوا القصر ورا برافان.. مش باين منه إلا عينيه.. بيراقبني.. دقيقة ما اتحرَّكش.. حسِّيت أنه بياكلني بعينيه.. أول مَرة أحس الإحساس ده.. أكني أتعريت.. وشِّي نمِّل وعِرقت.. رحت قايمة من مكاني.

- وبعدين؟

-رجعت.. قالت إنه جه بالصدفة.. زيارة.. طبعًا مش صُدفة.. عاوز يشوفني عن قرب.. وسَاب لي هدية.

فتحت نازلي أصابعها عن بروش على هيئة فراشة مرصعة بالألماس.. تأملت صَفيَّة البروش ولم تلمسه.. أردفت نازلي:

-حاولت ما أقبلش.. مَدام جرهام قالت لي دي إهانة للعرش ومش إتيكيت.

-أنا مش متصورة إزَّاي بيفكر في الجواز والبلد بالحالة دي! كمان دي أول مرة يفكّر حاكم من الأسرة يتجوز من الشعب!

-أنا مش مُوافقة.. وأعلى ما في خيله يركبه.

-فؤاد خيله عالي يا بنتي.. لكن برضه لو اطربقت السماءَ الأرض يستحيل تتجوزي واحد بيخون البلد! ده سعد لو عرف.. يا الله.. أنت عارفة أنت بالنسبة له إيه.

-المُشكلة في بابي.. بريق العرش صعب يترفض.. عينيه على الوزارة.. أنا هانتحر لو أجبرني.

-إوعي يا نازلي.. إوعي.. فيه طرق كتير للتصرف يا بنتي.. الناس مش هاتسكت.. هاتتكتب المنشورات في كل حتة.. هانقف ضده.. مش هايخدك مننا.

غاصت نازلي في حُضن صَفيَّة هربًا، أطلقت أنفاسًا حارة ودموعًا قبل أن تطوي السيارة حديقة القصر الدائرية وتتوقف لينزل منها والد نازلي.. نظر إلى الشرفة ثم صَعد سلالم القصر مُسرعًا.

- أكيد عرف إني هنا.. قالت صَفيَّة.

- الخدم بينقلوا له كل حاجة.

- ما تخافيش.

- مَمنونة يا مامي إنَّك جيتي.. أنا عارفة إنك صعب تسيبي البيت في الظروف دي.

- أنا أجي لك في أي مكان وأي وقت يا حبيبتي.. ما بقاش فيه حاجة يتخاف عليها.

لحظات وسَمعتا طرقات الباب.. اتفضل يا پاپي.. قالتها نازلي بعد أن مَسحت دموعها وارتدت صَفيَّة الحجاب.. دَخل الرجل وفي وجهه ابتسامة مُجبرة.. صَفيَّة كانت الصديقة الأقرب لزوجته الراحِلة.. لكنها لم تكن الأقرب إليه يومًا وخاصة بعد تمرد سعد السافر على الحياة السياسية الهادئة المستقرة.

- منورة يا صَفيَّة هانم.. خطوة عزيزة.

- أهلًا يا باشا.

- قولي للدادا تحضر العشا يا نانا.

- لا ملوش لزوم أنا ماشية.

لم يزايد على جملتها الأخيرة.. لثمت نازلي في جبهتها وبثتها الهمسات في أذنها ثم اقتربت من الباب قبل أن تتوقف وتواجه الرجل:

- توفيقة هَانم الله يرحمها وكّلتني شأن نازلي قبل ما تموت زي ما حضرتك عارف.

- أنت والدتها يا صَفيَّة هانم.

- ووالدتها بتقول نازلي محدِّش يجبرها على حاجة.

نظر لنازلي بابتسامة ثم رجع لصَفيَّة: خالص.. الأمر مافيهوش إجبار.. مصلحة نازلي أهم حَاجة عندنا كلنا.. ولَّا إيه يا نانا؟

أردفت صَفيَّة: ومَصلحتها مش في القصر يا عبد الرحيم باشا.

- اللي فيه الخير يقدمه ربنا.. نورتي يا صَفيَّة هانم.

لم ترد تحيته.. فقط أعطته ظهرها وخرجت.. ودَّعتها نازلي حتى العربة التي تنتظرها في الباحة الأمامية ثم رجعت لأبيها الذي وقف يتأمل صورة لها في برواز تجمعها بأمها.. دَخَلت نازلي من الباب في غضب مكتوم ووقفت أمام والدها الذي ابتسم لها:

- اتعشيتي؟

- صَفيَّة هانم نازلة زعلانة.

- أنا جعان جدًّا.. تتعشي معايا؟

- حضرتك عارف إنها في مقام مامي.

- الله يِرحمها.. هي اللي سَمحت لها بالتدخل في حياتنا. لغاية دلوقت.

- لو مامي عايشة كانت هايبقى ده رأيها برضه.

- ما أفتكرش.

- مامي ماكانتش توافق أبدًا على صفقة.

- توفيقة كانت عاقلة.. وبتفكَّر.. ودي مش صفقة يا نانا.

- داكور پاپي.. طالما مش صفقة أنا مش موافقة.

شبَّكت يَديها أمام صَدرها فجلس على مكتبها الصَّغير في صَمت، أخرج غليونًا حشاه تبغًا ثم أشعله بولاعة مَقلوبة، نفث دُخانه وهو يتأمل تحديها قبل أن تزحف عَيناه إلى كتاب نتأت من بين صفحاته أوراق وردة حمراء جَافة، نظر في عينَي نازلي للحظة فاختلجت قبل أن تمد يَدها إلى الكتاب، لكنه كان أسرع، التقط الكتاب فتغير وجهها، بُهتت، تلاحقت أنفاسها، رجع بظهره إلى الكُرسي فجَلست على طرف السرير بعَينين جاحِظتين، تأمل غلاف الكتاب المرسوم فيه بُحيرة مُحاطة بالأشجار يسير على ضفافها شاب وفتاة.

- مَجدولين.. الرواية دي قريتها وأنا في بَاريس سنة تسعين مثلًا.. ستيفن الحَالم ومَجدولين.. الضحية.. مشوِّقة.. بس نهاية مأساوية.. في الحقيقة كل القصص الناجحة نهايتها مأساوية.. روميو وجولييت.. عُطيل وديدمونة.. قيس وليلى.. بِتعجب القراء لأن الحياة المُستقرة بيعتبروها.. مُمِلة.

قلَّب الصَّفحات في هدوء حتَّى توقف عِند الوردة الحمراء الجافة.. رفع الكتاب إلى أنفه واشتمَّ:

- الورد البلدي بيحتفظ بريحته فترة كبيرة.. دي لازم تذكار!

- ...

وضع الكتاب جانبًا: من أحمد... كيرة؟

بوجوم لم تعقّب.. لم تتقن الكذب مرة فتوترت أطرافها.. رمقته بأنفاس محبوسة فسلّك غليونه ثم أردف:

- ولد لطيف جدًا.. وَسيم.. من يوم ما شُفته مَعاكي في الحفلة واسم عِيلته ما راحش من بالي.. كيرة.. اسم غريب.. فاكِر إني أكيد سِمعته قبل كِده.. لغاية ما قابلت لواء جيش.. صَديق عُمر.. دَردشنا سوا وسألته بفضول إذا كان يفتكر الاسم ده.. وافتكره فعلًا.. تخيلي!

سَكَت ولم يكمل فاشتعلت قلقًا.. تَركها حتى خَرج الدُّخان منها فهمست: وبعدين؟

- الكدب يا نانا أكتر صفة تخوِّف.. الرجل مُمكن يكون عينه زايغة.. قُمرتي.. صَاحب كاس.. لكن كداب! صعب.

نبضات قلبها باتت مِدفعًا رشاشًا ضَغط جُندي زناده ونسي أن يرفعه.. لمّا لمس الصّدمة فيها والخرس متمكنًا أكمل.

- طبعًا أنتِ ما تعيش على هوجة عُرابي.. عَبد الحي كيرة والد أحمد.. اللي قال إنه مات بمرض.. كان بكباشي في أورطة عُرابي.. واتقبض عليه مَعاه.. وأُعدِم.. رميًا بالرصاص.

تندَّى جبين نازلي.. ضمَّت يديها إلى صدرها كمن تعرَّت في ميدان مَليء بالبشر قبل أن تتمالك نفسها وتشن هجومًا يائسًا:

- يَعني بطل؟

- بطل في أورطة عرابي اللي دخّلت الإنجليز مصر.

- بابي!!! أنت محافظ في حكومة الإنجليز.

- وسَعد زغلول باشا برضه كان وزير في حكومة الإنجليز ورأيه إن التعاون معاهم يساعد أهل البلد.. أفضل من العزلة لغاية ما يكون لينا قوة نقدر بيها نقف قدامهم.

- رجالة عرابي ما كانوش خاينين.

- وتفتكري ليه أحمد ما قالش؟

ازدحمت الإجابات في حلقها ولم تخرج.

- مش ده بس اللي خباه أحمد.

- ...!!

- تفتكري مُحاولة اغتيال السلطان سنة ١٩١٥؟

هزّت رأسها إيجابًا.

- المُنفذ الرئيسي اللي رَمى القنبلة تحت عَربية السُّلطان أخد حُكم مؤبد.. كان ولد خَمري.. صُباعه الإبهام مقطوع أنا متذكر.. وكان صديقنا العزيز أحمد كيرة مِن ضِمن المُشتبه فيهم لكن خرج لعدم وجود دليل.. وزار صَديقه في السجن خمس مَرات.

توقف قلبها للحظات وانسكبت دماؤها على السجادة.. وراء سكون أحمد كانت تستشعر دومًا رائحة حياة سرية أقصى تنبؤاتها لم تكن لتتعدى المُغامرات النسائية.

- شوفي يا نانا.. الشباب من سن عشرين إلى خمسة وتلاتين بيكونوا في قمة الخطورة.. طيش.. تجارب قليلة.. حُب البطولة

ضد كيانات أكبر منهم.. وطبعًا دي من الحاجات اللي بتجذب الجنس اللطيف.. مش عِيب.. كُلنا في يوم اتشاقينا.. وبعدين كبرنا.. عِقلنا.. عرفنا إن الدم ما بيحركش قضية.. اللي بيحركها الحوار.. التفاوض.. خاصة أننا بنواجه أقوى جيش في الأرض.. مين يقف قدام الإنجليز يا نانا؟ أمَّا إن الأمر يمتد للاغتيال.. الدم.. ده كتير.. كده إحنا بندمر بلدنا بإيدينا.. أنا جالي كمان أخبار من مكتب الخدمات بتقول إنه بيوزع منشورات وليه نشاط سياسي.. ده شخص عمره ما هايعقل.. الدم هايفضل مغمِّي عينيه طول العمر.. وحَياته هاتفضل مزدوجة لازم يخفيها عَن... أقرب الناس ليه.

- أنا مش مِصدقة الكلام ده.

- لو مش مصدقاني.. اسأليه.

انتابتها عصبية لم تستطع السيطرة عليها.. فورة غضب أشعلت رأسها فقامت تجوب الغرفة وتحرق مُحتوياتها:

- أنا مش صغيرة عشان أحتاج رقيب على تصرفاتي.. أنا عندي خمسة وعشرين سنة.

- بتسمِّيها مُراقبة.. أنا باسمِّيها عِناية.

قام الرجل وأحاط رأسها بكفيه ونظر في عَينيها: صُبِّي غَضبك على الشَّخص الصَّحيح يا نانا.

سكتت.. طأطأت رأسها خجلًا وتخبطًا.. أشاحت بوجهها ومشت حتى الشرفة.. من بين الستائر بحثت عن قمر لم تجده.. تخلى عنها

وغاب وراء الغيوم.. ترقرقت عيناها بدمع حين وقف أبوها خلفها وهَمَس بين خصلات شعرها:

- هاسيبك تتجوزيه وهاتنتظري معاه السعادة.. ما تعرفيش عنه غير قشور.. شهر شهرين.. وتبدئي تشوفي حِقده وغله على كل الطبقات الأعلى منه وكل صَاحب سُلطة.. عِيلتنا كُلها ضِمن أعدائه.. وأنت مننا مهما انفصلتي.. مش هاتدري بنفسك إلا وأنت بتزوريه في السِّجن.. بتهمة الخيانة العظمى.. تعيشي بعد كده منبوذة.. فيه ناس يا نانا أتخلقت عشان تصنع التاريخ.. بالعار.. زي «جافريلو برنسيب» اللي قتل وليّ عهد النمسا من أربع سنين.. كان فاكر إنه بطل.. وماكانش يعرف إنّه بيشعل حرب هايروح فيها الملايين.

التفتت إليه: كُل ده عشان أقبل أتجوز السُّلطان؟

- ولو حتى ما اتجوزتيش يا نانا.. ده شخص خطر.. أنا مُمكن بمُكالمة تليفون للحكمدار أرميه في المُعتقل وأنت عارفة.. ما تصعبيش الحياة على نفسك.. ده مش الشخص اللي يناسب تاريخنا.

قالها ورحل.. سَحَب غليونه ودُخانه.. ومائتي جرام من قلب نازلي قبل أن يتركها فريسة للتخبط.. والأسوأ.. فريسة لنفسها.. حتّى الفجر.. أطفأت نور الغُرفة وجَلست على أرض شُرفتها تستند الحائِط.. حَرقت خمس سيجارات من عُلبة تخفيها بين كتبها للطوارئ.. ذبلت واحترقت وكسرت ظفرين في أصابعها قبل أن يتحجر كل ما فيها.. تملكها سكون

وتخشب لا يُحركه سوى نَفَس تسحَبه كل بِضع ثوانٍ مجاملة لجسدها..
إذا تذكّرت.. كان ذلك حين التقطت صوت جسم يرتطِم بزجاج الشباك
واسمها يُنادَى هَمسًا: نانا.. أفاقت من شرودها ورجعت للحياة تسترق
السمع كقِطة منتبهة.. نازلي.. سَمِعتها ثانيًا واستيقنت أنها قادِمة من
الحديقة.. قامت ورنَت مُحاولة تمييز مصدر الصوت بين عتمة الحديقة
حتى لمحته.. كان واقفًا وراء شجرة يشير بيده إليها أن انزلي.. رَمقته
لثوانٍ مُحاولة استيعاب حضوره حتى أشار بيده إشارة تعجُّب!!! لم
تُعطِ إشارة أنها رأته.. رمقته لدقيقة قبل أن تدخل غرفتها وتتخشب فجأة
لا تعي ما تفعله.. فتحت دولابها والتقطت مِعطفًا داكنًا.. ارتدته فوق
قميصها وخرجت.. نزلت الدرج ببُطء متجنبة صوت احتكاك أخشاب
الأرضية.. وَصلت إلى الباب الحديدي الكبير فمسحت دموعًا أطفأت
لمعة وجنتيها ثم أدارت المقبض.. خرجت إلى الحديقة غير عَابئة
بقدميها الحَافيتين.. غاصَت أصَابعها في العُشب تبحث بعَينيها عنه
حتى تبيَّنته.. توارى وراء شجرة حتى جاءته على استحياء تنظر إليه في
صمت.. جذبها خلف الجِذع بقلق وهو ينظر حوله ثم همس:

- أنت كويسة؟

- كويسة.

- كلمتك في التليفون أكتر من مرّة على مواعيدنا والدادا هي
اللي بترد!

- أنت دخلت هنا إزاي؟

- من فوق السور.. فيه إيه؟

- سهل بالنسبة لك مش كِده؟ تنط الأسوار؟

- مش وقته يا نانا.. أنا سمعت حاجة مش عارف إذا كانت... هو فعلًا السُّلطان...؟

قاطعته: إزَّاي عرفت؟

- مفيش حاجة بتستخبَّى.

- تفتكر الحياة دي مُمكن تكون عَاملة إزَّاي؟

سكت أحمد للحظات ثم أردف: مُجتمع مُزيَّف.. مريض.. هاتكوني فيه زي الضحية في بيت عنكبوت.. اللي برَّه مش ممكن يتخيل قد إيه أنت وَحيدة وخايفة.

ابتسمت في مرارة وطأطأت رأسها إلى الأرض: تشبيه حلو بيت العنكبوت.

سَحَب نفسًا إلى صَدره وأخرجه تهدئة: وبَعدين؟

- بتحبني؟

- طبعًا يا نانا.

- وإيه اللي مُمكن نعمله؟

- مُمكن نِهرب.. نروح أي مَكان ماحدش يِعرفنا فيه.

- وتسيب شغلك... في مَدرسة الطب؟

- طبعًا.

- وتعيش حَياة عَادية مافيهاش أحداث؟

- جرّبيني.

- طب ولو ما قدرناش؟ هاتعمل إيه؟

- .... هاقتله؟

- أكنّك عَملتها قبل كِده!

- لكل مرة أول مرة.

- مين اللي يَملك الجرأة يقتل سلطان؟

- واحد مؤمن بخيانته.

- واضح إنّك طالع لوالدك الله يِرحمه.. أكيد كان جريء زيك.

جز أحمد أسنانه: مش وقته.. نانا أنا مش هاسمَح للخاين ده إنّه يقرّب لك.. بُكرة زي دلوقتي هاكون مِستنيكي.. هاوضب مواصلة ناخدنا لمكان بعيد.. مؤقتًا لغاية ما نشوف صِرفة.

- وتفتكر هايسيبني لو عرف إني هِربت مَعاك؟

- مش هايعرف عنك أي خبر طول ما هو عايش.

- هاتخبيني؟

- الدبان الأزرق مش هايعرف مكانك.

سكتت.. نظرت في عينيه حتى هز رأسه استغرابًا قبل أن تردف:

- مِش عَاوز تقول لي حاجة ما أعرفهاش عن الشخص اللي هاهرب معاه؟

- عاوز أقول لك إني بحبك... جدًّا.. ومُستعد أعمل أي حاجة عشانك.

- مش عاوز تقول حاجة تانية؟

- ...!

ترقرقت عيناها بالدمع: وأنا كمان بحبَّك يا أحمد.

اقترب ولثم شفتيها بقبلة طويلة.. أغمضت عينيها وتركت النشوة تجتاح كل خلية فيها قبل أن يعتصر يَدها.

- بُكرة زي دلوقت.. ما تتأخريش.

انسحب وابتسامة وَعد واثِقة تغزو وجهه فصَعد السور برشاقة ورفع يده مودِّعًا.. ظلَّت في مكانها متيبسة تداعب الطين بين أصابع قدميها حتى اختفى.

في اليوم التالي.. قبل الفجر

قفز السور ووقف خلف الشجرة التي شهدت قُبلتهما.. لمَّا اعتادت عَيناه الظلمة راقب مَدخل القصر وسَتائر شرفتها.. لَبِث في مَكانه دقائق حتى اطمأن للسكون قبل أن يلتقط حجرًا صغيرًا ويقذفه تجاه النافذة.. ارتطم بخفوت.. لحظات واقترب وَهَج شمعة يتراقص ومن ورائه ظِل أزاح الستارة.. ميَّزها فرفع يَده في إشارة.. رَمقته بنظرة طالت حتَّى أشار إليها ثانيًا.. بجمود لم تُحرِّك ساكنًا.. لم يفهم.. قطب جَبينه وفتح يديه

في استفهام.. ترقرقت عيناها ولـم تتحرك فتقدَّم خطـوة.. خطوات.. حتى بات في منتصف الحديقـة الوارفة.. رفع كفَّه إليها فهزَّت رأسها نافية.. تعرَّق جَبينه من إشـارتها.. أنزل يَده وتسمَّر محدقًا.. ظل يُراقبها حتى أدنت الشـمعة من شـفتيها وأطفأتها بنفخة قبضت صدره.. سَاد الظلام ولم يبـق إلا ضوء قمـر أحدب ميَّز حـدود جَسـدها.. لحظَات وأسدلت نازلي السَّتائر ثم أغلقت النافذة.. ساد الصمت إلا من صوت أوراق الشـجر تتحرك علـى الأرض قـرب قدميه.. تمالـك نفسـه ثم انسحب.. يلتفت كل لحظـة علَّها تفتح النافذة أو تضيء الشـمعة.. لم تفعل.. صَعد جذع الشـجرة المائل ثم اعتلى السـور.. نظر نظرة أخيرة إلى النافذة المعتمة ثم قفز.. دس يديه في جيبيه وابتعد.





أمر سلطاني كريم

نحن فؤاد الأول سلطان مصر
«رسمنا بما هو آتٍ»

«المادة الأولى»
عُين عبد الرحيم صبري باشا وزيرًا للزراعة.

«المادة الثانية»
«على رئيس مجلس وزرائنا تنفيذ مرسومنا هذا»

صَدر المرسوم بسراي القبة بتاريخ ٢١ مايو سنة ١٩١٩ من أصلين يُحفظ أحدهما بديواننا والآخر برياسة مَجلس النُظَّار.



٢٤ مايو ١٩١٩

سراي البستان بباب اللوق

بلا زينة أو أعلام كَان حال الشارع المواجه للسراية يُنبئ منذ أيام بحُضور سَامٍ وضيافة عالية المَقام، سَاد النشاط في الأجواء فكُنست الأرض وغسلتها المياه، مَصابيح الأرصفة جُليت واشتعل غَازها فأضَاءت الأرض ببقع هَادئة كل بضعة أمتار، بَسط الفرّاشون سِجّادًا أحمر عَريضًا أمام الباب الرئيسي ورَصُّوا بطول الشَّارع وعَرضه أواني الزرع والورود، رجال البوليس والخاصة السلطانية انتشروا في كل مَكان ومن ورائهم ذئاب مكتب الخدمات، يَطوفون بين الناس مَسحًا وتدقيقًا، أغلقوا الشوارع المُحيطة وأبعدوا أصحاب الجلاليب وفتشوا الأفندية والعربات.

في تمام الثامنة قلَّت الحَركة وساد الصمت.. اشرأبت الأعناق جِهة اليسار حين لاحت خيول التشريفة من بعيد تسير أمام العَربة السلطانية المَجرورة بحصانين.. انفتح الباب الرئيسي للسراية فوقف رجال الحاشية في صَف مُنضبط يُحاذون مُقدمات أحذيتهم اللامِعة إلى خط أصفر مَرسوم أمامهم قبل أن يخرج التشريفاتي ثم الشماشرجي يتبعهما السُّلطان فؤاد في بَدلة سوداء مُرصَّعة بالنياشين والميداليات يَقطع صَدرها وشاح أخضر عريض، في أكمامه أزرار معدنية ذهبية

عليها اسمه ويعلوه التاج، وفي كفّه اليسرى قفاز أبيض، وقف فؤاد أمام الباب مُشبكًا يديه خلف ظهره يتطلع للموكِب بجبين ازداد عبوسًا حين لَمح المُصوِّر يُعِدُّ الكاميرا لالتقاط صور تذكارية، نهاه بإشارة من يده فاختفى حين توقفت العَربة الرئيسية أمام المَدخل، هَرع خادم إلى باب العَربة وجَذب من تحته سلَّمًا ذهبيًّا صَغيرًا له ثلاث درجات وفتح الباب، اقترب السلطان من العَربة ومَد يده ليد أنثى في قفاز، استندت عليه ونزلت الدَّرجات في فستان أبيض متلألئ رفع ذيله من ورائها أربع فتيات صَغيرات، أمام وجهها ياشمك أخفى فمها وأنفها وفوق رأسها ثبت تاج مرصَّع بالألماس، انحنى الحاضرون إجلالًا قبل أن يَدخل العروسان القاعة الرئيسية في صمت.

الحفل كان محدود الحضور، ضم فقط أمراء الأسرة وأقارب العروس ورجال الحاشية والوزراء، على أضواء الشموع جلسوا إلى موائد رُصَّت بالورود وأشهى المأكولات، عُقد قران وقُطِّعت كعكة من ستة مستويات قبل أن تعزف الفرقة السلطانية ألحانًا ناعمة لتشيكوفسكي وموتسارت، بعدها توسط العَروسان القاعة، جلسا إلى مائدة توالت العائلات الاقتراب منها لتقديم هدايا الزفاف الثمينة من السَّاعات المرصَّعة والمُجوهرات المَختومة بحرفي فاء لفؤاد، ونون، لنازلي، قبل أن ينتهي الحفل بعد سَاعتين ليقوم العَروسان إلى العَربة السلطانية التي ستحملهما إلى سراي القبة حيث ستقضي نازلي ليلتها الأولى، ضربت سنابك الخيل الأرض فتحرك الموكب مُسرعًا في نفس اللحظة التي انكسر فيها ضِلع أحمد كيرة تحت وطأة قبضة حديدية كفَّ عن مقاومة صاحبها من دقائق!

قبلها بساعة كان يَسير هَائمًا مُخترقًا الشوارع.. يَسد أذنيه عن أخبار الزواج السُّلطاني التي تسرَّبت إلى الأفواه وملأت الآذان.. زواج فؤاد.. من نانا.. عَاقدًا العَزم على إيجاد إنجليزي ثمين يَستدرجه إلى فخ ليقتله.. أو يتركه عن طيب خاطر ليُجهز عليه.. سيان.. فالقاتل والمقتول يتلذذان كل على طريقته.. المُهم أن ينسى.. ينسى أن ناناته اختارت منذ اليوم أن تُصبح سيِّدته.. سُلطانته التي ستتجمل للسُّلطان وتتعطر.. وترتدي وتقلع.. تتركه ينهش جلدها.. يَعب رَحيقها.. يستعبدها برضاها ويُودِعها حرملك مُغلقًا لا تدخله الشمس إلا بإذن الستائر.

«اللعنة عليك يا نازلي إلِمَ ضحيتي بي وبنفسك؟ لم اقتلعتي جفوني بسكين بليد؟».

أوقفته الأسئلة في منتصف حارة ضيقة مُلاصقة لكافيه إيجيبسيان.. بَحث عن الإجابة تحت قدميه حتَّى وجدها.

«أنت يا نازلي؛ الأفعى والتفاحة مَعًا».

قالها وأشعل سيجارة حين انتبه إلى وجود شخصين يسدَّان مُقدمة الحَارة.. بِغال مكتب الخدمات لهم هيكل مألوف ورائحة لا تُخطئها أنف مُدرَّب.. التقط بعدها حفيف الخطوات خلفه فالتفت ببطء.. زميل ثالث بحكمُ غلق الفخ على بُعد أمتار.. قياسًا كان الاستسلام حتميًّا.. لكن المقاومة واجبة تحليلًا للمَاهية التي يقبضها هؤلاء الأوغاد.. سُحب أحمد نفسًا من سيجارته حين تحركوا.. أخرج أحدهم من معطفه هراوة خشبية وارتدى آخر قبضة حديدية فوق أصابعه.. من نوع الأسلحة أدرك أحمد أن اللقاء درس تأديبي.. ثقيل.. كان ذلك حين بات الأول على بعد مترين.. رفع هراوته ليهوي بها على رأس أحمد..

نفاداها الأخير قبل أن يقذف سيجارته في وجهه.. ضربت ما بين صبيه فتثرت شظاها ففزع وكان ذلك كافيًا ليهديه أحمد لكمة عانقت ذقن العريض.. انثنى ألمًا وسقطت هراوته حين طوّح زميله قبضته المدرّعة بالحديد.. تركت على الحائط علامة غائرة وشرارة قبل أن يُرديه أحمد لكمة في رقبته لم تعجبه فأهداه أخرى أقنعته بالسجود.. كان ذلك حين استعاد ذو الهراوة توازنه ووقف متحفزًا فتدخَّل الواقف في الخلف وهَوى على أحمد بقالب طوب صَغير أصاب مؤخرة رأسه.. ارتجّت الحارة وتفككت البلاطات المُحدَّبة تحت قدميه فاستند على الحائط.. ثم عانق خدّه الأرض.. تكالب عليه الثلاثة ركلًا وتهشيمًا حتى انفجرت الدماء.. كسروا ضلعين وثلاث أصابع ثم ختموا الأمسية بركلة أخيرة في وجهه بعد أن انحنى أحدهم وهمس: المرَّة دي إنذار.. المرَّة الجاية رقبتك.

أظلمت الحارة حوله إلا من وجه نازلي.. كما رآها أوّل مرة في حديقة بيت سعد.. كانت تبتسم.

في خجل...



انقضت دقائق قبل أن يَصِر الباب الجانبي للمَسرح.. أضاءت لمبة المتّسخة بَلاط الحَارة الضيقّة فتسرَّب عَبق الرواد ونغمات المسرح المتداخلة قبل أن تنزل السلَّم قدمان رقيقتان مَصبوغتان بالأحمر.. مُضطربة ترتعش تبتغي خلوة صَغيرة في حِذاء فضِّي وفستان أسود صَدره واسِع، ووجه أخفاه قناع من أقنعة فينيسيا التنكريّة المَكسوة بالريش.. مشت خطوات تتحامل على ساقين واهتين قبل أن تسـ

الحائط وترتج فتفرغ عصارة معدتها.. بقايا أفيون في دمها تثير ثورة أخيرة.. هدأت أنفاسها من بعد سُعال عنيف فمسحت فمها بمنديل حين التقطت من ورائها أنّة خافتة.. ضيَّقت عينيها فميَّزت جَسدًا منكوِّمًا.. نظرت حوله فلم تجد أحدًا فمدَّت خطواتها فزعة نحو سلَّم الكافيه.. صعدته قبل أن تتأمل المَسجي باستسلام.. نفسه اليائس ودماؤه النازفة من تحته أبطأت حركتها.. بتردد نزلت السلَّم.. اقتربت منه في حذر تتلفت حولها.. وَكزته بمقدمة حِذائها فاهتز ولم يَستجب.. انحنت عليه تفحص أنفاسه الخافتة فتأثرت من وجهه المُهشَّم وعَينيه المغلقتين بورم ينمو.. تنهَّدت في حيرة ثم حَسَمَت أمرها.. أجلسته بصعوبة فصَرخ من ألم ضلوعه المَكسورة قبل أن يُوارب عينيه.. أدرك قناعها للحظات ثم غاب ثانيًا.. نظرت إلى مَلامِحه مليًّا تقيس خطوتها التالية ثم تحاملت وأسندته.. في صَحوَة استجاب لها فاتكأ إلى كتفها كاتمًا صراخه.. صَعدت مَعه السلم واتجهت به إلى غرفتها الصغيرة.. ضَربت الباب بظهرها وأسجَته على كنبة صَغيرة تنام عليها قبل أن تهرع لطلب استغاثة.

أنهت بديعة فقرتها وأتت.. تأملته عن قرب ثم لامَست طرف ذقنه ونظرت في جيوبه.. وجدت فيها نقوده وساعته وبطاقة عمله بمدرسة الطب فالتفتت لورد التي باتت لينا:

- بيشتغل حكيم! هايدا مو ضربوه عشان يسرقوه.. هايدا انتقام.. لازم نتصل بالبوليس.

فتح عَينيه بصعوبة وقبض على أصابعها برفق قبل أن يشدِّد عليها ويهز رأسه نفيًا: بوليس... لأ.

عَاجلتها لينا: مُستعدة أخليه في غرفتي لحد ما يقف على حيله.

نظرت إليها بديعة للحظات قبل أن تتأمله ثانية ثم حَسَمت أمرها.. استدعت طبيبًا يونانيًا تعرفه.. طلبت منه عِلاج الشاب المَجهول والكتمان فاستجاب.. صَرخ أحمد حين شد صَدره برباط ضاغِط لتلتحم الضلوع وغطى وجهه بشاش مُعقَّم بعد أن مَسحه بمَرهم مرطِّب يُهدئ الأورام ثم حَقنه بمُهدئ سيفيق منه بَعد يوم.

تولت لينا من بعد فقرتها كراقصة ومُرَدِّدة كورال خلف بديعة العناية بأحمد.. تركت له غرفتها وأتت له بالطعام والشراب وغَيَّرت الشاش فوق جرحه أربعة أيام دون أن تسأله عمَّا ألمَّ به رغم فضول نهم يَجتاحها.. تنظر إليه وهو نائم فيخفت فيها اشمئزاز الذكور التي ورثته من زبائن بنبة ويَعلو شغف يتأكَّد كلَّما انقشع الورم عن وَجهه وظهرت مَلامحه.

في اليوم الثالث نظر إلى عَينيها وهي تعتني به فارتعشت أصَابعها اضطرابًا.. ابتسم بحزن ثم التقط عدد الرابع والعشرين من مايو من جريدة البورصة «La Bourse Egyptian».. طلبها حين انجلت غشاوة عينيه جزئيًّا.. قلَّب أوراقها حتى توقف عند خبر:

> «إن حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان «فؤاد الأول» سلطان مصر المعظَّم قد نظر بعين الحكمة العالية الدينية إلى وجوب التمسك بما وصى به الدين الحنيف من أمر الزواج والاهتمام به فعقد قرانه على سليلة بيوتات المجد والشرف حضرة صاحبة العظمة السلطانية نازلي عبد الرحيم باشا صبري».

سطور قليلة قرأها عدَّة مرات حتى حسبته يَحفظها ليُسمعها قبل أن يقطع القصاصة من الجريدة ويضعها في محفظته.

في اليوم الرابع لمّا جلست بجانبه لتغيير شاش صَدره كانت المَسافة كافية ليَمسح فيها مَلامحها.

وكافية لكسر حاجز الصمت بينهما.

- الدكتور قال إنك راح تعيش.

- وده خبر كويس؟

- المفروض.

- اسمك؟

- لينا.

- شامية؟

- من ماردين.

- جيتي بعد المذابح؟

بدون أن تنظر في عينيه هزَّت رأسها إيجابًا ثم أردفت: أهلي ماتوا بالوَبا الإسبنيولي.. هنا في الأزبكية.. والسّت بَديعة عَطفت عليا وشغلتني مَعاها في الفرقة.

- البقية في حياتك.

انهمكت في ربط الشاش على أصابعه المكسورة متصنّعة الانشغال.. سَاد الصمت للحظات قبل أن تقطعه:

- وأنت... شو قصّتك؟

لم يجبها ولم تكرر السؤال.. شرد في صورتها بين أبويها على ظهر الباخرة.. ألصقتها في طرف المرآة الكبيرة.

- أكيد رحلة قاسية إنك تسيبي بلدك وكُل حَاجة بتحبيها.

- مَصر قسيت عليا أكتر بكتير من سوريا.

- هي قاسية فعلًا... قالها بشرود قبل أن يبتسم: على فكرة صُوتك حلو.. سمعتك مرّة.

- السِّت بديعة كتير بتسيبني أغني لحالي.. لما تقوم بالسلامة أعزمك في الصالة وبتسمعني عن قرب.

انتهت من تغيير الشاش بآلية وسَاعدته في الاتكاء على الوسادة ثم انسحبت.. قبل أن تصل إلى الباب تكلم.

- بنت كُنت بحبها هي سبب الحادثة.

توقفت ثم التفتت.. أردف:

- كنت فاكرها بتحبني... لغاية ما جالها عَريس أغنى.

استحثته بصَمتها أن يُكمل.

- ومش أي غني.. أغنى واحد في مصر.. هي دي القصَّة الحقيقية.. الشاطر حسن وست الحسن عمرهم ما اتجوزوا.

- لكن هادول ناس كانوا قاصدين يموتوك! ليش ما تبلغ البوليس؟

فلتت ضَحكة رغم آلام وجهه: أصل جوزها وأبوها... هما البوليس.

- كنت كتير بتحبها؟

- يمكن لأن في حياتي ما حستش الحُب اللي حسيته مَعاها.

- يمكن تسامحها؟

شرد للحظات: ربنا اللي بيسامح.

ابتسمت مخففة: الله راح ينسّيك ويطيب خاطرك.

- مُتشكر يا لينا.. لولاكي ما كنتش...

نظرت في عينيه للحظة وابتسمت: اشكر الله.. والست بديعة.. والصُّدفة.. بعد إذنك.

في اليوم التالي سَاندته إلى تليفون طَمأن به عبد الرحمن فهمي وعَم إسحاق ولم يذكر مَا حدث.. أخبرهم بنية غيابه لأمر عَائلي وأغلق الخط قبل أن تزيد استفساراتهم.. أما والدته فتلقت رسالة فيها كلمات مقتضبة.. أخبرها بسفر مُفاجئ خاص بمدرسة الطب وأرسل مبلغًا يكفيها أسبوعًا.. تلقته بقلق لم تخفه وجلست شاردة تناجي صورة أبيه على الحائِط.

بعد أيام بدأ التعافي يزحف ببطء.. انقشعت الأورام جُزئيًا من وَجه أحمد وإن تركت مسحة بنفسجية.. أما الأصابع المكسورة والضلوع فجعلت حركته عسيرة مؤلمة يلعن الكون ومن فيه إذا عطس أو سعل.. زارته بديعة مَرتين لتطمئن على حاله ولسماع قصته.. وأدركت أن هناك المزيد خلف الرواية الرومانسية الركيكة التي طرحها لكنها اكتفت بابتسامة سياسية مَنعًا لإحراجه وربتت على كتفه متمنية الشفاء.. أما لينا فكانت مَلاكًا حَارسًا أرسله الله.. تُنهي فقرتها خلف بديعة قبل الفجر لتأتيه بالفاكهة والسَّجائر والجرائد.. يقضي الليل في قراءة نهمة لمَا يحدث في البلد خارج الغرفة.. وتقضي هي ليلتها على كُرسي في ركن لا تُبارحه.. تتأمله متصنعة مُطالعة مجلة موضة.. ثم يتبادلان حَديثًا عَامًا يَهربان فيه من البَوح بمَكنون مُؤلم يَكاد يفيض منهما.

حكى لها عن سَعد والثورة.

وحكت هي عن والديها ورحلتها المريرة هربًا من ذبح عشيرتها.

لم تحكِ عن العهر.

ولم يحكِ عن القتل.

تبكي فيُضحكها.

ويشرد بعيدًا فتُرجعه إلى الغرفة.

لا تفسر له لِما تعيش في كافيه «إيجيبسيانة» سجينة بلا قضبان.

ولا يفسر لها كيف استحال حبّه خيانة وخيبة أمل.

قبل أن تستسلم أعينهما للنوم..

في اليوم الذي استطاع فيه المشي اتكأ على حَائط الممر المفضي إلى الصالة.. جَلس إلى البار فطلب كأسًا وانتظر.. دقائق و أعلن المقدّم عن الفقرة.. خرجت بديعة متوسطة فتياتها وكانت لينا في الصف الخلفي.. تتلوى ببراعة في ديكولتيه أسود وتنورة قصيرة وشراب من الشبك.. أثارت انتباهه فشرد في تفاصيلها وتباطأ الزمن.. لم تكن تلك الشاحبة الرقيقة التي تُعاني في شد رباط صدره وترتعش يدها بملعقة الشوربة وهي تؤكله.. رآها لأول مرة امرأة كاملة.. فاتنة تكوي صدرًا وتُركِع عاشِقًا تحت قدميها.. تُكرر كلمات الجوقة بعيون لامعة خلف قناعها المَكسوّ ريشًا.. قناع يضاعف فتنتها أضعافًا.. لمحته من خلال العيون المثقوبة فرفع يده بتحية فابتسمت في سَعادة قبل أن تنتهي الفقرة.. مَشت إلى البار دون أن تنزع قناعها.. لفّت إليها الرءوس وتلقت ثلاثة

عروض بالاستضافة فلم تستجب.. تجاهلتهم واستوت فوق الكرسي العالي بجانبه.

-ليش قمت من سريرك؟

-كنت عاوز أعرف بتعرفي ترقصي ولّا لأ.

ضحكت: عَجبتك؟

-عَجبتيني.. مش عارف لو ما كُنتيش بتشتغلي أرتيست كنتِ هاتعملي إيه؟

-وَعدت «أبونا» في البطرخانة مرّة أروح الجمعية الخيرية الأرمنيَّة أشتغل مع المِحتاجين.

-فرق كبير!! وبعدين؟

-طلعت بعرف أرقص.

ضحكا ثم سكتا.. نظر في عينيها: هَاتفضلي لابسة المَاسك؟

-ما بحب الناس تعرفني.

-أنت فنانة ولازم الناس تعرفك.

-برّه المسرح الناس ما بيعنيها أنا مين.

ارتشف من كأسه رشفة ثم رمقها للحظات طالت قبل أن يسألها: أنت هربانة من إيه؟

لاذت بزحام الصَّالة فرارًا من الإجابة ثم رجعت: هربانة من بلدي.

-أنتِ تقريبًا مش بتخرجي من الكافيه؟ سَمكة خايفة تخرج من الميّة.

- الدنيا بين حيطان الكافيه.. من ورا الماسك.. أجمل.. آمن.

- ولمّا تغيّر الفرقة نِمرتها ويشيلوا الماسكَات؟

أشارت للقناع: الماسك مو هادا اللي على وجهي - ثم نظرت للناس حولهما - كل هدول الناس لابسين ماسكات.. أنت نفسك عايش بماسك!

نظر في عينيها كثيرًا قبل أن يتكلّم: عندك حق...

ثم سَحب نفسًا لصدره وابتسم: مُمكن أبقى أعزمك على الغدا مرّة؟ هاتبقي معايا.. مش هاتخافي.

- أنت خلاص راح تمشي؟ اتعافيت؟

- أنا أحسن كتير.. مش ممكن أتقل عليكِ أكتر من كده.

قاطعته: ما حدا قال إنك تقّلت.. خليك.. لحد ما تقدر تقف على حيلك.

- عندي التزامات لازم أقوم بيها.

ضربها الشرود.. تابعت يد الساقي وهو يخلط الخمر وترقرقت عيناها.. سحبت دموعها الكُحل ونزلت من تحت القناع إلى ذقنها.. كانت تعلم أنه استغنى عنها.. استغنى كما استغنى العالم بأكمله من قبل.. مد يده ومسح دمعة من على خدّها فقامت فجأة.

- هاشوفك؟

سألها.

- أنت بتعرف مكاني.

قالتها وابتعدت.. أنهى كأسه ثم رجع الغرفة.. دَس قُصاصة الجريدة في جيبه وارتدى مَلابسه بصعوبة قبل أن يكتب رسالة للسيدة بديعة.. شكرها على المَعروف الذي قدمته وفتح الباب فوجد لينا أمامه.. نظر في عينيها لدقيقة قبل أن يَمد يَده ويُزيل القناع عن وَجهها.. لاحت عيناها اللتان اختلطت فيهما الدموع بالمساحيق فتلاحقت أنفاسها وتعالت قبل أن تنغرس في حُضنه.. أغمضت عينيها وكتمت نفسها قبل أن تبتعد سنتيمترات وتطبع قبلة طويلة على شفتيه.. تركت عبقها في أنفه ونكهتها في فمه وندبة بحجم رَصاصة في قلبه قبل أن تبتعد رَكضًا.. لم تنظر وراءها حتى اختفت.. ظل أحمد في مَكانه مُحاولًا استيعاب اللحظة التي انقضت قبل أن يُلقي على الغرفة التي ضمَّت ألمه وراحته نظرة أخيرة ويغلق الباب.



«لا يجوز لمصري حُر أن يؤلف الوزارة في ظل الحماية البريطانية على مصر».

سعد زغلول باشا



رقم «٣٨٧».. «عاجل»

من الجنرال سير أ.هـ. أللنبي إلى إيرل كيرزون

- في الساعة العاشرة والنصف من صَباح اليوم ألقيت قنبلة بمنطقة جناكليس على سيارة رئيس الوزراء «محمد سعيد باشا» ولم يُصب.. تم القبض على أحد المتطرفين[1] ويُدعى «سيد علي محمد».. طالب بالمعهد الديني بالإسكندرية وجارٍ التحقيق معه.

- العمليات الإرهابية بدأت تستهدف الوزراء المصريين جرّاء تصريح «سعد زغلول» الذي اتهم فيه من يتولون المناصب في ظل الحماية البريطانية بالخيانة.

أللنبي (فيلد مارشال)
المندوب السامي

---

(١) المتطرفون: مُصطلح يُطلق على كل من يُطالب بالاستقلال التام أسوة بسَعد زغلول وأعضاء الوفد.. أما المُعتدلون فهم من يؤمنون بوجود إنجلترا كحامٍ للبلاد لكنهم يطالبون ببعض الحقوق المعقولة وهو ما يسمى بالاستقلال الذاتي.

سري.. نمرة ٢٤

القاهرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩

سعادة سعد باشا زغلول

- الشعب متهيّج جدًا بما يراه يوميًا من تعسّف الإنجليز واستهتارهم بمطالب المصريين الحقة واستهتارهم أيضًا بأرواحنا.. الجيوش الإنجليزية تطلق الرصاص بلا حساب وبلا مبالاة ولا يعلم إلا الله نتيجة هذه المأساة فنسأل الله الخلاص.. لكن ما يعزينا هو أن الروح الوطنية عالية جدًّا ومتماسكة.

- استقال أمس «محمد سعيد باشا» من رئاسة الوزراء اعتراضًا على حضور لجنة «ملنر» الإنجليزية إلى مصر للتحقيق في الحوادث الأخيرة منذ نُفي الوفد إلى مالطة، في محاولة لإدانة المصريين وتغليظ العقوبات عليهم وتضييق الأحكام العرفية.

- وقد أعد «محمد سعيد باشا» بيانًا للسلطان فحواه أنه لا يقبل بوجود تلك اللجنة في ظل الظروف المضطربة التي تعانيها البلاد، وأن وجودها للتحقيق سيزيد من حالة الاضطراب ويهيج المصريين مما لا يدع مَجالًا للمساعدة في التهدئة.. وطلب الإعفاء من منصبه.

- تم الاتفاق على تعيين «يوسف وهبة باشا» خلفًا له.. استياء شديد في صفوف الأقباط والبطريركية الأرثوذكسية بسبب قبوله المنصب في هذه الظروف وتم إصدار بيان إدانة ضدَّه.

- نعتقد أن السبب الرئيسي لتعيين قبطي هو بث الفتنة بين عنصري الأمة الأصليين وبذر النفور، لذا أجمعنا كلمتنا على إسناد منصب وكيل الوفد الشاغر - لظروف اعتقال الوكيل الحالي - إلى قبطي أيضًا لنرد كيد الإنجليز إلى نحورهم ونُعلمهم أن مصر للجميع.

عبد الرحمن فهمي

القاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩
رقم «٤٠٦»..«عاجل»
من الجنرال سير أ.هـ. أللنبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية

- قُتل اليوم الكابتن «صمويل كوهين» من ضباط الجيش بوحدة العمال بجوار مستشفى شبرا وتمكن المنفذون من الهرب.

أللنبي (فيلد مارشال)

المندوب السامي



سري.. نمرة ٣٥
القاهرة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٩
سعادة سعد باشا زغلول

- أُطلق الرصاص اليوم على خمسة جنود بريطانيين بجوار مَصلحة السكك الحديدية بالقاهرة.. أصيب أحد الجنود إصابة خطرة وفر الفاعلون.. وفي نفس اليوم قُتل ثلاثة ضباط بريطانيين بجوار قشلاق العباسية.

- نرجو التعجيل بتوفير المبالغ اللازمة للأعمال السرية.. فقد صرفت من جيبي الشخصي أكثر من ١٤٣ جنيهًا في فترة لا تتعدى شهرين.. هناك صعوبة في طلب المزيد من أموال التبرعات لأن أمين الخزانة يطالبني بإيصالات دفع موقعة من سعادتك شخصيًا!

عبد الرحمن فهمي

القاهرة في ٢ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ.هـ. أللنبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤١٨»..«عاجل»

- قُتل ضابطان بريطانيان بجوار محطة كوبري الليمون بالقاهرة.. هرب الفاعلون.. الاغتيالات تتطور تطورًا سريعًا مع ملاحظة أنها تقتل ضُباطنا وتكتفي بإرهاب المصريين المتعاونين!

أللنبي (فيلد مارشال)

المندوب السامي

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ.هـ. أللنبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤١٩»..«عاجل»

- وصلت لجنة «ملنر» إلى القاهرة ولم يُعلن عنها في الجرائد إلا يوم الوصول تحسبًا للاضطرابات، تم تسكينها في فندق سميراميس مع حراسة مشدَّدة.

- أصدرت أوامري للحكومة المصرية والدواوين بتحضير ملفات الحوادث المصرية وشهادات الشهود من تاريخ ٨ مارس الماضي حتى الآن وتم تجهيز مكتب بوزارة المواصلات لتسهيل عمل اللجنة.

- تزامن وصول اللجنة مع وصول رسائل تهديد بالقتل للوزراء المصريين وبعض المسئولين ذوي الشأن، عَثر كل وزير على مكتبه أو في البريد الخاص على رِسالة مُلخصها أن التعاون مع اللجنة والاستمرار في المنصب سيعرِّض حياة الشخص المَعني للخطر، والإمضاء منظمة «اليد السوداء».

- تم اتخاذ اللازِم من تدابير أمنية مشددة وجارٍ التحقيق مع الموظفين المرافقين للوزراء.

اللنبي (فيلد مارشال)

المندوب السامي

نمرة ١٥

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩

أرجو الالتزام فيما يخص لجنة «ملنر» بالمقاطعة وعدم التعاون أو إبداء طلبات، والتمسك بالمفاوضات مع الوفد فقط.

سعد زغلول باشا





القاهرة في ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ.هـ. أللنبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤٣٦».. «عاجل»

- في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم ألقى قبطي قنبلتين على رئيس الوزراء «يوسف وهبة باشا» أثناء سير موكبه ولكنه أخطأه.. تم القبض على الفاعل واسمه «عريان يوسف سعد».. اعترف بجريمته بلامبالاة وجارٍ التحقيق معه بسجن الاستئناف للوقوف على باقي أعضاء المنظمة الإرهابية.

- صرَّح المتهم بأنه قصد اغتيال رئيس الوزراء لأنه مَسيحي مِثله كيلا تستغل بريطانيا الحادثة لإشعال الفتنة بين المسلمين والأقباط.. ونبحث مع السلطان الحُكم الرادِع لأمثاله.

- أعضاء لجنة ملنر يواجهون مشكلة حقيقية في التواصل، سَادت المقاطعة بين المصريين الذين يرفضون الحديث أو التعاون ويجيبون على أسئلة أعضاء اللجنة دائِمًا بعبارة مستفزَّة: «اسأل سعد زغلول»!

أللنبي (فيلد مارشال)

المندوب السامي

سري

٨ يناير سنة ١٩٢٠

من الجنرال سير أ.هـ. أللنبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤٦٦»

- ردًّا على الاستفسار الخاص بالمنظمة المتطرفة التي تستهدف ضبَّاطنا والمسئولين المصريين.. فإن منفذي الانفجارين الأخيرين اللذَيْن تم إلقاء القبض عليهما مؤخرًا اعترفا - بعد ضَغط - بأسماء تم التحقق من أن بعضها غير حقيقي وبعضها لم يستدل على مكانه مثل «سيد الباشا وأحمد كيرة وعبد الحكيم محمود».. وجارٍ البحث عنهم.

- وبالتعاون مع مكتب الخدمات السرية تبيَّن أن منظمة «اليد السوداء» المتطرفة تتكون من خلايا عنقودية منفصلة / متصلة لا يعرف فيها الفرد سوى الشخص الوحيد القائم بالتكليف وإصدار الأمر.. وغالبًا يكون اسمه مُحرفًا.. نجحوا في شهرين فقط في قتل سبعة وعشرين جنديًّا من جيشنا.

- نرجو إحكام السَّيطرة على مُراسلات «سعد زغلول» فإن الشك قائم بضلوعه في التحريض على التطرف.

أللنبي (فيلد مارشال)

المندوب السامي

سري.. نمرة ٨٦

القاهرة في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- هناك شخصان سيحومان في الفترة القادمة حول أعضاء الوفد لادعاء المُساعدة في العمل الوطني، إنما لم يأتيا إلا للتجسس لصالح الإنجليز فأرجو الحذر.. ملحوظة: مُرفق صورتهما وبياناتهما.

- نشط قلم المطبوعات نشاطًا زائدًا في مُراقبة الجرائد والتضييق عليها، فهو يستدعي أصحاب الجرائد ويهددهم بالقتل إن لم يعتدلوا في لهجتهم ويحذرهم من التعرض للحالة العامة ووضع الحماية وأخبار الوفد.

- النقدية المتاحة على وشك النفاد لتضييق السلطة الإنجليزية على جَمع التبرُّعات.. أرجو مخاطبة الأمة في خطابكم القادم حول أهمية مساعدة الوفد.

- ألقى مَجهول قنبلة على سيَّارة إسماعيل سرِّي باشا وزير الأشغال في منطقة المُنيرة.. لم تتم إصابته.

عبد الرحمن فهمي

أبشاق الغَزال.. مَركز بَني مَزار.. المِنيا

بمرور الأيام لم يعُد لأم ياسين شَاغِل سوى مُتابعة من أرسلوه لها بَدلًا من ابنها، خَيال المآتة الذي فاق خيالات الغِيطان صَمتًا وموتًا، طائِف يَجول ببُطء قُرب التُّرع وأطراف الحقول ثم يَجلس فلا يُحرِّك الهَواء فيه سوى الجِلباب، صُورته وَسط أهل البلد الصَّغير بدأت تدنو من صُورة المَجذوب لولا مَكانة آل فهمي بينهم وهيبة رُجوعه الأليم من الحَرب الكُبرى، مَنبوذ تخافه الأمَّهات على أبنائها، وغريب ينزوي عنه رفاق ما عادوا يَعرفونه، لا يمشي إلا وتتبعه أمُّه على مَسافة، تُراقب سلوكه الغريب منذ عاد، تكلِّمه فلا تسمع منه سوى كلمات مُشتتة، ترجوه الزواج من حَليلات العَائلة أو بنات الجيران فيأبى إباء الرهبان، أو العَجزة! تسأل الأولياء في أضرحتهم: «هل خَصَوْه الكفرة المَلاعين؟ هل بدَّلوه؟ هل لَبِسه عِفريت جثم عَلى صَدره ولف خَطمه على قلبه ليمنعه من الزواج؟»، مَلأت البَيت بخورًا في حَضرته وصَنعت له حِجابًا رفض أن يُعلِّقه فخيَّطته في جِلبابه سرًّا، ابتهلت وتضرعت إلى الله: «فلتُحيِ ياسين ولدي الذي أعرفه.. أو ليمُت كَريم السيرة كما ظننت لسنين أنه مات!»

هكذا ظل الحَال يَسير من سيئ إلى أسوأ.. يزيدها انطواؤه كربًا على كَرب.. حتَّى أتى يَوم غفلت عنه دقائق فاختفى.. لمَّا قاربت الشَّمس المَغيب ولم يَعُد اشتعلت قلقًا.. خَرجت تبحث عَنه بين الحقول في

لوعة تتزايد حتَّى سَمعت جلبة في أرض ليست بأرضه.. أرض وقف أصحابها على مَسافة منه يراقبونه بحَذر.. مَا إن رأوها حتى أكبروها وطلبوا العون على إخراجه بسلام.. نظرت إلى بكريها بقلب يَحترق ثم اقتربت.. كان الأخير فارجًا سَاقيه وبهِمَّة لم تعهدها منذ عاد يَرفع فأسه ويرشقه في الأرض حفرًا.. رُكبتاه كانتا تحت مستوى السَّطح.. نادت فلم يستجب.. مُنهمكًا لم ينتبه.. يتمتم بكلمات مُسترسلة.. يُكلِّم شخصًا يَرقد في الحُفرة التي تتَّسِع بين قدميه.

-ياسين.. ياسين!!

نادته بحدَّة حين باتت على بُعد أمتار منه فبتر حَركته وتوقَّف.. رفع رأسه ونظر إليها بهدوء ثم ابتسم ابتسامة عصبية.

-بتعمل إيه في أرض وهدان يا ياسين؟ سألته.

أجابها بعد دقيقة: أصل عَطيَّة ابن أبو وهدان كان... كان اِصَّيَّر على رُوحه... جَبل ما الرصاصة تصيبه.

اقترب أهل الأرض مُتنبهين حين مرَّ ذِكر الرصاصة بآذانهم.. منصتين لاسم ابن لهم ذهب مع ياسين ولم يعُد.

-وأنت شُفت فين عطيَّة ابن أبو وهدان يا ياسين.. مِش جُولت يا ابني إنَّك فارجته وركبت الجطر؟

سألته أمُّه فرفع فأسه وضرب ضربتين في الحفرة ثم توقَّف.. نظر لها وللناس بعينين متحجرتين ثم أردف:

-لازمن أغسِّله.. ما يصحّش يجابل ربُّنا بجلابية نِجسة.

خَرج والِد عطيَّة من الجمع واقترب من ياسين: أنت شُفته يا ابني؟ شفت عطيَّة؟ عطيَّة انطخ؟ الله لا يسيئك انطج.

- ياسين.. رُد يا ولدي... أنت جابلت عطيَّة؟

سَقط الفأس مِن يَد يَاسين في الحفرة.. أخذ ينظر إليه ثم رفع كفَّيه وتأملهما كأنهما نبتتا للتو من ذراعه قبل أن يَخرج مِن الحُفرة وَسط ذهول أصحاب الأرض والأب المكلوم.. بهدوء سَار خارجًا من الغيط متمتمًا في سرِّه:

«أول واحِد كان شعبان ابن معوَّض البجَّال.. تاني واحِد كان عطيَّة بن أبو وهدان.. تالت واحِد كان عويضة ابن مَرعي».

لم تتمالك الأم نفسها.. وضعت كفَّها على فمِها تمنعه من الصُراخ وواست صاحب الأرض بدموع ودعوات قبل أن تجري مُحاولة اللحاق بياسين.

كافيه «ريش»

جـو القبـو كان حَارًا خانقًا، لا شـأن لـه بمَوجة البـرد التي اجتاحت البلاد منذ بداية فبراير، جَلس إسـحاق على كُرسيه العَالي أمام منضدة ينظف خزانات مُسدسـات إنجليزية ويَحشوها.. غَنيمة آخر عملية وزاد للعمليات القادمة.. فيما استقر عبد القادر على كرسي قصير يهز قدميه في رَتابة وينقر بيَديه المِنضدة في مَلل:

– هو عريان يوسـف سَـعد اللي ضـرب رئيس الـوزارة ده تبعنا؟ إيد سودا برضه؟

– ما أعرفش.

– يا عم إسحاق! ده أنتو نصارى زي بعض؟

نظر إسحاق للسقف وزفر في يأس: والإنجليز كمان نصارى.. قلت لك ما أعرفوش.

– مش مآمن لي أنت!

لم يَعره اهتمامًا فأردف عبد القادر:

– طب واللي رَمى قنبلة على وزير الأشغال في المُنيرة؟

– ما أعرفوش.

- هو إيه أصله ده؟

- كل حَاجة بتتعرف بمعاد.

- يا مقدِّس إسحاق أنا من يوم ما جيت وأنت بتقول الكلام ده!

- أنا لسَّة ما قدِّستش.. ناولني الفُرشة.

ناوله عبد القادر فرشة رفيعة دسَّها إسحاق في فوهة المسدس لتنظيفه.. استطرد عبد القادر:

- هو فيه عَملية جاية؟

- المسدسات لازم تبقى نضيفة حتى لو مفيش عَملية.. واسكت شوية عشان أركز.

زفر عبد القادر ثم قام من مكانه وأشعل سيجارة.

- الأوضة مكتومة.. اطلع اشرب سيجارتك برّة.

خبط عبد القادر الباب مُستاء حانقًا وخرج إلى الصالة.. جلس إلى البار وطلب كأسًا وهو يستعرض ثمانية أشهر قضاها في ذلك المكان.. نائمًا في قبو فوق مَطبعة وفي يده مسدَّس.. ثمانية أشهر يستمع لأغاني الصبر من الفتى محمد عبد الوهاب ولم يقتنع.. ثمانية أشهر تم فيها تنفيذ أكثر من عَملية ولم يُشارك في أي منها.. كانت الحجَّة دائمًا إدمانه الكوكايين.. «أنت لست متزنًا.. الأمر لا يحتاج لقوة بل هدوء أعصاب لا تملكه، وتهور تمتلئ به عيناك حين تستنشق البودرة البيضاء».. الآن وقد استشفي منه لا زالت مشاركته مؤجلة! اللعنة على أحمد ويده السوداء.. المتأنق يُصبره بحجج مائعة ويقطِّره عم إسحاق بكلمات

مُبهمة وحِكم بائدة عن الصَّبر.. شعور قاتل أن يقضي وقته في حِراسة مَجموعة ساكنة لا تتكلم.. مُمرضة مُسنة وقِبطي يجيب أسئلته بقطَّارة.. وصَعيدية! تسقيه نارًا.. تتجاهله.. تتحاشاه.. نافرة منه بلا سبب كفَرس بـري.. الرفض! شعور مُهين لـم يجرِّبه من قبل.. فقد الإلحاح سِحره عند أهدابها.. ولـم يفلـح استعراض العضلات مَعها.. حتى لَحن الكلمات لـم يفد والتجاهل لم يثنها أو يرقِّق لها قلبًا.. مَنيعة دولت.. حَصينة كقلعة في جزيـرة.. باردة صلبـة.. وجَميلـة.. لونها ضرب من الجنون.. عيناها بحر رائق لا يهزّه موج.. ورفضها... لا يزيده إلا شغفًا واهتمامًا.. وولعًا.. حتَّى بهية القعر تلميذة بنبة وما لنصفها التحتاني من تأثير خاص عليه؛ بَطل سِحرها.. لم تعُد تُغريه أن يقربها.. كل النسوة بتن فواكه معطوبة فقدت طَعمها.. مُقارنة بدولت.

لم ينتشله من جزَّات أسنانه سوى أحمد الذي دخل الكافيه.. أشار إليه بعينيه فتبعه.. في القبو ارتمى أحمد على كرسي وفي يده جريدة فتحها ليطالع ما فيها باهتمام.. أشعل عبد القادر سيجارة رغم نظرات عم إسحاق.. لَحظات لم يستطع فيها كبح عصبيته.. انفجر بغتة:

- أنـا مـش هاكمِّـل اللعبـة السـودة دي.. شـوفوا لكـم حَـد يُحرس المَكان؛ دي شـغلانة عيِّـل صُغيِّـر.. أنـا وافقت آجي هِنا عشان أشـتغل.. وبطَّلـت البودرة عشـان أشـتغل.. ونمـت أُرديحي في التربة دي باحرُس المطبعة عشـان أتنيل أشـتغل.. مش كلام ده.. أنـا مش صغير عشـان أشـوف عيال قِلَّـة تروح تنفـذ عمليات وأنا قاعد هِنا في دار مُسنين.

رماه إسـحاق بنظرة ضيق ثـم عاد لعمله فـأردف عبد القادر: والنبي يا عم إسحاق ما تبص لي كده أنت بالذات.. أنت بتِنقطني بالكلام أكني

مش فاهم حاجة.. أنا أبو المفهومية.. وأبويا اتقتل عشان البلد دي.. يعني تصحوا كِده وتشوفوا حل في الموضوع ده أحسن يمين الله...

قاطعه أحمد بدون أن يرفع عينيه عن الجريدة: مش أنت الوحيد اللي مات له حد عشان البلد.. إذا كنت محتاج العملية دي عشان تنضف سيرتك وسط أهلك يبقى أنت جيت للمكان الغلط.

ترك أحمد كلماته تخترق صدر عبد القادر قبل أن يُردف:

- أنا مأخَّر مُشاركتك لغاية دلوقت عشان ما ينفعش ننفذ عملية بدافع الانتقام.. اللي بنعمله ده بنعمله عشان البلد.. الاستقلال.. الانتقام لوحده هايحولك لوَحش.. إحنا مِحتاجين ذكاء مش عَضلات.

حدجه عبد القادر بغضب وشهيق متحفِّز.. أغمض عَينيه وألقى برأسه إلى ظهر الكرسي محاولًا استيعاب السؤال المفاجئ.. ساد الصمت للحظات قبل أن يعتدل وينظر في وجه أحمد: مفهوم.

- مَحمَّد شفيق باشا.

- نعم!

- وزير الزراعة.

- ماله؟

- هانتفذ فيه عملية بعد أيام.

أخرَسَت الكلمات عبد القادر.. ظل يحدِّق في أحمد غير مستوعب فأردف عم إسحاق:

- مالك؟ اتخرست يَعني لمَّا جه شُغل!

- ما اتخرستش ولا حاجة.... قدّها وقدود إن شاء الله.

أغلق احمد الجريدة بحنق استشعره عم إسحاق الذي التقطها وفتحها ليقرأ فيها خبر ولادة ولي العهد.. ابن نازلي.. أدرك ما يضطرم في نفس زميل الكفاح فطوى الجريدة بأسى ونظر لأحمد الذي تحجّرت عيناه ثم قام وواجه عبد القادر.

تلاحقت أنفاس عبد القادر وانتفخ أنفه نهيجًا: خلّيها على الله.

أردف أحمد:

- من بكرة هانبدأ التدريب.. نام بدري ونتقابل بعد الفجر في الغابة المتحجّرة في المقطّم.. دلوقتي سيبني شوية مع عم إسحاق عشان عندنا شغل.. لو حد جه من المجموعة خليه يستنى بره لغاية ما أخرج.

كاتمًا أنفاسه خرج عبد القادر من القبو بعدما تلقّى دعوة إلى القبر.. في الشارع أمام الكافيه أشعل سيجارة بيد لأول مرة ترتعش.. أحكم كوفيته ودَعك يديه تثبيتًا ثم سب نفسه مرّة قبل أن يسب الإنجليز مرّات.. تطلع إلى الشارع كأنه يراه لأول مرة.. دقائق وانتشله مَجيء دولت.. تباطأت خطواتها حين اقتربت منه.. كان عليه أن يؤمّن طريق دخولها.. نظر إليها بقلق لم تعهده فيه.. لم يقترب منها كما كان يفعل.. لم يتصنّع جَسَده الحركات ليجذبها.. لأوّل مرة تلمح في عينيه الحاجة إلى صديق لا الشوق والهيام.. اقتربت.

- فيه حد جوّة؟ سألته.

- عم إسحاق وأحمد.. بيتكلموا في شُغل.. استني لما يخرج.

لاحظت أصابعه التي تُمسك السيجارة.. ترتعش وهي تقترب من فمه.

- أنت عيان؟

هز رأسه نفيًا.

- إيدك بتترعش.

- خليكي جوة عشان البرد.

- أنا مش بردانة...

قالتها فساد الصمت.. لاحظت نظراته للشارع والمَارة بشرود. سألته: حصل حاجة أنا ما أعرفهاش؟

لم يرفع عينيه عن الشارع.. زفر دخانًا واضطرابًا وجوعًا لحياة قديمة انتهت: الدنيا صغيرة أوي.. الواحد بيتهيأ له في لحظة إنه فاهمها.. وفي لحظة... يكتشف إنه مش فاهم حاجة خالص!

- أنا مش فاهمة!

- ولا أنا.

- ... !!

- ما تزعليش مني إذا كنت ضايقتك قبل كده.

- ...!!! ليه بتقول الكلام ده؟

- أهُه... ما تزعليش وخلاص.. أنا عمري ما كنت بعاكسك.. أنا فعلًا كان نفسي...

- ....؟؟

- كان نفسي أتعرف عليكِ في ظروف أحسن من كده... استنى أحمد لما يخرج وبعدين ادخلي.

قالها وعبر الشارع.. دسَّ يديه في جيبيه ومَد خطواته مُبتعدًا يداري عينين رقرقهما الدمع.. ظلَّت تتابعه في حيرة وتستعيد كلماته حتى اختفى.

في الغرفة انتهى إسحاق من تنظيف المسدسات وتزويدها بالرصاص وهو يتأمل أحمد الغارق في أفكاره شاردًا تُدير أنامله رصاصة بحركة سَريعة منتظمة وهو يطالع باهتمام جريدة «المسلة» السَّاخرة التي يُحررها «بيرم التونسي».. سأله إسحاق:

- فيه إيه؟

- نظر له أحمد قبل أن يَطوي الجريدة ويناولها له.. قرأ إسحاق أربعة أبيات كتبها بيرم التونسي نكاية في ولادة فاروق ابن فؤاد ونازلي:

الوزة من قبل الفرح مدبوحة والعطفة من قبل النظام مفتوحة

ولما جت تتجوز المفضوحة قلت اسكتوا خلوا البنات تتستَّر

عقَّب إسحاق: بيرم ده مش هايجيبها لبَر لغاية ما مكتب الخدمات ينشّوه.. هو ماله ومال إن السلطانة خلفت بعد سبع ولَّا تمن شهور؟! ما فيه ابن ستة وسبعة.. إوعى يكون ابنك يا نمس؟

لم تُضحك الدعابة أحمد.. أردف إسحاق: بزيادة يا متخيل إيه؟ هاتختفي من حياتك زي دخان السيجارة؟

لم يُجبه.. تنفس بعمق وأغمض عينيه.

- انساها يا أحمد.. واحدة وراحت لحال سبيلها.

- نسيتها.

- تكدب على عمّك إسحاق!

- أنا بقيت أكره الجرايد.. عشان ما أشوفش اسمها.

- لو بتحبها اديها عذرها.. المُلك له تحكماته.

- أديها عذرها؟ دي باعتني يا عم إسحاق!

- ويا ترى كنت هاتحكيلها عن حياتك؟

سقطت الرَّصاصة من بين يدَى أحمد على الأرض.. نظر إسحاق في عينيه وهز رأسه:

- لأ طبعًا.. كانت هاتفضل طول الوقت متجوزة واحد تاني.. فوق يا أحمد.. أنت حبِّيت.. واتعميت.. اتهيأ لك إنها ممكن تيجي معاك الأوضة هنا وتطبع منشورات.. تبات معاك في بنسيون وتاكل أي حاجة عشان خاطرك.. تنزل مَعاك مظاهرات وتشيل علم.. ما قدَّرتش المَسافات صح.. ركبت بريمو وتذكرتك ترسو في ترماي مش رايح حارتك اللي اتولدت فيها.. ويمكن يكون ماعندكش تذكرة أصلًا.

- هي كمان حبِّتني.

- هي كمان ما قدَّرتش المسافات.. لغاية ما جه السلطان.. فكَّرت في نفسها.. انساها.. ركِّز في طريقك اللي اخترته.

سكتا.. طرق الصمت أذنيهما حتّى قطعه أحمد بزفرة حارة: أنا تعبان يا عم إسحاق.

- فيه يا بني شعرة بين النسيان والغفران.

- مش قادر أغفر.

- يبقى الانتقام هايحولك لوَحش.. أنت اللي لسة قايل.. انساها يا ابني عشان تعيش.

هز أحمد رأسه ثم التقط الرصاصة من الأرض وقام.. دسّها في خزانة المسدّس وشد الأجزاء وصوّب في الفراغ.. في وجه لا يريد أن يُمحى.. ثم أنزل الفوهة وأدار المسدس ليناوله لإسحاق ثم خرج.

الغابة المُتحجرة.. جبل المقطَّم

قبل الشروق بدقائق

الشُعاع الأبيض المُشرَّب بزُرقة السَّماء رَسَم على الأرض ظِلالًا مُبهمة تتحرك ببُطء، أغصان وجذوع مُتناثرة تحجَّرت منذ ملايين السنين في الوادي، صنعت طُرقًا وحَواجز ومَغارات، تتخلل الرياح المسافات بينها فتحدث صَفيرًا وسط ضباب يهيم قرب الأرض ليخفي نصف السيقان.

وقف عبد القادر متدثرًا بمعطف وكوفية وفوق رأسه كاسكيت صوف لم يغنِهِ من برد، أطراف أنفه وأذنيه تكاد تقع من الصقيع، عانى ليشعل سيجارة وسط الريح وسبَّ أحمد كيرة في سرِّه ثلاث مرات قبل أن يظهر الأخير، مُرتديًا زي صَعيدي ملتحفًا بشال أخفى نصف وجهه ويحمل في يده مشنة فوقها منديل، بلا كلمة تأمل المكان من حوله مُستكشفًا قبل أن يكشف وجهه ويقترب.

- مالقيتش غير الحتَّة دي نتقابل فيها.. أنا نشفت م البرد.

لم يجبه أحمد.. انشغل بإخراج منديل مَحلاوي كبير من جيبه.. فتحه وأخرج منه عدَّة صور ناولها لعبد القادر.. صورًا ملتقطة في شوارع لرجال غلاظ يرتدون السترات فوق جلابيبهم وفوق رءوسهم طرابيش مستقيمة ملقاة إلى الخلف.

- مين دول؟

- دي صور المخبرين اللي ممكن تقابلهم يوم التنفيذ.. عاوزك تحفظهم كويس عشان لو قرب حد فيهم أو اشتبه فيك قبل وصول الهدف هاتلغي العملية.. حطّهم في جيبك.. تحفظ أشكالهم كويس وترجعهم لي تاني.

دسّهم عبد القادر في جيبه بعدما قلّبهم سريعًا حين أخرج أحمد من سيالته مسدّسًا.. أخرج ساقيته وأدارها ليطمئن على سبع رصاصات تبيت بداخلها قبل أن يُغلقها ويُمسك المسدس من ماسورته ويناوله لعبد القادر.

- قلت لي إنك بتعرف تضرب نار؟

- كان معايا رشاش «مادسِن» ألماني.

- المسدّس حاجة تانية.. محتاج قرار صح لأن طلقاته محدودة.

جذب عبد القادر إبرة الضرب وصوَّب على زجاجة بيرة فارغة وقريبة نسبيًا.. وأطلق طلقتين.. أصابتها الرصاصة الثانية فتناثرت شظاياها بدوي مزعج.. نظر لأحمد في سخرية فالتقط أحمد منه المسدَّس وصوبه إلى غُصن رفيع متحجِّر يبعد عنهم مسافة كبيرة.. جذب الزناد واطلق فأصابه قبل أن يُعطي المسدس لعبد القادر.

- هاتحتاج شوية تمرينات عشان المُسدس خفيف عليك.

- هو أنا هانفذ العملية بالمسدس؟

- لأ.. بالقنبلة.

- أمال إيه لازمة المسدس؟

- يعني.. يمكن تعرف تهرب.

ابتلع عبد القادر ريقه فجلس أحمد على صَخرة وأشعل سيجارة فيما بدأ عبد القادر التصويب على أهداف من الشجر المتحجر.. بعد عشر رصاصات وإرشادات من أحمد تركزت في طريقة الإمساك الصحيحة بالمسدس وتنظيم النفس تمكن من إصابة أهداف بعيدة نسبيًا قبل أن يلقنه أحمد بعض التعليمات بشأن زر الأمان وإخفاء المسدس وطريقة فكّه أجزاءً والتخلص منه في حالة التتبع.. حين انتهيا دسّ أحمد يده تحت منديل المشنة والتقط عبوة أسطوانية متوسطة الحجم.. ناولها لعبد القادر:

- دي عروستك.

- ....!!

نظر عبد القادر للعبوة بروع فأردف أحمد:

- لو خفت منها مش هاتعرف تستخدمها.

بحذر التقطها عبد القادر من يده.. وزنها.. تأملها كما يتأمل المَرء حَبل مشنقته أو رصاصة أخيرة في مسدَّس انتحاره.

- هاحس بحاجة؟ سأل عبد القادر.

- القنابل دي بتنفجر قبل ما توصل الأرض.. قبل ما تستوعب هاتكون في عالم تاني.

- ....

- لسَّة القرار في إيدك!

- أنا مش متردد.

التقطها أحمد من يده بحذر وابتعد خطوات قليلة إلى سفح مُنحدر يطل على واد صخري متوسِّط العُمق.

- ركِّز كويس.. عشان تخلط المحاليل جوة العبوة لازم تشد الحبل ده الأول.

وأشار بيده إلى دوبارة غليظة تتدلى من منتصف القنبلة.

- لما تشد، السوايل بتختلط.. أنت كده في مرحلة الخطر.. أي رجَّة غير محسوبة هاتنفجر فيك.. سنة خمستاشر شاركت زميل ليا في رَمي قنبلة على السُّلطان حسين كَامل.. كنا بنجرَّب القنابل هنا في الغابة برضه.. وفي يوم اتأخر لحظة في رمي قنبلة.. انفجرت بَدري.. شظية منها قطعت صُباعه ده.

وأشار لإبهامه ثم أشار إلى صدغه: وعملت لي الجرح ده.

ابتلع عبد القادر ريقه: وصاحبك ده مات؟

- لأ.. عايش.. مَسجون مؤبد في سجن طره.. راجل.. عذبوه رفض يعترف عليا... المُهم.. رَمْيِتك لازم تكون هادية.. استعمل ثقل القنبلة في إنَّك تمرجحها مَرة وترميها على المكان اللي هايكون فيه الأوتومبيل بعد ثوانٍ.. لاحظ إن الموكب بيمشي بسرعة ستين كيلو في الساعة على الأقل.. يعني لازم توصل العبوة في نفس وقت مرور الأوتومبيل.

وضع أحمد القنبلة بحرص على الارض ثم التقط حجرًا أرجحه في الهواء مرة قبل أن يرفعه عاليًا مُستغلًا ثقلًا ويطلقه من يَده ليسقط على بعد عشرة أمتار منه.

- فهمت؟

- فهمت.

- داري روحك ورا الجذع اللي هناك ده وركِّز مَعايا.

إبتعد عبد القادر قبل أن يستتر أحمد خلف صخرة كانت يومًا شجرة.. تابعه عبد القادر وهو يجذب الدوبارة الغليظة قبل أن يؤرجح يده في الهواء بالعبوة فيلقيها عاليًا ويحني رأسه.. قبل أن تلمس الوادي بمتر واحد انفجرت مُحدثة دويًّا شديدًا وصدًى ضرب سفح الجبل تردد في الفراغ.. سَاد الدخان الخانق للحظات قبل أن تبدده الريح.. خرجا من ساترهما يَسمَعان طنينًا يصم الآذان.. طل عبد القادر على مكان الانفجار فرأى حفرة حديثة تتصاعد منها الأدخنة.. بهدوء سأله أحمد: تجرِّب؟ هز عبد القادر رأسه موافقة دون أن ينبس بكلمة.. ناوله أحمد عبوة أخرجها بعناية من الحقيبة.. التقطها عبد القادر في حذر ولم تبارحها عيناه.. أشار أحمد إلى الدوبارة الغليظة ثم ابتعد في هدوء وأشعل سيجارة قبل أن يستتر خلف شجرة.. لحظات ووقف عبد القادر خلف الصخرة.. نظر لأحمد الذي ابتسم وهز رأسه محثًّا إياه أن يلقيها.. سَحَب عبد القادر نفسًا إلى صدره ثم جذب الدوبارة بحذر وأرجح يده ثم طوَّح القنبلة في الهواء بصرخة عصبية وارتمى على الأرض بسرعة حاميًا رأسه بيديه.. لم يحدث انفجار.. ظل على هذه الوضعية لدقيقة كاملة حَابسًا أنفاسه حتى لكزه أحمد بمقدِّمة حذائه:

- قوم.

- ما انفجرتش!!

- لأن فيها ميَّة.

وقـف عبد القادر بحذر ونظر للعبوة التي نثرت المياه حولها قبل أن ينظر لأحمد بغضب: هو إيه أصله ده؟

- بقـول لـك صديق ليا طـار صُباعه فـي غلطة.. أقـوم أناولك قنبلة حقيقية في أول مرة تدريب؟! المرة الجاية ترمي واحدة حقيقية.

قالها أحمد وتركه مُحاولًا السَّيطرة على غَضبه.. التقط بقايا العبوتين ووقف بجلبابه المَكسو بالتراب كفلاح انتهى من بذر أرضه حين اقترب عبد القادر.

- ليه قررت إني أنا اللي اقتل الرجل ده بالذات؟

- عملنا قرعة على اللي يقتله وطلع اسمك.

- بس كده؟!

- بس كده.

- يعني صُدفة؟

- كل القرارات التاريخية مبنية على الصدف.. الحرب نفسها قامت صدفة.

- وليه الراجل ده بالذات؟

- بعـد ما رمينا القنبلة على الوزير اللي قبله كش واسـتقال.. اتهزَّت الـوزارة والإنجليـز اتجننـوا.. مَـا حـدش قابل يمسـك المنصب

في ظل الحماية.. حتى لما السلطان عمل مَعاش مُستديم مدى الحياة للوزرا عشان يغريهم والإنجليز زودوا الحراسات عليهم.. برضه الناس لسَّة بترفض.. خايفين.. مسمينًّا المتطرفين.. ييجي محمد شفيق وسط كل ده ويقبل تلات وزارات يباشرهم في وقت واحد.. أشغال وحَربية وزراعة!

-يابن الكاااااالب.. طب وبالنسبة لي.. لو نَفَذت؟

-من القنبلة وحرس الوزير؟ دي القصة التانية اللي هاندرسها تَمام.

التقط أحمد غصنًا يابسًا ورسم على الرمال دائرة كبيرة.

-إحنا مَسحنا المَكان واخترنا موقع التنفيذ.. ميدان الضاهر.. عند ناصية الشارع ده مع آخر ترام ١٧ .. ده طريق الهدف من بيته للوزارة كل يوم.

ثم نغز الأرض بنقطة بين مُربعين رسمهما على أطراف الدائرة.

-هاتقف هنا.. بين دكان ماتوسيان بتاع الدخان.. والمراحيض العامة.. عشان تكون مدّاري من اليمين والشمال.. الساعة تمانية ونص بالظبط بيخرج الوزير من بيته.. تسعة إلا تلت بيكون في الميدان.. هاتكون متنكّر.. حضّرنا لك هدوم سفرجي.. تلبسها فوق هدومك العادية.

-اشمعنى سفرجي؟

-هاتفرق معاك؟

-لأ.

- سفرجي عشان طبيعي إن السفرجية الصبح بينزلوا يشتروا طلبات البيوت.. قبل نص ساعة من وصول الهدف هايعدي جنبك واحد يسيب لك السَّبَت ده.. وقبل وصول الوزير بدقيقة هايعدي قدامك موتوسيكل فيه واحد مننا.. هايرمي تحت رجلك جُرنال.. ده مَعناه إن الموكِب على بعد لحظات منك وإن الهدف في الأوتومبيل اللي وراه.. أول ما تشوفه ترمي القنبلة.

سكت أحمد للحظات نظر فيها إلى عينَي عبد القادر اللتين لم ترمشا قبل أن يرسم على الرمال أربعة شوارع متفرعة من الميدان.

- لو حرس الوزير ما قدروش عليك - وأشار في الرمال إلى شارع خلف نقطة وقوف عبد القادر- هاتهرب من شارع النزهة.. تجري بأقصى سرعة.. بعد ناصيتين هتلاقي على شمالك خرابة.. ترمي فيها هدومك والمسدس.. هايلقطهم منك زميل هايكون مستنيك.. وتمشي بعدها عادي وما تبصش وراك.

- أروح على فين؟

- هاتعرف بعدين.

لاحت ابتسامة على وجه عبد القادر من بين غبار المعركة التي دارت نظريًّا أمام عينيه فأمسك أحمد بقدميه وأنزله من سماء الأحلام.

- ده طبعًا لو نجيت من القنبلة ومن الحرس.

اكفهر وجه عبد القادر وكسته الجدِّية قبل أن يسأله:

- ولو اتقبض عليا؟

- دي القصَّة التالتة.. تحت الضغط طبعًا وارد تتكلم؟

-أنا راجل ابن راجل.

-الإنجليز ما عندهمش حدود للتعذيب.. إحنا فعليًا مالناش تمن بالنسبة لهم.

-أنا بِعت نفسي للموت.. هاحضن قنبلة وأقف قدام الرصاص وعملتها قبل كده.. مِش هاتفرق لو عذبوني.

-هانشوف.. ركِّز معايا.. لو الوزير عَاش.. يبقى أنت حاولت تهدده وتخوفه عشان وافق يقبل الوزارة وخان البلد.. يَعني ماكانش فيه نية تقتله.. مَفهوم.. وده مُمكن يخفف الحُكم من إعدام لأشغال شاقة.. افتكر.. الاعتراف بنية القتل يعني إعدامك.

-ولو مات؟

-مش هانقدر نهرب من الإعدام.. وسَاعتها يبقى تقول إنَّك قتلته عشان يبقى عِبرة للي يمسك الوزارة في فترة الحماية.. ولو ما قدرتش تستحمل التعذيب الورقة دي هتلاقي فيها تلات أسماء ممكن تذكرهم.

-أفتن؟!!!

-تفتن إيه! دي أسماء بعض الخونة اللي عاوزين نتخلص منهم..

-فهمت.. وأنت هاتكون فين؟

-مش هاسيبك لحظة.. فيه حاجة كمان...

قالها وأخرج من جيبه قرصًا صغيرًا جدًّا لونه أبيض مغلفًا سيلوفان داكِن.

-في حالة التعذيب الشديد أو التهديد بالقتل.. ده قرص سيانيد.

- يسم؟

- تلاتين ثانية بالظبط.. مش هاتلحق تحس بحاجة.

- ما يلزمنيش... التنفيذ إمتى؟

- لما القنابل تجهز.

ساد الصمت لحظة فتوقَّفت الريح احترامًا قبل أن يُردف عبد القادر:

- أحمد.. لو مت...

عَاجله أحمد: أمَّك والحتة كلها هاتعرف دورك يا عبد القادر.. والأهم من ده كله بلدك.. مش هاتروح هَدر.

هز عبد القادر رأسه وزفر نفسًا حَارًّا يحرر به التوتر حين ربت أحمد على كتفه.

- كفاية عليك كده النهاردة.. بُكرة نعاين مكان التنفيذ.. وبالليل عازمك على العشا.. أهم حاجة تحافظ على هدوء أعصابك.

كان يعرف أن كلماته لا تبث طمانينة في شخص تقرر مَصيره مقدمًا.. السائرون إلى الموت دائمًا يتبعون الخطوات نفسها.. سيودِّع النوم عَينيه.. سينظر للشوارع والناس كأنه يراهم لأول مرة.. ستنتابه فرحة مُبالغة يتبعها صَمت مُطبق ووجوم.. سيختم إنجيلًا أو قرآنًا أو توراة ويبتهل في كل لحظة.. أو يطوف ببنات الأرض جميعًا يشرب من رحيقهن ليُخفف روعه.. كل من ودعهم أحمد بعدما أعدَّهم لم يخرجوا عن ذلك الخط.. وفى النهاية.. إما إلى سجن.. وإما إلى قبر.

ودائمًا كان القبر أخف وطأة.



بَرد فبراير أخرج من الأفواه بُخارًا وأخفى أيدي المَارة في السُترات، كان الوقت قرب المَغرب حين وصل أحمد وعبد القادر إلى ميدان الظاهر، في خُطى متمهِّلة اقتربا من مكان إلقاء العبوة المُحتمل، استوعب عبد القادر جغرافيا المكان قبل أن يتمشيا في شارع النزهة حتى رأيا الخرابة، تمم أحمد على خط السير قبل أن يشقَّا طريقهما تجاه بار «كافيه إچيبسيان»، كان عبد القادر على مَوعد عشاء على شرف قيامه بالمهمة، طقس يحرص عليه أحمد مع كل روح قبلت التضحية بنفسها من أجل الاستقلال، وداع بسيط ورسالة شكر وتقدير من المنظمة إلى فرد لا يكاد يعرف من الأعضاء أكثر من أربعة أفراد.

قُرب ناصية شارع المغربي المُطلَّة على مَيدان إبراهيم باشا وحين انحرفا ليعبرا الشارع استوقف عبد القادر النِّداء: عبد القادر أفندي... التفت الأخير فوجده.. يقف في بقعة مظلمة أمام جدار.. اقترب.. لم يفلح الشال العَريض المَكبوس تحت طربوشه غير المُستوي في إخفاء وجهه المتعجن كشمعة ذابت فوق جذع يابس ولا عينه التي احترقت فابيضَّت.. بث النفور في وجه أحمد الذي تفحَّصه بشك قبل أن يمد يده إلى عبد القادر زاحفًا:

- عاش مين شافك يا عبد القادر أفندي.

اقتضى الرد من عبد القادر لحظات حاول فيها تخطِّي بشاعة النتوء في وجهه واستحضار كلمات تنهي اللقاء بسرعة:

- أهلًا يا سلامة! بتعمل إيه هنا؟

- درب طياب زبونه شاحح.. بقالي فترة باجي أسحب من هنا.

- الرزق يحب الخفِّية.. سلم على نسوانك.

- ما اتعرفناش بالأستاذ!

نظر عبد القادر لأحمد الذي أجاب سلامه بلا تردد: فهمي.

- عاشت الأسامي يا فهمي أفندي.. مفيش كده أبدًا لطف ومفهومية.. إحنا لازمن نتعرف.. تشرفني مرة في البيت.. فركة كعب لغاية درب طياب.. مَحسوبك سَلامة النِّجس...

باستغراب نطقها أحمد: نِجِس!!

- عدم اللامؤاخذة اسم اتعرَفْت بيه من صغري.. شقاوة عيال.. دلوقتي بيقولوا سلامة المَحروق...

قاطع عبد القادر فيض التعارف فسَحَب أحمد من ذراعه:

- يَدوبك يا سلامة عشان عندنا مشوار.. سلامو عليكو.

مدَّا خطواتهما ابتعادًا.. عبرا الميدان واتجها صوب شارع وش البركة.. تبعهما سَلامة رافعًا ذيل جلبابه.. أسرع حتى لحق بهما:

- خدوني معاكم.. كده كده رايح وش البركة.

لم يعره عبد القادر انتباهًا ولم يشأ أن يفتعل شجارًا أو ينهره فسلامة إن كان يجيد في الحياة شيئًا من بعد القوادة فهو التجريس.

بعد بضع خطوات بدأ سلامة في الثرثرة، يلغو كببغاء حَبيس، حكى عن بنبة التي باتت أكثر عصبية وتحكُّم، وعن سنية «السودا» التي أصابها داء الزهري وكيف سَرَّحوها من الخِدمة بذكاء قبل أن تحتضر أمامهم وتلوث الفراش وسمعة البنسيون، ثم حكى عن السوق من بعد الاضطرابات وكيف ابتعد جنود الإنجليز عن درب طياب خوفًا على أنفسهم من العمليات الانتقامية التي ينفذها «المتطرفين المخابيل» الله يخرب بيت أهاليهم، قبل أن يسأل عبد القادر فجأة عن ورد إن كان لمحها، اكتفى عبد القادر بهزة رأس نافية وكانا قد وصلا إلى البار فترك أحمد يبتعد عدَّة خطوات والتفت لسلامة ووضع يده على كتفه:

- سلِّم على بنبة.

أخرج سلامة من جيبه ورقة صغيرة وسحب عبد القادر خطوتين بعيدًا عن أحمد: مش عاوز كوكو؟

- لا أنا خلاص.

دسَّها سلامة في كفِّه: دي واجب من عندي.

نظر عبد القادر للورقة التي استقرت في راحته بتردد ثم التفت لأحمد الذي وقف أمام البار ينظر للافتة عليها صورة بديعة مصابني قبل أن يرجع لسلامة الذي أردف: النبي قِبل الهدية.

- ماشي يا سلامة.. تُشكر.

ربت عبد القادر على كتفه وابتسم مضطرًّا وابتعد قبل أن يستدركه سلامة: لو.. لو شفتها.. ابقى ادِّيني خبر.

رفع يده فانكشف نِصف وجه ذائب فامتعض عبد القادر:

- ماشي يا سلامة.. ماشي.

ابتسم سلامة في ود وأخفى وجهه ثم عبر الشارع إلى ناصية مقابلة للبار.. استقر ورمى شباكه.

- مين النجس ده؟ وإيه اللي شوَّه وشُّه كِده؟

سأل أحمد فأجابه عبد القادر: قصَّة طويلة أحكيها لك بعدين.



بَعد أن أوصَد مِزلاج الحمَّام وَقف عبد القادر أمَام مِرآة وأسند يَديه عَلى حَافة الحوض، على ضوء اللمبة الصفراء تأمل عَينين تشعبت بعروق حمراء وسَواد جرى تحتهما، شفتين بهت لونهما ويَدين ترتعشان، الأرق كان قد نخره كشجرة مريضة تقاوم السقوط في أي لحظة، مُنذ عَرف بالمهمة المُوكلة إليه غادره النوم بلا رجعة، أن يعرف مِيعاد مَوته، أن يُقتل أو يَعيش مشوَّهًا في غياهِب سجن، أن يَهرب، أكثر مِمَّا هو هَارب، تلك كانت قائمة الاختيارات الإجبارية التي عليه أن يواجهها بعد أيام.

لم يَشعر عبد القادر يومًا بما يشعر به الآن رغم ماضيه مع البوليس والإنجليز، الألم يغزوه كمِسمار طويل بارد يخترق الضلوع، ضيق صدر وثقل لم تعد تحتمله الأكتاف، وفوران يجري في عروقه ليسمم ويحرق، هياج، هياج اسمه دولت، القلق والخوف من الزمن القصير المتبقي هيَّج ذكورته وبث فيه رغبة مَحمومة ناحيتها، يُريد أن يندفن فيها، يَختبئ، يبكي بحرقة ويصرخ، مرة أخيرة، قبل أن يودعها.. مدَّ يده وفك البابيون الذي يطبق على رقبته وحرر الزر، شَهق نفسًا طويلًا إلى

رئتيه ثم أخرج من جَيبه ورقة سلامة الصَّغيرة، أفرغ المسحوق الأبيض فوق الحوض ثم سجد بأنفه خشوعًا، كاد يستنشق أولهما قبل أن يمسك برأسه ويقوم، ضَرب الحائِط بقبضته ثلاث مرات ثم نظر لنفسه في المرآة، مَسح دَمعة لا إرادية وهو يرمق البودرة، قبل أن يُبعثرها بكفَّيه وينثرها، سوَّى بعد ذلك قميصه بسُرعة وعقد البابيون ثم أسكت نهيجه بصَفعة على خدِّه، غَسَل بعدها وجهه بالماء ثم خَرَج.

صَوت الموسيقى بدا أضعافًا مضاعفة في أذنيه، أبواق حَرب تزوم، تماسك وتخلل الرءوس حتَّى وصل لمنضدة بَعيدة نسبيًّا عن المَسرح جلس إليها أحمد، بلا كلمة ارتمى بجانبه وأشعل سيجارة، لفَّهما الدخان وصَخب الموسيقى وصَمت احترمه أحمد قبل أن يبدأ عبد القادر في ثرثرة طائشة تتخللها ضَحكات عَصبية وحركات يَدين كافح أحمد كيلا تُطيح بزجاجة النبيذ المفتوحة، حَكى ذكريات طفولته ونشأته، اجتر كيف كان مهابًا، قدوة أقرانه من أبناء الحي ومَحطَّ حَسدهم، حكى عن نسوته اللاتي هِمن فيه عشقًا وعن مَعاركه ضد أنداد أذاقهم الهزيمة بقوته المفرطة، ثم اكتأب حين جرى لسانه بذِكر أبيه، سَكت واكفهر وجهه، شرد، ثم هرب ثانية إلى مغامراته مَع فتيات الحي ونسائه، شَرب خَمس كئوس نبيذ قبل أن يغطِّي أحمد حافة كأسه السادسة بأصابعه.

- كفاية يا عبد القادر عشان نعرف نروَّح.

تحولت ثرثرته فجأة إلى سيرة بيت بنبة وعاهراتها، وعن قصَّة تشوُّه سلامة بالنار من مصباح الكيروسين، وعن ورد التي لم يقابلها أحمد، ضَحك بهستيريا قبل أن يَصمت تمامًا، نزل الطعام في الأطباق حين

بدات فقرة بديعة مصابني في العزف، انسابت الفتيات كالمياه الجارية يُحطن بديعة من كل جانب، وفي الخلف، دائمًا في الخلف، كانت ورد تتفتّح، ورد التي نسيت اسمها للمرة الثالثة من «فارتوهي» الأرمنية إلى «ورد» المصرية ثم «لينا» الشامية، مَسحت الصالة من وراء القناع قبل أن تعلو شفتيها ابتسامةٌ حين وقع بَصرها على أحمد فرفعت ذقنها تحية، ابتسم الأخير ثم تابع عبد القادر الذي تأرجح بين متابعة الفرقة والرَّغبة في الثرثرة ليُطمئن نفسه، أكل جُزءًا من شريحة اللحم ثم تيبس كتمثال لم ينتهِ منه نحّاته، ينظر للشوكة بين أصابعه حتى طقطق أحمد إصبعيه فتنبّه.

- أنت شامم؟

- أنا مبطل البودرة من زمن.

التفت أحمد ليتابع لينا بين الراقصات تتماوج.. عُصفور يَشتهي قفصه الاختياري.. كان قد دأب على زيارتها أسبوعيًا.. تنتهي من فقرتها فتأوي إلى منضدته.. يتبادلان حديثًا مفتوحًا وأخبارًا طازِجة.. عن كل شيء.. إلا عنهما.. وخاصة الماضي.. اتفقا بدون أن يتفقا على أن يغلقا سيرته ولا يتطرقا إليه طالما أرادا الاستمرار في اللقاء.. لا هو يُريدها أن ترى الدماء على يديه ولا هي تريده أن يخوض مِترًا في أوحال ماضيها ببيت العُهر.. اكتفيا منذ زمن بانجذاب صَامت ورغبة ناضجة تعي تمامًا أن الوقت غير مناسب إلى أن يُصبح.. مناسبًا.. وأن أي كلمة حب ستعني حتمًا بداية سريعة لنهاية.. مع كل لقاء تزداد فيه حفرًا ويزداد هو مَعها شوقًا وتعوُّدًا.. لم تُمحَ ذكرى نازلي فيه.. ظل تخوين الأنثى حَاضرًا لا يختفي وإن وهن.. كانت تطرق على قلبه كنقاط المياه، نقاط مُلحّة متواصلة مستمرة.. نقاط بعد وقت تفلق الحَجر.

انتشله من شروده صوت عبد القادر الذي عبّ كأسه السابعة.

- مرافقها بقالك كتير؟ ولّا حُب؟

التفت إليه أحمد: ...!!

- المزمازيل اللي عينك ما فارقتها لحظة.. أم ريش أسود دي..

- لينا؟ لا.. دي صديقة عزيزة.

- صديقة!! مفيش هنا أصدقاء.

- مُمكن تمسك نفسك عشان هاتخلص نمرتها وتيجي تقعد معانا شوية؟ مش عاوز لخبطة في الكلام.

- يعني آخر مرة هاكون مَعاك ومش عاوز تفتح لي قلبك؟

- أنا ما قلتش إني بحبها.

- مش لازم تقول.. عينيك فاضحاك.

- أنت سكران.

- أنا ما بسكرش.. أنت مَكسوف.. بقة بذمتك جايبني من قفايا لغاية هنا عشان تعزمني ع العشا؟ أنت جاي تشوفها.

- أيوة جاي أعزمك ع العشا.. وأشوفها.. فيها حاجة؟

- مفيش.. بس برفكس المزمازيل.. عود يوناني أكيد؟

- ....

- تبقى إيطالية.. العود ده إيطالي.

بنفاد صبر ألقاها أحمد: أرمنية.

- أيوة منا كنت لسّه هاقول.. باين.. صحيح أنت مش متجوز ليه؟

- ما أنت مش متجوز.

- آه بس أنا مدلّع نفسي.. ما أنا حكيت لك.. إنما أنت بحس إنّك من البيت للشغل وم الشغل للبيت.. وساعات بتموّت في الإنجليز.. هههههههه.

- أنا مش فاضي للحب.

- مفيش حد مش فاضي للنسوان.. أنت حاجة من اتنين.. يا حبيت ولا طولتش.. يا مالكش فيه.

رمقه أحمد بلا تعبير فدس عبد القادر وجهه في الطبق دقيقة قبل أن يرفعه ثانية: تفتكر ربنا هايسامحني؟

- ... على إيه؟

- أصلي حاسس إن عمري ما انتبهت له.. أستغفر الله العظيم يا رب.. أقصد يعني.. عُمري ما حسّيته حقيقي.. مَوجود في سابع سما طبعًا فوق العرش وتحفّه الملايكة ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء.. أنا حافظ نُص القرآن لغاية سورة النمل.. لأ استنى! العنكبوت.. بس مش عارف ليه ربنا بالنسبة لي أستغفر الله العظيم زيُّه زي ملك الإنجليز كِده.. عارف إنه موجود بس مش ممكن أفكر أقابله.. عُمري ما شفته.. ولا هاشوفه.. بس موجود.. أنا طول عمري كنت مشغول عنه.. الفتونة.. أبويا.. النسوان.. الفلوس.. الكامب الإنجليزي.. النسوان...

قاطعه أحمد: أنت قلت النسوان مرتين!

- حاسس إني لما أقابله مش هايقابلني.. هايقول لي أمشي أجري باض يا عبد القادر أنا ما خلقتكش.. أنت شيطاني. ويسيِّب عليا زبانية جهنم ترتني علقة سخنة وتولع فيا ويرموني من فوق السحابة.

- طب وهاتعمل إيه؟

- هارجع أقعد عند بنبة.. وأشتغل معرَّص مع سلامة النجس.. ما هو أكيد هو كمان هايطرِّد بروشُّه الملخفن ده.. أقعد أطير كده عنده في سقف الشقَّة.. وأزوم بصوت عالي وأرعب النسوان.. بالذات بهية القعر.. أصلها مفترية أوي بنت الكلب.. بس عليها حتَّة...

قاطع خواطر النبيذ تصفيق رواد القاعة حين انتهت الرقصة.. انسحبت الفرقة وانسكب الستار على المسرح وكان آخر ما رأى أحمد نظرة وعد من صاحبة القناع.. «أنا آتية».. هدأ التصفيق فظهر صوت عبد القادر الذي لم يتوقف عن الكلام:

- رُحت راقعه قلم كوَّعه زي أسير يوناني وقع في إيد الترك.. وهَبشته لوكّامية طرقعت عِضام وشّه وبعدين جرجرته م الجاكتَّة وقلت له إياك أشوف وش أمَّك هنا تاني يا خبؤ.

- أنت بتتكلم عن إيه؟!!!

- عن سعيد جرح اللي ضربته في الزرايب.

- أنت إيه اللي ودَّاك الزرايب.. مش كنت بتتكلم عن ربنا؟

- أيوة صحيح.

- أنت بتضحي بنفسك عشان بلدك.. وده وزنه كبير عند ربنا يا عبد القادر.

- يَعني هايقابلني؟

ابتسم أحمد: هايقابلك.. ومش هايقول لك امشي اجري ياض يا عبد القادر أنا ما خلقتكش!

شردت عينا عبد القادر في الفراغ وارتعشت ابتسامة في عينيه حين اقتربت لينا.. في منتصف طريقها ابتسمت لأحمد قبل أن تتفحص بعينيها الجالس بجواره.. أبطأت خطواتها للحظة حين تأملت وجه عبد القادر ثم توقفت بغتة.. رَمَقها أحمد باستغراب قبل أن يَرفع يَده مُشيرًا لها أن تقترب.. كمِسمار غُرز حتى رأسه في الأرض لم تتحرك.. انتبه إليها عبد القادر ولم تزدها نَظرته إلا إصرارًا على الانسحاب.. الهرب.. نسيت أنها ترتدي قناعًا.. أنها لم تعد ورد.. قام أحمد فرفعت كفّها تستبقيه.. اقترب فتوترت أطرافها.. رواد منضدة بجانبها لاحظوا ارتعاش أصابعها في استغراب.. قام أحمد فابتعدت خطوة.. عبث وجهه استغرابًا وحدّق في عينيها حين دارت على عقبيها.. استبَقها حتى التقط عضدها.. التفتت.

- فيه إيه؟ مالك؟

- تعبانة.

- حاسة بإيه؟

- دايخة شوية.

- تعالي اقعدي واشربي حاجة مُنعشة...

قاطعته: ما في داعي.. أنا رح أروّح...

قاطعها: مفيش داعي إيه! أنا مش هاسيبك تمشي وأنت تعبانة.

كان ذلك حين برز عبد القادر من وراء كتف أحمد.. نظر إليها بابتسامة ثملة قبل أن يَمد يَده:

- كينيش.. بيس.. يك؟ ثم نظر لأحمد وترجم: يعني كيف الحال بالأرمني.

رمقته ورد للحظات ثم أجابته: أحمد الله.

- بتتكلمي عربي!! إيه يا مزمازيل! أنا شكلي يخوِّف أوي كده؟ اسم القمر إيه؟

استغرق الرد منها نصف دقيقة: لينا.

سلمت عليه فلثم يدها تحية.. لم تملك رفاهية الانسحاب.. تقدَّمهما عبد القادر إلى المنضدة فجلسوا.. صَبَّ عبد القادر لها كأس نبيذ فامتنعت.. أنفاسها تهدَّجت وهي تتابعه من خلف القناع.. ابتسم فأولَت وجهها شطر الصالة المفتوحة متفادية النظر في عينيه حين لمح في عنقها «ثلاث حسنات متجاورة»! ثلاث حسنات لفتت نظره من قبل!! في رقبة أرمنية شقراء.. صَعد بعينيه فلمح لون الذهب في منابت الشعر يقاوم الصبغة السوداء.. نزل إلى رسغ مكتظ بأساور لم تخفِ أثر جرح انتحار قديم.. طار الكحول من رأسه دفعة واحدة.. رمقها لدقيقتين وهي تستمع لكلام أحمد قبل أن يهمس بخفوت حين التقت أعينهما: ورد! نظرت إليه ففهمت قبل أن يقاطعهما أحمد: حاسة بإيه؟

نظرت إليه ولم تُجبه.. كانت تنتظر ضربة استباقية من عبد القادر لكنه لم يفعل.. رمقها طويلًا ثم نظر لأحمد الذي لم يقرأ في عينيه شيئًا حين عزفت الفرقة لَحنًا من موسيقى الفالس.. ترقص؟ على غير عادتها طلبت من أحمد.. استغرب طلبها وإن لبَّاه بلا تفكير.. قامَا تاركين عبد القادر الذي لم يرفع عينيه عنها.. يسأل نفسه: «**هل يعرف أحمد تاريخها؟ هل يحبها؟**».. لم يجد إجابة فصب كأسه الثامنة.

توسَّطت ورد المَرقص بين ذراعَي أحمد قبل أن تدفن نفسها في حُضنه.. لحظات من التمايل غير المتماشي مع إيقاع أغنية It's time to say good night قبل أن يسألها: مَالك النهاردة؟

- مين هادا الشخص اللي أنت قاعد مَعه؟

- صديق.

- من وين بتعرفه؟

- بتشبّهي عليه؟

هزَّت رأسها نفيًا ولم تعقِّب.. تنظر لعبد القادر فتهرب بعينيها.. صدَّرت إليه ظهر أحمد متوارية من عينيه الثاقبتين فسألها:

- فيه حاجة مزعلاكي؟

- بفكر أمشي من هون

- هاتروحي فين؟

- كل مرحلة وإلها مطالبها.. عم بافكر أرجع سوريا.

- سوريا؟!

- بلدي.. رح أكون على راحتي هناك.

- ده كلام فارغ.. الأتراك مش هايسيبوكي في حالك.

- ما عم بحس بأمان طول الوقت.. عم بحس إني بختنق.. ما عدت قادرة اتنفس.

- أمان! أنت تقريبًا مش بتخرجي من البار يا لينا!

أشاحت بوجهها: الظروف بتتبدل.

صَمَتا فاشتعل الصِّراع في نفسه كما اشتعل منذ تسعة أشهر.. البحث عن تعريف لوضعه من بعد نازلي كان أمرًا مُعقدًا.. يحتاج لقاموس لم يُكتب بعد.. سأل نفسه مرَّات: «هل يُحب لينا؟ هل يشتهيها؟ هل يستأنس بها فقط؟ أم هو التعوُّد؟» كانت لخفَّتها تتأرجح بين كل تلك المعاني ولا تملأ واحدًا.. إلا أن فكرة فراقها كانت بثقل مِكواة حديدية استقرَّت بين رئتيه.. مِكواة سَاخنة.. ضاق صَدره واتقدت فيه عَصبية كبحها بصعوبة.. ضَغط على يديها فنظرت في عينيه.. «أنا خايف أحبك».. ردَّدتها نفسه وقرأتها ورد فرنا ببصره بعيدًا يشتكي إلى الموسيقى.. «نازلي أهدتني رابطة عُنق.. ساعة جيب «زينيث» موديل السنة.. ومنديل مذيَّل بأول حرف من اسمها.. الـ N الملعونة.. قبل أن تأخذ روحي.. ثقتي في الحب وفي نفسي.. ولدغة لن أُلدغها مرَّة أخرى فأظن يومًا أني أهل للارتباط.. اخرجي يا نازلي من رأسي.. ابتعدي.. فليأكلك هنيئًا مريئًا من زار شفتيك بعدي.. سيكتشف بصماتي في أول قبلة.. امنحيني الفرصة كي أحيا ثانية».

- تتجوَّزني؟

صفعته ورد من وراء القناع وفي عينيها دموع تترقرق ثم أردفت:

- خدني من هون.. وديني لمطرح ما حدا بيعرفه.. ما عُدت أوثق بحدا غيرك يا أحمد.

تجمَّد.. تيبس.. سَحَب نفسًا لم يخرج وضَرب على قلبه ضَربة أخيرة لعل أحدًا يفتح الباب.. قرأتْ في عينيه ترددًا.. رفضًا.. رمقته بشك ثم اشتمت رائحة حَرق ومَرارة تأكلها.. سَحَبَت أصابعها من بين أصابعه فتركها تنسلُّ.. ابتسمت بألم.. قبل أن تبتعد.. وقف عبد القادر مُحاولًا استيعاب الموقف.. ظل أحمد في وضعه وسط الراقصين وحيدًا حتَّى لفَت الأنظار قبل أن ينتشله عبد القادر.. أرجعه إلى المنضدة فجلسا.

- زعلتها؟

- ...

- مالك؟

- مفيش..

- اسمها لينا؟ ده اسمها الأصلي؟

- بتسأل ليه؟

- لا.. أبدًا.. أصل الأرتيستات دايمًا يغيروا أساميهم.. تعرفها من قد إيه؟

أجابه بشرود: تسع شهور.

- بتحبها؟

صَبَّ أحمد كأسًا تجرعها دفعة واحدة ثم ترك الحِساب على المنضدة وقام: يلّا بينا.



قبل دقيقتين كانت ورد ترمق انعكاسها في مِرآة غُرفتها الصغيرة التي آوت أحمد أيامًا حتى استشفي.. لم يتخذ الأمر أكثر من دقيقة تفكير.. رائحتها فاحت وقريبًا سينجذب الذباب.. عبد القادر سيفشي حتمًا ماضيها.. أفضل لها أن ترحل بكرامتها.. أن تهرب مرة ثالثة.. أخرجت حَقيبتها التي أتت بها من قريتها المنكوبة في سوريا.. لملمت مَلابسها ودست فيها الصورة التي تجمعها بأبيها وأمها.. كتبت خِطابًا للسيدة بديعة شكرت فيه كرمها ورحمتها واعتذرت عن الاختفاء المفاجئ.. أغلقت حقيبتها وتركت قناع الريش بجانب المرآة قبل أن تتسلل من الباب الخلفي للبار.

حين خرج أحمد وعبد القادر إلى الشارع توقفا تحت يافطة اتقاءً للمَطر الذي انهمر بشدَّة.. لحظات واستدار أحمد إلى عبد القادر مُجيبًا:

- مش عارف.

- مش عارف إيه؟

- مش عارف إذا كنت بحبها ولّا لأ.. سَاعات بحس إني بحبها.. وسَاعات بخاف من الفكرة.

مَطَّ عبد القادر شَفتيه لمَّا لم يجد ما يقول: «مَاذا لو عرفت يا صديقي أن حبيبتك تخفي عنك اسمها الحقيقي وماضيًا غامضًا وراءه؟!»، كان ذلك حين لَمحها عبد القادر تخرج من الشارع الضيق المجاور للكافيه حاملة حَقيبة متوسطة وتحمي رأسها من المطر بجريدة.. قبل أن يَلمَح سلامة النجس في الجهة المقابلة.. يقف عند الناصية يبادله الابتسام بنصف فَم.. بَطؤ الزَّمن وخفتت الأصوات بَغتة.. سَلامة أدار رأسه ناحية اليسار.. ناحية ورد.. سيعرفها.. سيَعبر الشارع رَكضًا ناحيتها وهو يَستل مِطواته المقوَّسة من جيب جلبابه.. سيُدركها قبل أن تُدرك المسكينة اقترابه.. سيشل ذراعها بيد وباليد الأخرى سيَغمد نصله بين ضلوعها.. ستسقط ولن تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن يُمزِّق وَجهها ويَسلخ جِلده.. ستختلط دماؤها بالمطر قبل أن تتسرب بين البلاط المحدَّب.

– سلاااامة..

ناداه عبد القادر فالتفت إليه.. لم يُمهله وقتًا للإجابة.. أراد أن يشغل عينيه فعَبر الشارع رَكضًا بين الحناطير وعربات الدوكار تاركًا أحمد خلفه.. مُتابعًا بعينيه ورد التي توقَّفت والتفتت بفزع حين سَمعت اسم سَلامة.. كان ذلك حين لمحها الأخير.. تلاقت عينه السليمة مع العينين الفيروزيتين فتعارفوا.. جزعت ملامِحها حين حدجها سلامة بظفر.. ذئب عثر على حَمَله الهارب.. حمل أشعل فيه النار قبل أن يفر بين الأشجار.. فجأة وقبل أن يَصل إليه عبد القادر رَكَض المُشوَّه.. فزعت ورد فتسمَّرت مَكانها وسَقطت حقيبتها على الأرض بجانب قلبها الذي تدحرج تحت الرصيف.. تابع أحمد عبد القادر الذي انطلق وراء

سلامة.. ثم رأى ورد.. لما أصبح سلامة على بعد أمتار أخرج مِطواته.. تحركت ورد كغزالة متأخرة فجرى أحمد ناحيتها في اللحظة التي طوّح عبد القادر سَاقه بين سَاقَي سَلامة الذي تعثَّر فسقط أرضًا.. ارتمى عبد القادر فوقه حين قفزت ورد في حنطور مر من أمامها.. أمرت العَربجي بالسرعة فضَرب كُرباجه في الهَواء قبل أن يَصل أحمد.. نظرت إليه من بين خصلاتها المُبللة.. شاهدته يَركض خلف العربة رافعًا يَده مُشيرًا إليها أن تنتظر.. أن لا تترك طعنة إضافية بين ضلوعه: «لينا استني».. صرخ فهَمَست: «إسمي مش لبنا يا أحمد».

ابتعد الحَنطور ولم يَستطع أحمد مُجاراته.. كان ذلك حين هَوى عبد القادر على وَجه سلامة بلكمة ثم جرَّه إلى حارة بين بنايتين.. سمَّره في الحائِط بقبضته ثم أطبق على عنقه المَعجون قبل أن يُخرج من جيبه مطواة مكسوَّة بالصدف محفورًا عليها شعار الجيش الإنجليزي.. وضعها تحت ذقنه فصَرخ بحَشرجة قبل أن يَهمس في أذنه:

- اسمع يا بغل البرك.. أشوفك تحوم ولّا ألمحك تحرجم هنا تاني هالخبط خلقتك أكتر ما هي ملخبطة.

- ده أنت طبَّختها من الأول بقة عشان تلهف البت؟! اتفقت معاها تولع فيَّا وعَملت النمرة دي عشان تخلع بيها م البنسيون.

لَمح عبد القادر أحمد قادمًا فضغط على عنق سلامة: لو شفتك هنا تاني الدبان الأزرق مش هايعرف لك طريق جرَّة.. هايجيبوك من الشفخانة يا ابن المحروقة.. غور.

وأطاح به عبد القادر فسقط في بركة مياه مطر.. وقف متألمًا يُلملم جلبابه المبتل: ماشي يا عبد القادر أفندي.

ثم ابتعد أمتارًا إضافية أبلغته مأمنًا فرفع الشّال من فوق رأسه المشوّه وأردف:

- ومَاله.. ياما وراك البنات غلبت رجالة بشنبات.

التفت إليه عبد القادر: يلّا يا ابن المرة.

غاب سلامة في ظلمات الحارة حين اقترب أحمد.. رمق عبد القادر باستغراب فعاجله:

- كان عاوز يبيع لي بودرة.

- الشخص ده يعرف لينا؟

- لينا مين يا عم أحمد؟

أمسك أحمد بتلابيبه: أنت بتكدب يا عبد القادر.. المعرَّص ده كان بيجري وراها ليه؟ إنطق؟

بنفاد صَبر زفر عبد القادر وهو ينظر في عينَي أحمد.. لحظة طالت أدرك خلالها أنه لن يستطيع المُضي في تغطية ورد أكثر من ذلك.. انتزع ياقته من بين أصابع أحمد:

- ما اسمهاش لينا يا أحمد..... ما اسمهاش لينا.



في اليوم التالي سيفجّر عبد القادر ثاني قنابله في الغابة الحَجرية بالمُقطم.. بَعد قنبلته الأولى التي فجَّرها أمس بين ضلوع أحمد حين سَرد له قصَّة لينا التي كانت ورد.. ورد التي قابلها في بيت بنبة.. عاهرة من عاهراتها.. عرض له ماضيها المأساوي مع أسرتها ومحاولة

انتحارها.. ولم يَحك بالطبع عن وَطئها أو قضائه ليلة كاملة نائِمًا على ظهرها.. سَمع أحمد دوي الحقيقة في أذنيه ولم يُعقِّب.. بلا ردَّة فِعل هز رأسه بهدوء وأردف:

- بكرة مَعادنا في نفس المكان الساعة ستة.. سلام.

افترقا فتابعه عبد القادر وهو يبتعد حتى اختفى فهمس لنفسه: «دبك أم غباء أهلي».

قبل الشروق حضر أحمد.. كان يرتدي زي عامل من عمال العنابر وفي يده حقيبة حديدية ترقد بباطنها العبوة الناسفة ومن ورائه أنثى في حَبَرة وبرقع.. اقترب غير بادٍ عليه أثر مما سَمِع أمس.. وضع حقيبته على الأرض وسط الضباب الخفيف وفتحها حين أنزلت دولت برقعها.. لم تتحدث.. تفحصت المكان من حولها هاربة من عينَي عبد القادر اللتين لم تغادرا وجهها.. أزاح أحمد شريحة حَديدية تحمِل المعِدات وأخرج من تحتها الموت في عبوة.. وضعها بحرص على الأرض ثم أخرج زي السفرجي في كيس وناوله لعبد القادر الذي أفاق من شروده ووضعه أمام صدره قبل أن يُلاحظ رغيف عيش إفرنجيًا (فينو) موضوعًا في الجيب حين أردف أحمد:

- بكرة التنفيذ.

برقت عينا عبد القادر: بكرة؟ بكرة بكرة؟

- الوقت ضيّق وكل ما اتأخرنا البوليس ومكتب الخدمات بيغيروا خطوط السير والشوارع.. بُكرة سبعة ونص الصبح هاتكون في الميدان.. بين دكان ماتوسيان بتاع الدخان و...

أكمل عبد القادر: والمَراحيض العَامة.. عشان أكون مدّاري يمين وشمال.

- الساعة تمانية ونُص بالظبط يخرج الوزير من بيته.. تسعة إلا تلت يكون في الميدان.. قبلها بنص ساعة هاتوصلك العبوة من زميل.. تكون أنت واقف زي ما اتفقنا.. تستنى الجرنال اللي هايترمي تحت رجلك...

أكمل عبد القادر وعيناه لا تفارقان دولت: بعدها بدقيقة ييجي المَوكِب.

- تمام كِده.. تنفذ وتدخل شارع النزهة.. تِرمي مُسدسك وتغير هدومكْ في الخرابة اللي شفتها وتخرج.. تمشي لآخر الشارع وتركب الترام.. أما لو شكيت إن فيه حَد بيلاحقك ومش هاتقدر تهرب.. فاكر مَدرسة الهلال اللي شاورت لك عليها بعد حوالي تلتوميت متر من الميدان؟ بوّاب المدرسة زميل.. هايساعدك توصل من غير شوشرة.. لدولت.

نظر عبد القادر إليها حين أردف أحمد: دولت مُدرِّسة في المَدرسة دي.. هاتخبيك بمعرفتها لغَاية مَا الشوارع تهدى وبَعدين تخرج.

أجابه عبد القادر بشرود: مفهوم.

- دولت جاية النهاردة عشان تنسق مَعاها وتراجع التحرك.. وعشان تسألك يعني في حالة... عن وصيتك إذا حبيت توصَّل حاجة للوالدة أو إخواتك.

ثم ابتعد أحمد ليتيح مساحة من الحرية.. حاول عبد القادر التماسك ثم تكلم:

- سلِّمي لي عليها.. وقولي لها إني مش عَيل طايش.. وإني أخدت حق أبويا.. وإني.. بَحبّها رغم الجفا.

التقطت دولت كلماته في ثبات ظاهري قبل أن يَسود صمت قطعه أحمد:

- عَاوزك تجرب العبوة دلوقتي عشان نتأكد إن كل حاجة ماشية تمام.

بثبات سَحَب عبد القادر عَينيه من عَينيها والتقط العبوة من الأرض.. للحظات هَاجمه هاجس أن يفجرها في المسافة بينها وبينه علّها تصطحبه إلى ملكوت لا تملك فيه رفضًا أو نفورًا!

ابتعد أحمد ومن ورائه دولت.. تواريا خلف صخرة.. وزن عبد القادر العبوة ثم جذب الفتيلة وطوّح القنبلة إلى الوادي الصخري الجاف وانحنى.. دوى الانفجار وتعفّر الهَواء للحظات قبل أن يَموت الصدى ويَسكن الوادي.

- أشوفك بكرة.

قالها أحمد بعد أن جَمَع شظايا العبوة وأغلق حَقيبة المُعِدات.. رَحَل مع دولت تاركًا عبد القادر ليتحرك بعدهما بدقائق تمويهًا.. ظل يرمق دولت التي أسدَلت البُرقع على شَفتيها وأنفها وابتعدت حتى بانت كعود كبريت قبل أن تختفي.



السبت ٢١ فبراير ١٩٢٠

٧:٣٠ صباحًا

مَسجِد الظاهر بيبرس كان مَحفوفًا بالنخل من كل جَانب، يتوسط الميدان بأسوار مُرتفعة أخفت من هيئته ما يدل على أن هذا المكان كان مَسجِدًا، لا مئذنة ولا قبَّة، فقد هَدَم الفرنسيون مئذنته سنة ١٨٠١م واستخدموه كقلعة حَربية مدَّة وجودهم في مِصر، ثم حوَّله الإنجليز حين أتوا بجيوشهم إلى مذبح للحيوانات قبل أن يتم العفو عنه وتُغلق أبوابه على خليط من روائح الروث والدم.

عبد القادر كان واقفًا كما اتفق، أمام المسجد، بين المَراحيض العَامة ودكان ماتوسيان للدخان الذي اشترى منه علبته الأخيرة، بَدت مَلابس السُّفرجي عليه كأنها ستنفتق في أي لَحظة وتطير أزرارها لتُصيب المَارة، يترقب ما حَوله في صَمت، أنفاسه بَطيئة وشفتاه تتحركان بآيات القرآن هَمسًا مُجاهِدًا لتذكُّر ترتيبها، يَكاد يَسقط ميتًا من شدَّة اختلاج صَدره، يُقاوم ضَربات قلب تتسارع في اضطراد ووسَاوس قاسية تنهاه عمَّا هو مُقدم عليه، تستعرض بطولاته البائدة على الأرض، وفوق السرير، تستدعيها ذاكرته حادة واضِحة، في كَامب الإنجليز، فوق فتيات بنبة، وفي معارك الحارات بجانب أبيه، ثم تُسمِعه الوساوس نعيه بصوته:

«رحمة ونور على روح المرحوم عبد القادر شِحَاتة الجن!!».

ثم تحكي له الوساوس عن الأوقات التي ستفوته من بعد الموت، عن بلده الذي سيتطهر من الأنجاس قتلة أبيه ومتوِّجيه بإكليل العار بين أهل حيِّه، وتتحاكى عن «النتايات» التي سيرثها غيره ويرتعون فيهن كيفما شاءوا، عن سيرته التي ستنطمس كشواهد القبور المنسية وعن الجائزة التي ستُمنح لمن يَعثر على رأسه من بعد الانفجار.

وعن دولت.

دولت التي لم يستطع أن ينتقل بها من مَرحلة الصَّيد إلى طور العِشق.. لن يترك فيها بصمة أو يغرس فيها زرعة.. ستتزوج غيره ولن تُسمِّي ابنها بعبد القادر.. ديك أم الحياة كلها.. ينفض هواجسه فتعاود الإلحاح عليه كالذبابة.. تنفخ فيه الجنون.. اهرب.. انفذ بجلدك.. أهي مُوضة السنة أن تموت أيها الأبله؟! هل الكفن هو البدلة الجديدة التي ترغب في اقتنائها؟ سيكشطون أمعاءك من على البلاط المُحدَّب بسكين بسبوسة وستلعق القطط ما تبقى منك...

لحظات وقاطع هواجسه المتشابكة كالأغصان عَربة يَد تحمل أسبتة من كل الأشكال والأحجام.. يَدفعها عجوز بسيط لم يكن من الصعب إدراك أنّه إسحاق.. مُمارسًا دوره الطبيعي في الحياة.. عجوز سخيف يَحمل الموت بين يديه.. اقترب من عبد القادر وأبطأ.. سبت بابني؟ سأله ولم ينتظر إجابة.. التقط من العَربة ثلاثة أسبتة من الخوص مُغلقة بغطاء.. عَرَضَها على عبد القادر الذي رمقه قبل أن يَختار أكبرها حين نَصَحه إسحاق أن يلتقط المتوسِّط.. أخذ عبد القادر السَّبت وناول إسحاق كل النقود التي كانت في جيبه.. ابتسم الأخير قبل أن يَرحل جارًّا عربته.. وَضع عبد القادر السبت بهدوء على الأرض ثم

رفع غطاءه.. العبوة كانت ملفوفة في ورق أصفر.. تشبه لَفّة لَحم مِن الجزّار.. فَضّ الورق من حولها وعاين الدوبارة الغليظة الخارجة من منتصفها قبل أن يضع السبت بين قدميه ويُخرج ساعته لينظر فيها حَصرًا للوقت المُتبقي من عُمره.. عُمره الذي يَنقص مع كل ثانية يومًا كاملًا.. عقرب ملعون يركض كأرنب يفر من صقر مُحلّق.. ترك ساعته وتابع السيّارات والحناطير الداخلة للميدان بقلق سَحق كيانه.. يرمق المَارة مترقبًا ظهور أفراد مكتب الخدمات الذين سيتنشّقون رائِحة الخوف فيه كالكلاب المسعورة.. قبل أن يَعقروه.. استحالت الأرض من تحته جَمرات يقف فوقها كفقراء الهنود.. يتصبب العرق رغم برودة الطقس.. ظل على تلك الحال حتى برز من الشارع ضابط إنجليزي.. تفتت رئتا عبد القادر وتبدّدت أنفاسه حين رآه يُعدّل من وَضع البيريه فوق رأسه قبل أن يتجه ناحيته في خطوات واسِعة.. تحفّزت خلاياه فحمل السَّبت بيد وبالأخرى تحسّس المسدّس الموضوع في ظهره.. لما أصبح الضابط على مسافة مترين منه جذب عبد القادر إبرة ضرب النار.. كان ذلك حين رفع الضابط رأسه ونظر لعبد القادر الذي تنفس الصعداء وهو يتابع عينَي أحمد من تحت البيريه ترمقته في هدوء.. ديك أمّك يا أحمد.. زفرها عبد القادر تمتمة حين ألقى أحمد بإهمال جريدة كانت تحت إبطه قُرب قدمي عبد القادر.. كانت تلك الإشارة تعني أن الموكِب قادِم بعد دقائق مَعدودات.. هَزّ أحمد رأسه طمأنة ثم كبس البيريه على عينيه واختفى في شارع جانبي حين ارتفعت طقطقات الموتوسيكل تتعالى قادمة نحو الميدان.. التقط عبد القادر السَّبت من الأرض وأخرج اللفافة الصفراء مِنه قبل أن يلف الدوبارة على أصابعه

مُتحفزًا.. في اللحظة التالية بَرز موتوسيكل يَحمل الضابط الكشاف.. اقتحم الميدان يفرق الناس ببوق عالٍ ومن ورائه موتوسيكل آخر عليه ضابط يَحمل رشاشًا مُعلقًا بحزام إلى صدره.. ثم ظهرت السيارة.. سوداء لامعة ماركة كاديلاك.. تسير بسُرعة وتحمل بداخلها المَوت.. استعد عبد القادر لسحب الدوبارة حين أصبح الموكب على مرمى البصر.. ميَّز الوزير من بين الزجاج متدثرًا بكوفية وميز بجانبه سكرتيره أصلع الرأس.. حين أصبحت السيارة على بعد ستَّة أمتار التقطت عيناه رأسًا صغيرًا.. رأسًا فوقه شعر مَعقود بضفيرتين في نهاياتهما شرائط حمراء.. نزل عبد القادر تحت الرصيف مقتربًا.. مِترين إضافيين تأكد فيهما أن في السيارة طفلة.. أُسقط في يده فتيبس.. أصابعه قابضة على دوبارة العبوة لا تتحرك.. اعتصر الحَبل الذي يفصِل بين الحياة والموت.. بين عبد القادر والمرحوم عبد القادر.. ثوانٍ ومرَّت السيارة من أمامه.. رمقته الطفلة في بَراءة قبل أن يَختفي ضجيج الموتوسيكلات ولمعَة الكاديلاك ووجه غريمه الذي كان منشغلًا في حديث مع سكرتيره.. دقيقة وقفها عبد القادر مُحاولًا تدارك أنفاسه قبل أن يُرخي أصابعه عن الدوبارة ويَضع القنبلة في السَّبت ويَرحل.. حسب تعليمات إجهاض المهمة تخلص عبد القادر من ملابسه ثم توجه إلى قهوة بميدان العباسية.. هُناك وجد أحمد جَالسًا في بدلة عادية بجانب فِنجان من القهوة وطاولة مفتوحة، وَضع السَّبت تحت الكرسي وجلس فالتف أحمد وفتح الطاولة ثم التقط حجرَي النرد.. اتخذ الأمر مِن عبد القادر دقائق لينقشع عنه الذهول قبل أن يتكلم:

- أنا...

قاطعه أحمد: صح إنك ما نفّذتش.. الأطفال مش هَدفنا.

- لا أنا كنت هاقولك إن أنا كنت هاضربك بالنار وأنت بالبدلة الإنجليزي.

- تضرب ظابط من غير ما يتعرض لك؟ وإنجليزي؟

- أعصابي ما كانتش مِستحملة.

رَمى أحمد حَجرَي النرد فأتى بواحدين فنظر لعبد القادر: المرَّة الجَاية ما تتسرعش.. ولّا مَفيش مرّة جاية؟

رمقه الأخير لدقيقة كاملة قبل أن يلتقط الحجرين ويلقيهما.. استقرتا على ستتين فابتسم ثم أردف:

- زي ما إحنا.. بالنسبة للأمانة؟

- سيبها في مَكانها تحت الترابيزة لما تقوم.. بُكرة مَعادنا في نفس الوقت والمكان.. هتلاقي شنطة جنب رجلي فيها اللبس الجديد.. شِد حيلك.

هز عبد القادر رأسه وقام.. تابعه أحمد حتى اختفى.



الأحد ٢٢ فبراير ١٩٢٠

قبل سَاعة من مرور محمَّد شفيق باشا وزير الأشغال كان عبد القادر قد استقر في مكانه بين دُكان الدُّخان والمَراحيض العامة، يَرتدي زي عَسكري بوليس كَاملًا وفي يَده عَصا رِجال الدوريات، كأس النبيذ التي احتساها فجرًا كانت مُفيدة في تهدئة أعصابه بجانب سيجارة مستوردة سَاعدت في تنظيم أنفاسه، كُلَّما تمتم بالفاتحة على رَوح أبيه تذهل عيناه في منتصف قراءتها ويتشتت تفكيره فينسى أين توقف فيُعيد قِراءتها من البِداية حتى ينفد صَبره فيسبَّ الدين! ثم يستغفر الله فيقرأ الفاتحة.

مرَّت ربع ساعة مَارس خلالها فحص المَارين قبل أن تلتقط عَيناه مُخبرًا من مُخبري مَكتب الخدمَات، عَرفه من الصور التي زوَّده بها أحمد، لفَّ الرجل حول المِيدان ثم توقف ونزل عن الدراجة، عَدل من طربوشه ومَسَح بعينيه الميدان تأمينًا قبل أن ينظر لعبد القادر مَليًّا ثم يُحيِّيه بهزة رأس، ردَّها الأخير وهو يَلف العصا بثًّا للثقة، كان ذلك حين اقترب ماسح أحذية عجوز سخيف يَحمل الموت بين يديه، لم يكن بالطبع سوى إسحاق، اقترب من عبد القادر وأبطأ، وَضع صندوقه بجانب قدم الأخير ثم سأله: تلمَّع يا حضرة؟ لم يردف عبد القادر..

عيناه لم تفارقا مُخبر مكتب الخدمات، رفع قدمه على الصندوق فأخذ إسحاق يُلمّع الحِذاء مُندمجًا قبل أن يَهمس:

- اعمل نفسك بتديني فلوس.

أخرج عبد القادر نقودًا ناولها لإسحاق الذي قام وابتعد كأن عبد القادر قد أمره بشراء شيء.. أنزل عبد القادر قدمه وفحَص الصُّندوق بطرف الحذاء فوجد العبوة الناسفة مُستقرة بداخله.. سَحَب نفسًا عميقًا ونظر للمُخبر فلم يَجده.

- صَباح الخير يا شاويش.

التفت عبد القادر بجانبه فوجد المُخبر.. تمالك نفسه فلكز الصُّندوق بين قدميه وأغلقهما إحكامًا ثم استدار: صَباح الخير يا حَضرة.

- أنت تبع إيه؟

أجابه عبد القادر بثقة حَاول تأكيدها بهزَّة من عَصاه: تُمن الأزبكية.

- اسم الكريم إيه؟

ارتجل عبد القادر: إسحاق.

- إسحاق إيه؟

- إسحاق... حنا.

- إسحاق.. حنا؟ عَاشت الاسامي!

قالها الرجل مبتسمًا وهو يتأمل مَلامِح عبد القادر وجَسده المَفتول قبل أن يردف:

- وأنت قديم بقة في الأزبكية؟

- يوووه.

أشاح الرَّجل بوجهه جِهة الميدان ثم أشعل سيجَارة تأمَّل من بين دُخانها جَسد عبد القادر المَفتول الذي لا يتفق مع هيئة تلك الفئة من رجال البوليس المهمشين، تابع خيط عَرق مضطربًا يَسيل من تحت طربوشه على ذقنه فسأله:

- أنت مع البكباشي سِراج عبد العال بقة؟

هز عبد القادر رأسه مُغمضًا عَينيه تأكيدًا: أيوة.

ألقى الرجل سيجارته والتفت لعبد القادر: لكن البكباشي سِراج عبد العال اتنقل الصعيد من تلات سنين!

تحسَّس عبد القادر مُسدسه الموضوع في حزام خصره وهو يرمق المُخبر.. لحظة لم تطل قبل أن يقاطع حديثهما ضابط بريطاني بلهجة صَارمة:

- ماذا تفعلون هُنا؟

اعتدل المخبر كمن مسَّته الكهرباء ثم أجاب: أنا من قوة مُراقبة المَنطقة يا فندِم.. مَكتب الخدمات.

- هل تُدركان أن مَوكب الوزير على وشك الوصول بعد دقائق؟

أجابه المُخبر وقد توغَّل الارتباك فيه: أعرف يا فندم.

- إذن لماذا لم تتخذا أهبة الاستعداد؟

- يا فندِم أصل الفرد ده...

قاطعه الضابط الإنجليزي بصرامة: لا وقت عندي للترهات.. تفضلا كلٌّ إلى موقعه.

تيس المُخبر.. بدَّل نظره بين الشاويش المَشكوك في أمره والإنجليزي الغاضِب الذي نهره: هيًّا.. تحرَّك يا أبله.

عَبر المُخبر الميدان ثم وقف في مكان يكشف القادم من الشارع. لم تترك عيناه عبد القادر الذي اقترب منه الضابط الإنجليزي وهمس:

- كنت عاوز تضربني بالمسدس إمبارح هه؟

ابتسم عبد القادر ولم يُعقِّب فأردف أحمد:

- مَوكب الوزير جَاي بعد دقيقة واحدة.. أنا وراك.. ما تخافش.

هزَّ عبد القادر رأسه حين سَمع الطقطقة ثم بَرز موتوسيكل الضابط الكشَّاف ومن ورائه موتوسيكل يَحمل رشاشًا مُعلقًا إلى صدر ضابط آخر.. ثم لاحت السيَّارة السوداء.. لامعة مَاركة كاديلاك.. تهدَّجت أنفاس عبد القادر فانحنى على صُندوق التلميع.. سَحب العبوة وأمسك بالدوبارة.. جحظت عينا المُخبر وهو يتأمل زميله المزيف.. نزل عبد القادر تحت الرصيف مُقتربًا من خط سير السيارة.. نظر خلف الزجاج فشاهد الهدف وبجانبه سكرتيره.. لا أطفال ولا شيوخ ولا نساء بجانبه.. بلغت ضربات قلب عبد القادر حد الجنون فتلجَّم لسانه حتَّى عن نطق الشهادة.. كان ذلك حين عَبر المُخبر الشارع مُسرعًا الخُطى.. مُتأخرًا.. مِن مدخل بيت يَحتل ناصِية شارع النزهة تابع أحمد ما حدث.. حين باتت سيارة الوزير على بعد أربعة أمتار من عبد القادر جَذب الدوبارة فأيقظ العبوة النائمة.. رَفع يَده عَاليًا ملقيًا بها تجاه السيَّارة وهو يتأمل وجه الوزير الذي جحظت عيناه.

قبل أن يدوي الانفجار...

انفجار أرعَش زُجاج الفَصل الذي تدرُس فيه دَولت بمَدرسة الهلال.. كانت جَالسة على كُرسيها خَلف مَكتب خَشبي بجَانب سبُّورة لم تكتب عليها سوى تاريخ اليوم.. ٢٢ فبراير ١٩٢٠م - ٢ جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ.. شَاردة في سَاعة حائِط مُعلَّقة تأملت فيها عقرَب الثواني حتى دوى الانفجار.. ارتج الفَصل فنفضت التلميذات ثرثرتهن وقُمن بفَزع يتكوَّمن وَراء النوافذ العالية يُتابعن الشَّارع الذي يركض فيه الناس ناحِية الميدان.. غرقت عَينا دولت ففتحت كفَّها عن صُورة صَغيرة.. صُورة لعبد القادر يقف باعتزاز أمام سيارته الكروسلي التي طالما تحدث عن أمجادها.. صورة تركها يَومًا على كَنبة الحَنطور سَهوًا أو عَمدًا.. تأملت ابتسامته الواثِقة قبل أن تتمالك نفسها وتقوم ناحية النافذة مزيحة الفتيات لتبدو طبيعيةً في رد الفِعل.. وربَّما تلمحه يَركُض ناحية المدرسة يَطلب الاختباء.. أقسمت.. لو عاش لتكف عن صدِّه بجفاء.. لتكف عن مُقاومته فمُقاومته لم تزدها سوى رغبة فيه.. تفحصَّت وجوه الناس الراكِضة تبحث عمَّن يَسير عَكس اتجاههم.. ناحيتها.. لَحظات ودَخل الفصل بواب المدرسة يَلهث.. نظر في عينَي دولت: آنسة دولت.. المديرة بتقول محدِّش يتحرك من الفصل.. وفيه أستاذ تحت ع الباب طَالب يقابلك.

اقتنع قلب دَولت بالنبض ثانية ووافقت رِئتاها أن تتنفسا.. أغلقت باب الفصل وركضت في الطرقة الطويلة خلف البواب قبل أن تقفز السَّلالم.. كادت أن تتعثر في حَبرتها الواسِعة حتى وَصلت إلى الباب الكبير.. كان يقف بانتظارها وفي عَينيه التيه الذي رأته فيها آخر

مَرّة.. الذنب الذي لن يُكفِّر عنه جَحيم بزبانيته.. اقتربت منه مُحاولة استيعاب وُجوده.

- ياسين! إيه اللي جَابك يا ياسين؟ حُصل حَاجة في البلد يا خوي؟ أمي بخير؟

أفاق من شروده: بخير.. عَاوز أتحدَّث مَعاكي.

تطلعت وَراءه بقلق عَارم مُتابعة الشَّارع والمَارة الذين يُسرعون ناحية الميدان قبل أن تُردِف: مَا جولتش إنَّك چاي يَعني!

- مَا دريتش بنفسي إلا وأنا في الجَطر.

بهلع نظرت وراء كتفه: ياسين.. مش هَاعرف أتحدث مَعاك دلوقيتي.. ارجع البلد الله يرضى عليك عشان أمَّك وأوعِدك هانزل آخر الأسبوع أتحدث معاك كيف ما بتريد.

قالتها وأمسكت بمِرفقه تدفعه إلى باب المَدرسة الكبير.

قبل دقائق طَار عبد القادر ثلاثة أمتار إلى الوراء.. زحف بظهره على الأرض حتَّى اصطدَم بكُشك السَّجائر الذي تبعثرت بضاعته من أثر الانفجار.. ارتجَّت رأسه وصُمَّت أذناه.. تشوَّشت عَيناه وأعماها الدُّخان الخانِق ورغم ذلك لَمَح السيارة السوداء تبتعِد.. انفجرت عَجلتها الخلفية وتكسر زجاجها ليصيب الوزير لكنها تبتعد مُسرعة. بصُعوبة جلس مُحاولًا استيعاب ما حدث.. رفع كفَّه إلى جرح في جَبهته انهمرت منه دِماء اخترقت رُموشه صَابغة المشهد أمامَه بالأحمر القاني.. لكنه ميَّز المُخبر.. يقوم مِن الأرض مختل التوازن ثم يتحرَّك نحوَه شَاهرًا هِراوة غليظة يَعرف عبد القادر تمامًا وقعها على الرأس.

نادت أعصابه عليه لينتفض فلم يستجب.. شهق نفسًا فلم يستقبله صدره.. بات المُخبر على بُعد أمتار منه فرفع هراوته وهو يصيح بسبّة لم تصل إلى أذنيه.. أغمض عبد القادر عينيه مستسلمًا لخبطة لم تصل.. حين فتحهما وجد المُخبر متكومًا بجانبه بعد أن تلقى ضربة رَضّت فيه شيئًا مَا.. نظر يمينه فرأى أحمد يَجذب ياقته مُستحثًا إياه أن يقوم.. استجاب عبد القادر بصُعوبة وهو يَستقبل أول الأصوات في أذنيه.. خَافتة مرتعشة لكنّها كافية ليتأكد أنه حيٌّ..

الخطة «ب».. اركض.

قام عبد القادر مُستندًا على أحمد وركضا تجاه شارع النزهة.. اخترقا ذهول الناس وفضولهم يمشون عَكس الاتجاه لا تكاد العيون تنتبّه لهُما.. حِين بلغا الخرابة توقف أحمد على بُعد أمتار يُراقب عبد القادر الذي دَخلها.. زميل كِفاح خلع عنه سُترته السّوداء والطربوش.. ألبسه سترة رمادية وكاسكيت أخفت جرح جبهته وأخذ منه المسدّس حسب التعليمات.. خرج بعدها عبد القادر فأشار له أحمَد أن يُكمل السّير في نفس الاتجاه.. مَشيا حَسب الخطّة حتّى لَمَحا المَدرسة.. كان ذلك حين التقط أحمد صِياح المُخبر من ورائه.. يُزيح الناس ومن خلفه رَجلا بوليس انضمّا إليه من العَدم وملأ الأجواء صفيرًا.. مَد عبد القادر خُطواته مقاومًا الترنح ومن ورائه أحمد.. يتابع الدماء التي تنهمر على عُنُق زميله.. التفت فوَجد المُخبر قد اقترب مع زميليه فنظر إلى شَارع مُزدحم متفرع من شَارع النُّزهة ثم صَاح في الناس بعربية ركيكة: الرجل اللي رمى القنبلة هناك.. وأشار بيده إلى كومة من البشر يَسيرون.. هرع الناس كسِرب سَمك متناغم إلى الشّارع.. سَحبت مَوجة البشر زميلَي

المُخبر وإن أكمل الأخير طريقه في نفس الاتجاه.. خلف عبد القادر.. يُوقف الناس ويتفحص الوُجوه بحثًا عنه.. خلع أحمد سُترته الإنجليزية وقبّعته فألقاهما في صُندوق زبالة ورفع ياقته.. بدا بدون طربوش كأفندي نسي قواعد اللياقة.. سَار مُسرعًا متابعًا عبد القادر حتى أمسك بمِرفقه وانعطف به تجاه مدخل المَدرسة.. أشار إلى الباب ثم التفت خلفه ووقف في رُكن غائر في الحائِط.. كان ذلك حين انعطف المُخبر.. انتظره أن يَعبُر أمامه ثم ناداه:

- يا حضرة.

التفت المُخبر فتلقى لكمَة خاطفة في ذقنه أخلت بتوازنه للحظات كانت كَفيلة أن لا يلحظ عبد القادر وهو يدلف إلى المَدرسة.. تلقاه أحمد بين يديه وأسدله على الأرض ثم أشار لجَمع من الناس يقفون على بعد: يا إخوانّا الراجل سُورق الله يكرمكم.. أقرب اسبتالية.

ألقاه أحمد بين أيديهم خَائر القوى ثم عبر الشارع وتوارى خلف شجرة.. في تلك اللحظة صار عبد القادر أمام دولت وَجهًا لوجه.. كانت مُمسكة برُسغ شاب صَعيدي شارِد يَرتدي جلبابًا دَاكنًا ويَحمل مَلامِحها.. لما رأته تصارعت الفرحة في وجهها والقلق.. التفتت إلى ياسين وقالت:

- ارجع البلد الله يرضى عليك عشان أمّك وأوعِدك هانزل آخر الأسبوع أتحدث معاك كيف ما بتريد.

قالتها ودفعته برفق خارج المدرسة مُطمئنة إياه بعينيها أن لا يقلق وأشارت لبواب المدرسة: اقفل الباب يا عم عاشور.

تابعها ياسين في ذهول وهي تُساند عبد القادر الذي يترنّح بَين يَديها.. التفتت إليه وهزّت رأسها بابتسامة حتّى وراه الباب فسحَبت عبد القادر إلى غرفة تقع تحت بئر سلّم.. أغلقت الباب عليهما وأمسَكت بوجهه تتأمل عَينه التي امتلأ بيَاضها بالدّم، وجرح جَبهته النازف.. أنت كويس؟ سألته فهز رأسه نفيًا ثم أردف بإعياء: أنا بحبك يا دولت.. تيبست للحظة ثم أفاقت فأخرجت مِنديلًا من جيب حبرتها وكَبسته على الجرح فيما كان يتأملها بوَهَن وعينين تخبوان.. أجلسته على الأرض وراء بيانو كبير: مَا تتحركش لغاية ما أرجع.. هز رأسه بضعف فخَرَجَت وأغلقت الباب بالمفتاح.. صَعدت إلى فصلها تتأمل من شبابيكه قوّات البُوليس وهي تمشّط المنطقة بَحثًا.. على الرصيف المقابل كان أحمد واقفًا خلف الشجرة.. يتابع باب المدرسة والشارع والمُخبر الذي بَدأ يفيق بَين أيدي الناس.. حَاول السَّيطرة على انفِعاله حين لحِق به زميلاه مِن البُوليس ليوقفاه عَلى قدمَيه ويستفهما.. أشار المُخبر بيد إلى باب المَدرسة وبيده الأخرى للاتجاه المُعاكِس فتفرقا كلٌّ إلى وجهته.. راقب أحمد المُخبر وزميله يقتربان من باب المَدرسة حين اصطدما بشَاب صَعيدي خارج منه.. أمسكاه فبدا في أيديهما ذاهلًا مُريبًا.. خلع المُخبر لبدته من فوق رأسه وألقاها أرضًا ثم أمسك أذنيه ليفحَص وَجهه فتشنج الصعيدي وعبست ملامحه قبل أن يدفعه.. أوقعوه أرضًا وكبلوا يَديه خلف ظهره ونُفخت صفارة.. لحظات وحضر رجل بوليس آخر استلم الصعيدي.. أما المُخبر فضرب باب المدرسة عدّة مرات.. انفتح فتبادل مع البواب كَلمتين قبل أن ينحيه بقوّة ليَدخلا.. نظر أحمد لدَولت في الشباك.. شَحب لونها حين

فهمت.. خرج رَجُل البوليس ونفخ صفارته عدّة مرات فجذبت زملاءه الذين انتشروا في المنطقة كالنمل.. هرولوا إلى المدرسة فهوى قلب دولت وهي تنزل السلَّم بحذر وسط موجة الطالبات تراقب البواب بين أيدي رجال البوليس يُمسكون ياقته ويُكيلون له التهديد والوعيد.. بَادلها نظرة يأس وهو يتابعهم يحومون حول الغرفة التي يقبع فيها عبد القادر.. شهروا الأسلحة وصَاحوا أن سلِّم نفسك.. وأن المَكان مُحاصر.. ثم استجمعوا أمرهم وضرب أحدهم الباب بكَعب بندقيته قبل أن يَدخلوا مُسرعين.. لم تسمع دولت مقاومة أو أنينًا.. فقط وقْع خبطة على رأس.. لحَظات من الصمت خرج بَعدها رجلان يَجران عبد القادر من قدميه.. يَداه مقطورتان خلفه وجَسده مَرخي والدماء ترسم من خلف رأسه خطًا متعرجًا على البلاط.. بصُعوبة كتمت شهقتها تحت البرقع وتكومت التلميذات من حَولها يتابعن المشهد المثير قبل أن يتابعه أحمد في الشارع وهُم يَسحبوه إلى سيارة تنتظره أمام الباب.

سري.. نمرة ١٣٢

القاهرة في ٦ مارس سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- غادر صَباحًا من مِيناء القاهرة الجَوي اللورد «مِلنر» رئيس لَجنة التحقيقات في أسباب الثورة.. اتجه إلى لندن مع أفراد لجنته بعد أن أنهى تحقيقاته والتي لم يجد فيها أي تعاون من أي مصري شريف.

- لدي مَعلومات تفيد بأنه سيقدِّم تقريره للملك في لوندره[1] ثم يفتح المفاوضات مع الحكومة المصرية متجنبًا الوفد.

- تم تغيير أسلوب المراقبة على أعضاء الوفد ونتوقع اعتقالات في المرحلة المقبلة.. سيتم إخطار سيادتكم بالأسماء المُقترحة لحل محلنا في حالة الاعتقال.

- تم إعلان الرقابة على الصحف من جديد.

عبد الرحمن فهمي

(١) لوندره: لندن.

لندن.. الدور الثالث من فندق سافوي

الساعة السَّادسة مساءً

انعكست صُورة سَعد زغلول على زُجاج النافذة، في كَامل هندامه رغم الإرهاق المتوغل في مَلامِحه، شَاردًا يَحشو بفرته تبغًا وهو يَرمق جسر «واترلو» المُتهالك العَابر فوق نَهر التايمز، الثلوج كَسَت أشجار حَديقة فيكتوريا العَامرة وأسطُح الأبنية وقبعات المارَّة، أشعل تبغه ثم سَحب نفسًا وهو يُراجِع في قرارة نفسه مَا آل إليه أمر وفده، منذ حَضر إلى باريس وهم يُعاملون مُعاملة الدُّول المَغلوبة في الحرب، رُفض استقبالهم في المُؤتمر وحُرِموا من حَق تقرير المَصير الذي نالته دول أخرى أقل أهمية، هذا بخِلاف تجسُّس الإنجليز عليهم في كل لحظة ورفض مَنحهم حَق التحرُّك إلى أنحاء أوربا لإعاقتهم عن عَرض قضيتهم، خَريف سَريع زَحَف على حلم الاستقلال ونفوس أصدقائه ومُعاونيه، حَاصرهم اليأس، يلمس اصفرارهم بين يَديه يَومًا بعد يوم كأوراق شَجر مَاضية إلى ذُبول، مِما اضطره إلى فَصل بعض الأعضاء الجزعين لتأثيرهم السَّلبي على البقية التي تقاوم الجَفاء والتجاهل اللذَيْن مَارَستهمَا وُفود الدول، رِجال بَاردون مُختالون كالإوز دعَاهم الوفد إلى اجتماعات ومآدِب موَّلتها تبرُّعات الأمة لعَرض قضيةِ مِصر ورغبتها في الاستقلال، دعوة لم يُجبها إلا مندوب إيطاليا مُجاملة

رفضها الباقون بدبلوماسية! أما الجَرائد فأغلبيتها مُوالية للإنجليز، تطعَن الوفد بادعَاءات فحواها أنه حَركة مُوجَّهة في الأصل ضِد المُواطِن الأوربي، وأنها ذات صِبغة دينية عُنصرية! كان ذلك قبل أن تنتهي لجنة التحقيقات بقيادة وَزير المُستعمَرات «ألفريد مِلنر» من صُنع مَلف تحقيق عمَّا حدث أثناء الثورة، وتُقرر فتح المُفاوضات مَع مِصر، ليس مع سعد زغلول بل مع الحكومة المصرية متمثلة في شخص «عدلي باشا يكن».

أيقن سَعد أن اللعبة مماطلة، سياسة يُمارسها الإنجليز منذ احتلوا مِصر، مَا أسهل صُنع شرخ بين ضفتي أمة راكِعة، حُكومة وشعبًا، أعضاء وفد، تنثر بذور الخِلاف فتتوه الآراء وتشتعل منافسات السطوة، كان عليه الاختيار، إما التصميم على أن المُفاوضات لا يَصح أن تتجاوز الوفد الذي فوَّضته الأمة بالتوكيلات، أو أن يندمِج مع مُمثِّل الحكومة الرسمي حتَّى يفوِّت الفرصة على الإنجليز في دَق إزميل الشقاق.

قطع أفكار سعد خبط على الباب، دلف شاب شعره مَفروق بسِكين ويَداه مثلَّجتان رغم القفاز الذي صَافح به سَعد:

-مَساء الخير يا سيدي.. الفيكونت[1] «مِلنر» ينتظرك في الصالون.

تبعه سَعد في طرقة طويلة ثم مِصعد نزل بهما إلى الدور الثاني قبل أن يتوقفا أمام باب جَرار لصَالون فخم، التفت الشاب لسَعد ثم

ضَم كفَّيه في ابتهال مُهذَّب وهَمَس: سيكون كَرمًا من سيادتك أن تطفئ السيجارة.

رَمَقه سَعد بهدوء قبل أن يَسحَب من السيجارة نفسًا طويلًا جدًّا ثم يَدفنها في رِمال مِطفأة نحاسية محَاولًا السيطرة على أعصابه، ابتسم الشاب ثم جَذب الباب الجرَّار، في الداخل كان الفيكونت «مِلنر» يَجلس في كُرسي وثير غَاطِس من الجلد الكابيتونيه، رجل في أواخر العقد السادس، عيناه حادتان جريئتان وشاربه كثيف ينافس شارب سَعد، يرتدي بدلة كُحلية مقلمة تحتها صديري وفي يده أوراق يُطالعها عَبر نظّارة مُستديرة انزلقت على أنفه وبيده الأخرى سيجار مُشتعل!

التفت سَعد بغتة للشاب الذي طلب منه إطفاء السيجارة فلم يُدركه، كان قد أغلق الباب عليهما، انتبه مِلنر لصوت الباب فنحى الأوراق جَانبًا وقام مَادًّا يدًا كَسولة إلى سعد:

- سَعد باشا.. سعيد بمقابلتك.

- أشكرك يا سيادة الفيكونت.. كنت أظن قبل أن أدخل أنَّك لا تُدخِّن! سكرتيرك للتو طلب منِّي إطفاء...!

قاطعه الرجل: نعم نعم.. غريب أنني أدخِّن الآن أمامك.. لكنني في الواقِع أكره دخَّان الآخرين.. يَكون مُحمَّلًا بثاني أوكسيد الكربون.. عَبَق أنفاسهم.. وضَغائن يحلو لهم أن ينفسوها في سَقف غرفتي.. لكن اسمح لي...

قطَع الرجُل كلماته واتجه إلى صُندوق خَشبي فتحه وأخرج منه سِيجارًا ثمينًا.. التقط مقصَلة صَغيرة من فوق المكتب قطع بها طَرفه ثم لوح به إلى سَعد.

- أنت ضَيف استثنائي يا سَعد باشا.

نظر سَعد في عينَي الإنجليزي لحظَة طَالت حتى أناخ الرَّجل السِيجار بين أصابعه وابتسم ثم تمشى إلى منضدة تحمل زجاجات:

- يبدو أنك تفضِّل السيجَارة المُعتادة.. لعلَّك تُريد كأسًا؟ نبيذ؟ سكوتش؟

- أشكرك.

- كما تريد.. كيف حال صحّتك؟ سمعت أنها مُعتلَّة قليلًا.

- طقس لندن لا يُفيدني.. لكنني أتحسن.

- تمنياتي لك بدوام الصحَّة يا باشا.. لنجلس.

صبَّ الرجل لنفسه كأسًا ثم جلس بجانب سعد.. قرأ عِدَّة أسطر من أوراقه مُتظاهرًا بالانشغال ثم وضعها جانبًا وخلع نظارته:

- مِستر ديفيد لويد جورج رئيس الوزراء يُرسل إليك تحياته.. كان يُريد أن يُقابلك لكنك بالطبع تتخيل ازدحام جَدوله.. هَل تستمتع بالإقامة في لندن أنت ورفاقك؟

- تستطيع أن تسأل عيونكم التي تحوم حَولنا طوال الوقت.

- حِماية الوفد المصري من أولوياتنا يا باشا.. قل لي.. إلى أين ينوي وَفدك أن يتَّجه بعد لندن؟ عودة إلى مِصر؟

- ليس بَعد أن نجد مُستمعًا رشيدًا يؤمن أن مِصر تستحق مكانها تحت نور الشمس.. وأن تعترفوا صراحة بإلغاء الحِماية بلا مماطلة أو تملُّص.

- دعنا من الديباجات السياسيَّة التي تقولونها للصَّحافيين في مآدِبكم يا باشا.. ألا ترى مَعي أن الذي حدث في الشهور المَاضية يُعد مُعجِزة.. يتم اعتقالكم في مارس ١٩١٩ ثم يتم الإفراج عنكم بعد شهر.. والآن ترون أنفسكم في لندن تُستقبلون استقبالًا لم تعهدوه.. أليست الحياة مليئة بالمُفاجآت السَّارة؟!

- أولًا.. اعتقالكم لنا ليس بمِنَّة تُشكرون عليها.. ثانيًا.. استقبالكم لنا في بلدكم لَيس مُعجزة بل هِي مُفاوضات مُلزِمة.. ثالثًا.. كلماتي تلك ليسَت ديباجات سياسية بل هي مطالب أمة وتحفظاتها على مذكّرتكم التي قدمتموها والتي تُرسّخ الاحتلال والحماية بمُسمَّيات مُختلفة.. نحن هنا نبحث عن حق ضَائِع وقانون يَحمي أمّة تُعاني.

خلع الرجل نظارته وابتسم: كيف لم تهيئ لك خِبرتك الطويلة أن تعرف أن مِصر ليست بعد دولة قادرة على إدارة نفسها؟

- أقوانينك تُهيئ لك إصدَار أحكام نِهائية على الشعوب وتحديد مَصائرهم؟!

- فيما عدا الوَصَايا العشر التي نزلت من السماء كل قانون هو أمر نِسبي يتغير مع الزمن.. يَضعه الأقوى حَسبما يَجِد المَصلحة العَامة التي يَراها بشكل أكثر وضوحًا.

- مَصلحة إنجلترا الشَّخصية.

- مَصلحة إنجلترا هي مَصلَحة مِصر.

احتد سعد: تلك هي الديباجات الصحفية.

- في الأيام القادِمة ستشاهد الوَضع الاقتصادي في مِصر وكيف سيتغير للأفضل تحت إشرافنا.. ولا تُنكِر أن مِصر استفادت الكثير طوال الحرب.. على الأقل سددت الكثير من ديونها لفرنسا ولإنجلترا.

- استفاد أغنياء الحرب.. أما الفقراء فأكلوا التراب.. هناك ما يزيد على مليون شَخص أُخذوا من أراضيهم ومَاتوا في خدمة جيوشك.. الرَّب لا يَرضى عن تلك المَهانة.

- دَع الرَّب جانبًا فلا شأن له بتلك المَسألة.. فالله لو رآها فكرة ظالمة لتكلَّم.. أما عن الذين ماتوا فهي الحرب يا عزيزي.. كما أن السُّلطة العَسكرية دفعت لهم الرواتب مُقابل خدماتهم.

- هُراء.. ذهبوا بالسُّخرة وماتوا بلا ثمن.. وجودكم أصبح غير مَرغوب فيه.

- الوُجود البريطاني طِفل تمَّت ولادته مُنذ ثلاثة وثلاثين عَامًا الآن...

قاطعه سعد: طِفل غير شَرعي.

- لكنه وُلِد.. وكبر.. هل تستطيع أن تقتل طِفلًا غير شَرعي.. يجب أن تتعلم التعامل مَعه.. بجانب أنه أخذ على عاتقه إدارة بلادكم بمنتهى الحِكمة.. هل تتخيل أمر مِصر إذا دخلت الحرب الكبرى بدون راع يَعمل على حِمايتها؟ هل تفضِّل الرجوع تحت العباءة العُثمانية من جديد؟ بلادكم يا باشا ومركزها الجغرافي يَجعلها عُرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها.

- فقررتم أنتم يا فاعلي الخير أن تحتلوها خوفًا عليها.. أرجوك يا سيدي لا تتحايل بالمَعاني فأنت تعلم أن مصر أمَّة جربت

الاستقلال لعقود من قبل ولم تتهاو.. وكلانا يعلم أنكم حين دخلتم مصر دخلتم تحت غِطاء تأديب عُرابي وقمع ثورته.. والآن حجَّتكم انتهت ومَات أصحابها.. لِمَ لا ترجعون بِلادكم وتبقى الصَّداقة فيما بيننا؟

- إنَّك تطلب شَيئًا كبيرًا مُقابل لا شيء.. ماذا ستقدم مصر بالمقابل؟ صَداقة! وماذا تملك مِصر غير الصداقة؟ أي مجنون يرغب في مُعاداة التاج البريطاني بعد النصر الساحق الذي حققناه؟ بأي حال أنا لم أقابلك اليوم لنناقش فلسفة الوُجود البريطاني الذي لا تقدِّرون قيمته فلست أنا الشخص المناسب لتلك المهمَّة...

قاطعه سعد بحدَّة: ومن هو هذا الشخص المُناسب؟ مليكك چورج الخامس؟

- نعم.. ولك أن تسأله بنفسك إن استطعت.

- هذه ليست دِبلوماسية!

- سمِّها ما شئت فكما قُلت لك لم آت لمُناقشة فلسفة الوجود.

قام سعد من مكانه.. أغلق أزرار المِعطف استعدادًا لإنهاء المقابلة: حسنًا لماذا إذن طلبت الاجتماع؟

قام الرجل واتجه لمكتبه: لأن لديَّ رسالة من أجلك.. وعَرضًا.

زفر سَعد في ضيق فأردف الرجل: مِن فضلك.. اجلس.

جلس سَعد فالتقط الرجل مِن فوق مَكتبه تلغرافًا نظر فيه ثم اقترب مِن سَعد وأردف:

- اليوم صَباحًا أرسل لورد أللنبي برقية من مِصر.. بالطبع تعرف فحواها.. قبل العَاشرة صَباحًا حَدثَت مُحاولة اغتيال أخرى لوَزير الأشغال العُمومية مَحمَّد شفيق.. تم القبض على الجَاني وهو شاب اسمه عبد القادر شِحَاتة.. يُعاني ارتجاجًا في المُخ وسيتم استجوابه قريبًا بسجن الاستئناف.. بالطَّبع سيَرفض الاعتراف بأنه يَنتمي لمنظمة اليَد السَّوداء.

- وما شأني بذلك؟

- هل تنكر مَعرفتك بمنظمة اليَد السوداء؟

- هل هذا تحقيق؟

- هل تدرك كيف تضر الأعمال الطائشة بالقضية؟

- لا أستطيع لوم من يَرى أن تولي الوزارة بعد كل ما حَدث في مارس الماضي هو الخيانة بعَينها.

- لا تنسَ أنّك توليت وزارتين من قبل يا باشا.

- هذا صَحيح.. كنت أعمل من أجل مَصلحة بلادي حين كنتم تتوغلون في المَناصب التي تصُب كلها في سلّتكم.. كُنا نؤمل فيكم خيرًا ونظنكم تعتزمون الرَّحيل فإذا بكم تعزلون الخديوي بأمر من مليككم وتولون سَلطانًا بلا سلطة حقيقية.. رجلًا لا يمثل سيادة مصر بل سيادة إنجلترا.. أي أننا الآن نشاهد چورج الخامس وهو يفاوض چورج الخامس.. ثم تُعلنون الحماية وتخوضون بنا حربًا شعواء كثر فيها جرحانا وموتانا.. وأخيرًا تنوون البقاء بزعم أن مصلحتنا مُشتركة! أي مصلحة مُشتركة

وأنتم تغتصبون ثلاثة عشر مليون نفس فوق ثلاثمائة وخمسين ألف ميل مُربَّع بمواردها؟ تتشدَّقون بمبدأ تقرير المَصير الذي زعم الرئيس الأمريكي أنه حق لكل الشعوب ثم تستثنوننا منه.. لا بد هنا من وقفة يا سيدي الفيكونت.. تولي الوزارة من بعد كل تلك الإهانات يُعد بالفعل خيانة لِمصر.

- إذن أنت توافِق على الاغتيالات السياسية؟

- أنت تبحث عن تُهمة لتلصِقها بالوفد.

- بالنسبة لشَخص اشترك من بعد انقلاب عُرابي في...

قاطعه سعد: حركة عُرابي لم تكن انقلابًا.. قلب وضع مَعكوس يُسمَّى اعتدالًا.

- أيًا كان المُسمَّى.. من اشترك في منظمة تُدعى «الانتقام» بالطبع يَرى الحياة من مَنظور متطرِّف.

- مستر ملنر.. إذا كان لديك تحفظات على شخصي فلِمَ اجتماعنا؟ لِم لَم تتحدَّث مع ممثل الحكومة عَدلي باشا يَكن في ذلك الأمر؟

ظل ملنر صَامتًا يحسب كلماته حتى نغزه سعد:

- إذا كان لديك من أجلي رسالة فمن الأفضل أن تُبلغها.. لا أملك وقتًا للجدال العقيم.

- الرسالة التي أود إبلاغك بها هي أن عيوننا ترصد الاغتيالات بدقَّة وستصل قريبًا إلى خيط متين نتتبعه.. وإن لم تتوقف تلك الأعمال المُتطرفة سيكون لنا رَد فِعل ليس في صَالح وفدك أو القضيَّة.

- أهذه رِسَالة أم تهديد؟

- بل هو الواقع الجديد.. نحن نملك مَعلومات عن كل العَاملين في الوفد.. بِداية من سكرتير اللجنة المركزية السيد عبد الرحمن فهمي لأصغر المُعاونين.. صَدِّقني إذا قلت لك إن مَلفاتهم تتضخم يَومًا بعد يَوم كثورٍ نهم يلتهم كل ما يراه.. مَسألة وقت قبل أن يتم الزجُّ بهم في السُّجون.. إذا أردت برِفاقك خيرًا فلتوجد طريقة للتعاون.

- ومَاذا أنتم فاعلون بعد ذلك؟ أستعتقلون شَعب مِصر كله؟

- أعوانك في الوفد قد يواجِهون تُهمة خيانة عُظمى تصل للإعدام.. وكل من تسول له نفسه الإضرار بمَصَالح الإمبراطورية سيقطع رأسه.

- اقطع رأسًا وسينمو بدلًا منها عشرة.

- أعتقد أنك لا تُدرك خطورة ما تقول يا باشا.

- بل أدرك كل كلمة أتفوه بها.. وقد سمعت رسالتك فما هو العَرض؟

- حسنًا.. العرض هو العَودة لبلدك الذي بالطبع تفتقده.. زوجتك.. بيتك.. تهدئة الأوضَاع والنفوس.. العَمل على الاستقرار والبناء من أجل المصلحة العامة.. المساعدة في إبعاد رفاقك عن السجون.. ورُبَّما لاحِقًا.. المَنافسة المَضمونة على العرش.

- العرش؟

-ولِـم لا؟ فكِّر جيدًا.. ألم تحلُـم يومًا بمِصري يتولى عرش بلاده؟ فلاح بسـيط يَحكم بالعدل.. مَن يسـتطيع ذلك غير سَعد زغلول؟ أنـت رَجُـل ذو شُـهرة ومَكانة لا بأس بهـا.. لِم تُضيِّـع ما تبقَّى مِن عُمرِك بسَبب العِناد؟ لِم لا تختم حياتك بمنصب مرموق واسم يُكتَـب في التاريخ بيـن الزعماء بَدلًا من التمسُّـك بسَراب حَالم تعرف جيدًا أنك لن تجد عِنده مَاءً.

حَدجه سَـعد مُضيقًا عينيـه: إني أفضـل أن أكون خادِمًـا في بلادي المستقلة على أن أكون سلطانًا مُستعبدًا في بلادي المحتلَّة.

-لـم تُخلِف ظنِّي.. عَنيد وحَالم وتعشـق الديباجات الصَّحفية التي تُطبع منشورات لتُقرأ ثم تُلقى على الأرض لتدهسها الخيول.. إن كُنـت خائفًـا من أن يقول المِصريون لقد لفظ سـعد زغلول مَبادئه فأنت لا تعرف الشَّعب المِصري.. عَاش السلطان مَات السُّلطان.. ذلك دستوركم.

-أنت لا تعرف شيئًا عن شعبي.

-ها أنت تقول شعبي.. هذه بداية طيبة.

-وَفِّر على نفسك كلمات لن تجني منها طائلًا يا سيد ملنر.

-بَل وَفِّر على نفسـك وعلى وَفدك عَناء تسـوُّل التبرعات والتسكُّع في أوربا لاسـتجداء التعاطُف.. أتعرف معنى أن تكون سلطانًا؟! لن تكترث للنقود مـن اليوم ولن تَعبأ بقرض بنك «كريديه ليونيه» الـذي يُثقِل كتفيك.. ثمانية آلاف وخمسـمائة جنيه هه؟ ستؤتى

صلاحيات لم تُجَز لأحد من الأسرة المالكة قبلك.. نفوذ حقيقي يجعل منك حَاكِمًا فريدًا من نوعك.. ستفعل ما تشاء كيفما تشاء.. سيُسطر اسمك في التاريخ كأول حَاكم مِصري يَحكم مِصر في العَصر الحديث.. ستُدفن وستُخلَّد ذكراك في ضريح عظيم تأتي من أجله الوفود لإلقاء نظرة على جَسدك بدلا من مقابر قريتك الصغيرة.

رَمَقه سعد للحظات بلا تعبير ثم قام.. أخرج من جيبه عُلبة سَجائره ووَضع واحِدة في فمه.. أشعلها ونفث دخانها باستمتاع في السقف ثم تمشى بهدوء نحو الباب قبل أن يلتفت:

- أتعرف.. قرض «كريديه ليونيه» أصبح سبعة آلاف ومائتي جنيه الآن.

- هل هذا هو ردّك الأخير؟

ابتسم سعد: هو كذلك.

قالها وخرج.. توقف أمام سكرتير الفيكونت ملنر.. رَمَقه بازدراء قبل أن يَسحب من السيجارة نفسًا طَويلًا ثم يُسقِطها على الأرض ويدهسها بنعل حذائه.

بَعد يومين

حمَّام الثلاثاء

البُخـار كَان يَكسـو الهـواء السَّـاكِن، تغذِّيـه مِياه سـاخنة تضُخها مَواسـير تمُـر من تَحـت مُسـتوقد للقِمامة مُجـاور للحمَّام، تشـتعل فيه النفايـات فتنتقل الحرارة إلى المَواسـير التـي تصُب بدورها في مغطس حَجري واسِـع تسـتحم فيه الأجسـاد ثم تسـتلقي من حوله على البلاط عَاريـة إلا من فوط تـداري العَورات، نائمة عَلى وُجوهها في اسـترخاء مُستسـلمة لأيدي رجَال غـلاظ يَفركون جلودها بليف خَشِـن وأحجار تستخلص الخَلايا المُتهالكة والعَرق والإرهَاق لتبث النشوة والنشاط.

عبد الرحمن فهمي كان مُلتحفًا بشكيرًا كَبيرًا لـم يُخف قلقه، يَجلس على مصطَبة حَجَرية في رُكن، صَامتًا عَابسًا كحَجَر، يتأمل رواد المَكان المُنتشين بالبخار ويتابع عَقارب ساعة نحاسية استقرَّت بجانب محفظته ونظارته، دقائق لم تطل حتى حَضَر أحمد يلف خصره بيشكير لم يخف ندبات وخياطـات المعارك القديمة، أبطأ خُطواتـه حين التقت أعينهما فهـزَّ عبـد الرحمـن فهمي رأسـه مطمئنًا فاقتـرب أحمد، جَلـس بجانبه بعـد أن جَـذب مِنشـفـة غطَّى بها شطر وَجهه المُواجه للمغطس وروَّاد الحمـام، لَمَح عَبد الرحمن مَاسـورة مُسـدس مَلفوف حول فخذ أحمد فهمس بدون أن ينظر في وجهه:

- دَاري سِلاحك.

أخفاه أحمد: ليه غيرنا مَكان المقابلة؟

- المُراقبة عليًا اتغيَّرت.. تضاعفت.. فيه حاجة بتحصل.

- اختراق؟

- أو اعتراف.

- عبد القادر ما يعرفش حَاجة عن حضرتك.. ولو عِرف ما يتكلِّمش.. أنا واثِق.

- هو جاله ارتجاج وكان في شبه غيبوبة لغاية إمبارح.. مُمكن يكون اتكلم تحت تأثير البنج أو سَألوه أول ما فاق.. المتَّهمين بيكونوا في حالة ضعف وصَراحة في اللحظة دي.. ولو مش هو اللي اتكلم يبقى فيه تسريب حَصَل من حد تاني وده أخطر.. هو مَكان خليِّته كان فين؟

- كافيه ريش.. مع مَاكينة الطباعة.

- ودايرته كانت كَام شخص؟

- أنا وتلاتة.. مِن إمبارح وقفت نشاطهم مُؤقتًا.

- لو جِه اسم كافيه ريش في التحقيقات مكتب الخدمات هايعصروا العمال لغاية ما يعرفوا المترددين.. لازم تتقطع كل صلة بعبد القَادر والمَكان.. هو كان بيبات فين قبل كِده؟

تردد أحمد حين تذكر قصَّة بيت بنبة التي حكاها عبد القادر.. أردف:

- الموضوع مُعقَّد شوية.. ناس مش هايسَاعدوه في شَهادته.

- وبيت أهله؟

- أصعب.. ما راحش هناك من سَنة تقريبًا وكُل أهل الحي عارفين.

- لازم حد يشهد إنه كان بيبات عَنده.. لازِم تتقطع نهائيًّا كل صِلة بيه وبالكافيه.. الاستجواب هَايبدأ من بُكرة بحُضور وُكلاء نيابة مصريين وإنجليز ومِش عارف هايقدر يِستحمل في إيديهم لغاية إمتى.. ده غير إن المحاكمة عسكرية.

أطرق أحمد برأسه للأرض.. الاحتمالات تتخبط في رأسه ككُرة تنس جُن جنونها في غرفة بلا شباك ولا باب.. قطع عبد الرحمن أفكاره: الفترة الجاية لازِم يعرفوا إن واحد بيقع بيطلع بداله عَشرة.. خصوصًا إن الوضع مع أصدقائنا في باريس مش مُطمِئن خالص.. جمود وتراجع.

توترت مَلامِح أحمد فقام وأحكم البشكير على وسطه: هادرِس العَملية الجَاية وأوافي حَضرتك بالتفاصيل.

- خلِّي بالك على نفسك.

رَحَل أحمد مُتخطيًا سَتائر البُخار وفُضول المُستلقين وسَفحًا حَادًّا لا أرض بعده.

بعد أسبوع

غُرفة التحقيقات بسجن الاستئناف

استوى على كُرسيه في هزال وضعف، الأصفاد في قدميه ثقيلة ضيّقة ومربوطة في خصره ويديه، في مُواجهة دَائرة الضُبَّاط المِصريين بالإضافة لوكيل حِكمدار القاهرة آرثر باشا، يُترجم بينهما مُترجم مُعتمد ويُسجِّل الأجوبة كَاتب التحقيقات ومن خَلف كتفيه مُخبران غَليظان، يَصفعانه إذا تبجَّح أو تذمَّر، وإذا لم يفعل شيئًا صَفعاه ليفعل، بَدا في حَالة مُتقلبة بين الغَضَب والإعياء مِن أثر الحَجز الانفرادي وبقايا الارتجاج، حَرب نفسية مَارَسها المحققون ببراعة استحلابًا لمَعلومات لم يَنطِق بِها رَغم فقدانه أغلب أظافِر يَديه وكيِّ تمشَّى على باطِن فَخذيه، بالإضافة لكَدمات السَّحل الباقية من يوم القبض عليه والتي يَصعُب تمييزها عن رُضوض الانفجار الذي خلف له ارتجاجًا جَعله يتقيأ طوال ليلتين ويَستعِر حَرارة حتى حاصرته الهلاوس، زاره أبوه «الجِن» في الزنزانة مرة، صَامتًا مثل آخر عَهده به، صَدره وجَبهته تزيَّنا بالرَّصاصات الإنجليزية ينظر إلى شبَّاك يتسلل مِنه ضوء الشَّمس ليلًا! لم يُكلِّمه لكنه نظر إليه وابتسم ثم أدار وَجهه ثانية قبل أن تتوه ملامِحه في ظلمة الغرفة.. غفا عبد القادر بعدها ثم عاد، عَاد على صَوت نداء

حَـارس يهمس مـن فُرجة في البـاب بِرِسـالة: «اثبت يا عبد القادر وانكر صِلتك بالقهوة».

أثنـاء التحقيق كانت الأسئلة تنطلـق منهم جَميعًا فـي وقت واحِد، كالإعـدام رَميًا بالرَّصـاص الـكُل يتنافـس للفَـوز بالقلـب، تتنوع استفهاماتهم بين السؤال المُباشر والخبيث، أو التهديد، أنكر عبد القادر ألف مرة وُجود شُـركاء له: «أنا ضربت عليه القنبلة عشـان يخاف.. عشان يراعي ربنـا فينا وما يتـولاش الوزارة.. طـب والقنبلة جبتها منين؟ اشتريتها مـن ظابط إنجليزي اسـمه بيتر.. بيتر إيه؟ ما أعرفش.. تقدر توصف شكله؟ الدنيـا كات ضلمة وكان لابـس بيريه.. طيب لون شـعره كان إيه؟ نقول طور يقولـوا احلبـوه! قُلت لابس بيريـه! كنت بتبات فين؟ كنـت ببات كل يوم في مكان.. ليلة الحادثة قضيتها في سـيدنا الحسـين.. إيه صلتك باليد السـوداء؟ «ما أعرفهمش».

ثـم طُـرِق البـاب، دَخَـل أحـد المُخبرين ليَهمـس فـي أذن الضابط بكلمَـات قـام عَلى أثرها وخَرَج، أكمَل الباقون أسـئلتهم لدَقائق قبل أن يَعـود الضابط ومعه رجل يَحمل بين ضلوعه بـذور الطاعون والكوليرا ووباء الإنفلونزا الإسـبانية، دَخل بنِصف شَـال مَكبوس تحت طربوش غَير مُستوٍ، لم يُخفِ وَجهًا متعجنًا أو عَينًا بيَّضها الحَرق، بَث النفور في وُجوه الجالسين قبل أن يقف قرب المكتب الذي يَجلسون خلفه، سَأله الضَابط الذي اصطحبه بعد أن سجَّل اسمه في سِجِل التحقيق.. سلامة عبده نجاتي.. الشهير بـ«سلامة النِّجِس».

- تِعرف الشخص ده؟

- إلا أعرفه.. عبد القادر أفندي.

- إحكي ظروف معرفتك بيه.. واللي أنت قلت لي عليه برَّه.

نَظر سَلامة في وَجه عبد القادر المحتقن فابتسم إليه مُطمئنًا بفم احترقت جوانبه ثم قال:

- عبد القادر كان عِشرة عُمر يا سَعَادة البيه.. زبوني.. راجل كسيب وغاوي.. حَاكِم أنا عَندي بيت مرخَّص في دَرب طِياب.. القصد.. عبد القادر أفندي بعد أبوه الله يرحمه ما مات في المظاهرة...

قاطعه الضابط آرثر الذي تكلم لأول مرّة منذ بدء التحقيقات: مُظاهرة؟ سألها بعربية سليمة.

- أيوة يا سعادة الباشا.. المُظاهرة اللي كانت طالعة على بيت سَعد باشا في مارس.. حَاكِم أبوه كان فتوَّة كبير.. وشهرته الجِن.

حين تُرجِمَت تلك المَعلومة لآرثر انتبه.. نَظر إلى عبد القادر متلمسًا مَلامِح والده الذي عَرفه زمنًا قبل أن يقتله بيده.

أكمل سلامة:

- شوف يا باشا بقى البني آدم وقِلَّة الأصل.. بعد ما مات أبوه أوبناه وصَرفنا عليه لأنه ما كانش ينفع يرجع حتّته حاكِم كان بيشتغل مع مُعسكر إسماعيلية والأهالي غضبانين حبتين.. الكلام ده كان قبل ما يهاجمه بمترليوز.. وفي يوم أخشع البيه ابن الأصول ألاقيه بيحشي قنبلة بالبارود.. بتعمل إيه يا عبد القادر أفندي؟ أنا لازم أموت الخونة اللي كانوا السبب في موت أبويا وسمعته بيبرطم

باسم سعادة البيه الوزير.. يا عبد القادر أفندي اعقل يا عبد القادر أفندي ما يصحّش.. راسُه وألف جزمة يعمل عَملته.. بعيد عنك يا سعادة البيه الدوي ع الودن أمر من السحر.. هو ليه أصحاب تشوفهم تشوف الخبل كِده في عنيهم ما تفهم شياطين ولّا مدرك إيه.. المهم.. رُحت طارده وقلت له هابلغ البوليس.. وعنها...

رمقه عبد القادر بلا تعبير.. خلايا جَسده كانت تستعِر ثم تنفجر واحدة واحدة بصَوت مَسموع.. أكمل سلامة روايته في يقين:

- يقوم يعمل إيه؟ يضربني بلمبة مولعة جاز.. زي ما أنت شايف سعادتك.. عاهة مستديمة.

وكشف سَلامة عن حَرقه فامتعض المحققون وأمره الضابط المِصري بتغطية عاهته.. أردف سلامة: الله يسامحه.. ربنا كريم يا سَعادة البيه إن الباشا الوزير سِلِم ووقع البعيد في إيديكم.. كله إلا الدم.. إحنا لينا غيركم عشان نِقِل عقلنا.

وبكى سلامة بحُرقة حقيقية فصَحِبه المُخبر إلى الخارج وهو يردد أن له طلبًا عند الوزير وحلاوة سلامته من الاعتداء.

تم تسجيل شهادته وسؤال عبد القادر عنها.. أفاق من شروده بعد دقيقة وكَف عن جَز أسنانه قبل أن يصرِّح: معرَّص نجس.

تـم إنهاء التحقيقات بدون أن يُسمح لعبد القادر بالاستعانة بمُحامٍ إلا بمُحامٍ إنجليزي عَيَّنوه من أجله ورفض عبد القادر الكلام معه؛ أضيفت شهادة سَلامة ومُخبر مَكتب الخدمات الذي ألقى القبض على

عبد القادر وعسكريّي البوليس اللذين طارداه ولم تفلح النيابة في إقناع أحد من المَارة أو أصحَاب المَحَال بالشهادة على عبد القادر لتأكيد التهمة، رَفضوا تضامنًا مع مَوقفه، بَعدها بيَومين تم تحديد مِيعاد النطق بالحُكم، في نفس اليوم الذي حَضَرت فيه إلى سجن الاستئناف سيِّدة جميلة، طلبت مُقابلة الضَابط المَسئول عن التحقيق مع عبد القادر، جلست أمامه ورفعت الشبك من فوق عينيها ثم قالت بهدوء:

- عبد القادر شِحَاتة يبقى عشيقي.. كان بيبات عندي في الشقَّة.. وكنَّا هانتجوز.

استقر عبد القادر مُكبَّل اليَديـن فوق كُرسـي خَشبي وَسط غُرفة خَالية.. لم يقترب مِنه أحد لسَاعة زمَن سَبَّ فيها كُل مَن حققوا مَعه حتى أُرهِق فطأطأ رأسه على صَدره في صَمت.. لحظات والتقطت أذناه وقع خُطـوات تقترب.. انفتح الباب عنها واقفة بيـن الضابط المِصري الذي استقبلها وآرثر الإنجليزي الذي آثر حضور اللقاء بنفسه.. تَرتدي فُستانًا أحمَـر ميَّـز خصرها.. في رُموشـها كُحل وفي عَينيها عِشق لم يَعهده.. تنحَّى الضَابط المِصري جَانبًا فاندفعت ناحيته والأصفاد في يَديها.. قام مَذهولًا مَحبوس النفس:

- دولت!!

لم يُكمِل.. أغلقت فمه بشفتيها.. أغمضت عَينيها وتنفست فيه.. ثم سَحبت شفتيها وطَعنت خدَّيه وجَبهته وهي تزفـر: «حبيبي» ثم تهمس بجانب أذنه: «جاريني».

همس عبد القادر: إيه اللي جابك هِنا؟

أجابته بصوت يُسمِع من خلفها: ما كانش ينفع أسيبك تأخد حُكم ويفتكروك مُنضم لمنظمة سياسيَّة عشان تداري قصَّة حُبّنا.

أخرَسه تصريحها.. جَاهد عَقله ليستوعِب ما تقوله.. مَجنونة.. نطقتها عيناه فحَركت شفتيها:

- هانروح أنا وأنت في دَاهية!

نَظر خلف كتفيها لآرثر الإنجليزي الذي يَفحص مَلامِحه حين عَاجلته دَولت بصَوت مَسموع:

- أنا بحبَّك يا عبد القادر.. مش مِحتاج تبقى بَطل عَشان أحبك.. إيه اللي عملته ده يا مجنون؟

نظر إلى عَينيها التي ترقرقت مَطَرًا في صَيف قيظ! لا يُمكِن لِتلك الدموع أن تكون كَماليات مَسرحية مُتقنة.. مِثل بَاروكَة وقِناع وأصبَاغ رَخيصَة تُقنِع مُتفرجًا بأن البطلة تفور عِشقًا في البَطل.. السُّخونة التي تزفُرها.. الابتسامة المُترددة التي تُرعِش أسفل وجنتيها.. الصَّمت.. والكلمات بين الكلمات.. اللَّعنة!! أجئت الآن لتنقذيني يا خَمريَّة؟ لتقتليني؟ لا فرق.. فالأقدار شاءت أن أزهد في جميع النساء من أجل طَعنة من تلك الشفاه.. لا بَأس إن كَان وجهك آخر مَشهد في المَسرحية.. لا بأس إذا ضممتك أمام الجمهور قبل أن تنزل الستائر آخر يوم في العرض.. كأنك حبيبتي.. اللَّعنة علي اليوم الذي ظننت نفسي فيه بحَّارًا.. وأنَّك نسمة هواء تحمل عِطرًا مُختلفًا.. لم أعلم وقتها أنك مقدِّمة إعصار.

- ليه؟ ليه يا دولت؟

- مش مُمكن كنت أسيبك.

اكتفى الضابط آرثر بما رآه فسَحَب دَولت من مِرفقها وناولها للضابط المِصري الذي أوقفها بجانبه.. وَضع يَده على كَتف عبد القادر ليجلسه بحيث يَكون ظَهره إلى دَولت.. سَحَب كُرسيًّا قبالته وجَلس يُتابع وَجهيهما قبل أن يُنادي المُترجِم ويشير للكاتب أن يكتب الأجوبة وراءه ثم وجَّه كلامه لعبد القادر: منذ متى وأنت تعرفها؟

- سنة.

- هل تعرف اسمها كاملًا؟ أين تسكن؟

تردَّد عبد القادر للحظة قبل أن يُقرر حَكي قصَّته الحقيقية مَعها. قصَّة عَاشق حفظ تفاصيل مَحبوبته وعدَّ عليها أنفاسها شهورًا:

- دَولَت عَبد الحَفيظ فَهمي.. من أبشاق الغَزال المِنيا.. سَاكنة في شقة إيجَار في الضَّاهر.. مُدرِّسة إنجليزي في مَدرَسة الهِلال.. بتحب شِعر محمود سامي البارودي وعلي الجارم.. وبتسمع الشيخ سيِّد درويش ومحمد عبد الوهاب.

سأل آرثر: علامة مُميِّزة في جسدها؟

- أنت راجِل قليل الحيا.

ابتسم آرثر ابتسامة واسِعة ثم صَفعه بظهر يَده صفعة شديدة.. فتح خَاتم ذهبي يَرتديه جرحًا غَائِرًا في خدِّ عبد القادر.. نظر آرثر لخَاتمه المَحفور فيه اسمه والدِّماء التي خضَّبت حروفه فأخرج من جيبه مِنديلًا مسحه به قبل أن يَسأله:

- هل كُنت تبيت في شقَّتها يوم الحَادث؟

صَمَت عبد القادر للحَظات ثم التف لينظر إلى دَولت فصَرخ فيه آرثر: هل كنت تبيت في شقتها؟

طأطأ عبد القادر وجهه للأرض: أيوة.

- هل تنتمي هي الأخرى لمنظمة اليد السوداء؟

بعصبيَّة رفع رأسه: لا سودا ولا بيضا.. أنا فجَّرت الراجل ده عشان ترجَّعوا سَعد باشا.. ده آخر كلام عندي.

حكَّ آرثر أنفه للحظات: حسنًا.. أخرجوها.. بل اخرجوا جميعًا.

خلت الغرفة فقام ينظر إلى الشَّارع من بين حَديد الشبَّاك للحَظات ثم عَاد إلى عبد القادر الذي نزف جرحه وأردف بهدوء:

- أتعرِف؟ ستذهب مَعك إلى المشنقة.. فهي مُشتركة في الجَريمة بإيواء مُتطرف ومَعرفتها بهدفه.. صدِّقني قد تكون عنوستها هي الدافع الحقيقي خلف إحساس الوطنية المُباغت الذي تُعانيه.. لو تزوَّجتك لنَسيت كُل شيء ولأرادت الاستقرار والإنجاب.. أتمنى أن تكون قد استمتعتْ معك بأي لحظة لطيفة في ذلك العالم البغيض قبل أن تُفارقه.

- دَولت ما تعرفش حاجة.. أنا اشتريت القنبلة وأنا اللي قررت أرميها.

- يا لك من ساذج قصير النظر.. كم تُشبه أباك!

نظر إليه عبد القادر في عدم استيعاب:

- تستغرب أنّي أعرفه؟ سأحكي لكَ القِصَّة أيها البائس.. قصَّة فتوة الحيِّ الذي لم يَكن يومًا ضِد وُجودنا.. فتوة الحيِّ الذي نال سطوة المنطقة بمباركتنا.. فتوة الحي الذي يتقاضى الهِبة الشهرية مني شخصيًا ليشي بأمثالك من الحَالمين الذين يفسدون الحياة بخبراتهم الضئيلة وحماسهم الساذج.. ألم تسمَع منه اسم آرثر باشا وكيل الداخلية من قبل؟

توتَّرت ملامِح عبد القادر.. أردف آرثر:

- لا بُد أنه كَان يَخجل من حَكي تلك القصَّة أمامك.. لكنها الحَقيقة.. أنتم شَعب لا يَقرأ.. لا يفقه.. تأكلون وتنكِرون مثل القطط كما تقولون.. والدك كانَ يتقاضى مني شَخصيًّا راتبه الشهري منذ تولى فتونة مَنطقة النَّاصرية.. هكذا كان الحَال لسنين.. حتى تلفت خَلايا دِماغه تدريجيًا ربما بسَبب الأفيون الذي يَمصّه أو الخمر سيئ الصُّنع.. مِسكين.. المهم أنه انقطع عن زيارتنا.. أعتقد أن السبب كان رغبته في زيادة المُرتَّب.. أو أن جِرار الفخار التي يُخفي فيها النقود لم يعُد لها مَكان تُدفن فيه.. تلك مَرحلة جديدة في عُمر كُل مُرتزق.. تبدأ لديه أعراض الإحساس بالأهمية.. تتحوَّل إلى ندِّية.. ثم عداء كَامل مَصحوب بغباء.. الجنون بعَينه.. في الأيام الأخيرة أرسلت له أكثر من مرة وفي كل مرة كان يَمتنع عن زيارتي.. حتى أتى يوم وجدته أمامي في مُظاهرة:

تيبس عبد القادر وتهدَّجت أنفاسه.. ذلك الرجل كان ينبش في جرح مفتوح.. بسكين صدئ.. أكمل آرثر:

- لَمست في عَينيه دَاء السُّعار.. رَكَض نحوي كالمجنون يَبغي قتلي.. أعمى نسي سيّده.. نسي من كان يُطعِمه.. لا تأخُذ الأمر بمَحمَل شَخصي.. المَرحلة الأخيرة من دَاء السُّعار لا عِلاج لها.. مُحزِنة.. أرديته.. ارتعش قليلًا ثم زاغت عَيناه قبل أن يتبول على نفسه.. ماذا كُنت تتوقع منِّي؟ أن أتركَه يُهاجمني؟

انكسر في فم عبد القادر طرف ضرس.. نفر عِرق جَبهته وحَاول أن يقوم فتأهب آرثر ووضع طرف عَصاته المُزيَّنة بالتاج المَلكي البريطاني على كتفه ليُجلِسه:

- دعني أُكمل كلماتي حتَّى تتَّضِح الصُّورة.. يَموت الثائر «النَّبيل» مِستر «الجِن».. ويأتي من بَعده شاب مثلك ضَحل التفكير.. مُحدث في علم السياسة.. ولا يَعبأ أن يتعلم.. يَعمل مَعنا ويَكسب قوت يومه من خدمة المُعسكر.. يشتري بنقودنا سيارة جديدة وبَدلة طِراز السنة رسمها مصمم إنجليزي.. ثم فجأة تأتيه القضيَّة على طبق من فِضَّة.. الانتقام.. فيندفع كالرصاصة الطائشة بلا هدف وقد امتلأت جنباته بروح وطنية حديثة العهد.. لينتهي كِفاحه حُفرة في حائِط أو في جَسد لا يعرفه ولا يخدِم قضيَّته المزيَّفة.. ذلك أنت.. رَصاصة بلا هَدف.

كانت الكَلمات الأخيرة كَفيلة أن يقوم عبد القادر مطلِقًا صَرخة عَالية قبل أن يتلقى ضَربة من عصا آرثر أسقطته أرضًا.. ثم أردف الأخير:

- ستُعدم.. ليس لمحاولة قتل الوزير.. بل بتُهمة الغباء.

لمَّا أُغلقت زنزانته أطبَق جُفونه.. جلَس في رُكن يتأمَّل الشَّمس وهي تزحف نحوه ببُطء من فتحة السَّقف.. ترسِم على الأرض صليبًا

حَديديًّا اكتسى تدريجيًا بلون الغروب.. لون الجَمر الذي يتدفق في العُروق.. النَّار التي تشوي جوفه.. يُصلي قلبه حريقًا كلَّما تذكَّر وجه آرثر.. الكلمات وهي تَخرج من بين أسنانه البيضاء المستوية المثالية.. عَينيه المُسترخيتين.. ثقته.. غطرسته.. وَطنه الذي لا تغيب شمسه.. تفاصيل لحظات قتل أبيه التي استحالت دَبابيس حَادة وإبر خِياطة تسري في المرِّيء.. إحسَاس بالعَجز توغَّل حتى شُلَّت حَركته.. دُموع انهمرت ولُعاب سَال ورَقبة طؤطئت لا إراديًّا على صَدر.. نشيج مزَّقه فقام يضرب باب الزنزانة بقبضته حتى شُرخ أصبعه.. ثم سقط على رُكبتيه.. يومان بلا أكل ولا شُرب.. تَجاهلوه ثم هدَّدوه وضَربوه.. نقلوه إلى مُستشفى وفي لَحظة غِياب عن الوَعي نادى دولت.. أتوه بها في غُرفة يَقسِمها قضبان حَديدية علها تقنعه بالكلام.. جَلست على كُرسي خَشبي أمامه.. شعرها مَحلوق كأولاد الملاجىء.. في عَينيها مِسحة بَنفسجية وفي شفتيها تورم.. رَمقها من وراء ضَعفه فقَام من سَريره واقترب بصعوبة بسبب الأصفاد وهو يرمق العسكري الذي وقف بجانب الباب.. جَلس أمامها يتأمل وَجهها فابتسمت مُلطِّفة.. هَمَست:

- مِش بتاكُل ليه؟

- ضَربوكي؟

- أنا كُويِّسة.. ما تقلقش.. أنت لازم تاكُل يا عبد القادر.

- ليه؟

- عَشان ما ينفعش تخليهم يشوفوا ضَعفك.

- إزاي تعملي كِده؟

ابتسمت ولم تُعقِّب فهَمَس: وليه اختارك أنت؟

-أحمد مالوش ذنب.. أنا جيت من وراه.

-جِيتي عَشاني؟

نظرت في عَينيه متضرِّعة أن يَصمُت.. أردفت:

-ما تصعَّبش المَوقف.

لامَس القضبان بأصابعه: دَولت! كِفاية.. أنا عُمري ما حَبِّيت حَد قدِّك.

بدون مَجهود ترقرقت عَيناها بدَمعة.. انحدرت سَاخنة.. سَقطت على أناملها فنظرت إليه للحظات طَالت حتَّى رَجع بظَهره بَعيدًا عُن شُعاع الشَّمس المَار بَينهما.. هَمَست باختناق:

-طُول عُمري كُنت عارفة إن اللَّحظة دِي هَاتيجي.. بَخَاف مِنها أكتَّها الوَبا.. بَهرب.. بس كنت عَارفة إنها هاتيجي.. عَارف... أنا بهرَب مِن يُوم ما وعيت عَ الدنيا.. مِش من اللحظة دي بس.. بهرب من المنيا.. من ابن عمِّي اللي مكتوب يتجوزني.. من التقاليد.. العَار اللي بجرُّه ورايا ذنب زي ديل الفستان.. عار إني بِنت.. بنت بس! حتَّى أخويا اللي مربِّيني وعُمري ما شُفت في عينيه دَه.. ما بقيتش قادرة أشوفه.. بقى واحد تاني.. أنا قطَّعت بايدي كُل خِيط يفكَّرني بيهم.. يِضعفني.. صمِّمت أكون عَروسة.. بَس عَروسة خشب ملوِّنة زي عرايس الأراجوز وصندوق الدنيا.. من غير حِبال تحركها.. تشدَّها.. إيه هو الحُب؟ ليه؟ يعني إيه؟ كل يوم كنت بسأل نفسي السؤال ده لغَاية ما جيت أنت... واللي كُنت خايفة

منه حَصَل.. إحساس إني بتسحب وراك.. ما أبقاش مِلك نفسي.. كان بيكرَّهني فيك كل لَحظَة ببص لك فيها.. بقاومك عشان ما أقعدش في يوم على الكُرسي ده.. أقول الكلام ده... في عالم تاني كان مُمكِن... أحبك زي ما أحب أحبك.. زي ما المفروض كان يكون.. ساعتها مكنتش هخاف أقولك.. وما كنتش هترجع لمَّا تسمع.

ساد الصمت.. توقفت الشمس عن الدوران وصَدئت القضبان قبل أن تتساقط على الأرض متفسِّخة.

- كُل اللي أقدر أقدمه لك.. إني أعرَّفك إنك مِش لوحدك.. وإني مُمكن أعمل أي حَاجة عَشان تِعرف... إني ما بقتش مُهتمَّة باللي رَاح.. ولا اللي جَاي.. وإن الدنيا كلها بقت لون واحد يوم ما ودَّعتك في المقطَّم.. وإن سَاعة الانفجار أنا مُتّ قبلك.. وكُونك عايش.. حتى ولو مُؤقتًا.. أحسن حَاجة حَصَلت لي.

- دولت...

- بحبك.

كان ذلك آخر ما قالته.. قامَت واقتربت من الحَارس.

- دَولت...

ناداها عبد القادر فنظرت إليه في توسُّل قبل أن يَسحَبها الحَارس من مِرفقها ويُغلق الباب.

على قلب عبد القادر.



في تمام الثانية عَشرة ظُهرًا رَفَع المُصوِّر الإيطالي وَجهَه إلى السَّقف الزُجاجي المُصنفر في الغُرفة الوَاسِعة، اطمأن على زاوية الضوء العَمودية ثم أشَار لمُربِّيتين تطوفان حَول المَهد المَطلي بمَاء الذَّهب كي تبتعدا، تمَّمت الأولى على المَلابس الناعمة واطمأنَّت الثانية على الشعر المَمسُوح بالزيت قبل أن تتنحيا جَانبًا، ضَبط الإيطالي وَضع المَهد في نِصف الصُّورة تمامًا وراعَى أن تظهر الناموسيَّة المُزركشة والتاج المَنحوت فوقها ثم رَكَّز البؤرة على الوَجه الأبيض ذي المَلامِح الألبانية الفِرنسية الذي طَل من بَين الملاءات المُزينة بالتاج فرفع الغطاء عن العَدسة، عَدَّ بالإيطالية ثلاث عدَّات قبل أن يَضع الغِطاء ثانية ويَهمس بالإيطالية: ممتاز.. اقتربت السُّلطانة مِنه مُبتسمة وسَألته بالفرنسية:

- ألا يَجب على الأمير أن يَرتدي مَلابس دَاكنة بعض الشيء؟ الصورة يطغى عليها الأبيض.. أخشى أن تصبح باهتة!

التفت لها المُصور وهمَّ أن يُجيب بأدب جَم حين اقتربت مِسز تايلور ضَامة يَديها إلى بَعضِها وفي هدوء أردفت:

- الأبيض أساسي في الصُّور الرَّسمية للأمراء الصِّغار.. بالإضافة أن مُواصفات الصُّورة مُتَّفق عليها مُنذ أيام يا مَولاتي وغير قابلة للتغيير.

رَمقتها نازلي بغلٍّ قبل أن تستطرِد:

- لا بأس أن تُبدِّل المُربيات مَلابس الأمير ويتم تصويره ثانية بالمَلابس التي اقترحتها.

ابتسمت مِسز تايلور ابتسامة صَفراء:

- مَولاتي.. على الأمير الآن أن يَرتاح لأن مِيعاد طَعامه قد حَان.. قد نجعل ذلك الاقتراح في وقت آخر.

زفرت نازلي نفسًا مَسموعًا ثم رَمَقت صَغيرها الذي يُحرك يَده في هدوء قبل أن تخرج من الغُرفة والشرر يتطاير من وَرائها، يَحرق السجاد الأحمر وأطراف النباتات في المزهريات النحاسية اللامِعة، تلعن في سِرِّها مِسز تايلور؛ مُربية الأمير الصَّغير والسُّلطان المُقبِل، إنجليزية صَارمة لا تعرِف مَعنى الرحمة، أتى بها فؤاد إلى القَصر يوم بَرزت بطن نازلي لتعتني به وتُشرِف على تربيته، مُنذ اليوم الأوَّل دبَّت الخِلافات بينهن وبعدما وُلِد بساعات قامت قيامة، فبالسلطة المُخوَّلة من السُّلطان إلى مِسز تايلور كان على السلطانة أن ترضخ.. «نازلي.. ماذا تعرفين أنت عن تربية الأطفال؟ لازلت صَغيرة لتحملي مَسئولية سلطان المستقبل.. تايلور قادرة على تنشئة طِفل سَليم على الطريقة الأوربية.. من فضلك لا تتدخلي في شئونها فهي تعرف ما تفعل».

ضَاقت حوائِط القصر بنازلي فجأة، كيف ترى ابنها بميعاد؟ تلقمه ثديها بمِيعاد؟ وتطلب رؤيته وهو يَستحِم وقد يؤذن لها أو لا يؤذن، خوفًا عليه من البرد! تحملت كثيرًا حتى أتى يَوم اشتعلت فيه غَضبًا بسبب ضيق وَقت وُجود فاروق معها، انتُزِع مِنها انتزاعًا تحت إشراف مسز تايلور فخَرجت مُسرعة إلى غرفة فؤاد، اشتكت إليه بانفعال وصَوت

نسيَ نفسه فما كَان مِنه إلا أن صَفعها وأمرها بالإذعان! بَكَت نازلي كما لم تبكِ من قبل، أغلقت على نفسها الحَمّام سَاعة، جلست تحت الدُّش تسد بالمياه أذنيها، مُحاولة تبريد رُوحٍ شُـويت، تتحسس الصَّفعة على وجنتهـا وتجتر لَحظاتها مع حبيب غابت عنه؛ تمشـية الشـارع، الأفلام والمسـرحيات، القُبلة الأخيرة في حَديقة القصر، وقوفه أسـفل شُرفتها منتظرًا ولحظة إغلاقها السـتائر... ثم تتابع الخبطات على الباب لتبدد كل الذكريات وتسـتحثها على الخروج، أفاقت نازلي واستجابت لتجد والدهـا في الانتظـار، حَكَت ما حدث فسَـكت، ذَرع الغُرفة ذهابًا وإيابًا يفكّـر ويُقـدِّر قبـل أن يضم وجنتيهـا براحتيه وفـي خُطبة بليغـة يَهمس بهـدوء أن ذلك أمـر طَبيعي بين الأزواج، وأن المَصلحـة العَامة تتطلَّب أحيانًا، بَعض القسـوة.. والتنازل: «ثم مـن رآكي حين صفعك؟ ألم تكونا وحيدين في الغرفة؟ ما يحدث بين الأزواج يجب أن يظل بين الأزواج».

نظرت إليه نَازلي ولم تُعقِّب، عَرفَت منذ ذلك اليوم أن للقَصر قَانونًا، وأن لعَلاقتها بابنها قَانونًا، تأكُل بقانون وتخرج بقانون، وتُمارس الجِنس في وقت مَحتوم، بقانون، وأن العَرش بمَن عليه فوق كل قانون، عَرفت إحساس زائرة بيت العِنكبوت، التشبيه الذي سمعته من فم أحمد يومًا في حديقة بيتها، مُحاطة بالخيوط وحيدة خائفة، كلَّما تحركت ازدادت اشتباكًا، ترفـل في ثوب أبيـض مُرصَّع تتأكـد يَوميًّا أنه سـيصير كفنها، ففؤاد بتجربة مَع زَوجة سَـابقة عارضت نزواته وذلَّتـه بثروتها أدرك أن المَـرأة واجـب أن تُقهـر، وأن الغيرة عليها أمر لا مَحالـة منه، خاصة إذا لـم تكن رَبيبة أسـرة مَالكة، جَميلة وصَغيرة، من ذا الذي يتنبأ بسـلوكها خاصَّة مع فارق السِّن؟

كان عليه نبذها في رُكن مُذهب، أحاطها بسيِّدات العائلة المتلألئات، تقـرأ في أعيُنهـن الحِقد والحَسَـد والتملُّق فتبتسـم مُرغمة، تَمشِي في الحرَملـك شَـاردة تنتظر أن تُنعِم عليها مِسـز تايلور بوقـت مع صَغيرها تقضيـه، أو تجلـس هائمة أمام المَرج الأخضر تتأمل نور الشـمس وهو يَسير فوق العُشب يلامسه ويُحييه ولا يقربها، لم تشعُر بنفسها إلا وهي تكتـب في ورقة، صَفحة كَاملة بخَط عَانـى ليُقرأ قبل أن تطوي ما كَتبت وتُخفيه في صَدرها، بَعد يومين أتى والدها وفي عينيه غَضَب لم تعهَده، سَحبها من يَدها إلى الحَديقة في صَمت وانتظر أن يبتعد الخَدَم قبل أن يُخـرج من جَيبه الوَرقـة التي كتبتها منذ يَومين، مَا إن رأتها حتى رَفضت قدماهـا حَملها فجَلَسَـت عَلى مقعد يَسَـع اثنين، جَلس بجانبها وفَضَّ الورقة يُعيد قراءة مَا فيها بعَينيه قبل أن يتكلم بدُون أن يَنظر إليها:

- تِسمَعي عَن هَارون الرشيد؟

- ...

- أشـهر خليفة عَبَّاسي.. هو اللي أوحَى بشـخصية شَهريار في ألف ليلة وليلة.. ومَسرور السيَّاف كان عبد عنده فعلًا.. جَعفر البَرمكي كان أهـم وزير عند الرشـيد.. أقـرب واحد لقلبه ومـن عِيلة دايمًا كانـت في خِدمـة العرش.. عيلـة اسـمها البرامِكة.. الرشيد كان عنده أخت اسـمها العبَّاسة.. قالوا إنها أجمل نساء العَصر وقتها.. حَبَّهـا جَعفَر.. حبَّها بدون إذن الرشـيد.. واتجـوزوا.. فِضلوا فترة مُكتفين بالجَوابات السرِّية.. وفي يوم راحِت له.. مُتخفية.. قضت مَعـاه ليلة.. ليلة واحدة.. هَارون الرشـيد عِـرِف.. الخليفة صعب تستخبى عنه حاجة.. عيون كتير تتمنى تخدمه.

سَكت أبوها للحظات أخرج فيها علبة ثقاب أشعل مِنها واحدًا مرّره تحت قلب نازلي حتى اشتعل ثم تحت الرسالة التي كتبتها مُنذ يَومين.. أردف وهو يتأمل الورقة تتحول لرماد:

- عَارفة عَمَل إيه هَارون الرَّشيد؟ قتل جَعفر.. وحَبس كُل عيلة البرامكة وصَادر أموالهم.. وماتت العبَّاسة في نفس السَّنة.. اقري تاريخ يا نانا عشان تِتعلمي.

لم تَرمش.. لم تتنفس.. عيناها كانتا مُتشبثتين بفَرع شَجرة ضَعيف تحركه النسمات.. نثر أبوها رماد رسالتها في الحديقة ثم ضَم بقبضته أصابعها.. فركها بالرماد الأسود ثم ضَغطها حتى تألمت.. لَم تئِن.. دَمعت عَيناها وتحمَّلت الألم حتى تكلم:

- الحَمد لله إن الشَّخص اللي بَعتيه بالرِّسالة هو حَد بيحبّك وبيخَاف عَليكِ.. كَان أكسَب له يوصَّلها للسلطان.. لكِن الله بيُستر.. ده بخلاف إن الولد نفسه غيَّر مَكان إقامته... مِش مِصدَّق إن كل اللي أنتِ بقيتي فيه ده ولسَّه بتفكري في عَيّل تافه زي أحمد كيرة.. أنتِ عَارفة مُمكن يِحصَل إيه لو فكَّر يبيع الجَواب دَه للجَرايد المُعارضة؟ مُتخيلة مَوقفي هايكون عَامل إزاي؟ اسم عِيلة صَبري هايتمحي من الوجود يا صاحبة العظمة.. مِش هاسمح لك بده يا نازلي.. مِش هاسمح لك أبدًا.

نفض يَده من يَدها والرماد ثم قام.. نظر إليها نظرة أخيرة ثم ابتعد قبل أن تستدركه:

- أتمنى تكون استمتعت.

التفت إليها: استمتعت بإيه بالظبط؟

- كرسي الوزارة اللي قعدت عليه سِت شهور بس قبل ما يستبدلك.

رمقها بغيظ جز أسنانه قبل أن يبتعِد، استأذن في مُقابلة السُّلطان فأُذِن له، دَخل عليه وكَان في مَعيَّته وَزير الدَّاخلية يناقشان حركة الاغتيالات المتفشية ويتباحثان الحُكم على المَسجون السِّياسي الذي ألقى القنبلة مُؤخرًا على مَحمّد شفيق باشا وزير الأشغال، صَرَّح وزير الداخلية بأن القضاء يَرى الإعدَام، أمَّا آرثر باشا وَكيل الداخلية الإنجليزي فرأيه أن السِّجن المؤبد أفضل.

- رأيك إيه يا عبد الرحيم باشا؟

أفاق الباشا مِن شُروده على سُؤال زوج ابنته؛ السلطان، فتدارك: رأيي من رأي آرثر باشا يا صاحب العظمة، الولد اكتسب شَعبية كبيرة، صوره بتتباع في الشوارع، إعدامه هايحوله لبطل.

أردَف وَزير الداخلية: الحُكم المُخفف هايجرَّأ ناس تانية غِيره.

قال السُّلطان: المؤبد مِش حُكم مُخفَّف.

عقَّب عبد الرحيم صبري: الولد ده أظن بيكون أضعف واحد في المنظمات دي.. أقلهم ذَكاء.. عَشان كِده بيختَاروهم دَايمًا لتنفيذ العمليات.. رأيي إن الأولى نسيب اللي زيه يتنِسوا في السِّجن.. يُخرجوا على القبور.

وَجَّه وزير الداخلية كلماته للسلطان: قرار صَاحب العظمة؟

مَسَح فؤاد شَعره بيَده قبل أن يَحسم الجدل: مِش سليم نصنع بطل من نكِرة.. مؤبَّد.

انتهى اللقاء فخرج عبد الرحيم صَبري في إثر وَزير الداخلية.. تمشيا في رُواق القصر وقبل أن يَصلا سَاحة السيارات.. انحنى الأول على الأخير وهَمَس: فاكر الولد اللي كنت كلمتك عنه يا باشا؟ أحمد كيرة...

توقف وزير الداخلية والتفت باهتمام: الولد اللي كان بيتساخف على صَاحبة العظمة.. طبعًا.

- أنا كنت أظن أنه تم اعتقاله.

همس الرجل: لا.. الحقيقة أنا شيَّعت له رجالة من عندي.. كسَّروه تمامًا.

- هو.. الولد دَه مَعروف مَكان إقامته؟

- هو رجع عَمل حَاجة تاني؟

- وهو المَفروض ننتظر يعمل يا باشا؟ مش كان ليه نشاط سياسي؟ أكيد له صِلة بالاغتيالات الأخيرة.. أنا كنت حكيت لك ماضي والده.. إذا أضفنا كمان مَاضيه المُنحرف ومُحاولاته الدنيئة إنه ينول من شرف صَاحبة العظمة...

قاطعه الوزير: واضِح واضِح يا عبد الرحيم باشا.. ده أمر ما يتسكتش عليه.. أوعدك إني هاشوف حل نهائي معاه.

أخرج وزير الداخلية ورقة وقلمًا.. سَطر اسم أحمد كيرة بخط واضِح ودَسَّها في جَيبه ثم ودَّع عبد الرحيم باشا ورَحَل.



سري.. نمرة ١٤٧

القاهرة في ١٢ يونية سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- ألقى إبراهيم حسن مسعود مُحاسب بوزارة الصحة قنبلتين على سيارة رئيس الوزراء الجديد مُحمد توفيق نسيم.. تم القبض على المنفذ وجارٍ التحقيق معه في سرايا النيابة.

- احتفالات تعسُفية تسود العاصمة وتضييق على مندوبي الوفد خاصة في المُحافظات.

- صَدر الحكم على عبد القادر شِحَاتة صَاحب مُحاولة اغتيال محمد شفيق باشا بالمؤبد وتم إيداعه سجن طُره.

عبد الرحمن فهمي



الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٢٠

«أمر كريم إلى رئيس الحكومة»

«حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء»

المنة لله وحده، بما أنه في الساعة العاشرة والنصف من مساء الأربعاء المبارك الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٢٠، قد من الله علينا بولد ذكر أسميناه «فاروق»، فقد استصوب لدينا إصدار أمرنا لدولتكم، إحاطة لعلم هيئة حكومتنا بهذا النبأ السعيد، وتعميم نشره في جميع أرجاء القطر، وأنه أسأل الله القدير المنان أن يجعل هذا الميلاد مقرونًا باليُمن والإسعاد للبلاد والعباد من فضله وكرمه.

إمضاء



جَلس أحمد لعَشر دقائق على مِقعد خَشبي في أطراف الحَديقة، يَقرأ جَريدة وباليَد الأخرى يأكل شَطيرة، اقترب مِنه رَجُل في منتصف الأربعينيات تحمل عَيناه حَوَلًا طفيفًا، تفحَّص رُوَّاد المَكان قبل أن يَجلس بجَانبه ويَضع على المِقعد حقيبة جِلدية كانت لعبد الرحمن فهمي، لمحها أحمد بطرف عَينيه حين خَلَع الرجل طَربوشه فكشف عن رأس طَموح للصَّلَع، دقيقة وتكلَّم بدون أن يلتفت:

- أنا اسمي مُصطفى النحَّاس.. طبعًا جالك خبر إن أنا...

قاطعه أحمد: غني عن التعريف يا مصطفى بك.. حَضرتك توليت سِكرتارية اللجنة.

- عَبد الرحمن بك كان حاسِس إنهم هايصدروا أمر الاعتقال قريِّب من بعد العَمليات الأخيرة.. سَاب لي التعليمات كُلَّها وكلِّفني أحقق اتصال مَعاك عشان نتناقش في بعض التفاصيل.. أول حاجة بالنسبة لعبد القادر شِحَاتة.. هل لَه عيلة مُمكِن نكفُلها؟

- أمّه وإخواته.

- فيه إعانة هاتُخصص لهم من تبرعات الوفد.. هاحتاج العنوان.. كان فيه كمان البنت اللي شِهدت مَعاه.. اسمها...

- دَولت.

- سَعد باشا مُهتم بأمرها بشكل شَخصي.

- دَولت مُتماسكة.. راحت شهدت بدون علمي فاستبعدتها من النشاط.. أخوها شاب غلبان قبضوا عليه يُوم تنفيذ عَملية عبد القادر ولغاية دلوقت مفيش أي خَبر عَنُّه.. يا ريت لو فيه إمكانية نعرف مَكانه...

- طالما مش مُستدلين على مكانه يبقى اللي قبض عليه مكتب الخدمات مش البوليس.. بيتاخد في الرجلين وبيتنسي في المُعتقل مَا بيتسجلش اسمه ولا يتقدم للنيابة لكن هاحاول أعمل بحث عنه.. هي بينها وبين المتهم كان فيه...؟

قاطعه: دَولت صعيدية جَدعَة.. كانت مُمكن تِعمل كِده مَعايا شَخصيًا.. هي بس أخطأت الحسابات.

- عظيم.. ده ينقلنا لنقطة تانية.. الفترة الجَاية لازِم...

قاطعه أحمد: لازِم نكثف العَمليات.

رَمَقه النحاس في صَمت ثم أردف: اعتقال عبد الرحمن بك زائد الوَضع غير المُطَمئِن مع أصدِقائنا في لندن يِخلّيني أقول...

قاطعه أحمد: لازِم الإنجليز يِعرفوا إن عبد الرحمن بك مِش هو اللي ورا العمليات.. وده أدعى لتنفيذ عَمليات بشكل أوسع.

- السياسة دلوقتي بتقول ننتظر لغاية ما نشوف المُحاكمة رايحة على فين.

التفت له أحمد.. فتح صفحة في الجريدة على عنوان كبير..

«المؤامرة الكبرى».

- أظن اسم القضية كفيل بأننا نعرف المحاكمة رايحة فين.. حُكم الإعدام من أول درجة مَضمون يا مصطفى بك.

زَفر الرَّجل: عندنا مُشكلة تانية.

قالها والتقط من حقيبته الجِلدية وَرَقة مَطوية وَضَعها بجَانب سَاق أحمد.

- الإخطار ده طِلع إمبارح بالليل من حِكمدارية البوليس.. اتوزع على المُخبرين.

التقط أحمد الورقة وقرأ.

> **سرّي جدًا**
>
> «أحمد عبد الحي كيرة، يَعمَل كيميائي بمدرسة الطب، خطير في الاغتيالات السياسية، فاتح اللون، متوسط القامة وذو شارب وعمره حوالي ٣٨ عامًا.. اقبضوا عليه حيًّا أو ميتًا».

بلا تعبير ابتلع أحمد ريقه وكوَّر ما تبقى من شطيرته في الورقة وألقاها في سَلَّة بجانبه ثم وَضَع ورقة الإخطار قُرب النحاس الذي دسَّها في الحقيبة وأردف:

- لازم تختفي الفترة الجاية.

- عَندي صديق في الحُسين هاقعد عنده مُؤقتًا.

- المسألة ما بقتش تغيير مَكان سكنك.. أعتقد لازم تفكر تبعد أكتر من كِده.

- برّه البلد؟ ده استبعاد؟

- ما تفهمنيش غلط.. آخر كلمتين في الإخطار مَعناهم بيقول كِده.

- أنا مش جبان.

- ده مش جُبن.. أنت على قايمة الإنجليز حي.. أو ميت.. مِحتاج إيه تاني عشان تفكَّر؟

- مِحتاج أعمل عَملية جديدة.

التفت إليه النحاس.. بعصبية همس: أنت ليه مش قادر تفهم إن الدم مش ممكن يخدم المُفاوضات.. العَمليات بتزيد عِناد الاحتلال ورغبته في الانتقام.. المُحتل عنده بَدل العَسكري ألف وبَدل القائد ميَّة.. العَملية الواحدة بتكلفنا كتير ومش بتؤدي لأي نتائج إيجابية بالعكس... الناس في الشارع هي اللي بتنضر واللي بيموت وينجرح من المصريين أكتر من الإنجليز.. بُص للي بيعمِله غاندي في الهِند.. الساتياغراها[1] بتحقق نتيجة حقيقية وبتعمل ضَغط دولي بيحرك القضية بجد.

- مصر مش الهِند.. والساتياغراها فكرة سَلبية.

- طول ما عَدوك أقوى لازم تكون أكثر دهاء.. العُنف بيأذيك أضعافه.

---

(١) الساتياغراها: مصطلح باللغة السنسكريتية يتألف من كلمتين «ساتيا» وهي الحقيقة، و«غراها» وتعني الصمود والتمسك بالموقف؛ وهي فكرة المقاومة «اللاعنفية» التي ابتدعها المهاتما غاندي لمقاومة الاحتلال والاستبداد من خلال العصيان المدني الشامل وبدون إراقة دماء.

- ده مش رأي سعد باشا اللي في يوم من الأيام وقف ورا عرابي!

- ده رأي الوفد اللي بيحاول يحصل على الاستقلال.. ما تخليش الانتقام يعميك يا ابني.

- سيادتك عارف إن الأرض مش بتشرب الدم.

- أنا عارف تاريخ والدك.. وهو تاريخ مُشرِّف.. لكن.. لكل وقت أدان.. الثائر الحقيقي لازم يكون عارف إمتى ينشط.. وإمتى يهدا عشان المَصلحة العامة.. إحنا مش هانمول حَاليًا أي عمليات سرية.

- يبقى هاشتغل لوحدي.

- خُد بَالك.. سُقوطك مش هايكون زي سقوط زمايلك.. سقوطك مَعناه سقوط الخيوط كلها.. أنت الوصلة الوحيدة بين المَجموعات.. ما تجازفش.. الوقت حرِج جدًّا.

قام أحمد وزرَّر سُترته: سَعد باشا إزَّيه دلوقت؟

أجابه الرجل بعد لحظات: بيحَارب.. على ترابيزة المفاوضات.

- يبقى هانفضل نحارب وَراه.. لغاية الاستقلال.

رمقه النحاس ولم يُعقِّب فأحنى أحمد رأسه في احترام: نهارك سعيد يا مُصطفى بيه.

قالها وكَبس طربوشه مُبتعدًا.

سِجن طرة.. جنوب القاهرة

حِين دَخلت سَيَّارة الترحيلات إلى سَاحة السجن دَارت حَول نفسها ثم رَجعت ببُطء حتَّى بَات بَابها الخلفي في مُواجهة المَبنى، فَتح الحرَّاس البَاب الحَديدي وصَاحوا في المَساجين فنزلوا تِباعًا وفي أيديهم وأرجُلهم الأغلال توسوِس، عَلى يَمين ويَسار المَمر الطويل وَقف الحرَّاس وبأيديهم قُضبان حديدية غليظة، يلوِّحون بها في طقس يُعرف بينهم بطابور «الاستقبال»، تلقى أوَّل المَساجين ضَربة على ظَهره فركض بقَدر طول أغلال قدميه فتبعه الباقون جَزعًا، انهال عليهم الحرَّاس ضَربًا وتحطيمًا فذادوا بأيديهم فوق رءوسهم مُراوغين، عبد القادر كان السَّابع بين زُملائه، رَكَض بقوة مُتجنبًا الضربات بانحناءات ودَفعات بأيدٍ لا تكاد تصل إلى رأسه لتحميه، حتَّى تعثر في أغلاله، سَقَط فحاصَرته القضبان الحَديدية ضَربًا إلى أن أغشي عليه.

حين أفاق حَلقوا شَعره بمُوسى ووضعوا في قدميه أغلالًا ثقيلة تصل إلى ثلاثة كيلوجرامات ثم أودعوه غُرفة حَبس انفرادي.. بَعد ثلاثة أيَّام مِن الظلمة الحَالكة انعدم الزَّمن، فَقد عبد القادر القُدرة على تفريق اللَّيل مِن النَّهار وعَدد الأيام، يلتمس أبعَاد الغُرفة الضيِّقة مَرَّة واحِدة في اليَوم حين يتسرَّب ضَوء خافت من كوَّة في بابها الحَديدي القصير عندما ينفتح ليُلقى إليه طَبق حِساء ورَغيف متلبِّد يسمونه «الجراية» وكُوز مَاء تجري فوقه الطفيليات، رَفَض في أول يَوم أن يأكُل، ثم صَرخت مَعدته

ونغزتـه البرودة نِهاية اليَـوم الثاني فأقبل.. في نِهاية اليـوم الرابع لم يَعد يتسـاءل عن طَبيعة الحِسـاء بَعـد أن أكَل بنَهم، كما لـم تَعُـد رائحة الدلو الـذي أتخِـم بفضَلاتـه تؤثر فيـه.. ثلاثة أيـام أخرى في الظـلام وبدأت تُهاجمه نَوبات الهَلوسـة، ألوان غَريبة تراها حَدقتاه، تتحركُ كالسَّـراب البَعيـد، تتلـوَّى كنار في ريح، ثـم تلتقط أذناه أصوات حَشـرات تحتك أجنحتهـا فينتفِض، يَصرُخ في الفراغ بغَضَب، ثم يَخبط البَاب بِهستيريا والحَوائِـط، يُنادي استغاثة، يَسُـب كُل مـن قابلهم في حَياتـه، وأولهم نَفسـه، ثم يَبكي بحُرقة، قبل أن تنتابه مَوجة ضَحِك عَصبية تشرخ رئتيه، ثم يَسـكُن، يَهمد، يتمـدَّد على البَلاط البَارد فاقـدًا القُدرة على التفكير، فاقـدًا الإحسـاس بالبـرودة التي تطعنـه وتتخلَّـل عِظامه، يَمُـد يَده التي لا يراها إلى سَـقف لا يَراه، سَقف بدأ يشـك في وجوده، قبل أن تتجلى دَولت، تقترب في سُكون وتلتقط يده، تحتضنها ثم تتلاشى.

ثم فُتـح الباب يومًا، الشـمس كانت حَاضرة بذات نفسـها، ضَوؤها أعمَى حَدقتيه فصَرَخ برُعب وضَرب الهَواء بيَده في هِستيريا حتَّى دَخل ثلاثـة رجـال، بهزال قاومهـم فتلقى رَكلات فـي مَعدته ثم سَـحَبوه من قدميـه إلـى الخارج قبـل أن يُلقياه عَلـى أرض رَطبة في حَمَّـام، جرَّدوه من مَلابسـه ثم رشّوا فوقه بُودرة بيضاء رائحتها نفاذة وفتحوا عليه مِياهًا صَرخ من برودتها، أتموا تغسـيله فوضعوا قُرصًا مُرًّا في حلقه ثم كفَّنوه فـي لباس من الخيش وقميـص أزرق مَكتوب على صـدره رقم قبل أن يودعـوه غرفـة مزدوجة فـي زنزانـة لا تتعدى مسـاحتها متريـن ونصفًا في مترين، جلس على السـرير السـفلي بجانب جـردل الفضلات وفي الحائـط الأيمن فوقه كوَّة صَغيرة مُغطاة بالشـبك الحديدي على ارتفاع ثلاثة أمتار، تطل على الزنزانة المُجاورة لها.

بَعد أيام بدأ عبد القادر يَستوعِب حياته الجديدة، بحذر، فهِم من زميل الزنزانة العَجوز أنه يسكُن في عَنابر السِّياسيين، وأنه هو الآخر مَسجون منذ سَبع عشرة سَنة في تُهمة الاعتداء على ضابط إنجليزي وينتظر إتمام المؤبد، مِثله، عَرف أيضًا أن حياة السِّجن تبدأ في الفَجر وتنتهي في الخَامسة مَساءً، تنطفئ الأنوار وتخفُت الحَركة إلا من هَمَسات المَساجين وسباب الحرَّاس، عَرف أيضًا أن النقود الورقية لا قيمة لها، وأن العُملة هُنا هِي السَّجائر، مَن لا يَملك سَجائره لا يَملك نفسَه، والأفضل له أن يَعيش في خِدمة مَسجون ثري عَلى أن يُعتدى عليه في الغداة والآصال.

بسبب هيكله العَريض وتُهمته أوكلوه تقطيع الحِجارة في المحجر، يذهب في الصباح الباكر ليقضي يَومه في التكسير والتحميل حتى مغرب الشمس، يرجع في طابور مع مجموعته ليستحموا جماعيًا ثم يتناولوا وجبة لا تُغني من جوع.. لازمه الصَّمت والشرود لأيام، يحاول أن يتخيل انتهاء الكابوس، بَعثه من عالم الأموات، بعد خمسة وعشرين عامًا، ويتخيل دولت، ثم تستقر عيناه على زَميله العَجوز، شَعره الأبيض وعُوده الفارغ ويَديه المَعروقتين فيَحسِب سنين عُمره المتبقية حتى يلقاها فتتهدج أنفاسه قبل أن يُغمِض عينيه ويذهب في سُبات عَميق لا يفيق منه.. ولا يريد.. حتى التقط يومًا هَمسًا من جدار الغرفة المُجاورة.. هَمسًا ينادي اسمه:

- عبد القادر.

اعتدل عبد القادر ونَظر إلى الكوَّة العَالية فسمع اسمه ثانية.

- مين؟

- اطلع فوق.

قام عبد القادر ينظر للكوَّة الصغيرة: أطلع إزَّاي؟

- لِف طرفين البطانية عُقدة واربطهم في حديد الشباك يِمين وشمال.. مُرجيحة يَعني.

همَّ عبد القادر أن يَعود للنوم قبل أن يتردَّد، سَحَب نفسًا إلى صَدره ثم قَام، صَعَد فوق السَّرير وعَقد أطراف البَطانية بالقُضبان الحَديدية ثم قفز فوق قوسها المُتدلي لأسفل، اتزن فرمق من وَراء القضبان وَجهًا نحيلًا، عَينين واسِعتين فوق أنف حَاد وشارب رفيع، مسحة الضعف لم تُخطئها عَيناه رغم الظلمة، كان يُمسِك القضبان بيَد وباليد الأخرى الناقصة إبهامًا ناول عبد القادر سيجارة.

- امسك.

لم يتردد عبد القادر.. التقط السيجَارة وأشعلها بعُود ثقاب مَمدود:

- تُشكر.

- أنت اللي رَميت القنبلة ع الوزير؟

- أنت مين؟

- أنا واحِد عَملت زيَّك كِده من خمس سنين.. بَس أنا رَميت القُنبلة على السُّلطان ذات نفسه.

قالها ومَد يدًا بأربع أصَابع: مَحسوبك نجيب الأهواني.. مُؤيد في مُحاولة اغتيال السلطان.

استعاد عبد القادر كلِمَات أحمد في الغَابة المُتحجِّرة بالمُقطم: «سنة خمسناشر شاركت زميل ليا في رَمي قنبلة على السُّلطان حسين كَامل:

كنا بنجرّب القنابل هنا في الغابة برضه.. وفي يوم اتأخر لحظة في رمي القنبلة.. انفجرت بدري.. شظية منها قطعت صُباعه».

صَافحه عبد القادر فأردف الرجل: أحمد إزَّيه؟

نظر عبد القادر في عينيه بثبات: أحمد مين؟

- الجَرايد بتجيني بَعد ما الظبّاط يقروها.. الخبر كَتَب عن خَلطة القنبلة بتاعتك عَشان يعمل سَبق.. الخَلطة دِي ما يِعملهاش في مصر كُلّها غِير أحمد كيرة.. والعبد لله.. كُنّا دُفعة واحدة في مدرسة الطب.. شُعبة الكيميا.

- ... أنا مِش عَارف أنت بتتكلم عن مين!

همَّ عبد القادر أن ينزل فابتسم الرَّجل مُستدركًا: أنا أخدت إعدام ولبست البدلة الحمرا شهر.. وما نطقتش.. ولمّا اتخفف الحُكم لمؤبد بَرضه ما نطقتش.. لو كُنت عاوز أبيع أحمَد كُنت بعته من خمس سنين يا صاحبي.

رمقه عبد القادر لدقيقة قبل أن يتكلَّم: أنت عاوز إيه؟

- أنت عارف ليه حَكموا علينا مؤبد مِش إعدام؟

- ليه؟

- عشان اللي بيتعدم بيعيش.. بيبقى شهيد.. بطل.. أما اللي بيتسجن.. بيموت.. سنتين كمان في طُرة وهاتفهم كلامي.

سَاد الصَّمت دَقائق تأمل فيها عبد القادر العَجوز النائم بجانبه في الزنزانة قبل أن يلتفت للأهواني:

- هو اللي إحنا عَملناه ده صَح؟

- ساعات بحِس إنه نسيني.

- أعوذ بالله.. فوق يا صاحبي.. دَوام الحَال من المُحَال.. لمَّا نِفشل بتفشل عشان فرَّطت في حقك.. نغيَّر من نفسنا والدور هايبقى بُكرة ع الظالم.. يَعني حَد كَان يِصدَّق إن سَعد زغلول وزير حُكومة الإنجليز اللي حَمَاه يبقى مُصطفى باشا فهمي راجل الإنجليز الأول في مَصر هو اللي يُطلب الاستقلال!

- عُمري ما فهمتها دي.

- كُل وقت وله أدان.. مَا هو بَرضه ما اتولدش وفي بُقُّه مَعلقة دَهَب.. اتسجن وشِقي وشاف.. النهاردة السُّلطان ذات نفسه بيِكِش من اسمه.. إحنا كمان هانخرج يا صاحبي واسمنا هايكبر.. إحنا أول ناس ضحَّينا ما تنساش.

قالها وأشار لكفِّه مقطوعة الإبهام.

- غريبة إن لسَّة فيك أمل!

- طالما ما مُتناش يبقى فيه أمل.. وهايبقى لنا شأن كبير أوي.. أوي.. هافكرك.. وهانحرر البلد دي من الأوساخ.. مش هانموت هِنا زي الكلاب يا صاحبي.

رغم الأمل الذي بثَّه الأهواني في نفس عبد القادر إلا ان الجُملة الأخيرة قبضت صَدره: الموت كالكلاب.. اقشعر بدنه حين تخيَّل نفسه مُلقى في حَمَّام السِّجن البارد وعُمره فوق الستين.. مَلفوفًا في قُماش مُتسِخ ينتظر استلام أحد أقاربه الجثَّة.. لاحظ الأهواني شروده فسأله:

- إحنا يا صاحبي عَملنا الجَريمة الوَحيدة اللي لو كِملت المُتهم يُخرج بَريء.. وإذا ما كِملِتش المُتَّهم ياخُد إعدَام.. لو كنا قتلنا السلطان وكنا مُنظَّمين كان زمانا إحنا اللي بنحكم دلوقت.

- نُحكُم؟ حتَّى لو قتلة؟

- كل اللي قبلينا قتلوا عَشان يحكموا.. مِش مَحمَّد علي دَبح المَماليك؟ حَد قال له تِلت التلاتة كام؟ عَشان تقيم دولة الحق لازمن تزيل الباطِل.. حتى لو بالدم.

- بس إحنا في السِّجن!

- وسيِّدنا يوسف كان في السِّجن.. بس شوف ربَّك بعد كِده علاه إزَّاي ونَصرُه.. أول خطوة هي إنك تتعزل عن المُجتمع الفاسِد.. تتأمل.. تفكَّر.. لغاية ما توصل للحقيقة.

- وإيه هي الحقيقة؟

- الحقيقة مش تحرير أرض من إنجليز ولا أتراك، الاحتلال كله احتلال، والأرض دي بتاعة ربنا، تحرير مَصر الحقيقي تطهير الناس من الخونة، فكرك المحتل بيغلبنا بسلاح؟ أبدًا، بيغلبنا بالرجَّالة اللي استعمر روحهم، الوزرا الأنجاس اللي لو ما قتلناهمش يقوّوا المحتل والمَلِك الكَافر، لازم يكون فيه جماعة جريئة تقاوم، طليعة، إحنا الطليعة دي، وأول خَطوة إننا اتعزلنا هنا عَشان نشوف الأمور بشكل أوضح، افتكر عزلة الرسول في مكَّة تلات سنين، كانت المفتاح للخروج من الظلم، طالما ربَّك ما حَكمش علينا بالموت، يبقى شايل لنا مُهمَّة أكبر.. افهم

- أنت متجوِّز؟

أفاق عبد القادر من شروده: لأ.

- تبقى صَاحب كرسي في الأزبكيَّة.

- كُنت.. وبطَّلت.

- حبيت.

- إزَّاي عِرفت؟

- الراجل ما يبطَّلش زيارة الأزبكيَّة غير لمَّا يحِب بجد.

- وأنت.. متجوِّز؟

- طَلبِت الطَّلاق من سَنتين.. اتجوِّزت دلوقتي ومَعاها فاروق.. على اسم السُّلطان الصُّغيَّر.

سَحَب عبد القادر آخر نفس في سيجَارته قبل أن يَطعن الحَائط ببقاياها.. أردف:

- هاتحِب تقابلها لما تخرج؟

أجاب الأهواني بحَسم: أحِب.. عشان يِعرف إنها ضيَّعِت من إيديها بطل.. وتعرف أنها لو صِبرِت كانت نالِت.

- إزَّاي واثِق من الخروج؟

- البركة في سِعد باشا إن شاء الله.

٧:٠٠ صباحًا

نادي الجزيرة.. الزمالك

كَان جَسد آرثر وَكيل حِكمدارية الداخلية مُتماسك العَضلات بالنسبة لرَجُل تجاوز الثامنة والخَمسين، مُنذ حَضر إلى مِصر وسَكَن جزيرة الزمالك لم يتخلَّ يومًا عَن رياضة الجَري، يَستيقظ بَعد الفجر، يَجري بالبنطلون القصير لِنصف سَاعة حتى في الشتاء قارس البرد، قبل أن يَدخل النادي ليَجلس في «الليدو»، حَمَّام سباحة الكبار ومُلتقى السياسيين وطبقة الأرستقراطي، يَضَع نظَّارته الشمسية فوق عَينيه، يَسند رأسه وعَضديه على حَافة الحَوض الكَبير الخالي من المرتادين مُدليًا بجَسده في المِياه الدافئة باسترخاء، يترك الشمس تخضِّب وَجهه بحُمرة على حُمرته وتصَبغ شَعره الكستنائي بلَمعة زاهية، ويمد يده بين الحين والآخر لالتقاط المكسَّرات من طبق عَامر وكأس نبيذ أحمر يرتشفه على مهل.

لحظات وحَضر صَديق من أبناء جلدته، انزلق بخفة إلى الحوض قبل أن يطلب من النادل زجاجة بيرة، نظر إليه آرثر مُترقبًا قبل أن يتكلَّم:

- قل لي خبر سعيد.

عاجله الرجل: حصل.

اعتدل آرثر وارتسمت على شفتيه ابتسامة: لا وقت للمزاح.. هَل...؟

- قلت.. لك.. حصل.

- وأين هي الآن؟

- مُستلقية في شقّتي.

أغمض آرثر عَينيه في نشوة ثم زَفر:

- يا إلهي.. أتعرف.. حِين رأيتها للمرَّة الأولى لم أتخيلها سوى في بيتي رغم حالتها المُزرية.. لقد حققت حِلمي يا شيطان.. كيف فعلتها؟

- النقود اشترت المَسيح يا صديقي.

ضحك آرثر: عِندك حَق.. كَم دفعت؟

- مائة جنيه مِصري.. أما الرحلة إلى الصعيد لجلبها فكانت بحق شاقة.. لا أعرف كيف يتحمل هؤلاء البشر تلك الشمس!

- سأعوِّضك بسهرة لن تنساها ولكن احكِ لي كيف حالتها؟

- لبؤة فاتنة ستنسيك فاتنات لندن.. طوال الطريق لم أستطع منع نفسي من تأمل منحنياتها المثيرة.

ضَحِك آرثر من التعبير: هل لا يزال مفتاح الحياة في يدها؟

- نعم.. ويعلو الرأس قُرص رَع وثعبان كُوبرا كامل بلا شروخ.. المِصري القديم لم ينس حتى حفر حلمَاتها تحت غلالتها الشفافة.. ماذا ستفعل بها؟

- ستسافر مَعي إلى لندن بالطبع.. سيُسعد صُوفيا كثيرًا اقتناء أميرة مِصرية من الألبستر.. لها مكان خالٍ فى الصالة ن الافريقي.

- عليك الحذر.. فهي ليست مجرد تمثال.. إنها سِحمت يا صَديقى.. إلهة الحرب.

ضَحِكَا وقرعا كأسيهما ثم تجرعاهما قبل أن يَرفعا أيديهما عَاليًا طلبًا للمزيد.. اقترب النادِل منهما يحمل صينية.. وقف للحظات كانت كافية أن يلتفتا حين استقرت في جبهة كُل منهما رصَاصَة أرخت العضلات قبل أن يَطفيا فوق الماء.



سِجن طُرة.. التاسعة صَباحًا

عشرون مِقعدًا خَشبيًّا تراصّوا في أربعة صُفوف تحت سَقف الغُرفة الواسِعة، جَلَس أقارب المَساجين عليها وبجَانبهم سِلال تحوي مأكولات تم تفتيشها بدقة وعلب سجائر مخفيَّة، تترقب أعينهم الباب الحديدي الذي سيأتي مِنه الغائبون الحَاضرون.

دقائق ووسوست الجَنازير فانتبهت الرءوس، انفتح الباب وانهمر المَساجين يجرُّون سَلاسلهم كُل يبحث بعينيه عن جذر مقطوع يَصله، عمَّت الفرحة الوجوه وقام ذووهم يتلقفونهم ويحتضنونهم، ضحكات عَصَبية متألمة وأعين ترقرقت وأطفال تلعب حولهم غير مستوعبين الظرف أو المَكَان، لم يتبق غير عبد القادر، وقف وَحيدًا في بدلته الزرقاء وقد حلق شعره وازداد نحافة، يُدير رأسه في المَقاعد بَحثًا

عمّن طلب زيارته قبل أن يَلتقط يَدًا مَرفوعة من المِقعد في رُكن بجانب نافذة، اقترب مِنها ببُطء تعيقه السلاسل، تأمل خصلة شعر تسللت من تحت وشاح أزرق رائق وعينين برئتا من الكدمات فتكحّلت وشفتين حَجَزتا وراءهما الكلمات، جَلس بجانبها بلا كلمة، نظر إلى لَمعة عينيها فابتسمت حتى اضطربت فأشاحت بوجهها إلى حقيبتها تُبعثر ما فيها لتُخرج له الطَّعام.

- وَحشتيني.

خفتت الأصوات من حولهما وتلاشت الجدران.. أردفت: أنت كمان... أوي.. عامل إيه؟

- بتعوِّد يوم بعد يوم.

- سِجنك مش هايطول.. أنت بقيت بطل.. بياعين الجَرايد بيبيعوا صُورك في السِّر.

- مش بافتكر الكلام ده لمَّا بحسِب فاضل لي كَام سنة...

سَكتت لمَّا لم تجد ما تقول.. لحظات قبل أن يَسألها.

- أحمد إزِّيه؟

مدَّت يَدها تحت وشاحها.. عَبثت بخُصلة فأخرجت شَيئًا أخفته في قبضتها.. نَاولته لعبد القادر وهِي تهمِس:

- باعت لك السَّلام.

رَمَق عبد القادر الحرَّاس فوَجَدهم مَشغولين عنه ففتح قبضته بهدوء.. بين أصابعه استقر خاتم ذهبي.. خاتم مَحفور بحُروف

إنجليزية بارزة.. ARTHUR.. ضَم عبد القادر قبضته على الخاتم ثم رَمَق دَولت بعينين لمعتا من الدمع غير مصدِّق.. هَمَست:

- النهاردة الصُّبح قبل ما أجي لك.. أحمد بنفسه.. الخبر هاينتشر بُكرة.

- أنا مش مصدَّق!

- بيفكَّرك بيوم ما اتقابلتوا في بيت الأمَّة.. لما قال لك إنه هايجيب لك حقَّك.

ترقرقت عَيناه واهتزَّت أعصابه: هو كويس؟

- نفسه يزورك.. لكن الوضع بقى خطر.. العيون صاحية وفيه إشارة بالقبض عليه.

تأمل الخاتم ثانية قبل أن ينظر في وجهها:

- عارفة...

سكت فتركته.. جال ببصره بعيدًا قبل أن يعود إلى عينيها:

- أوقات كتيرة باغضب مِنك.. بلومك وأعاتبك أكنِّك حاضرة قدَّامي.. أكن كل اللي حَصَل في حياتي سببه أنتِ.. وبعدين أفوق.. وأقول أنتِ كنتِ أعقل.. يِمكن الزمن غلط.. والظروف.. بس يمكن لو كنتِ جاوبتيني.. كان... أو يِمكن ما كنتش... دولت.. أنا حبيتك بجد... مش زي أي واحدة قابلتها وحياة من جمَّعنا.. بس ذكرياتي مَعاكِ.. ملهاش ريحة.. ومش عارف أبطل أتوجع.. ولا قادر أبطل ألوم نفسي على اللي عَملته فيكِ.

أغمضت عَينيها مُحاولة تمالك نفسها: عبد القادر... أنا...

- أنـا.. يِهمّنـي أعـرف حَاجة.. هاتفـرق مَعايا رغم إن مـا بقاش فيه حَاجة مُمكن تفرق.. كلامك اللي قلتيه المرة اللي فاتت...

- .... حقيقي يا عبد القادر.

زفـر وهو ينظـر من النافذة إلـى زَميله العجوز فـي الزنزانة.. يَجلس فـي باحة السِّـجن وحيدًا شـاردًا في فـراغ.. ينتظر زيارة لـم تعُد تأتي.. زيـارة ماتـت أو يئسـت.. اسـود وجهه فعاد إلـى دولت وفـي عينيه ألم فابتسمت تخفيفًا:

- فرج ربنا قريب أوي.

- أنـا باعـرف الأخبـار كُلّها وأنـا قاعد هنـا... هنا فيه ناس منسيين بقالهم عشرين سنة.. وفيه ناس ما بتكمّلش.. بتموت.. بيغسّلوهم بخرطوم ويشـيّعوا تلغـراف لأهاليهم وبعدين يدفنوهـم في تُرب الصدقة... مِش مصدّق إن ممكن تكون دي نهايتي.

- دي عُمرهـا ما هاتبقى نهايتك.. سَـعد باشـا راجِـع.. وكل حَاجة هاتتغيّر.. صدّقني راجع.

سَـاد الصَّمت بَعد كلِماتها قبل أن يُعلـن الحرّاس أن زمن الزيارة قد انتهى.. نظر في عَينيها:

- أنا طالب منك خِدمة.. ما تقطعيش زيارتي.. لغاية ما تتجوزي.

- عبد القادر...

- أتمنى لك كل السعادة..... رغم إني مش قادر أتخيلك مع حد غيري.

قبضت على أصابعه في قوَّة محاولة مَنع عَينيها من البكاء.. لحظات ونادى الحرَّاس بانتهاء الزيارة.. سلتت أصابعها منه فابتسم وهمس:

- خُدي بالك من روحك.. وقولي لأحمد إن هديته دي أغلى هدية.

اختنقت الكلمات في حلقه قبل أن يَسحبوه إلى طابور.. لم يفارق عَينيها حتى حَالت بينهما القضبان الحديدية.. لمَّا أُغلِق عليه باب زنزانته أخرج من جَيبه خاتم آرثر.. تأمله.. ثم ارتداه وابتسامة ظفر تغزو شفتيه.

سري.. نمرة ٣١٩

القاهرة في ٦ أكتوبر ١٩٢٠

- صَدَر أمس قرار مَحكمة الاستئناف في قضيَّة المؤامرة الكبرى بالحُكم على عبد الرحمن بك فهمي بخمسة عشر عامًا.

مصطفى النحّاس

بعد يومين.. عنابر السكك الحديدية ببولاق

انطلقت صفَّارة انتهاء الدوام فخرج العمَّال، طُوفان من السترات الزرقاء والوجوه المغبَّرة تتدافع ببُطء في لحظة حشر حقيقية تفرَّقوا بعدها كلٌّ إلى اتجاه، بَعد دقائق هدأت الحركة وانتشرت الجُموع، قبل أن يُغلِق العنبر بابه خرج إسحاق، فوق رأسه قبعة وفي يَده حقيبة جِلدية صَغيرة تكفي لاحتواء عُبوة فارغة من الزنك تصلُح قنبلة، مَشى مَسافة كبيرة حتَّى ركب تراماً قرَّبه من بَيته، هَبط مِنه في ميدان مُزدحم فوَجد عَلى الرَّصيف شَاباً يَرتدي جِلباباً وفي يَده جَردل غِراء وفُرشة، يَلصق إعلاناً عَلى عَامود نور، إعلاناً فيه وَجه مَألوف، اقترب مِن الشَّاب الذي أتم عَمله ونظر للورقة التي تتوسطها صورة، صورة لأحمد كيرة ترجِع لأعوَام مَضت، كَان فيها أنحف وشاربه أقل كثافة، قرأ الكلمات المكتوبة تحت الصورة:

> **مُكافأة ٥٠٠٠ ج.م**
>
> **«تُعطى مُكافأة خمسَة آلاف جُنيه مِصري لمَن يقدم مَعلومات تؤدي إلى القبض عَلى أحمَد عَبد الحَي كِيرة، يَعمَل كيميائيًا بمَدرسة الطب، فاتح اللون، متوسط القامة وذو شارب وعُمره حوالي ٣٨ عامًا، خَطير في الاغتيالات السياسية ومشتبه في تورطه بقتل آرثر باشا وكيل حِكمدار العاصمة، كل من يقدم هذه المَعلومات يَكون مَشمولًا بالحماية التامة والسرية ولا يُستدعى أمام أي هيئة تحقيق رسمية أو قضائية».**

اقشعر بَدن إسحاق فنظر حولـه قبل أن ينتزع الورقة مـن الحائِط ويدسَّها في جيبه ويَمضي مُبتعدًا.



اصطفَّت الأجسَاد في طَابور طَويل على الرَّصيف المُلاصِق للبوَّابة الخشبية الكبيـرة، مَلابس رَثَّـة وقبَّعات بَاليـة وأبدان أكلهـا الجُوع من وقت الحَرب ثم الثورة.. كَانت الجَمعية الخَيرية قد أعلَنت مُنذ أيام عَن تقديم إعَانة لرَعَايا الكَنيسـة الأرمنية لمُواجهة البَرد، لحاف ومَصل مُقوٍّ ووَجبـة مُشبِعة، تهافتت الجُمـوع حتَّى من غير المَسيحيين فتجاوزت الجَمعية شـرط الانتماء للجَاليـة وفتَحـت أبوابها للجَميـع.. بالدَّاخل كان الدِّفء طَاغيًا والهَمَسـات، الوُجوه كَالِحة واجِمَة والأعيُن جَاحِظة يَصبغهـا وَهَج الشُّـموع بصُفرة علـى صُفرة الفقر، يرمقـون بَعضهم في جُمود، يتكلمون بدون كلمات، ثم يتبسـمون في تعاسـة حين يلتحفون الغِطاء ويتلقون المَصل في أوردة نحيلة غاطسـة قبـل أن تُحيط أيديهم طبَق الشـوربة السـاخِن ويقضِمون قطعة خُبز مع مُكعَّـب لحم، يتلقون وَجبتهم العَزيزة من أيدي ثلاث فتيات يقفن خلف مَائِدة تحمل القدور السـاخنة ويرتديـن زيًّا مُوحَّـدًا، ثوبًا رماديًـا مَائلًا للزرقـة وغِطاء رأس أبيض وفوق أنوفهن كمامات تحميهن من الأمراض.

لمَّا أصبح على بُعد مترين من المِنضدة نظر إلى عَينيها فوق الكمامة، لـم يُخطئ الوجـوم البادي في الحدقتين الفيروزتيـن، اقترب حتى بات أمامها وبدون أن ترفع وَجهها التقطت طبقه المَمدود وصبَّت الشـوربة فيـه، لمَّا تأخر عن الالتقـاط نظرت إليه حتـى عَرفته، ارتجفـت عيناها

وتهدَّجت الكمامة أمام أنفها وهي تتأمل ذقنه الكثيف والنظارة الطبية المُستديرة التي يرتديها! عاجلها:

- هاستنَّاكي برَّه.

وسحَب طبَقه ثم ابتعد.

في كَابينة الترام جلست بجَانبه، دَقائق لم يتبَادلا أثناءها كَلمة، يَسترِق النظر إلى صَفحَة وَجهها ولا تلتفت، فقط الصليب فوق صدرها يَعلو ويَهبط باضطراب رَغم الهدوء البادي عليها، نزلا ثم دلفا إلى مَطعَم إيطالي جَلَس فيه من قبل مع نازلي، وَضَعَت كرامتها على المائدة بجانب طَربوشه، طلبت حليبًا وطلب قهوة، تأمل بشرتها الشفافة، عَينيها التي تعكس مُربعات المفرش البيضاء والحَمراء، وأناملها الرقيقة التي ترتعش قلقًا على جوانب الكأس الفارغة.

- رَاهبة؟

هزَّت رأسَها بنعم ثم نظرت في وجهه: ليش مِتنكَّر؟

- البُوليس بيدوَّر عليا.

- عَملت شيء غلط؟

ابتسم: اتخانقت مع ظابط إنجليزي.

- كِيف عِرفت مَكاني؟

- قلتِ مرَّة إنه اتعرض عَليكِ شُغل في الجَمعية الأرمنية.. فكَّرت أكيد هلاقيكي هِناك.

- ذاكرتك هايلة! شو جَابَك يا أحمَد؟

- جَاي أشوفِك يا لينا.. ولّا ورد؟

- أرجوك.. إذا كُنت جاي تعاتب أنا فيًا اللي مِكفيني.

- أنا مش جَاي أعاتبك.. أنا بدوَّر عَليكِ مِن آخر يُوم كُنَّا مع بَعض.. لفّيت عَليكِ الصَّالات كلها.. مفيش مسرح ما دخلتوش.

- وشو بدك بكل ها التعب؟

- ما قدرتش أتخيل إنك تختفي من حَياتي بالسُّهولة دي.

هَربت من عَينيه إلى ما وراء زُجاج المَطعم: كلام.

- أنتِ مش فاهمة حاجة.

ترقرقت عيناها فالتفتت إليه: فهِّمني.. فهِّمني ليش في اللَّحظة اللي احتجتك فيها رَفضت تكون مَعي.. تركتني لحالي ورُحت.. فهِّمني ليش عم تتعب حالك هلا وتدور علي؟ إحساس بالذنب؟

- زي مَا عندِك الجَانب اللي بتخبِّيه يا لينا.. أنا كَمان عندي جَانب بخبِّيه.

- والجانب اللي بتعرفوا عني طبعًا يخلِّيني مش لايقة! أنا كنت عارفه إنك رح تستعر مني وصدقني لو بقولك ما انصدمت.

- أنا عِرفت اللي اتعرضتي له.. ومتخيل ألمك.. وكفاية إنك قاومتي.. ليه ما حكتيش؟

- عُمر ما الراجل بينسى مَاضي واحدة.. مَهما حَاول يتظاهر بالعكس.. رح يضل دايمًا متذكر إنها كانت في يوم من الأيام مشاع.. وإن كل جزء فيها مش هو أول واحد لمسه.. حتى لو مو ذنبها.

- مَاضيكي ما يخصّنيش في حَاجة.. أنا دورت عليكِ بعد ما عرفت اللي حَصَل لك.. صدَّقيني.. أنا ماكنتش أعرف إني بحبَّك.

- مو صَحيح.. أنت بتحِب واحدة تانية.

- كُنت.. كُنت بحِب.. حِلم غريب.. نسيته مَعاكِ.

أغمضت عينيها للحظات ثم تكلمت:

- إيش الجانب اللي ما أعرفوش عنَّك؟

سَحَب نفسًا ورَجَع بظهره إلى الكُرسي ينظر في وَجهٍ غزاه الألم والتخبط.. لمَّا طالت اللحظات أردفت:

- مش مُجبر تِحكي!

- أنا محتاج أحكي لأني مِحتاج أحس إني عايش.. وإني مُمكن أسند على كتف حَد.. أنا تعبت إني دَايمًا لوحدي.. تعبت من شكِّي في أقرب الناس ليا.. تعبت إني أنام بعين مَفتوحة وعين مَقفولة.. أنتِ الوحيدة اللي حسيت بالراحة مَعاها.

- إشمعنى أنا؟

- تصدَّقيني لو قلت لك مِش عارف.. يمكن عشان أنتِ البني آدم الوَحيد اللي دَخَل حَياتي من غير مَا يِستأذن.

قالها وسَكَت.. تركته ينظم نفسه حتى تكلَّم: أنا اتردت وإحنا بنرقص في الكافيه لنفس السَّبب اللي بَاعتني هي عَشانه.. كانت بتحبْ حَد مَا تعرفهوش.. خبيّت عَنها حَقيقتي.. ولمَّا عرفت ما سامحتنيش.

- ليش ما صارحتها؟

- ما ينفعش.

- عُمرك ما رح تنساها.

- صدَّقيني.. لحظة ما كُنا بنرقُص كُنت فِعلًا نسيتها.. بس لما سألتيني لقيت نفسي بكرَّر نفس الخطأ مَعاكِ.. بعرَّفك بشخصية ما تشبهنيش.. واحد أنا نفسي ما أعرفوش.

- على العموم ما ضَل مَطرح للحكي.. كل شيء انتهى.

- حتَّى لو مِش عَاوزة تشوفيني تاني.. أنا حَابب إنك تعرفي أحمد الحقيقي.

ارتعشت أصابعها رَغمًا عَنها.. نظرت في عَينيه دقيقة فاقترب واحتضن أطراف أصابعها براحته ثم أردف:

- أنا اسمي أحمد عبد الحي كيرة... مواليد ١٨٨٢...

لَم يَكن يتوقَّع أن يَأتي عَليه يَوم يَفتح فيه حُجراته المُظلِمة.. يُزيل العناكب التي ربَّاها وأطعَمَها بيديه لتغزل الخيوط في وجه المتطفلين.. يغلق فِخاخ الدببة ويمسح سموم الفئران المدسوسة في الأركان ثم يكنس المسامير المنثورة على الأرضية.

حَكى عن حياة أخرى غير التي حكاها لنازلي.. حَياته التي يظن أنه يعيشها.. بلا تفاصيل.. عرَّفها أن الدماء حقيقة لا تَجري في عُروقه.. بل بين يديه.. دِماء إنجليزية زرقاء وأحيانًا يضطر للدماء الحمراء إذا تضوَّر جوعًا.

عرَّفها أن حياته تُشبه كثيرًا حياة الذئاب.. وأن من يفقدهم يَوميًا من القطيع أكثر ممن يكتسبهم.. عرَّفها أن دموعه خرافة يتداولها الناس،

وأنـه بالفعـل يفتقـد جريانها علـى وجهه.. عرفهـا أن الحب فـي حياته لم يكن واردًا وأنه كَان نظرية خَرقاء تثير السُّـخرية في نفسـه والشـعور بالضعـف.. حتـى نبض قلبه يومًـا بلا اتفاق.. حِلم غريـب مثير مزدحم بالتفاصيـل.. حلـم غاص فيـه وثمِل حتـى تلقى طَعنة أيقظتـه.. قام من غفوته كَافرًا بالأنثى وبالحُب وبالحياة.. وبنفسه.. أدرك أنه الطفل الذي عَشِـق القمر وظـن كُل الظَّن أنه قريب حين احتوتـه أَصَابعه فقبض ولم يجد غير سَـراب وسُـخرية.. سـاذج أخـرق أدرك متأخـرًا أن القمر في السَّماء وأنه حَجر مُرصَّع بالحُفر وله وَجه مُظلم نظنه فَضاء.

ثم عَرَّفها أنها فتاة تسير على الأرض.

وأن فيروز عَينيها وذهب بشرتها والرقة التي خُرِط بها خَصرها ليسوا أجمـل مـا فيها.. فكم جَميلة صـادف ولم يقنع القلب! وكـم فاتنة قابل ولـم تحرِّضه على الحياة.. تحرقه مثلها.. تغرقه فيها.. ترويه وتغسـله. تصالحه على نفسـه.. مثلها.. رغبته فيها نَمَت بدون ماء.. بدون هواء.. بدون أرض.. عِشق توغَّل حتى النخاع حين ظن يومًا أنه لن يراها.

واليوم بات العشق درجات تنتهي.. عند أطراف قدميها.

سَـمِعَت قصَّتـه فغاصَت في الكُرسـي.. غَرقت حتى لامَسَت القاع ولمَّـا سَكت طفت.. نظـرت في عينيه ثم شـهقت.. ترقرقـت حدقتاها فانسـلَّت أصَابعهـا مـن أصَابعه إلى الصَّليب المعلق فـي رَقبتها.. ضَمَّته في راحتها وهَمَست:

- حقيقتك.. مَا رح هاتغيرك عَنـدي.. المُهم أنت هلا هون.. لكن...

- اتأخرت؟

- ....!

ارتعشت شفتاه بابتسامة: لينا.

- ورد.. اسمي ورد يا أحمد.

ابتسم وطأطأ رأسه إلى المائدة ثم نظر وراء النافذة مُحاولًا منع عَينيه من الانفلات قبل أن ينظر إليها.. أردف:

- أنا يِمكن أسافر يا وَرد.. سَفر طويل.

- على وين؟

- لسَّة ما قرَّرتش.

- مش رَح أشوفك تاني؟

- مين عارف!

قامت.. عَدلت من وضع الوشاح الأبيض فوق رأسها والتقطت حقيبتها: تعرف مَكاني.. خلِّي بالك على نفسك.

خرجت من المطعم فتابعها من خلف الزجاج حتى تلاشت.



مِيناء الإسكندرية.. صَباح اليوم التالي

لم تُبطئ الأمطَار نَشاط عُمَّال الشَّحن والتفريغ أمام البَاخرة العِملاقة «سردينيا»، يَنقلون إلى جَوفها شُحنات قُطن وحُبوب ستصنَّع في أوربا ثم يُعاد تصديرها إلى مِصر ملابس وأطعمة.. أمام الباب الخاص بالمُسافرين وقف ضَابِط إنجليزي يفحص بدِقَّة جوازات السفر، يَمتد أمامه طابور طويل يتحرك ببُطء بسبب تشديد الحكومة الإنجليزية على السفر منذ بداية الحرب رغبة في مَنع التجسس أو هُروب ذوي المَواهب المفيدة، لَحَظات واقترب من الضابط رجل كثّ اللحية فوق عَينيه نظارة طِبيَّة مُستديرة.

- بونچورنو.

ألقاها وناوله جواز سَفر إيطاليًا.. نظر الضابط في الصُّورة الشمسية ثم في وَجه المُسافر.

- أين تعيش في صقلية يا سنيور باولو؟

- سانتا آنا.. بقرب الكاتدرائية.

- ومَاذا تفعل في مصر؟

- تجارة حُرَّة.. لي سَبع حَاويات من الحُبوب في الباخرة.

مد الضابط يديه بالباسبور:

- يحيا تشيزاري موري[1].

أجابه أحمد بابتسامة من خلف لحيته: يحيا تشيزاري موري.

رُفعت المَرساة وحُلّت الحِبال فتأمل الإسكندرية تبتعِد، اجتاحه الصّمت وعانى صَدره فراغًا مُوجِعًا فأشعل سيجارة لم يَسحب مِنها نفسًا حتى بَات الشاطئ في حَجم عُقبها، ثم انطبقت السَّماء عَلى الأرض.

في الساعات الأولى حاول استيعاب أقدار رَمَت به في البحر، يتمم كل سَاعة على الذّقن المُستعار ومسدّسه المربوط بحزام إلى ساقه ويتجنّب الحوارات قدر المُستطاع حِفاظًا على حَصيلة الإيطالية المُتواضِعة التي يُجيدها، ثم ينزل عليه الليل فتتراءى له حَبيباته في النجوم، الأولى اغتصبها الإنجليز، الثانية تزوّجت مَلكًا والثالثة زفّت نفسها لمَسيح في السماء!

لمّا رَسَت الباخرة في مرفأ صَقلية تسلّل أحمد إلى سَفينة ألقته في ميناء «هامبورج» ثم رَكب مَركبًا صَغيرًا حَمله إلى «إسطنبول»، ما إن لامس بلاط الشارع حتى بدأت مُهمته الأساسيّة.. الاختفاء.



(1) تشيزاري موري: مُحافظ خلال الفترة الفاشية في إيطاليا عُرِف عنه الحزم في التعامل مع عائلات المافيا حتى سُمّي بالمُحافظ الحديدي.

مَرَّت الأيام على مِصر ثقيلة، تترقَّب مفاوضات لندن بفضول الأطفال أمام عَرائس صُندوق الدمى، معركة مَلحمية بين بَطلهم الفارس الشعبي سَعد وغريمه الشرير مِلنر، عَرض طويل شاق أنهك المتفرجين وحَطَّم معنوياتهم، البحث عن صِيغة استقلال تُرضي طرفي المُفاوضات - احتلالًا ومُحتلًا - صار سَرابًا كلَّما اقتربوا منه لم يجدوا عنده ماء، تمسك كل من الرجلين بموقفه حتَّى انكسرت مَائدة المفاوضات فغادر سَعد لندن عائدًا إلى مصر، استُقبِل استقبال الأبطال مُنذ وطئ الإسكندرية وقرر استئناف مَعركته من أرضه التي غاب عنها زمنًا، ومَا هي إلا أيام وفشلت المفاوضات بين ملنر وعدلي باشا يكن المُمثل الحُكومي لِمصر لأن الأخير خَشي أن يَقبل بما رَفضه سَعد فيُكتب عند الناس مُتهاونًا في طلب الاستقلال.

أما الإنجليز فكان عليهم إنجاح المُفاوضات، بأي ثمن، للحَد من فُرصة حُدوث ثورة مِثل التي حدثت في مارس ١٩١٩، العقبة الوحيدة لم تكن سوى سعد العنيد وشعبيته، سَاقوا إليه أصدقاءه قبل الأعداء يُنذرونه ويهدِّدونه مَغبة تصليب رأيه فأبى، ضَيَّقوا عليه حُرِّيته للحَد من إثارته للنفوس ضِد الاستقلال المنقوص الذين يُروجون له قبل أن يَضطروا إلى نفيه مرَّة أخرى إلي جزيرة سيشل، فطالما بقي سَعد في مصر فإن السياسيين «المعتدلين» سيخشون الاتفاق مع إنجلترا.

وعمَّت الإضرابات مِصر مرة أخرى.

ثورة ثانية أكثر نضجًا، استعملت المُقاطعة فيها للمَرة الأولى ضِد كل ما هو إنجليزي، مَحلات، بنوك، سُفُن، شركات تأمين وتجارة، بدايات عِصيان مَدني عَجَّلت باستقالة وزارة عدلي باشا يكن ولم يَقبل أحد بعده أن يشكل وزارة، فالقبول يَعني التفريط فيما أجمَعَت عليه القوى الوطنية.

التفريط في سَعد زغلول.

مَع الضَغط الشعبي كان على البريطانيين عَقد صَفقة.. تصريح من طرف واحد لم يَجرؤ على توقيعه إلا سُلطان أراد أن يُصبح مِلكًا وأن تُصبح الولاية في ذرِّيته بَعدما رُزق بذكر.. تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م.. وبنوده إلغاء الحِماية على مِصر والاعتراف بها دَولة مُستقلة ذات سِيادة، إلغاء الأحكام العرفية، تهيئة البلاد لحياة دستورية برلمانية عَن طريق وضع دستور للبلاد وإجراء انتخابات برلمانية.. مع الاحتفاظ بتحفظات أربعة تقضي على كل ما فات:

- الحق في تأمين مُواصلات الإمبراطورية البريطانية في مِصر.
- الحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية.
- الحق في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.
- الحق في التصرف في السودان.

تحفظات أرجعت البلاد إلى حالة ما قبل الحرب «مقابل» عَلم أخضر جَديد بهلال واحِد بَدلًا من الأحمر العُثماني بأهلّته الثلاثة، لقب مَملكة بَدلًا من سَلطنة، دستور تم تمريره بسلاسة في غياب المُرجِع سعد، ومادة في نظام الأسرة المالكة تُبقي العرش في ذرية أكبر أبناء جلالة ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور.. «فؤاد».

سعِد «فؤاد» بإعلان استقلال بِلاده فأقام احتفالات - قاطعها

الشعب - وتوافدت رُسل الدُول الأجنبية لتقديم التهاني، قابل الملك الرجال وأرسل السيِّدات إلى الحَرملك لتهنئة المَلكة «نازلي»، جِذع نَخره السُّوس من الداخل وترك الوجه بملامِح دُمية رُسِمت على شفتيها ابتسامة مزمنة لن تتغيَّر حتى ولو أُلقيت من نافذة، تقف في القاعة البيزنطية بقصر عابدين مُنتصبة هَادئة والتاج الجَديد منغرز في رأسها، تُحيِّي السيِّدات الرَّاكِعات بكلِمات مَحفوظة وتلقي كُل بضع دقائق نظرة على صَغيرها النائِم بين يَد مُربِّيته مِسز تايلور لتراه المَدعوات، تنتهي المَراسِم لتخلع زينتها وتنتزع تاجها وتستلقي على فراشها واجمة قبل أن تسمع خطواته قادمة، يَخلع طربوشه وبدلة التشريفة والخاتم ليَسقط بثقله فوقها بدون كلمة، تنغرز سلسلة حرف الـ N في مَنابت صَدرها، ببطء، بألم، بصُعوبة وبين لَحظات الصُّعود والهبوط فوقها تَسحب لرئتيها نفسًا يُبقيها في مَنطِقة الوَعي وتتذكَّر لحظة أهداها أحمد السلسلة، تراه وهو يُخرجها بسحره من وراء أذنها، أصابعهما المتشابكة في شارع عماد الدين، قُبلة قَصر البارون خلف التمثال الرخامي، ثم تفيق على خوار في وَجهها يحمل عَبَق تبغ ملكي، ينفث شهوته ثم ينتهي فيَرتمي فوق صَدرها كالقتيل، يَذهب في سِنة قبل أن يوقِظه شَخيره بالكاد قبل أن يتوقف قلبها بلحظات! يفيق فينظر إليها كأنه يَراها لأوَّل مرَّة، ثم يتَدارك نفسه فيقوم ليُشعِل غليونه.. بلا كلمة.. تغمض عَينيها مُقاوِمة التقيؤ من بقايا رائحته وتتكوم على نفسها كالجنين حتى يَخرج إلى غُرفته فتقوم إلى الحمَّام، تفتح مِياه الدُّش فوق رأسها دَهرًا، تغسل بَصمَاته وصَفعاته قبل أن تشعِل سِيجارة، تتأمل من بين دُخَانها صُورتها المُبهمة في المِرآة، تمسح البُخار لترى وَجهًا، عينين، وجُروح غرز التاج في جَبهة.. وخيوط بيت العنكبوت!



١٦ سبتمبر ١٩٢٣م

«إلحق يا جدع.. إلحق يا جدع.. عودة سَعد باشا زغلول غدًا.. عَودة الباشا ورِفاقه إلى مَصر غدًا.. إلحق يا جَدع».

مَا إن نطقها الطِفل النحيل حتَّى هَجم الناس عليه يتخطَّفون الجَريدة منه ليتأكدوا الخَبر.

> «أبحَر سَعد باشا يوم ١٢ سبتمبر من ميناء مَارسيليا على ظهر الباخرة «لوتس» قاصدًا مِصر، تصحَبه حرمه المَصون السيدة صَفيَّة زغلول وبصُحبتها السيدة هُدى شَعراوي وبَعض إخوانه مِن أعضاء الوفد».

في اليوم التالي وَصلت البَاخرة التي تقل سَعد إلى الإسكندرية. استقبله الشَّعب استقبالًا فاق استقباله بعد نفيه الأول، طَافوا بمَوكب شوارع الإسكندرية يتأمل الجموع من سيارته يُحييهم ويتلقى الورود والهتافات حتى نزل في فندق كلاريدج، استراح حتى العَاشرة مَساءً قبل أن يتوجَّه إلى قصر المُنتزه حيث كان المَلك فؤاد في انتظاره..

دَخل سَعد باشا مُتوكئًا على عَصَاته أكثر مِن ذي قبل، مُقاومًا آلام عظام ورَعشة في أصَابعه تليق برَجل في الثانية والسَّبعين، استقبله تشريفاتي القصر والمُوظفون بحفاوة وحَمَاس قبل أن يَدخل غرفة المَكتب التي

تعمَّـد فـؤاد أن يترُكه فيها لعَشـر دَقائق قبـل أن يفتح التشـريفاتي الباب ليُعلِـن أن جلالة الملك في الطرقة فقام سـعد، التقطت أذناه الخُطوات الواثِقة قبل أن يدلف من الباب وجه منتفخ متورِّد وشارب آنف، تقابلت الأيدي تحت النَّجفة الكَبيرة.

- سَعد بَاشا.

- جَلالة المَلِك.

- أصبحت عجوزًا يا صَديقي!

قالهـا فـؤاد بالفرنسـية فأجابـه سـعد بمثلهـا: من لـم يَمُـت صَغيرا يتحمل كثيرًا.

- لن تتخيَّل مَدى اشـتياقي لسَهرة من سَهرات كلوب محمد عَلي.. أفتقد تلك الأيام بشدَّة.. كنت أكيل لك الهزيمة وراء الهزيمة.

- كانت أيامًا جميلة يا جلالة الملك.

استويا على كُرسيين مُتقابلين أمام تِمثال نِصفي للخديوي إسماعيل، والد المَلك، استأذن التشـريفاتي لدُخول صِينية تحمِل الشَّاي، وَضَعها السُّفرجي ثم أغلق الباب عليهما، أشعل فؤاد غليونه بهدوء ثم تكلَّم:

- كيف كَانت رِحلة العَودة؟

- مُجهِدة.. لكن استقبال الناس جَعلها هيِّنة على قلبي.

- أتمنى أن تكون آخر رَحلات النفي.

- أتمنى.. ولو أنني لا أظن!

ضحك فؤاد: ومن سينفيك غيري بَعدما حَصلنا على الاستقلال؟

ـ جلالة الملك! الإنجليز ما زالوا يَرتعون في شوارِعنا.

ـ بنود الاستقلال تعطيهم الحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية.

ـ جلالتك.. إنني أحفظ جيدًا بنود الاستقلال المَنقوص.

رمقه فؤاد لثوانٍ ثم هز رأسه: لم تخيِّب ظنِّي يا صديقي القديم.. ها هو سعد.. عنيد لا تغيِّره الأيام ولا تزيده التجارب خِبرة.

ـ جلالتك تسمِّي المُطالبة بالاستقلال التام قلَّة خبرة؟!

ـ بل وقِلة بصيرة.. يَبدو أن الجموع التي هتفت باسمك.. وأتكلم هنا عن الجُموع التي يُموِّلها رجالك من التبرعات.. قد حَجَبَت عَنك حقيقة جَلية.. حقيقة أن ذلك الشعب لا يَعنيه استقلال تام أو يشعر باختلاف إذا اختفى الإنْجليز من الوجود.. ذلك الشعب الطيب يُريد حَياة مُستقرة هادئة.. حياة أفسدتها أنت عليه منذ أربع سنوات حين جلبت موضة الثورة إليه.

ـ الثورة ليست موضة.

قام فؤاد مُحتدًّا: بل مُوضة من لا مَنصب له.. من يفتقر للاهتمام.. من فشل من قبل وراء عُرابي.. من انزوى عن المناصب فأراد أن يُشعل الشوارع ليُضيء دُنياه المُظلمة غير عَابئ بالعواقِب.

قام سعد: جلالتك.. إن الثمن الذي ندفعه من دمائنا هو الذي سيحقق لنا الحُرِّية في النهاية.

ـ حرِّية!!!

تمشى فؤاد حتى النافذة ونظر من خلالها لثوان قبل أن يلتفت لسعد.. قال بهدوء:

- هل تعلم أن أبي الخديوي إسماعيل كان ينوي إعلان استقلال مِصر في الوليمة الكبرى التي أقامها بمناسبة حفل افتتاح قناة السويس والتي دُعي إليها ملوك وملكات العالم؟

- سمِعت تلك الرواية.

- أتعرف لِمَ تراجع؟ خوفًا من كَلمة دمائنا التي تنطقها ولا تعرف ثمنها.. خوفًا على مصر.. والآن وبعد خمس وخمسين سنة وصلنا إلى عقد مُعاهدة مع إنجلترا فيها فائدة للفريقين.. فيكون لهم ما يريدونه في القناة ويكون لنا حُكم البلاد.. فتأتي أنت لتقول دماؤنا ستحقق الحرية!!

- أنا لا أنوي إشعال الشوارع أو إراقة الدماء.

- وماذا ستفعل إذن؟ الثورات لا يُراق فيها ماء الورد.

- سأدخل الانتخابات البرلمانية.

ضحك فؤاد: لقد عرفت جميع أنواع الناس، أمراء، عُمَّالًا، سائقي المركبات، فلاحي الحقول، جنودًا وقوّادًا، عرفت الفقر، وأعرف أن ما تنوي فعله لا يمُت بصِلة للمَصلحة العَامة، بدلًا من أن ننهض ونبني تريد أنت أن تُشعِل ثورتك الجديدة في البرلمان.

- فلندع الشَّعب يقول كَلمته.

قام فؤاد منهيًا المُقابلة: لن تصل للبرلمان طالما كنت أنا فوق ذلك الكُرسي.

- فليمدُد الله في عُمر جلالتك.. أستأذن مَولاي في الرَّحيل.. جسدي في حاجة إلى راحة من عناء السفر.

لم يُعقِّب فؤاد، أشاح بوجهه واتجه إلى الشُّرفة، فتح بابها وخرج إلى الهواء، خرج سَعد من الغرفة فاستقبله التشريفاتي ليُوصله إلى سيَّارته، مَشى طرقة طويلة حتى التقطت أذناه وقع أقدام أنثى تقترب، وصيفة من وصيفات القصر همست في أذن سَعد:

- جَلالة المَلكة باعته رِسالة.. وبتعتذر لمَعاليك إنها مَا قدرتش تيجي لظروف خارجة عن إرادتها.

دسَّ سَعد الرسَالة في جَيبه وخَرَج إلى مَمشى رَكِب في نهايته سَيَّارة فيما كَانت نازلي تُتابعه مِن وَراء سَتائر شُرفة بَعيدة عَالية، تحركت السيارة ففتح الرسالة، لم يكن مَكتوب فيها غير كَلِمَات قليلة بدون إمضاء:

«بابا.. حَمد الله على السَّلامة.. ادعي لي.. وسامحني».



جَرت الانتخابات البرلمانية ودَخل سَعد المُنافسة فاكتسح بأنصا[ره] مَقاعد مَجلس النواب، ١٩٥ مقعدًا من ٢١٤ وفاز أحدهم في دائ[رة] كان الخصم فيها رئيس الوزراء نفسه! تولى سَعد رِئاسة الوزارة في ٢٨ يناير عام ١٩٢٤ رغم أنف الملك، وكان أول القرارات التي اتخذها الإفراج عن المساجين والمُعتقلين السياسيين بإصدار قانون خاص بالعفو عنهم.

سِجن قرَّة مِيدان.. القلعة

- يَاسين.. يَاسين...

انتبـه فـي مُنتصف النّداء الثالث فقام من فوق البلاط البارد واقترب من الباب المَفتوح.

- أنت اتطرشت؟!

- ...

- إفراج.

- هه!!

- إفراج.. عفو.. هاتخرج.. هاتروّح على بلدك...

هزَّ رأسَـه ولـم يُعقّب، سَحَبه الحَارس خَارج الزنزانـة فرَفع أمام الشَّمس يَدًا يَحجبها، أنهوا إجـراءات خُروجه مع عدد مـن المُعتقلين قبـل أن يَلفظوهـم في شَارع، لم تكـن معه نقـود حين اعتقلـوه فوَقف سَاعتين يُحملق في الفراغ قبل أن يمشي، ليومين مُتواصلين! نام ليلة في مَسجد وأخرى على رَصيف وفـي الثالثة استلقى فـوق ظَهر قِطار «قشَّـاش» يترجرج به في رتابة، يتابع سـماء تمر فوقه وسـحابًا مُختلطًا بدُخـان الفَحـم، ويَجتر شـهورًا مَضت، شـهورًا لـم يُغمض فيها عينيه لحظـة، ازداد نحافـة وهـزالًا، وتجمع في ظهره ترقيمات سياط مصرية

بجانب السياط الإنجليزية، بحثوا تحت جلده عن معلومة لا يملكها وراء عينيه عن آخر يدَّعيه حتى يئسوا منه فألقوه في زنزانة ضيِّقة خالية ما لبثت أن ازدحمت برفاقه الذين قتلتهم يداه! في الأيام الأولى اكتفوا بالنظر إليه صامتين، قبل أن يبدأ الهمس بينهم، وَسوسة رفيعة تخرُج من بين شفاههم وتتعالى، وَسوسة لم يفلح معها سد أذن ولا صراخ، قام يدفعهم ويخبط الباب بقوَّة حتى أتى الحُراس فكبَّلوه وكمَّموه ثم ألقوه ثانية في الزنزانة، مع رِفاقه، ظل صامتًا يتأملهم برعب وهم يقتربون حتى باتوا على بُعد سنتيمترات من أذنيه قبل أن يصرخوا كلهم في وقت واحد، صَرخة رفيعة حادة شقَّت عقله وقلبه وحررت مَثانة البول بين قدميه، مِن يومها لم يعد يتكلم أو يَصرخ، فقط يُحملق في الجدران من حوله كالأصم الأبكم.

حين وصل القطار المنيا ترك السَّماء ونزل، هام حتَّى وَصَل قريته أبشاق الغزال، استقبلته أمه وإخوته ببُكاء وتساؤلات لم يجب عنها، قبل أن يُسأل عن دولت التي لم تُسمع أخبارها منذ رَحلَت، ربتت أمه على كتفه وهمست: دولت يا ياسين.. أختك.. وين راحت يا ولدي؟ بجالها تلات سنين لا حس ولا خبر! بَكت بُكاءً مَريرًا تحول لعويل قبل أن تصرُخ وتضرب صَدره بكل قوَّتها تُريد أن تُحيي قلبًا كفَّ عن الخفقان، لم يُقاوم، تركها تَضربه حتَّى خارت قواها فنظر إليها بصَمت ثم دَخل غُرفته، نام يومًا كَاملًا حتَّى حسبته أمه قد مات قبل أن يَقوم بلا كلمة، تمثال من تماثيل المساخيط يسير بلا أقدام، اتَّجه إلى أرضه فحرث وبَذر ورَوى ثم اختار مَجلسًا جلس فيه وسط حقله، خيال مآتة يُفزع الطيور، قبل الغروب قام فجأة حين لَمح في الشَّمس وَجهًا، وَجه دَولت، لم ينفض يده أو يسوي جلبابه، فقط اتجه إلى محطة القطار.

مَكتب مُصطفى باشا النحّاس بمَقر رئاسة الوزراء

انقضت نِصف سَاعة من الانتظار قبل أن يَخرُج السّكرتير مِن الغُرفة ويَقترب مِن عبد القادر ونجيب الأهواني اللذين قاما من كُرسيهما.

- آسف يا أفندية أنتم أكيد مقدرين المَشغوليات.. مُصطفى باشا في انتظاركم.

زرَّر الأهواني سُترته وعَدل طربوشه ثم نظر لعبد القادر الذي فقد عدة كيلوجرامات، ابتسم فغمزه الأخير بعَينيه ثم دَلفا إلى الغُرفة الواسِعة المَكسوة بالسجّاد، مصطفى باشا النحاس كَان على كُرسيه خلف مَكتب عَريض يُنهي مُكالمة، قام من مقعده فهرول الأهواني إليه مَادًّا يدًا ومن ورائه عبد القادر، سَلَّم عَليهما بود ثم أشار إليهما ليجلسا قبل أن يُنهي مُكالمته بعُجالة ويلتفت إليهما مُبتسمًا:

- آسف على إنكم انتظرتم برّه كتير.

ابتسم الأهواني: يا باشا إحنا انتظرنا اللحظة دي سنين في اللومان.. مَعقول ما ننتظرش سعادتك.. دايمًا كنت أقول لزميلي إن فرج ربنا هاييجي على إيد سعد باشا.. والله...

- الله يخلّيك يا نجيب أفندي ده برضه العشم.. أهلًا يا عبد القادر.. حَمد الله على سلامتك يا ابني.

أردف عبد القادر: الله يسلمك يا سعادة الباشا.

ضَغَط النحَّاس جَرسًا تحت مكتبه ثم استطرد بابتسامة:

- أنا عَاوز أقول لكم إن تقديم المُساعدة المُمكنة من أهم أولويات سَعد بَاشا من ساعة ما تولى الوزارة.

أردف الأهواني: الله يكون في العُون ويخلي لنا الباشوات كلهم.

دَخل سَاعٍ فأمره النحّاس أن يتولى طَلبات ضيفيه فطلبا على استحياء شايًا.. استغل النحاس الدقيقة المُهدرة وأخرج من درج مَكتبه ظرفين وضعهما أمامه ثم أردف حين أُغلِق الباب:

- للأسف وقتي مَحدود أنتو عارفين مشغوليات الوزارة، وطَبعًا أنا برضه مَقدَّر إنكم لسَّة خارجين ومحتاجين تقضُّوا وقت مع العائلة الكريمة والأقارب، فأنا هاكون مُختصر في كلامي لغاية ما يكون لينا لقاءات تانية بإذن الله، طبعًا عايزكم تعرفوا إن سَعد باشا مُهتم جدًّا بكل الناس اللي حَطُّوا كفنهم على أكتافهم وقت الثورة وما بَعدها.. و...

قاطعه الأهواني: يا باشا إحنا رقبينا فدا مصر وسعد باشا.

ابتسم النحاس ببرود: أنت قضيت كام سنة في السجن يانجيب أفندي؟

- ٩ سنين وست شهور.. أنا بلا فخر صَاحب أخطر مُحاولة اغتيال بعد اغتيال بطرس غالي رئيس الوزارة سنة عشرة.. الوحيد اللي واجه حَرَس السُّلطان والوحيد اللي...

قاطعه النحاس بعدما لمح سَاعة الحائط: مفهوم مفهوم طبعًا.. وأنت يا عبد القادر أفندي؟

- أربع سنين يا باشا.

دفع النحاس الظرفين بلُطف ناحية ضَيفيه: إحنا مَحضرين ظرف لكل مِنكم فيه إعانة بَسيطة، طبعًا مش قد المقام ومش أجر التضحيات لكن أهِه حاجة تساعد في المَصاريف لغاية ما تستلموا عمل في أقرب وقت.

رَمَقه الأهواني في صمت قبل أن يبتسم:

وهي إيه طبيعة المَنصب اللي هاستلمه يا باشا؟

- بالنسبة لك يا نجيب أفندي إحنا محضَّرين لك وظيفة كاتب في بنك مصر.

أظلم وجه الأهواني: كاتب!

- في بنك مَصر... بمَاهية تمانية جنيه في الشَّهر.. طبعًا ده عشان بداية التعيين لكن في أقرب وقت...

- تمانية جنيه!! أنا...!! أنا ضحَّيت بروحي سنة خمستاشر يا سعادة الباشا!! ضحيت وما ذكرتش اسم حد من زملاتي.

- للأسف يا نجيب أفندي أنت مَعاك شهادة الكفاءة[1].. يا ريت كان فيه حتى شهادة توجيهية كنا عرفنا...

(١) شهادة تؤهل حاملها لشغل الوظائف الدنيا في الحكومة أو لمواصلة الدراسة حتى إتمام الشهادة التوجيهية التي تعادل الثانوية العامة.

قاطعه الأهواني: يا سعادة الباشا... هو واحد زيّي المفروض يتعيّن بشهادته؟ أنا ليا تاريخ... بقول لسعادتك ضحّيت بنفسي...

- ما حدّش أنكر تضحيتك يا نجيب أفندي.. إنما... كفاءتك في العَمل مَربوطة بخبرتك وشهادتك اللي حصلت عليها وطبعًا أنت بقى لك فترة في السجن.. وتدرجك الوظيفي لازم يكون...

- يَعني ما عنتش أنفعش؟! يَعني اللي ركبوا الكراسي أنضف مِنّي!

- العمل الفدائي شيء والكفاءة شيء تاني يا نجيب أفندي.. سياسة العمل العام ليها مَطالبها وأنت راجل وفاهم إن...

قاطعه الأهواني كأن لم يَسمعه: يَعني مَحمد توفيق نسيم اللي كان بيلم أعضاء الوفد في اللومان يِمسك المالية! ومحمد سعيد اللي كان ماسك الوزارة سَاعة الثورة يِمسك المعارف! وأنا أخرج أشتغل كاتب! ليه؟ عشان صُباعي مقطوع؟

- يا نجيب أفندي أنت كنت مُنتظر تخرج من السِّجن تِمسك وزارة

قام الأهواني من مَكانه فتوتر عبد القادر وقام هو الآخر محاولًا تهدئة الموقف.

- مَا سَعد باشا اتسجن واتنفى وخرج ع الوزارة.. وسعادتك اتنفيت ورجعت وزير مُواصلات!

اقترب عبد القادر من زميله وهَمَس: اهدى يا نجيب أمّال.

نظر إليه النحاس بهدوء ولم يُعقِّب.. أردف الأهواني: يَعني إيه يضيع من عُمري تسع سنين وبَعدين اللي خانونا يركبوا الكراسي.. طب ودم

الشُّهدا؟ الناس اللي راحوا في ١٩؟ وضُباعي اللي طارده.. بح؟! أنا عاوز أقابل سَعد باشا.

- صَلِّي ع النَّبي يا نجيب... مش كِده يا جَدع...

- سيبني يا عبد القادر.. سيبني أتكلِّم.. أنا مش غلطان.. لو ما قابلتش سعد باشا هاعمل نِصيبة هِنا...

قام النحاس: من فضلك يا حضرة.. أنا مقدَّر محنتك لكن حافظ على كلامك إحنا في وزارة مش في اللومان.

- بتعايرني سعادتك باللومان؟! اللومان اللي ضاع فيه عُمري عشانكم.

- عُمرك راح عَشان الاستقلال.. عشان مَصر.. مش المفروض يا أفندي تكون مُنتظر أجر عن الوطنية.

- دَه كَلام إنشا ينفع في المَدارس.. كُل اللي عَملوا ثورات رِكبوها.. كانوا دايمًا أولى من اللي اتخاذل ورفض يشارك.

أمسَك النحاس بالظرف وأشار به إلى الأهواني: يا نجيب أفندي اللي اختار العُنف مش أحسن من اللي اختار الحوار.. كلنا بنحاول والكل على طريقته.. استلم وظيفتك دلوقت وأوعدك أوصَّل صُوتك لسعد باشا...

- سعد باشا خلاص.. لبس توب الأفوكاتو من تاني.

قالها ورَحل تاركًا يَد النحَّاس مَمدودة.. فتح الباب بعُنف فتأسَّف عبد القادر للوَزير بكَلمات مُرطِّبة ووجه مُستعطِف قبل أن يَلحق بزَميله

الثائر على السلَّم.. أمسَك بِرفقه ليوقفه: أنت اتجنّيت في عقلك يا جَدَع أنت؟ إيه اللي أنت عملته مع النحاس باشا ده؟!

- حاطين لنا حسنة في ظرف ووظيفة كُحّيتي؟ دي دَقّة النقص مع الأبطال الحقيقيين.. أنت أكمنَّك قضيت أربع سنين مش حاسِس باللي شفته.. مراتك ما سابتكش.. حياتك ما انتهتش.. هو ده اللي قلت لك عليه.. المحتل مش بيغلبنا بسلاح.. بيغلبنا بالرجّالة اللي استعمر روحهم.

- أنا حاسس بيك يا نجيب بس مش كِده.. الكلام أخد وعطا والراجل ما اتأخرش.

- أنت هاتعوم على عُومه! البَلد دي مَديونة لي بعمر راح.. عمر راح يا عبد القادر.

قالها وابتعد.. رَمقه عبد القادر حتى اختفى قبل أن يَصعَد السلَّم مُجددًا في مُحاولة لرأب الصدع مع الوزير حين وجد رجلًا يقف في انتظاره.

- عبد القادر شِحَاتة.

رمقه عبد القادر بجهل: مين سعادتك؟

- أنا صَديق عزيز.. لأحمد كِيرة.. مِحتاجين نتكلم.



استويا على كُرسيهما في محل جروبي بميدان سليمان باشا.. طلبا القهوة وأشعلا السجائر.

- عَدم اللامؤاخذة سَعادتك تبقى...؟

- عبد الرحمن فهمي.. رَئيس الاتحاد العَام لنقابات عُمّال وادي النيل حاليًا.

قاطعه عبد القادر: سَعادتك تِعرف مَكان أحمد؟

- مش بالظبط.

- ... طب هو سعادتك... الرجل الكبير؟

- رجل كبير إيه يا ابني هو إحنا عِصابة! ما تسألش كتير واسمعني كويس.. أحمد هِرب لإسطنبول من أربع سنين تقريبًا.. مِن بَعد عَملية الظابط آرثر.

رَمَقه عبد القادر بذهول.. أردف الرَّجل: كَان حَصَل بيننا اتصال مُختصر وأنا في السِّجن واضطرينا نتوَقّف عَشان المُراقبة.. من سَاعتها ما أعرفش أي خبر عنَّه.. كل اللي أعرفه إنه في إسطنبول.

- وليه يا باشا ما يِرجعش بعد ما سعد باشا...؟

قاطعه الرَّجل: الموضوع مُعقَّد.. مِش مَعنى إن سَعد باشا تولَّى الوزارة إن كل الأطراف مُوافقة.. الإنجليز مش متقبلين وجوده.. ساكتين على مضض بسبب حُب الناس.. وطبعًا الملك حَاسس بتهديد وإهانة إن غريمه يتولى كرسي الوزارة بأغلبية البرلمان.. ده غير طبقة الأثرياء اللي مِش عَاجبهم سعد باشا اللي قوَّم ثورة وهدد مَصالحهم..

وطبعًا مش مِحتاج تفهم إن كل الوزراء وأولهم سَعد باشا مَحطوطين تحت مُراقبة صَارمة.

-طب وأحمد... ؟

-طبعًا لو الظروف عادية كنا بعتنا جبناه رسميًا وتحت حراسة.. لكن ده دلوقتِ مُستحيل.. الإنجليز حَاطينه على قوايم التصَفية مِش الاعتقال لأن التار شَخصي بعد قتل وكيل الداخلية آرثر.. عُيونهم في كل حتة مُنتظرة ظهوره.. لولا أحمد بَارع في التخفّي وما بيآمنش لحد كان زمانهم قتلوه.

-وسعد باشا ما يكلمش حد من حبايبه في إسطنبول؟

-لو اتعرف إن فيه صِلة بين الوفد وأحمد كيرة هاتبقى فضيحة تروح فيها الوزارة كلها.. ده غير إن الاتجاه دلوقتِ جوة الوزارة هو التخلي عن العنف والسير في المفاوضات.

-عشان كِده معاليك رَئيس اتحاد نقابات النيل مش وزير؟

رَمقه عبد الرحمن فهمي في صمت ثم أردف: مُمكن نخلينا في مَوضوعنا؟ الوفد مش هايقدر يتورط في رجوعه.. وأحمد بالشكل ده مِش هايعرف يرجع تاني أبدًا.. إلا إذا.. وفّرت له هويّة جديدة تساعده يرجع.. وطبعًا يوصلها له حَد بيثق فيه ومن خارج الوفد.

رَمقه عبد القادر للحظات ثم أردف: أنا؟

-أعتقد إن أحمد يستحق محاولة إننا نرجّعه بلده...

-طبعًا.. بس إزّاي هلاقيه هناك؟

- إزَّاي دي ما لكش دعوة بيها دلوقت.. حَضَّر نفسك وفي خِلال يُومين هاتوصلك وَثيقة سَفَر لإسطنبول وتذكرة مركب.. توصل لأحمد وترجعوا مَع بَعض.

هز عبد القادر رأسه مُوافقة: رقبتي....

قام الرجل مُنهيًا المقابلة حين استدركه عبد القادر: لامؤاخذة.. كنت عاوز أسأل سيادتك على.. دولت... أصلها كانت بتزورني في طُرة وفجأة انقطعت زيارتها.. سَألت عليها أول ما خرجت في المدرسة وعرفت إنها...

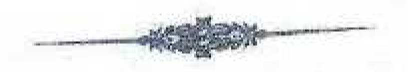
أكمَل الرجل جُملته: سَابت المَدرسة مِن بَعد شهادتها مَعاك.. مُديرة المدرسة طردتها بسبب سُوء السلوك.

طأطأ عبد القادر رأسه قبل أن يختنق صَوته: عَارف يا بيه... أنا لمَّا دَخلت الفدا كُنت فاكر نفسي دَكَر.. ابن الفتوة العِترة.. وبَعدين اكتشفت إن فيه حَواليا ناس أجدع وأشجع مني ميت مرَّة.. أحمد اتشرد عشاني.. ودَولت ضَحَّت بسُمعتها وشغلها.. ما كنتش عَارف إن البلد دي غالية أوي كِده.. دلوقتِ وبعد أربع سِنين في اللومان فهمت.

ابتسم عبد الرحمن وربت على كتفه ثم أخرج ورقة وقلمًا.

- دَولت بتشتغل في فابريقة مَلابس في وسط البلد.. شارع إبراهيم باشا.. ده تليفون المكان.

التقط عبد القادر الورقة فتهلل وجهه قبل أن يقوم ليَحتضن الرجل بعفوية: ربنا يجبر بخاطرك يا بيه.



مَدرسة الهلال

قضى دقائق الانتظار مُتيبِّسًا أمام الباب الذي اعتُقِل عنده منذ أربع سنوات حتى أتته نَاظرة المَدرسة، سيِّدة بَدينة في العقد الخامس تأملت جلبابًا يأوي الهزال وعينين ذاهلتين: أهلًا وسهلًا.. خير؟

سَأل بعد لحظات: دَولت عبد الحفيظ.. وينها؟

تبدَّل الفضول ضِيقًا: حَضرتك مين؟

- أنا أخوها.

- ممم.. دَولت ما عَادتش بتشتغل هِنا يا حَضرة مِن ييجي تلات سِنين.. هي ما رجعتش البلد؟

عَبَس وَجهه قلقًا: لا.. مَا رِجعِتش.

- مش هاقدر أفيدك.. أنا آسفة.

همَّت السَّيدة أن ترحل فأمسك رسغها وسط ذهول الطالبات، التفتت إليه باستنكار وهمَّت أن تصيح فرأت في عَينيه ما أسكتها قبل أن يُعيد سؤاله:

- وينها راحت؟

- إدارة المَدرسة استغنت عَنها.. من سَاعة فضيحة الشاب بتاع القنبلة.

- ...!!!

- الشاب اللي كَانت... على عَلاقة بيه.

لمست ناظرة المدرسة ذهوله فابتعدت بحذر وأشارت لبواب المَدرسة أن يُخرجه من حيث أتى، رَمَق باب المَدرسة حيث قابل دولت آخر مَرَّة فتذكَّر الشاب المُصاب الذي استقبلته وأسندت مرفقه قبل أن تُغلِق الباب في وجهه...

تحرَّكت سَاقاه خروجًا قبل أن تناديه طَالبة التقط فضولها المُحادثة منذ جَذب ياسين ذراع الناظرة:

- يافندي.. يافندي.

لم يُعرها اهتمامًا فاقتربت منه وهَمَست: أنا أعرف مكان أبلة دولت...

قضى الأهواني ما يقرب من ثلاث ساعات في القَهوة، شَرب خمسة أكواب قهوة وأحرَق عشرين سيجَارة وهو يتابع المَارة في شرود مُحاولًا إطفاء بُركان بداخله، لم يُوقِظه سوى بائع جَرائد يَصيح، التقط جَريدة «السياسة»، تصفَّحها فتوقف عِند مَقال بعُنوان «الأُلعُبان» فوقه صُورة لسَعد باشا.. قرأ:

«سَعد الذي يريد اليوم أن يمنع جريدتنا من حضور جلسة البرلمان، هو سعد الذي بطش بالصحف حين كان وزيرًا للحقانية في عهد الخديوي؛ أما سعد الذي ظهر بين هذا وذاك.. سعد الذي كان يمجد الحرية ويدعو إلى حمايتها، فقد كان رجلًا آخر أنشأته المُعارضة حين كان مُعارضًا.. وقد ترك المُعارضة فترك معها خِصال المعارضين وعاد إلى طبيعته الأولى.. الألعبان».

بتر القراءة ونزلت عيناه على مَقال كتبته حليفة سابقة.. هُدى هانم شعراوي!! قالت فيه:

«لا يوجد خطر على القضية المِصرية أكبر من أن يتولى المفاوضات مع إنجلترا رجل يَعترف عَلانية بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل وعند توليته الحكم».

لم يقرأ بقية المقالات، قرأ ما وراءها، قرأ أن جريدة السياسة - وهي صوت القصر الملكي - حين تشن حملة على سعد زغلول فالكفَّة ستميل حتمًا مَيلًا عظيمًا، إنجليز، ملك، أصدقاء سَابقون وصُحف مُوجَّهة، كل هؤلاء في كفَّة، وفي الكفة الأخرى، ثائر سَابق، ثائر ظن يومًا أن إدارة البلاد تشبه مَائِدة المفاوضات، ساحة قتال وسجالًا نظريًا، غالبًا ومَغلوبًا، لم يعرف أن السياسة هي فن.. فن المَصلَحة.. فن الانحياز للأقوى.

نادى لمُلمع الأحذية ورفع قدمَه على صُندوقه الخشبي، اطمأن على كرافتته وشعره في مرآة تكسو عَامودًا من أعمدة القهوة قبل أن يَدفع حسابه ويرحل، رَكِب سوارس أوصلته بَيته الخالي من الرفاق والأحبة وفي رأسه فِكرة واحِدة تتضخَّم:

- سأرحل عنكِ يا مَن خَذلتِني.. يا مَن واجهتُ المَوت من أجل أرضك.. أرضك ناكرة الجميل.. لن أعود لك ما دام يَحكُمك الأشقياء.

شارع المناخ.. وَسط البلد

الهَدير كَان طَاغيًا في الفابريقة، عشرون مَاكينة سينجر تخُز الأقمشة، سِيقان ناعِمة تتحرَّك بانتظام فوق بدَّالات حديدية، وعشرون رأسًا مُطأطئون على النحور وعيون تضيق لمُتابعة الإبرات السَّريعة. مُلاحِظ الفتيات كَان يَدور في رتابة بينهن، يُشرف على إخراج الفساتين بالمواصفات اللائِقة، يَزجُر من تُخطئ ويَخصم من الماهية، ويكتفي بالصمت إذا أحسنَّ فهو واجبهن.

دولت كانت في الصف الأخير، فقدت كيلوجرامات قليلة أبرزت عِظام وجنتيها وكتفيها، شَعرها لم يعُد لطوله الذي كان قبل شهادتها مع عبد القادر، وعَيناها فقدتا بريقًا كان يُغرِقه، أميرة فرعونية تتحنَّط ببطء.

اقترب الملاحِظ مِن أذنيها ليُسمِعها من بين ضجيج الماكينات: فيه واحد مِستنيكي برَّه يا دولت.

هزَّت رأسها وأطفأت ماكينتها وخرجت، حين لمحته واقفًا لم تُصدِّق عينيها، فتحت شفتيها ولم تنبس بكلمة فابتسم واقترب، بَات على مَسافة تسمَح بتأمُّل عَينيها.. خصلة فاحمة تتسلل من تحت وشاحها الأزرق ويدين ليس فيهما دبلة ذهبية، رمقها في صمت ثم هَمَس:

- ده نفس الإيشارب اللي كنتِ بتيجي تزوريني بيه؟

هزت رأسها إيجابًا.. أردف: أنت ما عندكيش غيره ولّا إيه؟

ابتسمت: باحب اللون الأزرق.

ابتسم: اتأخرت عليكِ؟

- خرجت إمتى؟

- من يومين.. دوّرت عليكِ زي المَجنون.. ليه اختفيتِ عنّي؟

- ظروف.

- عاوزين نتكلم.

استأذنت رَب العَمل في سَاعة غِياب فقبل على مَضض.. تِراس حدق شبرد كان الأقرب إلى الفابريقة.. جلسا وسط الأثرياء وكان ظهرهما مُلفتًا.. طلب شايًا وطلبت عَصيرًا.. لم ينزل عينيه عن عينيها أمل ضوء الشمس وهو ينحني فوق وجنتيها حتى ابتسمت:

- حمد الله على سلامتك.. كان لازمته إيه المكان الغالي ده؟

- هو أنا بشوفك كل يوم؟ أنا قلت أتجوزتِ عشان كِده بطّلتِ تزوريني.

- أنا ما اتجوزتش.. الدنيا بقت صعبة.

- أنا عارف إنك سبتي المدرسة بسبب شهادتك ليا.

- بلاش نتحدث بكلام يعكنن علينا فرحة خروجك.

- أنا عاوز أسمعك.

اتخذ الأمر منها دقيقة لتتحدث:

- الدُّنيا لما بتقفل بتقفل مرَّة واحدة.. ما كنتش برضى أحكي لك في السّجن عشان ما أزودش هَمَّك.. أحمد أفندي سافر من ساعة عملية آرثر وانقطعت أخباره ييجي من سنتين.. عم إسحاق كتَّر خيره هو الوحيد اللي بيسأل عني بس كبر يا عيني والسُّكَّر أكَلُه.. ومن ساعة أحمد ما سافر عِطِل وبطل يشتغل.

- وأنتِ؟

- أنا.. شهادتي في المحكمة خلِّت المدرسة تستصدر قرار برفتي.. لفيت بوَرَقي مديريات التعليم كُلَّها ومَفيش حَد قِبِل يشغلني لغاية ما لقيت الفابريقة.. بيطلع منها ستة جنيه ونص يدوبك يكفوا الأكل وشقة إيجار مع تلات زميلات معايا.. وطبعًا المنيا ما أقدرش أهوِّبها.. ياسين أخويا اختفى من يوم التنفيذ ومش قادرة أروح البلد.

- كُل ده بسببي.

- إوعى تقول كِده.. أنا بطَّلت أزورك لمَّا حسّيت إن زيارتي ليك مش هاتبقى زيارة... مع الوقت هاتفرَّج عليك بتكبر قدَّام عيني.. تِدبل وتنحني.. وأنا كَمان هاكبر.. هانموت بالبطيء زي الزرع اللي ما بيتسقيش.. فكَّرت إن اختفائي من قدَّامك ممكن يكون أرحم.. ليك وليا.. يمكن تكرهني.. ويمكن تنساني.

- وأنتِ كمان كنتِ هاتكرهيني؟

- أنا أكرهك.. أنت ما تعرفش مَعزّتك عندي..

أمسَك يَدها واقترب: أقسم بالله يا دولت لأعوَّضِك عن كل اللي اتسببت فيه.. هانسيكي كل لحظة ألم في السنين اللي فاتت.. هاتعيشي مَعايا سُلطانة.. مش هاتشوفي وجع تاني ولا مخلوق هايمِس طرفك.

فلتت منها ابتسامة ودموع.. أردف: على فكرة وحشتني عينيكي..

- لازِم أرجع الفابريقة.. هاشوفك تاني؟

- عندي دين لازِم أسدده الأول.

- لمين؟

- لأحمد.

- هو رجِع؟

- رايح أجيبه.. لازِم يكون شاهِد على فرحنا.. هو وعم إسحاق.. هو ينفع نصراني يشهد على عقد جواز؟

ضحكت حتى بانت نواجذها.. أردف:

- أنا بحبك.. ومش قادر أنسى... البوسة اللي أخدتها وأنا في التحقيق لغاية دلوقتِ.

وضعت أصابعها أمام فمها ونظرت في عينيه:

- ولا أنا... هاتغيب؟

- أسبوع بالكتير.

في مَقابلة مُقتضبة استلم عبد القادر من عَبد الرَّحمن فهمي وَثيقة سَفر مُزورة، صَعَد على المَركب وجلس في قمرته يُراجع التعليمات التي تلقاها منه.. أحمد يزور مقهى «كبادوكيا» الذي يطل على جِسر «جلاطة» ليلة واحدة في كل أسبوع، يوم الأربعاء مِن السَّاعة التاسعة إلى العاشرة مَساءً، تلك هي وَسيلة الاتصال الوَحيدة الباقية بينه وبين المنظمة، يجب أن يصل عبد القادر في الميعاد وإلا سيضطر أن ينتظر أسبوعًا.

- طب وأنا هاعرفه إزَّاي؟ مش يمكن ما ألمحوش؟

- ما ترهقش روحك.. أحمد هو اللي هيلاقيك.

انتهى عبد القادر من المُراجعة فاطمأن على المُسدس تحت سُترته والنقود في جيبه، خَرَج بَعدها إلى سَطح المَركب وأشعل سيجَارة وهو يتأمل الرُّكَّاب، قضى دقائق قبل أن يلمح وجهًا يَعرفه يجلس فوق مقعد، منزويًا شاردًا يتابع المِياه الجَارية في حُزن، اقترب عبد القادر ووَضع يَده عَلى كتفه فالتفت مَفزوعًا.

- إيه اللي جَابك هنا يا أهواني؟!

- إيه اللي جَابك أنت هنا يا عبد القادر؟!

جلس عبد القادر بجانبه على المقعد قبل أن يستطرد:

- أنا رايح إسطنبول شُغل.. وأنت؟

- شُغل برضُه-بس في فابريكة سجاد.

- بقة هانت عليك عِشرة اللومان؟ من يوم مُصطفى النحَّاس ولا حِس ولا خَبر كِده!

- ما غيّبنيش عنّك غير الغُلب.. وما تفكرنيش باليوم ده الله يخليك آديني فايته ورايح آخر بلاد الله.

- أنت ما استلمتش الوَظيفة؟

- وظيفة!!! وظيفة إيه يا عبد القادر؟ أنت عارف كيلو اللحمة بقى بكام؟ عَاوزني أشحَت الحياة الكريمة بعد ما عِشت تسع سنين في تربة؟! عَاوزني ينتهي بيا الحال كاتب ولّا باشكاتب في بنك بعد ما شُفت المُوت عشان ناس ما تستحقش تعيش؟ أقبض تمانية جنيه شهري وعيّل مَواليد ألف وتُسعومية يقبض له بتاع أربعين جنيه!! لا يا صَاحبي.. الأهواني ما يتهانش الإهانة دي.

- أنا مقدر كلامك.. بس يعني مش مقابلة مع مسئول واحِد تخلّيك...

قاطعه الأهواني بعصبيَّة: دي مش مُقابلة.. دي السياسة الجديدة اللي هاتمشي.. الوفد بيقفّل مَلفاته القديمة وعاوز يبدأ صَفحة جديدة مع بتوع المفاوضات اللي ما بيقلعوش البِدَل الأفرنجي.. قلّة قيمة وعدم تقدير وتجاهُل لكل اللي صوابعهم اتعاصت دم.. ولّا اتقطعت! يا عبد القادر أنا لو كنت قعدت يوم كَمان كنت هاعيا.. هاموت.. أنا من بعد السجن مَاليش حَد.. لا مَرة ولا عيّل أبكي عليهم.. ودلوقتِ ولا حتى وظيفة عِدلة.. آل إيه ما تنتظرش أجر لوطنيتك.. ماشي.. آكُل أنا بقة وطنية بالدَّمعة.. وطنية بالملوخية...!

- لو صوتك وصل لسعد باشا...

قاطعه: وسعد باشا نفسه هايقع.. أنت ما بتقراش جرايد أصلك.. الهُجوم عليه سُخن.. القصر شغال له من تحت لتحت.. والإنجليز..

دي حتّى هُدى شعراوي صديقة مراته قلبوها عليه!! فوق يا صاحبي دي مسألة وقت.

شرد عبد القادر في كلماته قبل أن يسأله الأهواني: ألّا بالحق أنت كانوا عاوزين يوظّفوك إيه؟

- مُحصّل في المَالية.. تمانية جنيه برضه.. عشان كِده قلت أجرّب حَظي.

- وجودك ع المركب دا أحسن قرار أخدته.. وعُمومًا أنا فيه واحد مَعرفة مستنيني في إسطنبول.. ورزقي ورِزقك على الله يا صاحبي.

- ربنا يِكرم.

قضى عبد القادر ثلاث ليالٍ إضافية مع رفيق الزنزانة قبل أن يتوه عَنه «عنوة» في زِحام النازلين إلى الميناء.. «سامحني يا أهواني».. استأجر غُرفة في نُزل صَغيرة تطل على الجسر العتيق قبل أن يذهب في اليوم التالي في تمام التاسِعة مَساءً إلى المقهى.

«كبادوكيا» كان مَقهى واسِعًا يطل على مَضيق البوسفور الذي يعبر فوقه جسر «جلاطة» الرابط بين الجانبين الأوربي والآسيوي لتركيا، ترسو بالقرب مِنه العبَّارات التجارية ويقع أمامه مَسجد «يني كامي» العظيم ومن بعيد تظهر المآذن البديعة لمسجد «آيا صوفيا».. استقر عبد القادر على كرسي في ركن يَكشف المكان من حوله ثم رفع يَده لنادل لا يتكلم إلا التركية، بالكاد أفهمه أنه يريد شَايًا ثم أخذ يفرز الحاضرين بحثًا عن أحمد.. قَضى السَّاعة في قرض أظافره ومَسح

القادمين ومُراقبة عَقرب سَاعة معلَّقة على الحائط، يكاد يجزِم أن الوقت في تركيا يمُر ببُطء عن مصر، حين دنت العقارب من العاشرة تأكد من خطأ الحِسابات، أحمد لن يأتي، أو أنه لم يعد يأتي، كَان ذلك قبل أن يَميل عليه عَجوز جَالس بجانبه مُنذ سَاعة ويهمِس:

- إزَّيك يا عبد القادر؟

انتفض حين سمع الصوت.. رمق العجوز ذا الشعر الأبيض والذقن الكثيف والجسد النحيل المَحني.

- أحمد!!!

همس: ششش.. وطِّي صوتك.. حاسب ع المشاريب وقوم بعدي بدقيقتين.. امشي يمين على الكورنيش لغاية ما تلاقي سفينة اسمها «آرجو».. استناني عندها.

قالها العجوز وقام يرتعش، ترك نقوده على المَائدة وخرج.. تابعه عبد القادر حتى اختفى مقاومًا ضحكة تكاد تفِر من بين شفتيه.. «يا ابن القردة».. مَشى بعدها على رصيف الميناء حتى قرأ كلمة «آرجو» على جسم سفينة شحن كبيرة، وقف أمامها دقائق إضافية قبل أن يقترب منه أحمد، وقف بجانبه فهجم عليه عبد القادر احتضانًا، لم يملك أحمد سوى الابتسام، بادله الحضن ثم أردف:

- خلاص لا يفتكرونا لوَّاطين.

ابتعد عبد القادر فأشعل أحمد سيجارة وناوله واحدة:

- آخر واحِد كُنت أتوقع أشوفه في إسطنبول!

- يا ابن اللذينا!! مش مصدَّق إني قعدت جنبك سَاعة وما عِرفتكش!!

- كان لازِم أتأكّد إنك مش مَقطور.

- مين بيدوَّر عليك هنا؟

- المُخابرات الإنجليزي مِسيِّبة عليا كِلابها.. كل واحِد ماشي وصورتي في جيبه.. بغيَّر سَكني كل يُومين تلاتة بالكتير.

- عاوزين مِنك إيه ولاد الرَّفضي؟

- التار مش بس في الصَّعيد يا عبد القادر.. أنا قاتل منهم عدد.

- بس حكاية آرثر هي اللي مخلياهم سخنين عليك.

- أنا مش ندمان على أي طلقة طِلعت من مسدَّسي.

- أنا جاي عشان أرجَّعك.. معايا ورق جديد باسم جديد.

- أنا مش راجِع.

- يعني إيه مش راجِع؟

- أرجع أعمل إيه؟

- ترجع عَشان البلد.. عشان أمَّك.. عَشان ورد.

- ورد... ورد بقت راهبة يا عبد القادر.. وأمي ماتت من سنتين.

- لا إله إلا الله... البقية في حياتك... أنا...

قاطعه أحمد: أنا ما عنديش حاجة تخليني أروح للإنجليز برجلي.

- البلد لسَّة مِحتاجة وقفتك.

- اللي زيي يا عبد القادر بيبقى عَامل زي طلقة الرُّصاص.. ما ينفعش بَعد المَعركة تستخدمها في حاجة.. لازم تبات في الدولاب لغاية مَعركة جِديدة.

- المعركة ما خلصتش.

- المَعركة دلوقتي على الورق.. غَلطة إن سَعد باشا قِبِل الوزارة.. هايحطوه في قالب ويحاصروه بمَشاكِل البلد لغاية ما تتوه القضيَّة ويفقد شعبيته.. هايدمروه.. رئيس وزارة في الآخر يَعني مُستخدم من مُستخدمين المَلك.

- خَلاص.. غُربة بغُربة ترجع بَلدك باسم جديد وحياة جديدة.

- أنا هِنا عَايش مِلك نفسي.

- ولو عِتروا عليك؟

- هاسافر.. ألمانيا.. إيطاليا.. فرنسا.. أرض الله واسعة.

- المُخابرات البريطانية موجُودة في كُل حتَّة.. مستهياً لي هاتكون موجودة في الجنة كمان!

- إزَّاي عبد الرحمن بيه؟ وعم إسحاق.. ودولت؟

- كلهم بخير.. مستنيينك.. ودولت.. أول ما أرجع هاكتب كتابي عليها.

- ربنا يوفقك يا عبد القادر.. خد بالك منها.. البت دي بميت راجل.

- ما تاخُدنيش في دوكة يا أحمد.. أنت لازمن ترجع معايا.

ساد الصمت قبل أن يُردِف أحمد: سِيبني أفكَّر.. وبكرة نتقابل في نفس الوقت في نفس المكان.

- وبَعدين رَهبنة إيه اللي رايحة تشتغلها البت دي! ده كلام ما يخُشش عَقل.. اسألني أنا نجّار حَريم.. البت اللي ما تلاقيش راجل يشاغلها تفرُك زي المِعزة الحرنانة.. وبعدين تعمل مشغولة.. يا ترمي بقة على مُظاهرات وإشي استقلال وماستقلالش.. يا تحبس نفسها في دير ولَّا في قلاية وتعمِل فيها سانت كاترين.. عارف البت دي بمجرد ما تشوفك هـ...

قطع عبد القادر كلامه حين نظر بجانبه فوجد الرصيف خاليًا.. رحل أحمد ولم يشعُر به فوضع يديه في جيبيه وقفل عائدًا للنُّزُل.



نُزُل قَريب

دَلَف من الباب الكبير فالتقط المفتاح من صَاحبة الفندق قبل أن يَصعَد السَّلالم، في الدور الثالث فتح بَاب غرفته ففوجئ بالإنجليزي يَصُب الشاي السَّاخِن من الإبريق إلى كوبين فارغين، تيبَّس للحظات قبل أن يُغلِق الباب وراءه:

- كم ملعقة سُكَّر؟

أجابه بالإنجليزية: ثلاث ملاعِق.

نظر إليه الإنجليزي ثم ابتسم: ما لك تنظُر لي كأنك ترى شبحًا؟

- ... أنا فقط... تفاجأت.

- هل رأيته؟

- ... نعم.

لَمِعت عينا الإنجليزي فاقترب.. ناوله كوب الشاي ثم سأل: هل أنت متأكِّد؟

- نعم.. رغم تنكره لكنني لا أخطئ صديق عُمَر.

- أين رأيته؟

- في مقهى «كبادوكيا» القريب من الجسر.

- التقى بعبد القادر؟

- نعم.

- هل تتبَّعته لتعرف أين يَسكُن؟

- لم أستطع مُجاراته.. أحمد سَريع الاختفاء ومُدرَّب على كشف المُراقبة.

رمقه الإنجليزي بغضب: لا بُد أنك تمزح.. ذهبت إلى المَكتب رقم خَمسة[1] وطلبت مُكافأة عَشرة آلاف جنيه وجِئت بنا مِن القاهرة مُدعيًا أنك تملك مَعلومة عَن أحمد كيرة ثم تفقد أثره بتلك البساطة!!

- عبد القادر دفع أجر ثلاث ليالٍ مقدَّمًا في النُّزل المجاور.. لقد سألت.. هم يحضِّران لعملية كبيرة.. أحمَد سيعود غدًا.. وعيناي لن تُفارقا عبد القادر حتى يَلقاه.

---

(١) مبنى المخابرات البريطانية، وكان يقع في منطقة جاردن سيتي بالقاهرة.

- وإذا لم يلقاه؟

- لن آخذ الأموال التي طلبتها.

- هـذا أمر مَفروغ منـه.. وتذكَّر.. لن تكون مشكلتك الوحيدة عدم تحصيل أموالك.

ارتشف الإنجليـزي آخـر كُوبه وتركه علـى المنضدة بوقـع عالٍ ثم اتجه إلى الباب وفتحه قبل أن يتوقف ويلتفت:

- قـل لـي يا أهوانـي.. لِماذا كيرة؟ لقد ذكرت أنه كان صديق عُمُر!

رفـع الأهوانـي كفًّا فيها أربع أصابـع وإبهام مقطوعـة: لأنه مِثلهم.. نسيني في الظلام ونَعِم بالحياة وَحدَه.



في السَّابعة مَساءً انفتح باب الفابريقة فخَرَجَت الفتيات من الأَسْر، مُتدثرات بجرائد وأوشحة تقي رءوسهن مَطرًا لم يتوقف منذ نِصف ساعة، بينهن خرَجت دولت تلتحِف وشاحها الأزرق، نظرت إلى يَسارها تبتغي عَربة سَوارس أو حنطورًا يُوصلها شقَّتها قبل أن تلمح على الرصيف المُقابل شبحًا، شبحًا وقف في مَكانه منذ بدأ المطر، التصق جِلبابه بهزاله فبرزت عِظامه وغارت عيناه فلم يعد فيهما بياض، تيبست حين رأته، كما تتيبس الفراشات أمام النار تظنها ضوءًا، لم يُمهلها وقتًا، مرَّت بينهما عربة حنطور فوجدته أمامها...

- ياسين!

لم يجبها.. مَد كفًّا مَعروقة إلى عَضدها فقبض عليه.. تألمت. نظرت في عَينيه:

- ياسين...!!

أجابها بسِكين حَاد أخرج نِصفه من جَيب سيَّالته ثم أشار إلى حنطور قادِم.. توقف فدفعها برفق.. جَلَسَت على الكنبة الخلفية في ذهول وجلس بجانبها.. قال للسائس:

- مَحطَّة الجطر.

ترجرج القطار بهما حتى المنيا.. نزلا فأركبها حِمارًا استأجره ومَشى بجَانبها يَسحَب مقوده ويتكئ على عَصا جافة.. أرض وَعِرة سلكها ياسين ابتعادًا عن الأعين.. رِحلة قاسية وقف فيها مَرّة واحِدة تحت ظِل شجرة جميز ليُريح الحِمار.. هناك بدأت تتحدّث.. أقسمَتْ إنها عذراء.. طَاهرة نقية بلا دَنس.. وإن ما قالته في التحقيق كَان من أجل إنقاذ رَجل من الموت.. اتهمها بالعشق فأقسمت بالنفي.. ثم حَكَت ثانية فلم تخترق كلماتها الطين المَالئ أذنيه.. أصم لم يلتفت.. لم ينفعِل.. ولمَّا أراد أن يُسكِتها أوقف حِماره وجَذبها من ذراعها لتركبه.. جرت منه مُحاوِلة الفرار فركض وَراءها.. أسقطها أرضًا وكمَّم فمها قبل أن يَضربها في مَعدتها ضَربة ثنت جذعها ألمًا وأخرست صرختها.. أوثق يَديها بحَبل الحِمار ثم حَمَلها ووَضعها فوقه دَامية الشفتين وجذب وشاحها الأزرق ليغطِّي وجهها.. دَخلا أبشاق الغزال مع نسمَات الفجر فرفع الفلاحون أيديهم من الطين ليشهدوا المشهد الغريب.. المَيِّت الحَي عَائد ومَعه سيدة فوق حِمار.. اقترب من أرضه فأنزلها.. جرَّها جرًّا إلى الزريبة وأوثقها إلى مِزود أغنام قبل أن يُغلق الباب.. في باحة المنزل كانت أمه جالسة على الأرض.. جلس بجانبها في صمت قبل أن يهمس: دَولت في الزريبة.

بدهشة سألته: دولت عادت!! في الزريبة!!! ليش؟!! عملت إيه يا ياسين؟؟؟ إنطج!!!

- فَجرت.. عِشجِت.. فضيحتها في مصر على كل لسان.

بهتت المرأة.. انسَحبت الألوان من وَجهها.. ارتعشت شفتاها ثم خبطت رأسها بيديها قبل أن تقف.. نظرت لشعاع الشمس المتسلل من

بين سَعف النخيل المتراص في السقف.. دقائق.. قبل أن تدخل غرفتها ثم تعود بسكين مشحوذ.. التقطت يَد ياسين ووضعته فيه بحزم مقاومة أمومة تتحجّر وأسَى يتوغّل في شغاف القلب.

خرج ياسين مِن الزريبة يجُر دولت ومن ورائهما أمُّه.. تسير حَافية على بُعد أمتار من ابنَي رَحمها.. ابتعدا حتى الجِهة الغربية حيث المَقابر المهجورة التي لعبا فيها صِغارًا.. حيث تماثيل المَساخيط التي تخافها دولت.. ألقاها ياسين على الأرض مكمومة الفم مَكتوفة اليدين والرجلين.. ترمق أمَّها الواقفة على بُعد في فزع وتضرُّع.. تصرخ بلا صوت يُسمع.. ثم تنظر إلى ياسين الذي يَضرب بفأسه الأرض مبعثرًا التراب.. يَصنع حُفرة كبيرة.. حُفرة تكفيها.. دقائق وتوقَّف.. تحجَّر.. اقتربت أمُّه فنظرت إليها دولت في استغاثة.. لم تلتفت.. نظرت إلى ياسين قبل أن تصفعه صفعة مدوية:

- خلِّيك راجل.. اغسل عارك.

تلقَّى ياسين الأمر فجمُدت عَيناه.. جمُدت كما جمدت من قبل أمام رءوس أقرانه.. نظر لأمّه ثواني قبل أن يُزيحها جَانبًا.. انحنى على دولت فمزَّق وشاحها الأزرق.. جذبها من شعرها وقرَّبها من حافة الحُفرة.. طرحها على وجهها وغرز قدمه في منتصف ظهرها ليمنعها من الحركة.. دَارت برأسها فرأته يستل سكينًا فنظرت لأمّها التي رَكعَت على الأرض في ترقب.. بحثت عن النظرة التي كانت تقابلها بها حين كانت تجري إلى حضنها خوفًا من تماثيل المساخيط فلم تجدها.. أغمضت عينيها وكفَّت عن المقاومة في اللحظة التي قبض فيها ياسين على مُقدِّمة شعر رأسها.. جذبه فأوجعها.. قبل أن يمرر السكين على

رقبتها ليشقها.. نَحَرَها.. اختلطت الدماء بالتراب قبل أن تخبو هينا دَولت وتنطفئ حَركتها.. ارتخت بين يَديه كدُمية قطنية فحرر شعرها الفاحم من بين أصابعه ووقع النصل منه.. تابع أصابع أخته التي تبث ارتجافات خافتة ثم التفت لأمّه فوجدها جاثية كما هي لا تتحرَّك وفي عينيها خواء وعدم.. نظر في الفراغ حتى سالت ريالته قبل أن تنزل قدماه في الحفرة التي حفرها.. غاص في الوحل الممزوج بالدم.. ركع.. ثم تكوّم كالجنين.



في اليوم التالي جَلَس عبد القادر في مَقهى «كابادوكيا» كما اتُّفِق، طَلَب شَايًا وأشعل سيجَارة حين مرّ به بائع جائل.. أشار إليه أن يقترب.. عَاين ما مَعه من بضاعة حتى التقط وشاحًا أزرق وخَاتمًا فضيًّا يُحيط حَجرًا فيروزيًّا.. تذكَّر حُب دولت للأزرق فاشتراهما واشترى من أجلهما علبة خشبية منقوشة.

بِنصف سَاعة حتَّى أشار له بحّار أن يتبعه، مَشى وراءه إلى جسر جَلاطة قبل أن يتخلل صُفوف الحناطير المُتراصة ليهبطا بقُرب ضِفاف البوسفور حيث أكشاك بيع الأسماك المغلقة ومَراكب النقل الصّغيرة التي تتمايل فوق المياه الهادئة.

- فكّرت يا أحمد؟

أخرج أحمَد من جَيبه ظرفًا أبيض مُغلقًا يَحوي ورقة وشيئًا صلبًا لم يميزه عبد القادر حين وُضِع في كفِّه.

- إيه ده؟ سأل عبد القادر.

- دي رسالة عاوزك توصَّلها لورد.

- ورد!!

- عنوانها مَكتوب في ضهر الظَّرف.

- دي... رسالة وداع؟

سَكَت أحمد للحظات قبل أن يُردِف: وُصول الجواب ده هايفرق معايا كتير يا عبد القادر.

- ارجع مَعايا وادِّيها الجواب بنفسك يا أحمد.

- لو رِجعت مش هايكون مَعاك.. وُجودنا مع بعض هايعرضنا إحنا الاتنين للخطر.. عُيون الإنجليز في كُل المخارج.

- خلاص.. نسافر كل واحِد لوحده.

- سيب لي أوراق الهوية الجديدة وأنا لمَّا أنوي هاتصرف.

- ده آخر كلام؟

- وَصَّل الرِّسالة لورد ما تنساش.

سَاد الصَّمت للحَظات.. دسَّ عبد القادر الرِّسالة في جَيبه لما لم يجد ما يُقال وأشعل سيجارة.. كان يعرف عناد أحمد.. لن يستجيب لإلحاح إذا ما قرَّرت نفسه أمرًا.. تمنَّى لو يَستطيع خَطفه وإلقاءه في مَركب يُجدِّف به من البوسفور حتى شواطئ مِصر.. مصر التي لم يعُد لصديقه فيها أحد!

- وَحشتني يا صَاحبي.

لم يكن ذلك عبد القادر.. أو أحمد.. الصَّوت كان آتيًا من خلفهما.. بحَرَكة لاإرادية حَررا مُسدسيهما والتفتا خلفهما.. رَفَع نجيب الأهواني ذِراعيه في توتر:

- صَلُّواعَ اللي هايشفع فيكم.

صَاح عبد القادر: نَجِيب!!! إيه اللي جَابك هِنا؟؟

احتاج أحمد لحظات ليستوعِب الشبح الماثل أمامه.. شَبَحًا لم يَرَه منذ تِسع سِنين.

- أهواني!

- بقى بعد تِسع سِنين تبقى دي المُقابلة؟ مَا تقول حَاجة يا عبد القادر...

أرخَى عبد القادر مُسدَّسه ثم نظر إلى أحمد: ما لِحقتش أحكي لك إمبارح إننا تقابلنا في السِّجن.. حَكَى لي عن صداقتكما القديمة..

لم يُنزِل أحمد مسدَّسه: بتعمل إيه هِنا يا نجيب؟

- هاتتكلم وأنت مرفَّعني كِده؟ مش كفاية قطعت زيارة.. الدنيا تلاهي فعلًا.

كاد أحمد أن ينزل مسدَّسه حين شعر بحَرَكة بَعيدة.. التفت حَوله فلَمَح عن يمينه رَجلين وعَن شِماله ثلاثة يَسدُّون من بَعيد طريق الهُروب.. بغَضَب رمق الأهواني الذي أردف بهدوء: أنا جاي عشان أساعدك يا صاحبي.

- تساعدني؟ ولّا تسلّمني؟

رفع عبد القادر مسدَّسه ثانية: يا ابن الوسخة...!

حدجه الأهواني بغَضَب: حافظ على ألفاظك يا عبد القادر.

ثم التفت إلى أحمد: نزِّل سلاحك واعقل.. خلينا نفكَّر بهدوء.

نَظر أحمَد للمُحاصِرين قبل أن يُرخي سِلاحه بجانبه.. اقترب الأهواني.

- في سُورة الكهف.. ليه العبد الصَّالِح خرق السفينة قدام موسى؟ عشان المَلك ما يصَادِرهاش.. وليه قتل الواد الصُّغيَّر؟ عَشان كان هايكبر.. ويطلع دين أم أبوه وأمه.. القدر يا صَاحبي صَعب يشرح أفعاله.. والناس متعوِّدة لو ما فهمتش في سَاعتها.. تزرجن.. أنا طول عمري براهن على ذكائك.

- وأنت بقة العبد الصَّالِح؟ ولّا القدر؟

- أنا جيت عشان أنقذ صَاحب من مَصير اسود مستنيه.. زي ما أنقذتك من تسع سنين وما جبتش سيرتك في تحقيقات القضية.. ولّا نسيت؟

- قبضت كام يا أهواني؟ سأل أحمد.

طأطأ الأهواني رأسه إلى الأرض في صمت.. ابتسم قبل أن يضحك.. ثم هدأ: عَشر تلاف جنيه.. تعويض عن سنين طُرة يا صاحبي.

زفر عبد القادر بعَصبيَّة مَكتومة: يا ابن الوسخة..!!

اقترب منه الأهواني حتَّى بات على مَسافة سنتيمترات من وَجهه:

- عبد القادر... مش عارف أحمد اختارك إزَّاي عشان تكون واحد من اليد السودا!! اسمع واتعلِّم.. صاحبنا العزيز مَطلوب حيّ أو ميِّت.. ومع مخابرات بريطانية مَسألة وقت لغاية ما يعرفوا مكانه.. أنا أقنعتهم نمشيها حي.. يقضِّي له كام سنة في السجن ويخرج صاغ سليم.. قَرْصة ودن.. ومش عيب ألهف من الكفَّار فلوس طالما باحافظ على صَاحبي.. أما بالنسبة لك أنت فأنا متأكد إنَّك مش مطلوب.. لكن طلقة بتلاتة صاغ مش هاتفرق مع اللي هناك دول.. مَاشي يا عبد القادر؟

لم يجب عبد القادر سؤاله.. فقط رَجع خُطوة ثم صَكَّ فكَّيه بلكمة صاعِدة أسقطته أرضًا.

وانهمر الرَّصاص ناحيتهما من كل صَوب.

جَرى كُل مِنهما عَكس اتجاه الآخر لتشتيت المُهاجمين قبل أن يُصاب عبد القادر بطلقة في كتفه.. تحَامل حتى استتر وراء مَركب راسٍ وجذب زناد مسدَّسه في اللحظة التي تزحلق فيها أحمد خلف كشك أسماك مُغلق.. أفاق الأهواني من لكمة عبد القادر فزحَف على بَطنه مُتقيًا الرصاص قبل أن يستتر وراء مَركب عَريض مربوط بحبل إلى عامود.. اقترب المُهاجمون ببُطء يضيِّقون الدائرة.. اثنان من ناحية عبد القادر وثلاثة يطوقون موقع أحمد الذي خرَج بغتة وأطلق على أقربهم رَصاصة أصابت مَعدته فسقط.. استغل أحمد المفاجأة وضَرب المَصابيح الغازية القريبة وكذلك فعل عبد القادر حتى أعتمت الدائرة

التي تحتويهم.. سادت الظلمة فتحرك عبد القادر زحفًا مُغيرًا مَكانه إلى ما وراء مَركب آخر.. بعينين جاحظتين عَبَر الإنجليزي الأول بقُربه فصَرَعه عبد القادر بطلقة استقرَّت في رأسه قبل أن يُباغت الثاني بواحِدة أخطأته ولضيق المَسَافة انقض عليه فأوقعه أرضًا.. غَرز الإنجليزي أصَابعه في جرح عبد القادر فصَرَخ بألم قبل أن يلتفّ ويجثم فوقه. قبض على عنقه ودفعه حتَّى انغرز رأسه في الوحل.. أذنيه.. وجنتيه. عَينيه.. يقاوم الاختناق بذراع واحِدة.. ثم استخرج الإنجليزي سِكينًا مَربوطًا في حزامه.. رفعه ليهوي به على عُنق عبد القادر الذي تلقى الضربة بين أصابعه قبل أن يَضرب ظَهر الإنجليزي بركبته.. ثلاث ضَربات حرَّرت الأخيرة عُنقه قبل أن يلتقط حَجرًا ويضرب به وجهه.. تلقى الإنجليزي الخبطة فوقع جانبًا.. اعتدل عبد القادر وثبَّت اليد المُمسكة بالسكين ثم تحامل على الذراع المصابة وهوى بالحجر على رأس الإنجليزي.. ضربتين أصدر من بعدهما خوارًا خفت مع الضربة الثالثة قبل أن يسقط عبد القادر بجانبه في إعياء.

قبلها بدقيقة اقترب الإنجليزيان المتبقيان من الكشك الذي يستتر خلفه أحمد.. طوقاه يَمينًا ويَسارًا في كَمَّاشة مُحكمة قبل أن يتلقى الأول رَصاصة من أعلى الكشك حيث صَعد أحمد.. انفجر رأسه فسقط قبل أن يَضغط أحمد زناده تجاه الآخر.. أصدر المُسدس تكَّة فراغ الخزنة قبل أن يتلقى رَصاصة في ساقه من الإنجليزي المتبقي.. وقع على سطح الكشك فضرب الإنجليزي باب الكشك بقدمه.. دخل ورفع مُسدسه إلى السقف الخَشَبي وأطلق عِدَّة أعيرة في أمَاكن مُتفرقة حتى تلقى صَمتًا.. لحظات وانغرزت حربة صيد في رقبة الإنجليزي..

جحظت عَيناه اللتان رأتا وجه أحمد للحظة قبل أن يَسقط بجانب قدميه جُثَّة هامدة.. تحَامل أحمد وخرج من الكشك الخشبي.. بحث عن عبد القادر حتى رآه يقوم من فوق جثَّة مهشَّمة الجمجمة ويلقي بحَجر مُضرج بالدِّماء بجانبه.. بَحَث بعينيه عن الأهواني حتى لَمَح آثار زحفه على الطين.. ناحية المركب المربوط.. ألقى الحربة والتقط مُسدس الإنجليزي الذي انفجر رأسه واقترب بحذر يتحامل على جراحه حتى بَات قرب المَركب.

-نجيب...

نادى أحمد ولم يتلق إجابة فنادى ثانية حين صاح عبد القادر من بعيد: أحماااااد.

كان ذلك قبل أن يتلقى أحمد طعنة نافذة.. سِكين اخترق أسفل الضلوع اليسرى ونفذت إلى الطحال.. لم يصرخ.. فقط أنَّ في خفوت واستدار.. دَار السِّكين نصف دورة ثم خرج ليسمح للهواء بالدخول.. قبض على عَضد الأهواني الذي استمسك بفوهة مُسدس أحمد ثم جَذبه بمقاومة تهِنُ حتى انتزعه.. ششششش.. همس في أذن أحمد الذي سقط على رُكبتيه.. نَظَر للأهواني في عَينيه غير مصدِّق ثم هوى على الأرض.. انغرز خدُّه في الطين حين صَرخ عبد القادر من بعيد: لأاااا.. أحمد... جَرَى ناحية الأهواني شاهرًا سكين الإنجليزي في يَده فرَفَع الأهواني مُسدسه بالكف ناقصة الإبهام وأسندها باليَد الأخرى ثم صَوَّب.. حين اقترب عبد القادر لمسافة لا تسمح بالخطأ، أطلق رَصاصة.. أصابت أعلى صدر عبد القادر تحت الترقوة.. ارتد إلى الوراء بألم قبل أن يتمَالك نفسه ويتقدم ثانية.. تلقى واحِدة أخرى في

كتفه الأخرى فارتد ووقع على رُكبته... ثم قام.. ضَغط الأهواني الزناد ثانية فسَمِع تكَّة فراغ.. ثم تكَّة.. قبل أن يتلقى في رقبته نَصلًا مزَّق وريد الرقبة الشُّباتي وانغرز في عِظام الرَّقبة.. نظر عبد القادر في عينيه حتى توقفت الرَّعشة.. ثم هَوَى الأهواني بجانبه كالحَجر.. فانكفأ عبد القادر على صَديقه:

- أحمد.. أحمد!

نظر إليه أحمد ثم أردف: أنا مش عاوز أموت.

- ساعدني.. قوم معايا.

التقط عبد القادر جلبة قادمة فقام بصُعوبة وانحنى على أحمد.. التقط ذراعه ثم شهق وحَمَله.. أصدر الاثنان صَرخة هائلة قبل أن يَستوي أحمد على كتفه.. مشى به أمتارًا ينَظر ناحية الساحل المقابل بحثًا عن مخرَج قبل أن يَضَع أحمد في قارِب دفعه إلى المِياه وقفز.. قطع جُزءًا من قميصه كَبَسَه على جرح أحمد وأمره أن يضغط عليه ثم التقط مِجدافًا ضَرَب به المياه حتَّى ابتعدا عن الشاطئ ببطء.

- اثبت يا أحمد.

نظر له أحمد بوَهَن ولم يُعقِّب.

- الشط قرَّب.. اثبت.

بذراع واحِدة جدَّف.. بصَدر مَثقوب تنفَّس.. في رُبع مضيق البوسفور الواسِع شَعَر عبد القادر بالإجهاد ومَبادئ هُبوط في الدورة الدَّموية.. توقف للحظات ليلتقط أنفاسه.. تأمل نزيفه الذي اختلط بدماء

أحمد التي زحفت حتى قدميه.. نظر إلى صديقه ثم ناداه.. مرَّة ثم مرَّة.. لم يستجِب فترك المِجداف وقام.. هزَّ جسده.. ضرب وجنتيه بهلع.. برودة.. ارتخاء.. زرقة تعلو البشرة.. بلَّل يَده في المياه ومَسح شعر أحمد ووجهه: أحمد! أحمد!!! بكى.. اختلطت المياه المالحة على وجه أحمد بدموعه.. أحمد!!!! وَضَع أذنه على القلب فسَمِع خواءً.. نظر في العَينين المُتيبستين ينتظرهما أن يَرمشا.. أن يلمعا مثلما كانتا تلمعان.... تسلل اليقين إليه بالوفاة فأجهش.. نَحَب.. تشنَّجَ.. احتضن أحمد قبل أن يصرخ في عَويل طويل مزَّق حنجرته وسكون الليل.

أسبل عينَي صَديقه ثم استلقى بِجانبه واحتضنه.

في مَركب لن تأخذهما من البوسفور حتى شواطئ مِصر.

بعد يومين

٨:٢٤ صباحًا.. قصر عابدين

تخللت الشمس أفرع الأشجار حتَّى سقطت على كُشك المُوسيقى المُواجِه لحمَّام السَّباحة الكَبير، نِصف دَائرة من الأعمِدة الرُّخامية في طَرفيها بُرجان يظللان نافورتين، في المُنتصف حَوض زهور يحوي نباتات نادرة تقف وراءه «فينوس» إلهة الجمال عِند الإغريق، تمثال بالحجم الطبيعي يظنه خدَم القَصر لعَشيقة من عشيقات الملك فؤاد. قطع ذراعيها من العَضد حين اكتشف خيانتها، ثم خلَّدها لحُزنه عليها!

لحن «Poco Allegretto» لبرامز كَان ينساب مِن فونوغراف نُحاسي وُضِع في الجانب الأيسَر من الكُشك، أسطوانة تسمعها يَوميًّا نازلي الجَالسة بجانب الملك خلف مِنضدة تحمل شاي الصَّباح في فنجانين منقوش فوقهما حرف «F» ذهبي، يُدخِّن غليونه وهو يُطالع جرائد اليوم، وتضرب الهَواء بمَروحة ريشية وهي تتصفَّح مجلة موضة فرنسية وترفع عينيها كل بضع ثوانٍ لتراقب المُربيات اللاتي يُلاطِفن الأمير الصَّغير فاروق وأخته الوسطى فوزيَّة قرب حمَّام السِّباحة والمُصوِّر الذي ينحني ليلتقِط لهما صورة تذكارية، أمَّا آخر العنقود فايزة فتنام بجَانبها عَلى كُرسي هزاز مَنقوش بالمَلائِكة والطيور ومُغطى بناموسية حَريرية.

مِن بَعيد اقترب رجل من أفراد السكرتارية، يَحمِل في يَده مَلفًا أصفر مُغلقًا، اقترب من الكشك ثم توقف قبل أن يُشير إليه فؤاد بعد دقائق أن يقترب، صَعد الرَّجل السلالِم في خشوع قبل أن ينحني ويضع الملف بجانب الملك:

- جلالتك.. نشرة الداخلية.

قالها الرجل ثم رَجع خُطوتين إلى الوراء فأشار إليه فؤاد أن ينصرف، فتح ختم التقرير وأخرج الأوراق المَكتوبة بخط كبير ليستطيع قراءتها، دَارت عَيناه في الورقة الأولى قبل أن يضحك ثم قال بالفرنسية:

- أعتقد أن صديقنا سَعد يحتاج أن يقرأ ذلك الخبر القادِم من الهِند.

دون أن ترفع عَينيها عن المجلَّة سألت: أي خَبر؟

قرأ فؤاد: «غاندي يَدخل فِي صِيام عن الطعام لمدَّة واحد وعشرين يَومًا تطهيرًا لنفسه واستعادة لقوَّته في التعامل مع الشعب».

- الهندي بدأ يصوم من أجل استعادة قوَّته.. بداية الإفلاس السياسي.. لا أعرف أيهما يقلِّد الآخر سعد أم غاندي.. لكنهما حتمًا سيفشلان في النهاية.

لم تُعقِّب نازلي، فقط ازدادت سُرعة اهتزاز ساقيها فوَضع فؤاد الورقة على المنضدة بينهما وأكمل قراءة تقريره، أنهى الورقة الثانية فوضعها فوق الأولى، نظرت إليها نازلي فلَمَحَت عنوانها، مُلخص مقال يُهاجم الوزارة بقلم طه حسين، عَبث الهواء بالورقة فكادت أن تطير قبل أن يَضع فؤاد فوقها ورقة ثالثة تحمل عبارة مُقتضبة:

«تم تأكيد مَقتل الشقي «أحمد عبد الحي كيرة» في إسطنبول.. عُثِر على جُثته في قارب على ضِفاف البوسفور وتم دفنه في مَقابر القديس «هاكوب» للأرمن لعدم تعرُّف السُلطات على هويته».

توقفت المروحة ووقع فنجان الشَّاي.. انكسر بصوت لم تسمعه.. فقط موسيقى برامز التي تذكَّرها بليلة قصر البارون ظلَّت تعلو وتعلو حتى باتت كالرعد.. نظر إليها فؤاد فلمح ذقنًا يرتعش وعينين مُحتقنتين.. هز رأسه في استخفاف وأكمل القراءة قبل أن تقوم لتنزِل السلالم بخطوات سريعة وتسير بين الأشجار مبتعدة.. تضم بين أصابعها سلسلة تحمل حرف «N».



بعد شهر.. وسط البلد

تحت قُبَّعته احتمى من الشمس، ومن الناس، يَسير ببطء متوكئًا على عَصا تخفِّف من العَرج الواضِح في خطواته، عصا كانت يومًا نبوتًا قبل أن يشذب أطرافها، يمسك في يده علبة خشبية ملفوفة بشريط أزرق، اقترب من الفابريقة وقرَع الجَرس ففتحت له سيِّدة.

- آنسة دَولت مَوجودة؟

- دولت بقى لها أزيد من شهر ما بتجيش.

بقلق سألها: عيَّانة؟

- لأ.. سابت شقتها كمان.

- سافرت البلد؟

- صاحب الفابريقة سافر وسأل عنها.. أهلها بيقولوا إنها ما جاتش من أربع سنين.

- يعني إيه؟ بلَّغتوا البوليس؟

- عملنا بلاغ ومفيش رد.

- ...!!! طيب.. مُتشكِّر.

همَّ بالرحيل قبل أن يستدرك الفتاة: «من فضلك».. أخرج من جَيبه قلمًا وورقة أسندها على راحته وكتب رقمًا:

- ده رقم تليفون القهوة اللي باقعُد فيها.. اسمها متاتيا.. لو ظَهَرِت بلَّغيها تِكلمني.. ضروري لو سمحتِ.

أغلقت الباب فتيبَّس للحظات محاولًا استيعاب اختفاء دولت ثم أوقف عَربة سَوارس، جَلس عَلى المِقعد الخشبي شاردًا يَسترجِع صَحوته في عرض البوسفور، على المركب، تجديفه اليائس، بكاءه حين اضطر إلى ترك جُثَّة أحمد في القارب، الرجل الطيب الذي التقطه من الشط وأوصله إلى طبيب داوى جراحه ولم يُبلِغ السلطات عنه تعاطفًا حين عرف أنه مِصري، قضَى في عِيادته خمسة أيام حتى ذَهبت الحُمَّى عنه ثم أخبره الطبيب بسر تعاطُفه، فهو أرمني مُتخفٍّ هو الآخر من الأتراك من بعد المذابح.. مَا إن هَدأت حَركة البوليس وعيون الإنجليز حتى أقرضه الطبيب مَبلغًا رَكِب به مَركبًا حتى قبرص، ثم مر بميناء صيدا بسوريا قبل أن يصل إلى ميناء دمياط بمصر.

أفاق عبد القادر من غفلته حين صَاح سائق العَربة: «عِماد الدين يا أفندية» تمشَّى حتى العنوان المَكتوب خلف الظرف الأبيض،

«الجمعية الخيرية الأرمنية»، دَلَف إلى الساحة يتأمل جُمُوع الجائعين وطالبي الإعانة الواقفين في طوابير لا تنتهي، كانت تقف مع زميلتيها خلف المائدة، اقترب حتى رأته، رَمَقته بقلق قبل أن تخلعَ المَريلة التي ترتديها وتقترب إلى أن صَارت أمامه، تأملته للحظات ثم تكلمت:

- أحمد.. وينه؟

فتح عبد القادر شفتيه ولم يتكلَّم، ثم أخرج الظَّرف الأبيض المُغلق، مُتَّسِخًا من مَاء المضيق وطين شاطئه كما هو لم يحاول أن يفتحه، وَضَعه في راحة يَدها ثم استدار راحِلًا، رَمَقته بتوتر حتى اختفى ثم فتحت الظَّرف المُهترئ، في رَاحة يدها أفرغته، قلادة تحمل أيقونة مستديرة عليها نقش لصورة «كاترينا فون بورا» زوجة «مَارتن لوثر»، الرَّاهب الألماني الذي طالب بإصلاح الكنيسة واعترض على فكرة صكوك الغفران، كانت كاترينا راهبة آمنت بفكرته فهربت من الدير ثائرة، قبل أن تتزوجه.

رمقت القلادة باستغراب ثم فتَحت الورقة.. كان مكتوبًا فيها كلمتان فقط:

«الحياة قصيرة»

- استمرت وَزارة سَعد زغلول لسَنة واحِدة فقط، استقال في ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ بَعد حادثة اغتيال سِير «لي ستاك» سِردار الجَيش المِصري وحَاكم السودان على يَد أفراد مُنشقِّين من جَماعة «اليَد السوداء» اعتراضًا على العُقوبات المُجحِفة التي وقَّعها الاحتلال على مِصر.. قال سعد وقتها:

«إن هذه الجريمة قد أصابت مِصر، وأصابتني شَخصِيًا».

- قضت تلك الحادثة على آمال الأمَّة في الاستقلال الحقيقي وساهمت في إعادة إحكام قبضة الإنجليز على البلاد.

- مَات سَعد زغلول في ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢٧.

- أسس عبد الرحمن فهمي أول اتحاد للنقابات في مصر قبل أن يُسجن ثانية في قضية مقتل السردار.. خرج من السِّجن مَريضًا فاعتزل الحياة السياسية والنقابية، فانهار اتحاد العمال ليرثه الانتهازيون، ثم اهتزت مَكانته كثيرًا بعدما حدثت وقيعة بينه وبين سعد زغلول أسفرت عن انشقاقه عن الوفد.

- مَات عبد الرحمن فهمي عام ١٩٤٦ بعد أن عاش سنينًا في طي النسيان.

- عَاشت الملكة نازلي حَبيسة جدران الحَرَملِك حتى تُوفِّي المَلك فؤاد في عام ١٩٣٦.

- تولى الأمير فاروق الحُكم من بعد أبيه فانطلقت نازلي إلى الحَيَاة تبتغي حَصَاد ما حُرِمت منه خلال زواجها الذي استمر سبعة عشر عامًا مِما وسَّع الهوَّة بينها وبَين ابنها فاروق بسبب تصرفاتها الطائِشة الغريبة.

- حَاول المَلك فـاروق كَبح جِمـاح نـزوات أمّه قبل أن يكتشـف زواجها السري برئيس دِيوانه أحمد حسنين باشا.

- توفي أحمـد حسنين باشـا في حـادث سيارة سـنة ١٩٤٦ فلم تطِق نازلي البقاء في مصر، سَـافرت مع ابنتيهـا فايقة وفتحية إلى الولايـات المتحدة الأمريكية حيث ازدادت جنونًا وعِنادًا، طَلب فـاروق منهـا الرجوع أكثر من مـرّة فرَفَضت، قبـل أن يحجُر على أموالها ثم يُصدِر قرارًا مَلكيًّا بتجريدها مِن لقب المَلِكة الأم.

- اعتنقـت نازلي المسـيحية ثـم توفيت في مايو من عـام ١٩٧٨ في لوس أنجلوس بأمريكا عن عُمر يناهز ٨٤ عامًا.

- عـاش عبد القـادر شـحاتة حتَّى عَاصَر جَـلاء الإنجليـز عن مِصر سنة ١٩٥٤ ولم ينسَ يومًا دولت.. أو يعرف مَصيرها.

- لسنين طويلـة انتظـرت ورد ظهـور أحمـد.. تركـت الرهبنـة في مُنتصف الثلاثينيات قبل أن تُغادِر مِصر إلى مكان غير مَعلوم.

- مقبـرة «القديس يعقـوب» التي دُفِن فيها جسـد أحمـد عبد الحي كبيرة تـم هدمها عام ١٩٢٨ وأقيـم على أنقاضها ميدان «تقسيم» الشهير بإسطنبول.

النهاية

شكر خاص

فاطمة الزهراء زكي.

مُصطفى عبيد.

حسن كمال.

لينا النابلسي.

هيرانت ميناس.

موفق بيومي.

شيرين راشد.

مي مراد.

مروان حامد.

نرمين نعمان.

رشا محمد.

محمد السيد.

محمود حسيب.

رِهام راضي.

إيمان أسامة.